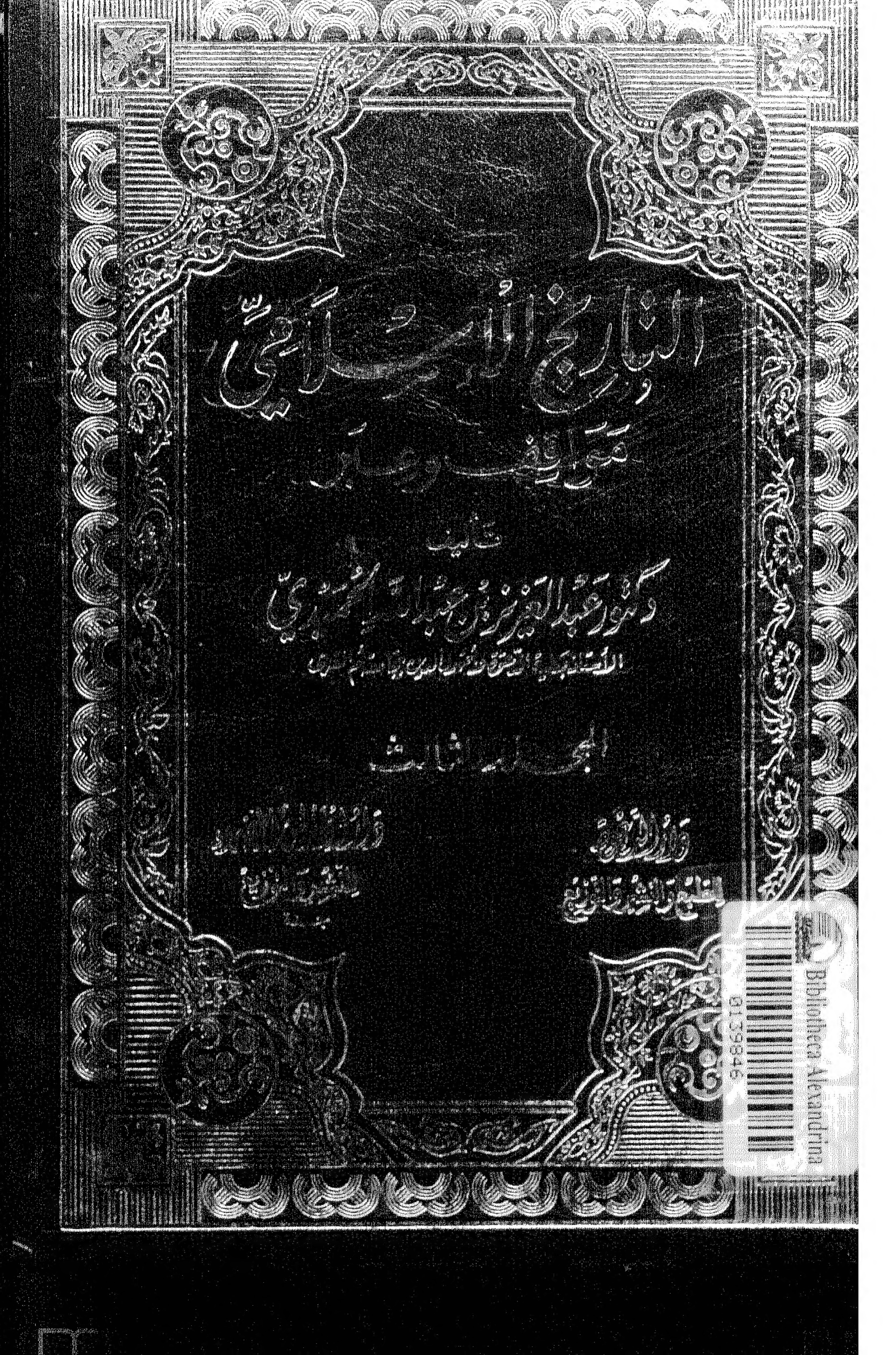


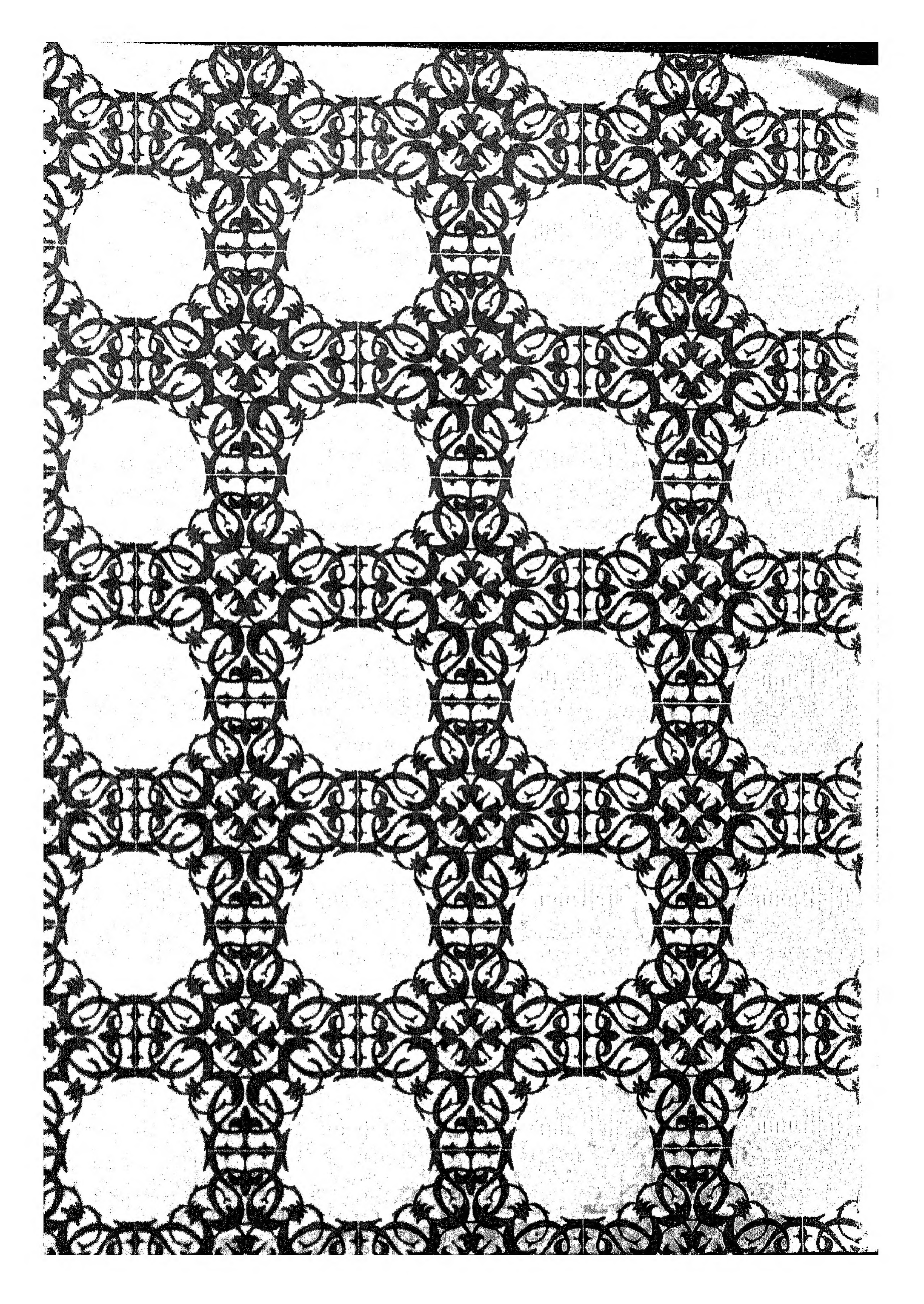
التاريخ الإسلامي

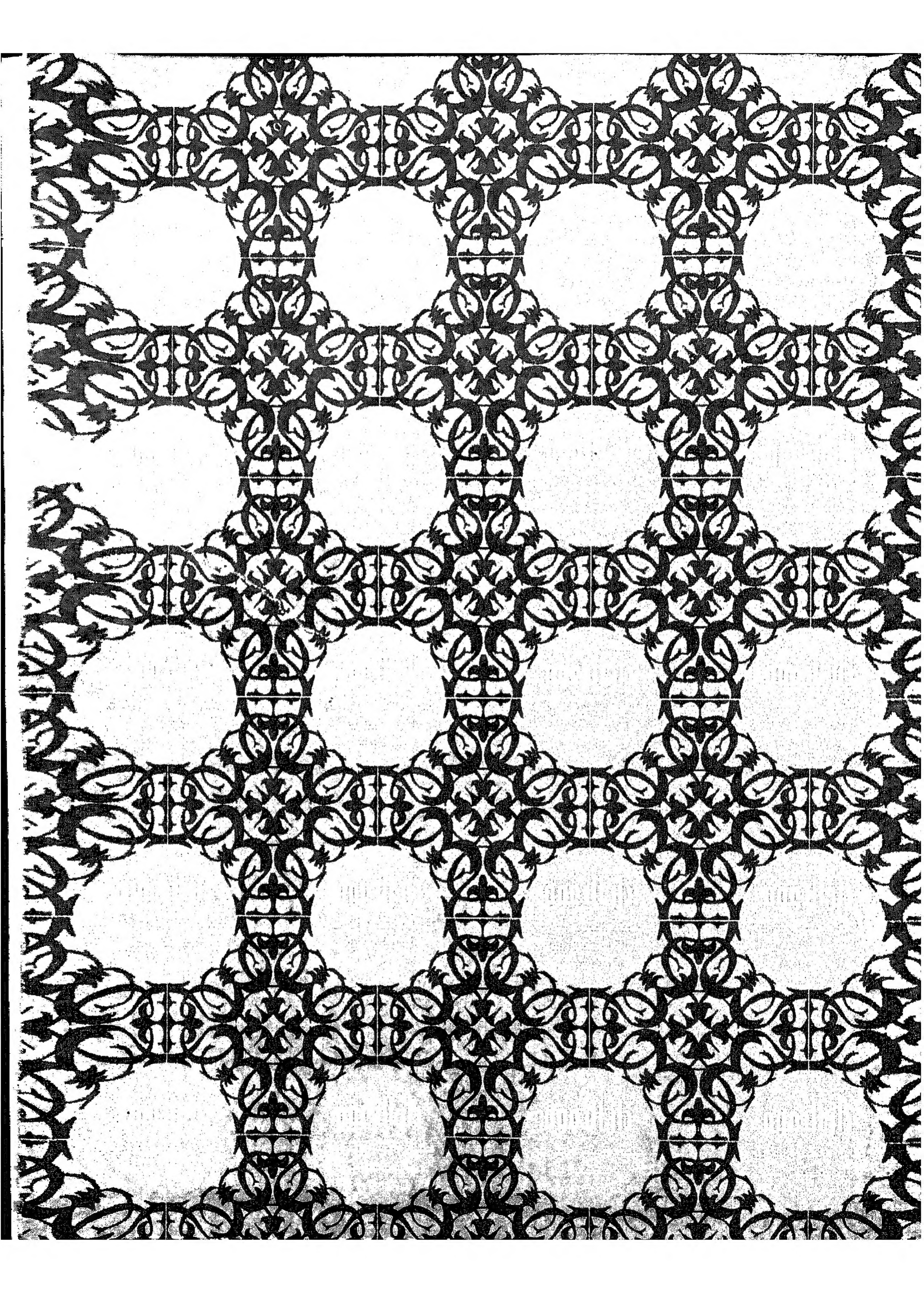
مواقف وعبر

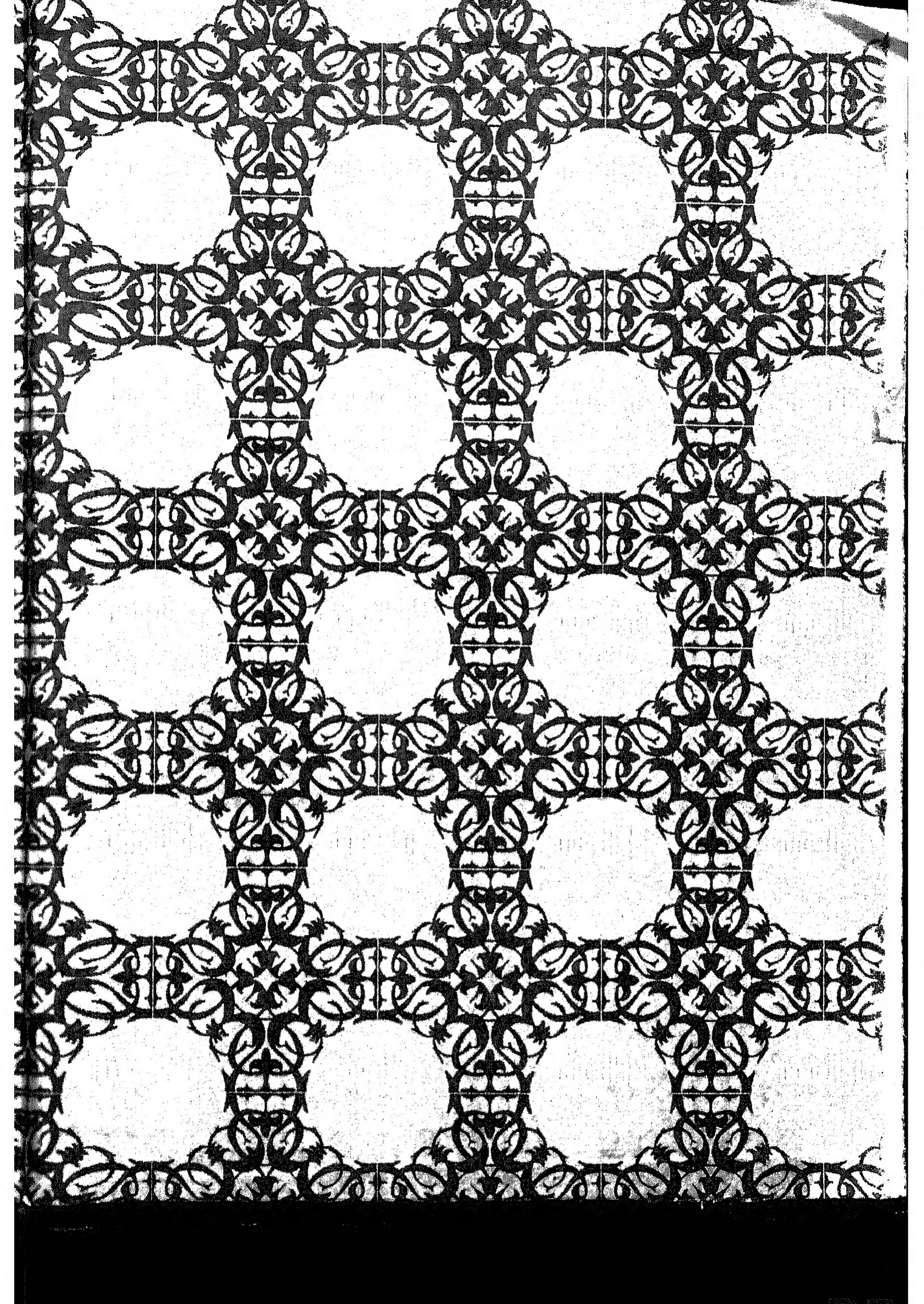
تأليف

دكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي

المجلد الثالث








السيرة النبوية
٥

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢

الترقيم الدولى

977 - 253 - 151 - 8

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

١ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية

ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥

مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع

حى السلامة - شارع عبد الرحمن السديرى - مركز الزومان التجارى

ص.ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف / فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩

المملكة العربية السعودية

التاريخ الإسلامي
مواقف وعبر



الجزء الخامس

تأليف
دكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

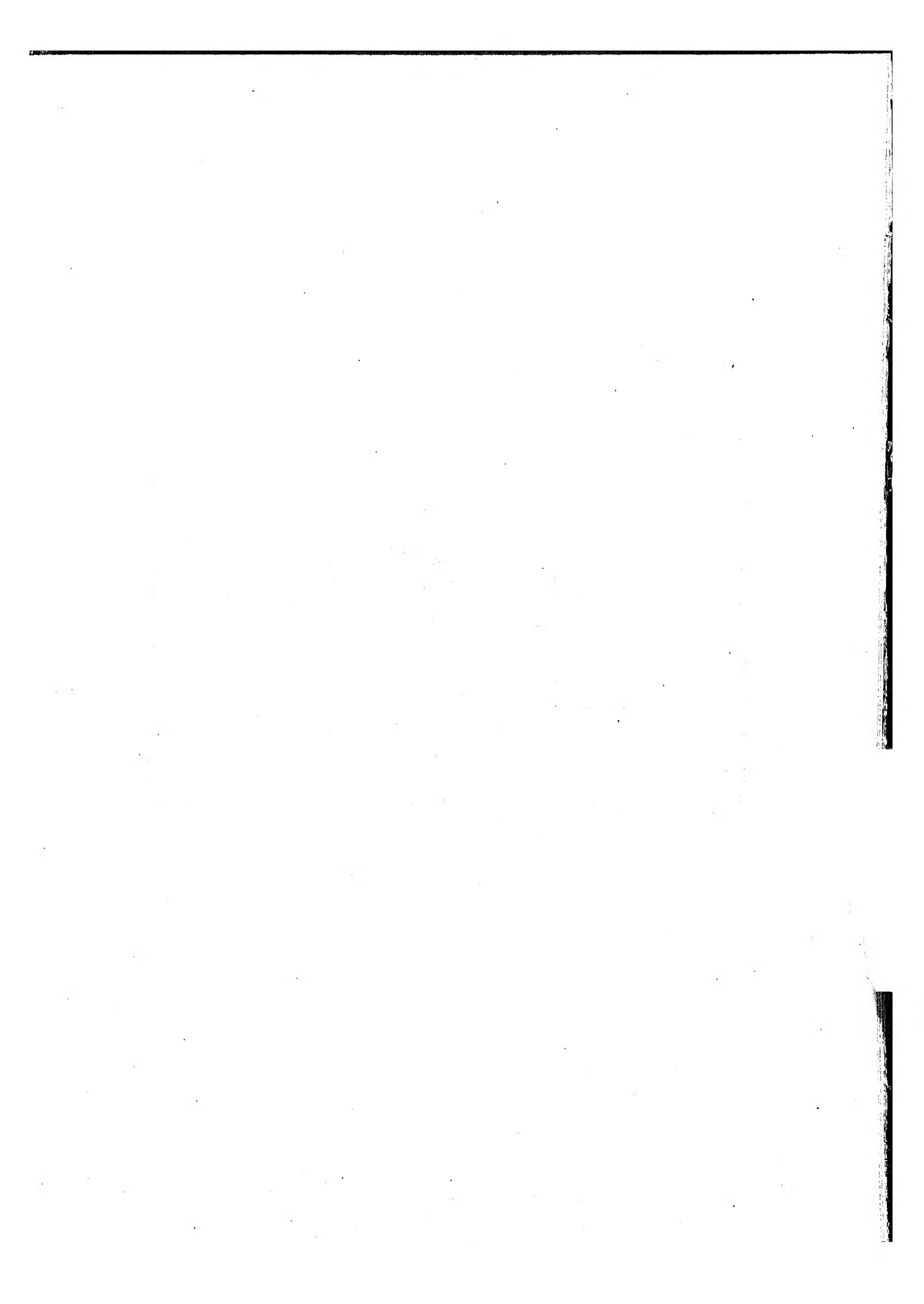
دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

بسم الله الرحمن الرحيم

مواقف وعبر

ما بين بدر وأُحد



١ – مثل من الصبر الجميل
(هجرة زينب بنت رسول الله ﷺ)

قال ابن إسحاق : وكان رسولُ الله ﷺ قد أخذ عليه[١] ، أو وَعد رسولَ الله ﷺ ذلك ، أن يُخَلِّي سبيلَ زينب إليه ، أو كان فيما شرط عليه في إطلاقه ، ولم يَظْهَر ذلك منه ولا من رسول الله ﷺ فيُعْلَم ماهو ، إلا أنه لمّا خرج أبو العاص إلى مكة وخُلّي سبيلُه ، بعث رسولُ الله زيدَ بن حارثة ورجلاً من الأنصار مكانه ، فقال : كونا ببطن يَأْجَجَ[٢] حتى تمرّ بكما زينبُ ، فتصَحباها حتى تأتياني بها ، فخرجا مكانهما ، وذلك بعد بَدْر بشهر أو شَيْعه[٣] فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللّحوق بأبيها فخرجت تجهَّز .

قال ابن إسحاق : فحدّثني عبد الله بن أبي بكر قال : حُدِّثت عن زينب أنها قالت : بينا أنا أتجهّز بمكة للُّحوق بأبي لقيتْني هندُ بنت عُتبة ، فقالت : يابنت محمد، ألم يبلغني أنّك تريدين اللحوقّ بأبيك؟ فقلت : ما أردْتُ ذلك ، فقالت : أي ابنة عمي ، لاتفعلي ، إن كانت لك حاجةٌ بمتاع ممَّا يرفُق بك في سفرك ، أو بمال تَتَبلَّغين به إلى أبيك ، فإن عندي حاجَتك ، فلا تَضطَني مني[٤] ، فإنه لايدخل بين النساء ما بين الرجال .

---

(١) أي على صهره أبي العاص بن الربيع ، وكان آنذاك مايزال على كفره وقد أسر ببدر كما سبق ثم أسلم كما سيأتي .

(٢) هو مكان قرب مكة بينه وبين التنعيم ميلان .

(٣) أي نحوه .

(٤) أي لاتستحيي مني .

قالت : والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفْعل ، قالت : ولكني خفْتُها ، فأنكرتُ أن أكون أُريد ذلك ، وتجهّزت .

فلما فرغتْ بنتُ رسول الله ﷺ من جهازها قَدّم لها حَمُوها كنانةُ بن الرّبيع أخو زَوجها ، بعيراً ، فركبته ، وأخذ قوسه وكنانته ، ثم خرج بها نهاراً يقود بها ، وهي في هودج لها . وتحدّث بذلك رجالٌ من قريش ، فخرجوا في طلبها حتى أدركوها بذي طُوى ، فكان أول من سبق إليها هَبَّار بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العُزّى الفهْري ، فروّعها هبَّار بالرمح ، وهي في هَوْدجها ، وكانت المرأةُ حاملاً - فيما يزعمون - فلما ريعَتْ طَرحتْ ذا بطْنها وبرك حموها كنانةُ ، ونثر كنانته ، ثم قال : والله لايدنو مني رجلٌ إلا وضعتُ فيه سهمًا ، فتكركر الناسُ عنه .

وأتى أبو سفيان في جلّة من قُريش ، فقال أيها الرجل ، كفّ عنا نَبْلك حتى نكلّمك ، فكفّ ، فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه ، فقال : إنك لم تُصبْ ، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانيةً وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا ، ومادخل علينا من محمد ، فيظنّ الناسُ إذا خرجتَ بابنته إليه علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا ، أن ذلك عن ذلّ أصابنا عن مُصيبتنا التي كانت ، وأنّ ذلك منا ضَعف ووَهن ، ولعمري مالنا بحبسها عن أبيها من حاجة ، وما لنا في ذلك من ثُؤْرة [1] ولكن ارجع بالمرأة ، حتى إذا هدأت الأصوات ، وتحدّث الناسُ أن قد ردَدْناها ، فسُلَّها سرّا وألْحقها بأبيها .

قال : ففعل ، فأقامت ليالي ، حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها

---

(١) أي طلب ثأر وإدراكه .

ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه فقَدما بها على رسول الله ﷺ .

ولما انصرف الذين خرجوا إلى زينب لقيتْهم هندُ بنت عتبة ، فقالت لهم :

أفي السَّلْم أعْيَارٌ جَفاءً وَغلْظَةً وفي الحرب أشباه النِّساء العَوارك[1]

وقال كنانةُ بن الربيع في أمر زَينب ، حين دَفعها إلى الرجلين :

عَجبْتُ لهبّار وأوْباش قَوْمه يُريدون إخفاري ببنت محمد

ولست أبالي ماحَيِيتُ عديدهم وما استجمعت قبضًا يدي بالمهند[2]

وأخرجه الإمام أبو داود من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب في فداء أبي العاص بمال وبعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة أدخلتها بها على أبي العاص ، قالت : فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة وقال : إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذي لها ، فقالوا : نعم .

ثم ذكر نحو رواية ابن إسحاق مختصرا [3] .

وهذا موقف عظيم من رسول الله ﷺ ، فقد كان هو الحاكم والآمر والناهي ، وكان باستطاعته أن يأمر بفك أسره ورد تلك القلادة من غير أن يعرض الأمر لأخذ موافقة الصحابة رضي الله عنهم ، ولكن الله تعالى

---

(١) الأعيار جمع عير بفتح العين وهو الحمار .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/٣٤٨ - ٣٥٢ .

(٣) سنن أبي داود ، رقم ٢٦٩٢ ، الجهاد (٣/ ١٤٠) .

إصطفى نبيه ﷺ ليكون ممثلا للقمة في مكارم الأخلاق، حيث إنه القدوة العليا لأمته في تنفيذ شريعة الله تعالى .

وإذا كان هذا السلوك منه وهو نبي معصوم فكيف بالمسئولين من البشر العاديين إذا استبدوا بالأمر من غير مشورة ولا اعتبار لأصول السياسية الشرعية ؟ !

في هذا الخبر بيان لما كان يتعرض له الصحابة رضي الله عنهم من الأذى والإرهاب من الكفار ، فقد نال ذلك حتى النساء مع أن العرب كانوا يحترمون النساء ويترفعون عن أذيتهن .

لقد تعرضت زينب بنت رسول الله ﷺ لذلك الأذى والإرهاب على يد أولئك السفهاء الجفاة .

وإن كل ما يصيب أحد أفراد الأسرة النبوية يعتبر إيذاء لرسول الله ﷺ ، فكم تحمّل من الأذى في نفسه وأسرته ! .

ولقد كان أولئك الذين خرجوا لصد زينب رضي الله عنها جبناء في غاية النذالة حيث أظهروا شجاعتهم في صد امرأة لاحول لها ولاقوة .

ولقد أجادت هند بنت عتبة في وصفهم حيث قالت :

أفي السلم أعيار جفاء وغلظة   وفي الحرب أمثال النساء العوارك

كما أن لها موقفا مشكوراً حيث عرضت الخدمة والمال على زينب لما سمعت بعزمها على الهجرة .

وموقف شهامة يذكر لكنانة بن الربيع حيث تحدى أولئك الجبناء أن يقتربوا منه فتراجعوا بينما أقدم أحدهم على ترويع امرأة في هودجها .

* * *

٢ - معجزة نبوية وموقف إيماني -
(مجيء عمير بن وهب لقتل النبي ﷺ)

قال ابن إسحاق : حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير قال : جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية بعد مصاب أهل بدر من قريش في الحِجْر - بيسير [١] ، وكان عمير بن وهب شيطانا من شياطين قريش ، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه ، ويلقون منه عناء وهو بمكة ، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر .

قال : فذكر أصحاب القليب ومصابهم ، فقال صفوان : والله إنْ في العيش بعدهم خير ، قال له عمير : صدقت والله أما والله لولا دين عليَّ ليس له عندي قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمد حتى أقتله . فإن لي قبَلَهم علةً ، إبني أسيرٌ في أيديهم ، قال : فاغتنمها صفوان ، وقال : عليَّ دينك ، أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي أواسيهم مابقوا ، لايسعني شيء ويعجز عنهم ، فقال له عمير : فاكتم عني شأني وشأنك ، قال : أفعل .

ومن هذا المشهد تتكشف لنا بعض معالم أهل الجاهليه من التعصب الأعمى لما هم عليه من الباطل ، والدفاع عنه حتى بأنفسهم وأموالهم . إن وجودهم وكيانهم معلق بهذا الباطل ، وحيث إنهم لايتصورون غير هذه الحياة الدنيا فإن عقولهم القاصرة تتشبث بهذا الباطل وتستميت في الدفاع عنه .

قال : ثم أمر عمير بسيفه فشُحذ له وسُمَّ ، ثم انطلق حتى قدم

---

(١) أي بعد بدر بقليل .

المدينة ، فبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ، ويذكرون ما أكرمهم الله به ، وما أراهم من عدوهم ، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحا السيف ، فقال : هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ، والله ما جاء إلا لشر ، وهو الذي حرّش بيننا [1] وحرزنا للقوم يوم بدر [2] .

وهذه فراسة صادقة من عمر رضي الله عنه وهو الذي اشتهر بالإصابة في الفراسة ، فقد قرأ في وجه الرجل وهو قادم أنه لم يقدم مهتديًا وإنما قدم معتديا .

لقد خرج عمير من مكة إلى المدينة وهو يحمل هذا الهدف السيء . . لقد كان ينوي إطفاء المشعل الوهاج الذي أنار الله به جنبات الأرض ، وقبل ذلك خرج رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة وهو يريد بسط ذلك النور الساطع في الأرض ، فما أبعد ما بين الرحلتين ! وما أعظم التباين بين الهدفين ! .

قال : ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال : يانبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه ، قال : أدخله علي ، قال : فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلبَّبه بها [3] ، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار : ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث فإنه غير مأمون ، ثم دخل به على رسول الله ﷺ .

---

(١) أي أغرى بنا أعداءنا .

(٢) يعني قدر عددهم .

(٣) يعني طوق بها عنقه .

وإننا لانستطيع تجاوز هذا النص حتى نقف عند قول النبي ﷺ . أدخله علي ، بالرغم من كونه من ألدّ أعدائه وقد جاء متوشحًا سيفه ، فلم يأمر بتقييده ولاحتى بنزع السلاح منه ، وهذا منتهى الجرأة والشجاعة وأعلى درجات اليقين بالله تعالى والتوكل عليه .

كما أنه مما يعجب المتأمل هذه الاحتياطات المؤكدة التي قام بها عمر رضي الله عنه لحماية رسول الله ﷺ .

قال : فلما رآه رسول الله ﷺ ، وعمر آخذ بحمالة سيفه قال : أرسله ياعمر - يعني أطلقه - ثم قال : ادْنُ ياعمير ، وفي هذا ملاطفة حانية ومعاملة سامية حتى مع الأعداء الذين ظهرت بوادر كيدهم ، ومحاولة الغدر منهم ، وماذلك بغريب على صاحب المقام الرفيع والخلق الكريم ﷺ وهو الذي أخذ بمجامع القلوب ، وأرغم أعداءه على التواضع له لابقوة السلطان ، وإنما برقة الجنان وعذوبة البيان .

قال : فدنا ، ثم قال : انعَموا صباحا ، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم ، فقال رسول الله ﷺ : قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك ياعمير ، بالسلام تحية أهل الجنة ، فقال : أما والله يامحمد إن كنت بها لحديث عهد .

ولنا وقفة تأمل أمام هذا الرد الكريم من رسول الله ﷺ ، فإنه لم يحتمل بروز شعار من شعارات الجاهلية يزاحم شعاراً من شعارات الإسلام ، فإن معالم الإسلام الظاهرة يجب أن تكون بارزة في المجتمع الإسلامي ، وأن يقوم المسلمون بالنكير على معالم الجاهلية حتى يقضوا عليها لئلا تصبح عرفا سائدا في يوم من الأيام ، ولقد تجاوز النبي ﷺ عن

كثير من أخطاء بعض الوفود الذين لم يُسلموا أو الذين أسلموا حديثا ما دامت هذه الأخطاء في حدود الالتزام الشخصي ، أما أن تصل إلى رفع شعارات الجاهلية فكانت المواجهة والمسارعة إلى تقويم الخطأ وإبراز شعارات الإسلام ، ولهذا المقصد بيَّن رسول الله ﷺ لهذا الرجل تحية المسلمين مع أنه لم يدخل في الإسلام بعد ، وفي هذا عبرة للمسلمين كي يتمسكوا بهذه التحية الكريمة ولا يضعفوا شخصيتهم بتقليد أعداء الإسلام فإن الجاهلية هي هي وإن اتسمت بالرقي المادي والهيمنة في الأرض .

قال ابن إسحاق رحمه الله : قال - يعني رسول الله ﷺ : فما جاء بك ياعمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه[1] ، قال : فما بال هذا السيف في عنقك ؟ قال : قبحها الله من سيوف! وهل أغنت عنا شيئًا ؟ قال : اصدقني ما الذي جئت له ؟ قال : ماجئت إلا لذلك .

لقد كان عمير يخفي في نفسه سراً خطيراً ، وكان مدفوعا إلى أمر لا مثيل له في التخريب والتدمير ، إنه يريد إطفاء الشعلة الوهاجة التي أنار الله بها ظلمات الأرض ، وهو لايدري إلى تلك الساعة أنه يعيش في ظلام حالك لأنه أعشى البصيرة مطموس الإدراك ، ولأن عقله السليم لايزال مغمورا بضلالات الجاهلية التي تحول بينه وبين التفكير السَّويّ .

قال : قال رسول الله ﷺ : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجْر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دين علي وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً ، فتحمل لك صفوان بن أمية

---

(١) يعني ابنه .

بدينك وعيالك على أن تقتلني له ، والله حائل بينك وبين ذلك .

وهذه معجزة من معجزات النبي ﷺ الكثيرة التي تدل دلالة قاطعة على أنه نبي يتلقى الوحي من الله تعالى . إذ أن هذا الأمر كان سراً بين صفوان وعمير ، وكانا حريصين كل الحرص على كتمانه لأن إفشاءه يعني فشل خطتهما التي اتفقا عليها . ولما كان يوقن به عمير تلك الساعة من أن الأمر لايزال سرًا وأن صفوان لايمكن أن يبوح به لأحد ، لأنه أحرص منه على نجاح الخطة فقد سرى في نفسه كلام النبي ﷺ سريان الماء في الأعواد اليابسة فعاد حيًا بعد الموت كما يعود النبات أخضر يهتز بالحياة ، فأعلن إسلامه .

قال : قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يارسول الله نكذبك بما تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فو الله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذي هداني للإسلام ، وساقني هذا المساق ، ثم شهد شهادة الحق [1] ، فقال رسول الله ﷺ : فقّهوا أخاكم في دينه ، وأقرؤوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره ، ففعلوا .

وهكذا شرح الله قلب عمير للإسلام ونطق بالشهادتين ، وتحوّل في ثواني معدودات إلى رجل آخر ، لقد كان رسول الله ﷺ قبل هذه الثواني أبغض رجل إليه فعاد بعدها أحب رجل إليه على الإطلاق ، وكان الإسلام أبغض دين عنده فعاد عنده هو الدين الحق الذي لايمكن أن

(١) زاد الواقدي في روايته « وفرح المسلمون حين هداه الله ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لخنزير كان أحب إلي منه حين طلع ، وهو الساعة أحب إلي من بعض ولدي » -مغازي الواقدي ١/ ١٢٧ - .

يقاس به أي دين آخر . وكانت أوهام الجاهلية تعشش في مخه وتحجب عقله السليم فتبخرت هذه الأوهام وحلت محلها حقائق الإسلام التي تدفع العقل نحو النمو السليم وتنطلق به نحو التفكير في الآفاق العالية .

وفي مقابل ذلك نجد أنه في لحظات أصبح أخا للمؤمنين بعدما كان قبلها من ألدّ أعدائهم ، واضمحلّ حالاً من قلوبهم كل ما كان مستكنًا فيها من بغضه وعداوته ، وإن كان قبل ذلك قد فعل مافعل بالمسلمين وهذا يعتبر من عظمة الإسلام ومن مزايا الأخوة الإسلامية .

وفي أمر النبي ﷺ بإطلاق أسيره بتلك السرعة مثل من بساطة الحكم الإسلامي وخلوه من التعقيدات ، ولو حصل مثل هذه الواقعة في عصرنا هذا لكان إطلاق الأسير يحتاج إلى معاملة معقدة .

وما أكثر ما يواجه الداخلين في الإسلام اليوم من عقبات وأزمات !

قال : ثم قال : يارسول الله إني كنت جاهدا على إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل ، وأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة، فأدعوهم إلى الله تعالى ، وإلى رسوله ﷺ ، وإلى الإسلام ، لعل الله يهديهم ، وإلا آذيتهم في دينهم ، كما كنت أوذي أصحابك في دينهم .

وهذا يعتبر من السمو نحو الآفاق العالية التي أصبح يتذوقها بعد دخوله في الإسلام ، ولقد كان إيمانه قويا سريع النمو حيث أقدم على المطلب الذي يشكل خطراً على حياته ، فهو سيذهب إلى قومه الذين كان معهم قبل ذلك في السراء والضراء ، والذين كانوا يؤمِّلون منه أن يقصم ظهور المسلمين فإذا به يعود إليهم مؤمنا بالدين الذي يحاربونه والذي

ذهب من أجل القضاء عليه ، ويجهر بإيمانه ويدعوهم إلى هذا الدين .

قال : فأذن له رسول الله ﷺ ، فلحق بمكة ، وكان صفوان بن أمية - حين خرج عمير بن وهب - يقول : أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر ، وكان صفوان يسأل عنه الركبان ، حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه ، فحلف أن لايكلمه أبدًا ، ولاينفعه بنفع أبدا .

وهذا مثل من أمثلة التعصب الأعمى نحو المبادئ الموروثة من غير نظر ولا إعمال للفكر في مدى موافقتها للحق أو مخالفتها إياه ، فكان النظر السليم يقتضي من صفوان أن يفكر طويلا في هذه العاقبة التي آل إليها عمير بن وهب ليرى ما الذي دفعه إلى الإسلام وهو الذي ذهب للقضاء عليه ثم يحكم بعقله المجرد من اتباع الهوى .

قال : فلما قدم عمير مكة أقام يدعو إلى الإسلام ، ويؤذي من خالفه أذى شديدًا (1) ، فأسلم على يديه ناس كثير (2) .

* * *

---

(1) لعل المراد أنه كان يجهر بدعوته وذلك أبلغ الأذى الذي يوجّه لقريش آنذاك لقرب عهدهم بمصاب بدر .

(2) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٥٨ - ٣٦٢ .

وذكر هذا الخبر الحافظ ابن حجر في ترجمة عمير بن وهب من خبر موسى بن عقبة عن الزهري ، وقال : وهكذا ذكره أبو الأسود عن عروة مرسلا ، قال : وجاء من وجه آخر موصولا أخرجه ابن منده من طريق أبي الأزهر عن عبد الرزاق عن جعفر بن سليمان عن أبي عمران الجوني عن أنس أو غيره ، وقال ابن منده : غريب لانعرفه عن أبي عمران إلا من هذا الوجه .

قال الحافظ : وأخرجه الطبراني من طريق محمد بن سهل بن عسكر عن عبد الرزاق بسنده ، فقال : لا أعلمه إلا عن أنس بن مالك . - الإصابة ٣/ ٣٦-٣٧-رقم ٦٠٦٠- .

٣ - غزوة بني سُلَيم بالكُدْر -

قال ابن إسحاق : فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة [يعني من غزوة بدر] لم يُقم بها سبع ليال حتى غزا بنفسه يريد بني سليم . قال : فبلغ ماء من مياههم يقال له الكدر فأقام عليه ثلاث ليال ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا (١) .

والموقف الجليل في هذه الغزوة هو في خروج النبي ﷺ للجهاد ولم يمض على إقامته بعد بدر غير سبع ليال ، مع أنه كان باستطاعته أن يرسل سرية تنوب عنه ، وهذا مثل من أمثلة كثيرة تدل على اهتمام النبي ﷺ الكبير بالجهاد وأنه كان يقصد دفع أمته بكل طاقتهم نحو ذلك .

* * *

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩٢ .

٤ – موقف إيماني فدائي

(سالم بن عمير وقتل أبي عفك)

قال محمد بن عمر الواقدي رحمه الله تعالى : حدثنا سعيد بن محمد ، عن عُمارة بن غَزية ، وحدثناه أبو مُصْعَب إسماعيل بن مُصْعب بن إسماعيل بن زيد بن ثابت ، عن أشياخه ، قالا : إنَّ شيخًا من بني عمرو بن عَوْف يُقال له أبو عَفَك ، وكان شيخًا كبيرًا ، قد بلغ عشرين ومائة سنة حين قدم النبي ﷺ المدينة ، كان يُحرض على عَداوة النبي ، ولم يدخل في الإسلام .

فلما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر رجع وقد ظفَّره الله بما ظفَّره ، فحسده وبغى فقال :

قد عشتُ حينًا وما إن أرى	من الناس دارًا ولا مَجْمعا
أجَمَّ عُقولاً وآتى إلى	مُنيب سراعًا إذا ما دَعا (١)
فَسَلَّبَهم أمْرَهم راكبٌ	حَرام حَلال لشتَّى معا (٢)
فلو كان بالمُلْك صَدَّقْتُمُ	وبالنَّصْر تابعتُمُ تُبَّعا

فقال سالم بن عُمير ، وهو أحد البكائين من بني النجار : عليّ نذرٌ أن أقتل أبا عَفَك أو أموت دونه . فأمهل فطلب له غرَّةً ، حتى كانت ليلةٌ

---

(١) جاء في رواية ابن إسحاق بعد هذا البيت قوله :

منَ أولاد قيلة في جمعهم	يهدّ الجبال ولم يخضعا

وأولاد قيلة هم الأوس والخزرج نسبة إلى أمهم قيلة .

(٢) يقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بذلك يحرضهم على الكفر به .

صائفةٌ ، فنام أبو عفك بالفناء في الصيف في بني عمرو بن عوف ، فأقبل سالم بن عُمير ، فوضع السيف على كبده حتى خش في الفراش ، وصاح عدو الله فثاب إليه أناس ممن هم على قوله ، فأدخلوه منزله وقبروه . وقالوا : من قتله ؟ والله لو نعلم من قتله لقتلناه به ! فقالت النَّهدية في ذلك ، وكانت مسلمة هذه الأبيات :

تُكَذِّبُ دين الله والمرء أحْمَدا   لعمرُ الذي أمْناك(١) إذْ بئْس مايُمني

حباك حنيفٌ آخر الليل طعنةً   أبا عفك خذها على كبر السن

فإني وإن أعلم بقاتلك الذي   أباتك حلس الليل من إنس او جنِّي

فحدثني معن بن عمر قال : أخبرني ابن رُقَيش قال : قُتل أبو عفك في شوال على رأس عشرين شهراً (٢) .

فهذا موقف فدائي من سالم بن عمير النجَّاري رضي الله عنه أراد به عزة الإسلام والمسلمين ، والانتقام من ذلك الحاقد الباغي أبي عفك الذي أراد أن يفرق شمل المسلمين وأن يصد عن سبيل الله تعالى .

ولما كانت الدعوة الإسلامية فَتيَّة في المدينة ، ومايزال المسلمون يعانون من هجمات اليهود والمنافقين المخذِّلة المنفرة ، كان لابد من تلقين أولئك الذين يثيرون الناس بأشعارهم ضد الإسلام دروسا بليغة رادعة لكل من تسوِّل له نفسه أن يُرْخي لها العنان كي تقول ما يمليه عليها الهوى المنحرف والحقد الأسود الدفين .

---

(١) أي منَّاك وخدعك .

(٢) مغازي الواقدي ١/ ١٧٤ - ١٧٥ .

وأخرجه ابن إسحاق وذكر نحوه - سيرة ابن هشام ٤/ ٤١١ .

ولقد كان الشعر له منزلة كبيرة عند العرب ، وكانوا يستخدمونه في إثارة الحروب وإسقاط الزعامات القبلية أو تثبيتها .

ولم يكن أبو عفك هذا من النوع المتجرد من الهوى ، الذي ينشد الحق ويحكِّمه إذا وجده ، بل كان من أصحاب الهوى المنحرف الذي يرى الحق كل الحق هو فيما عليه الآباء والأجداد ، وهذا لايجدي معه الحوار الهادف الذي يخضع لمسلَّمات العقل السليم لأنه على مذهب الشاعر العربي القائل :

وما أنا إلا من غُزَيَّة إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

بل إن أبا عفك فاق هذا المتعصب للتقاليد القبلية ، حيث رشدت أكثر قبيلته فلم يرشد وإنما ظل على غوايته وتجاوز ذلك إلى التحريض على الحق وأهله .

وموقف جليل لتلك المرأة النهدية التي قرَّعت ذلك الباغي الحاقد ووبخته بشعرها الجيد ، أنْ كذَّب رسول الله ﷺ وحَرَّض عليه ، كما أشادت بسالم بن عمير الذي أراح البلاد والعباد من ذلك الحاقد الحاسد وانتصر لله تعالى ولرسوله ﷺ .

* * *

٥ - موقف إيماني فدائي آخر -
(عمير بن عدي وقتل عصماء بنت مروان)

ذكر محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى حديث الحارث بن الفضيل عن خبر عمير بن عدي الخَطْمي وما قام به من قتل عصماء بنت مروان التي كانت تعيب الإسلام وأهله بقولها :

أطعتُم أتاويَّ من غيركم ... فلا من مُراد ولا مَذحج [١]

تُرَجُّونَه بعد قتل الرُّءوس [٢] ... كما يُرتجى مَرَق المُنضج

ألا أنفٌ يبتغي غرّة ... فيقْطَع من أمل المُرتجى [٣]

فقال رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك : ألا آخذٌ لي من ابنة مروان ؟ فسمع ذلك من قول رسول الله ﷺ عُميرُ بن عديّ الخطميّ ، وهو عنده ، فلما أمسى من تلك الليلة سرى عليها في بيتها فقتلها ، ثم أصبح مع رسول الله ﷺ ، فقال : يارسول الله ، إني قد قتلتها . فقال : نصرت الله ورسوله ياعمير ، فقال : هل عليّ شيء من شأنها يارسول الله ؟ فقال : لا ينتطح فيها عنزان [٤] .

فرجع عُمير إلى قومه ، وبنو خطمة يومئذ كثيرٌ موجُهم [٥] في شأن

---

(١) أتاويّ أي غريب بعيد النسب .

(٢) أيْ بعد قتل الأشراف ، وذلك في معركة بعاث حيث قتل أكثر سادة القبلتين الأوس والخزوج .

(٣) أنف أي حميُّ الأنف ، تريد بذلك تحريض قومها على اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم .

(٤) أي أمر قتلها هين لايترتب عليه شيء .

(٥) أي اضطرابهم .

بنت مروان ، ولها يومئذ بنون خمسة رجال ، فلما جاءهم عُمير بن عديّ من عند رسول الله ﷺ ، قال : يابني خطمة ، أنا قتلت ابنة مروان ، فكيدوني جميعًا ثم لاتنظرون .

فذلك اليومُ أولُ ما عز الإسلام في دار بني خطمة ، وكان يستخفي بإسلامهم فيهم من أسلم ، وكان أول من أسلم من بني خطمة عُمير بن عديّ ، وهو الذي يُدْعَى القارئ ، وعبد الله بن أوس ، وخزيمة بن ثابت ، وأسلم - يوم قتلت ابنة مروان - رجال من بني خطمة ، لما رأوا من عزّ الإسلام .

وقد ذكر ابن إسحاق أن حسان بن ثابت رضي الله عنه أجاب تلك المرأة بقوله :

بنُوا وائل وبنُو واقف	وخطمةُ دون بني الخزرج
متى مادَعَتْ سفهًا ويحها	بعَولَتها [1] والمنايا تجى
فهزّت فتى ماجداً عرقه	كريم المداخل والمخرج
فضرّجها من نجيع الدما	ء بعد الهدوّ فلم يحرج [2][3] .

وأخرجه محمد بن عمر الواقدي بنحوه وزاد :

(١) أي بصيحتها .

(٢) أي لم يأثم وهو يشير إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاينتطح فيها عنزان » . وزاد الواقدي بعد هذا البيت :

فأوردك الله برد الجنان	جذلان في نعمة المولج

(٣) سيرة ابن هشام ٤/ ٤١٢ - ٤١٤ .

فالتفت النبي ﷺ إلى من حوله فقال : إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله بالغيب ، فانظروا إلى عُمير بن عديّ . فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : انظروا إلى هذا الأعمى الذي تشدد في طاعة الله . فقال : لاتقل الأعمى ، ولكنَّه البصير .

فلما رجع عُمير من عند رسول الله ﷺ وجد بنيها في جماعة يدفنونها ، فأقبلوا إليه حين رأوه مُقبلاً من المدينة ، فقالوا : ياعمير ، أنت قتلتها ؟ فقال : نعم ، فكيدوني جميعا ثم لاتنظرون ، فو الذي نفسي بيده ، لو قلتم بأجمعكم ما قالت لضربتكم بسيفي هذا حتى أموت أو أقتلكم [١] .

فهذا السيد الشهم الشجاع عمير بن عدي الذي أفقده الله تعالى البصر وأنعم عليه بالبصيرة النافذة ، قد ساءه وآلمه وضع تلك المرأة الحاقدة الباغية التي شَرقت بالإسلام وغُصَّت برجاله الغُرِّ الميامين ، فتحولت تلك الغصص التي امتلأ منها قلبها رعبا وحقدا إلى أبيات من الشعر نفثت فيها حقدها ، وأمَّلت بذلك أن تصل إلى مقصودها من قتل النبي ﷺ والقضاء على دعوته .

ولقد كان من أثر ذلك الشعر على النبي ﷺ أن رغب في الانتقام منها لما يعلمه من أثر لذلك الشعر في تثبيط قومها عن الإسلام ، خصوصا وأن انتشار الإسلام في قومها بني خطمة بطيء ، والكفر فيهم قوي ، حتى

---

(١) مغازي الواقدي ١/ ١٧٢ - ١٧٤ .

وأشار الحافظ ابن حجر إلى هذا الخبر في ترجمة عمير بن عدي وقال عنه : هو البصير الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزوره في بني واقف - الإصابة٣/ ٣٤، رقم٦٠٤٥

اضطر بعض من أسلم منهم إلى كتمان دينه ، فهذا الشعر وأمثاله في مثل ذلك الواقع السيء يكون له أثر بالغ في الصد عن الإسلام .

فكان أن تصدى لإسكات ذلك الصوت النشاز وقطع عروق دعوة الباطل البطل الشجاع عمير بن عدي الخطمي فأقدم على قتل تلك المرأة مع ما يكتنف ذلك من خطر بالغ على نفسه حيث إنه فاقد البصر ، ولما يحيط بتلك المرأة من رجال يحمونها على رأسهم أبناؤها الخمسة الذين تجرأت بهم وبمن ظل على كفره من قومها على ذلك القول الشنيع الهابط .

ولقد بلغت به شجاعته وقوة إيمانه أن قام بإعلان ما قام به من ذلك وتحدى قومه حينما سألوه عن قتلها بذلك القول القوي البليغ « نعم ، فكيدوني جميعا ثم لاتنظرون ، فو الذي نفسي بيده لو قلتم بأجمعكم ما قالت لضربتكم بسيفي هذا حتى أموت أو أقتلكم » .

وهنا نلمس نوعا من التأييد الإلهي ببث الرعب في قلوب الكفار والمنافقين حينما يقفون أمام أقوياء الإيمان ، فهؤلاء جماعة من الرجال ، وكلهم يملكون السلاح ، وهم أبناء الحروب ورثوها كابرا عن كابر ، ومع ذلك يقفون خاضعين صاغرين أمام تهديد رجل أعمى .

لكنه وإن كان أعمى البصر فإنه يملك الجوهرة الغالية التي يفقدونها جميعا ، ألا وهي الإيمان الصادق واليقين الراسخ ، الذي يُكلِّلُه حضور القلب مع الله تعالى وشعور العبد بأن الله تعالى معه بنصره وتأييده مادام عبده معه بقلبه وقالبه .

ويفوز هذا البطل الشامخ بثناء النبي ﷺ عليه أمام أصحابه، ومن

ظفر بثنائه فقد ظفر بحبه ، وهل تطمع نفس المؤمن الصادق إلى شيء كما تطمع إلى حب الله تعالى وحب رسوله ﷺ ؟ ! .

ولقد كان من أثر ما قام به هذا المؤمن المجاهد أن انتشر الإسلام وعز المسلمون في دار قومه بني خطمة بعد عمله الجليل ، فأظهر الإسلام من كانوا يخفون إسلامهم ، وأسلم رجال كانوا يجاهرون بكفرهم لمَّا رأوا عزة الإسلام في قومهم .

فكم قدَّم هذا المؤمن القوي للدعوة الإسلامية آنذاك من خدمة ودعم رضي الله عنه وأرضاه .

ولقد سجل حسان بن ثابت رضي الله عنه الثناء عليه بشعره ، في الوقت الذي سفَّه فيه ماقامت به تلك المرأة وقومها من الصد عن الإسلام ومحادَّة رسول الله ﷺ .

وهذا موقف يذكر لحسان بن ثابت في ذلك الوقت الذي كان الصراع فيه بين الإسلام والوثنية على أشدِّه فرضي الله عنه وأرضاه .

* * *

٦ – مواقف عالية في الغيرة على المحارم
وإعزاز الدين والبراء من المشركين –
(غزوة بني قَيْنُقَاع)

قال محمد بن عمر الواقدي : غزوة قينقاع يوم السبت للنصف من شوال ، على رأس عشرين شهراً ، حاصرهم النبي ﷺ إلى هلال ذي القعدة .

حدثني عبد الله بن جعفر ، عن الحارث بن الفُضَيل ، عن ابن كعب القُرظي ، قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وَادَعَتْه يهودُ كلُّها ، وكتب بينه وبينها كتابا . وألحق رسول الله ﷺ كل قوم بحلفائهم ، وجعل بينه وبينهم أمانا ، وشرط عليهم شروطا ، فكان فيما شرط ألا يُظاهروا عليه عدواً .

فلما أصاب رسول الله ﷺ أصحاب بدر وقدم المدينة ، بَغَتْ يهود وقطعت ما كان بينها وبين رسول الله ﷺ من العهد ، فأرسل رسول الله ﷺ إليهم فجمعهم ، ثم قال : يامعشر يهود ، أسلموا ، فو الله إنكم لتعلمون أني رسول الله ، قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قُريش . فقالوا : يامحمد ، لايغرنك من لقيت ، إنك قهرت قومًا أغماراً (١) . وإنا والله أصحاب الحرب ، ولئن قاتلتنا لتعلمنَّ أنك لم تُقاتل مثلنا (٢) .

وهذا مثل من أمثلة غدر اليهود ، وإهدارهم القيم العليا ، حيث لم يمض على معاهدتهم رسول الله ﷺ إلا سنة وشهور ، كما أن هذا الخبر

---

(١) أي جاهلين تنقصهم التجارب الحربية .

(٢) مغازي الواقدي ١/١٧٦ .

يبين صفة من صفات اليهود وهي اعتدادهم بأنفسهم ومحاولة رفع مكانتهم مهما كان مقدار ضعفهم ، وتحقير الآخرين مهما كان مقدار قوتهم ، وهذه من صفات أصحاب النفوس المريضة الذين عمرت قلوبهم برذائل الأخلاق .

ولقد أوردوا أنفسهم بهذا الخلق الديني المُنْبَني على مرض القلوب موارد الهلاك فكانت عاقبتهم إما الإجلاء والحرمان من الأموال ، وإما القتل وسبي النساء والذراري كما سيأتي .

قال الواقدي : فبيناهم على ماهم عليه من إظهار العداوة ونبذ العهد ، جاءت امرأةٌ نزيعةٌ(١) من العرب تحت رجل من الأنصار إلى سوق بني قينقاع ، فجلست عند صائغ في حُلي لها ، فجاء رجل من يهود قينقاع فجلس من ورائها ولاتشعُر ، فخَلَّ درْعها إلى ظهرها بشوكة ، فلما قامت المرأة بدت عورتها فضحكوا منها . فقام إليه رجلٌ من المسلمين فاتبعه فقتله .

فاجتمعت بنو قينقاع ، وتحايشوا فقتلوا الرجل ، ونبذوا العهد إلى النبي ﷺ وحاربوا ، وتحصنوا في حصنهم ، فسار إليهم رسول الله ﷺ فحاصرهم ، فكانوا أول من سار إليه رسول الله ﷺ ، وأجلى يهود قينقاع ، وكانوا أول يهود حاربت (٢) .

وهذا الخبر يبين لنا انحطاط اليهود في الجانب الأخلاقي ، وتدني

---

(١) أي قد انتقلت من قبيلة إلى أخرى من العرب .

(٢) وأخرج خبر هذه المرأة ابن هشام من حديث عبد الله بن جعفر عن أبي عون - سيرة ابن هشام ٤٩٧/٢ .

مستواهم في الغيرة على المحارم ، مع أنهم كانوا يعيشون بين ظهراني العرب الذين كانوا يهتمون بالأعراض اهتماما كبيرا إلى حد أنهم يستسهلون سفك الدماء في سبيل المحافظة على الأعراض ، فكيف باليهود إذا عاشوا في مجتمع لاتفرض أعرافه الاجتماعية على أفراده احترام الأعراض ؟ !

وإن ما قام به ذلك الرجل المسلم من قتل ذلك اليهودي المعتدي على المرأة وعلى أخلاق المجتمع المسلم يعتبر مثلا على الغيرة الإسلامية التي كانت موجودة عند العرب فزادها الإسلام رسوخا ونظمها فيما يتفق مع الأحكام الشرعية الحكيمة .

قال الواقدي : فحدثني محمد بن عبد الله ، عن الزهري ، عن عروة ، قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ** ﴾ [1] ، فسار رسول الله ﷺ بهذه الآية .

قالوا : فحصرهم في حصنهم خمس عشرة ليلة أشد الحصار حتى قذف الله في قلوبهم الرعب . قالوا : أفننزل وننطلق ؟ فقال رسول الله ﷺ : لا ، إلا على حُكمي ! فنزلوا على حُكم رسول الله ﷺ ، فأمر بهم فرُبطوا . قال : فكانوا يكتفون كتافًا .

قالوا : واستعمل رسول الله ﷺ على كتافهم المنذر بن قُدامة

---

(١) الأنفال / ٥٨ .

السَّلمي (١) . قال : فمرَّ بهم ابن أُبَيّ وقال : حلّوهم ! فقال المُنذر : أتحلون قوماً ربطهم رسول الله ﷺ ؟ والله لايحلهم رجلٌ إلا ضربتُ عُنُقَه .

فوثب ابن أُبي إلى النبي ﷺ ، فأدخل يده في جنب درع النبي ﷺ من خلفه فقال : يامحمد ، أحسن في مواليَّ ! فأقبل عليه النبي ﷺ غضبان ، مُتغيِّر الوجه ، فقال : ويلك ، أرسلني ! فقال : لا أرسلك حتى تُحسن في مواليَّ ، أربع مئة دارع وثلاث مئة حاسر ، منعوني يوم الحدائق ويوم بُعاث من الأحمر والأسود ، تُريد أن تَحْصدهم في غداة واحدة ؟ يامحمد ، إني امرُؤٌ أخشى الدوائر ! قال رسول الله ﷺ : خلوهم ، لعنهم الله ، ولعنه معهم .

فلما تكلَّم ابن أُبي فيهم تركهم رسول الله ﷺ من القتل ، وأمر بهم أن يُجلَوا من المدينة ، فجاء ابن أُبي بحلفائه معه ، وقد أخذوا بالخروج ، يُريد أن يُكلم رسول الله ﷺ أن يُقرّهم في ديارهم ، فيجد على باب النبي ﷺ عُوَيم بن ساعدة(٢) ، فذهب ليدخل فردّه عُوَيم وقال : لاتدخل حتى يأذن رسول الله لك . فدفعه ابن أُبي ، فغلَّظ عليه عُويم حتى جحش وجه ابن أُبي الجدارُ فسال الدم(٣) .

(١) هو المنذر بن قدامة الأوسي الأنصاري من بني غنم بن السَّلم بن مالك بن الأوس - الاستيعاب ٣/ ٤٤٠ - .

(٢) هو عويم بن ساعدة الأنصاري الأوسي ، من السابقين إلى الإسلام في المدينة ، شهد العقبة وبدراً - الإصابة ٣/ ٤٥ ، رقم ٦١١٤ - .

(٣) مغازي الواقدي ١/ ١٧٦ - ١٧٩ .

وأخرج محمد بن إسحاق خبر حصار بني قينقاع وشفاعة ابن أبي وإجلائهم - سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩٧ - ٤٩٩ - ، وقد حسن الحافظ إسناده - فتح الباري ٧/ ٣٣٢- وأخرجه الإمام أبو داود مختصرا ، رقم ٣٠٠١ ، كتاب الخراج ، باب ٢٢ .

ومن هذا الخبر تتبين لنا العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين حيث وقف عبد الله بن أبي مع أولئك اليهود ، وتمسك بحلفهم ، ولا غرابة في ذلك فهم جميعا مشتركون في الكفر بالإسلام وعداوة النبي ﷺ .

كما يتبين لنا صفة أخرى من صفات المنافقين وهي أنهم كانوا لا يتوقعون انتصار الإسلام في النهاية بل كانوا يرجون زواله وانكسار شوكة المسلمين ، ولذلك قال عبد الله بن أبي : إني امرؤ أخشى الدوائر ، فقد كا ن يخشى زوال الإسلام ورجوع العصبية بين الأوس والخزرج كما هي عليه قبل الإسلام ، فهو لذلك يريد أن يستبقى حلفاءه من اليهود .

ويكشف لنا هذا الخبر عن حكمة رسول الله ﷺ البالغة حيث عدل عن قتل اليهود الذين نقضوا العهد تفاديًا لحدوث فتنة في مجتمع المؤمنين حيث إن بعض الأنصار كانوا حديثي عهد بالإسلام ويُخشى أن يؤثر فيهم رأس المنافقين عبد الله بن أبي لسمعته الكبيرة فيهم ، ولذلك لما تقادم العهد بهم ، ونقض بنو قريظة العهد أقدم على قتلهم ، حينما أمن من حدوث الفتنة في مجتمع المسلمين بسببهم .

وفي مقابل هذه الصورة القاتمة من المنافقين في ولائهم مع اليهود نجد صورة مضيئة لرجل من الأنصار له من حلف بني قينقاع في الجاهلية مثل ما لعبد الله بن أبي ولكنه تبرأ منهم وقطع علاقته بهم وآثر الله ورسوله والمؤمنين .

يقول ابن إسحاق رحمه الله : وحدثني أبي إسحاق بن يسار عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت ، قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي ابن سلول وقام دونهم .

قال : ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ ، وكان أحد بني عوف ، لهم من حلفه مثل الذي لهم من عبد الله بن أبي ، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله عز وجل وإلى رسوله ﷺ من حلفهم ، وقال : يارسول الله أتولّى الله ورسوله ﷺ والمؤمنين ، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم .

قال ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت هذه القصة من المائدة ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ** ﴾ قال : أي كعبد الله بن أُبي وقوله إني أخشى الدوائر ﴿ **يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ** ﴾ وذكر الآيات إلى أن قال : وذكر لتولّي عبادة بن الصامت الله ورسوله والذين آمنوا ، وتبرُّئه من بني قينقاع وحلفهم وولايتهم ﴿ **وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾(١) [**المائدة** : ٥٦] .

كما أننا نجد في هذا الخبر موقفين كريمين لرجلين من الأنصار أحدهما المنذر بن قدامة السَّلمي الأوسي رضي الله عنه وذلك في مجابهته القوية لعبد الله بن أبَيّ الذي أمر بحل كتاف اليهود ، فقال المنذر : أتحلُّون قوما ربطهم رسول الله ﷺ ؟ !والله لايحلهم رجل إلا ضربت عنقه .

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩٦ .

فهذا الموقف القوي الحازم جعل ابن أبي يتراجع عن أمره ويلجأ إلى استصدار الأمر من النبي ﷺ بفكّ أسرهم .

ولاشك أن مجابهة رجل قوي له سيادة في قومه كابن أُبي تحتاج إلى شجاعة وقلب قوي ، ومن أجل ذلك اختار رسول الله ﷺ المنذر لحراسة الأسرى .

أما الرجل الآخر فهو عويم بن ساعدة الأوسي ، وقد كان له موقف مشابه مع عبد الله بن أُبي ، حيث رده عويم بالقوة لما أراد أن يدخل على رسول الله ﷺ بغير إذن ، وكان من أثر ذلك إصابة ابن أُبي بشجة في وجهه حينما دفعه عويم بالقوة .

ولقد كان ابن أُبي يُدلُّ - في كلا الموقفين - بشرفه الذي ورثه من أيام الجاهلية ، فكان يتوقع - لاغتراره بذلك الشرف - أن أحدًا لن يستطيع أن يرد أمره ولا أن يمنعه من بلوغ مايريد ، ولقد باء بالفشل حينما شم رائحة الموت من المنذر بن قدامة ، وحينما أهينت كرامته على يد عويم بن ساعدة .

لقد كان عليه أن يدرك - لو كانت له بصيرة - بأن موازين الشرف قد تبدلت في الإسلام ، وأن أمر رسول الله ﷺ فوق كل أمر ، وطاعته أوجب من طاعة أي إنسان آخر ، ولقد أدرك ذلك أولو البصائر من أمثال المنذر بن قدامة وعويم بن ساعدة ، فكان منهما هذا الموقف المشرف .

وقال ابن إسحاق في بيان مانزل في بني قينقاع من الآيات :

فحدثني مولى لآل زيد بن ثابت عن سعيد بن جُبير ، أو عكرمة عن ابن عباس ، قال . مانزل هؤلاء الآياتُ إلا فيهم : ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا**

سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ﴾ أي أصحاب بدر من أصحاب رسول الله ﷺ ، وقريش ﴿ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾[1] [آل عمران : ١٢ ، ١٣] .

يعني أن الكفار يرون المسلمين مثليهم بعد أن التحمت المعركة مع أن عدد المسلمين ثلثهم تقريبا ، فهذه آية عظيمة من نصر الله تعالى أولياءه المؤمنين ، فليعتبر هؤلاء اليهود بما جرى للمسلمين من انتصارهم المؤزر على أعدائهم في بدر مع أن الذين حضروا هم طائفة من المسلمين ولم يخرجوا لقتال فكيف إذا توجهوا لقتال اليهود ؟ !

وإذا كان الله تعالى قد نصر المؤمنين في بدر بالرعب وبالآيات العظمى فإنه تعالى قادر على أن ينصرهم على كل أعدائهم بذلك .

* * *

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩٧ .

٧ – مثل من اهتمام النبي ﷺ بالجهاد

(غزوة السويق)

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام : حدثنا زيادُ بن عبد الله البكَّائي ، عن محمد بن إسحاق المُطلبي ، قال : ثم غَزَا أبو سُفيان بن حَرْب غَزْوة السَّويق في ذي الحجة [١] ، وولي تلك الحجة المشركون من تلك السنة ، فكان أبو سفيان – كما حدثني محمد بن جعفر بن الزّبير ، ويزيد بن رومان ، ومن لا أتهم ، عن عبد الله بن كعب بن مالك ، وكان من أعلم الأنصار – حين رجع إلى مكة ، ورجع فلُّ قُريش من بدر ، نذر أن لا يمس رأسه ماءٌ من جنابة حتى يغزوا محمداً ﷺ ، فخرج في مئتي راكب من قُريش ، ليبرّ بيمينه ، فسلك النجدية ، حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له ثيب ، من المدينة على بريد أو نحوه ، ثم خرج من الليل ، حتى أتى بني النضير تحت الليل ، فأتى حُيَيّ بن أخطب ، فضرب عليه بابه ، فأبى أن يفتح له بابه وخافه ، فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم ، وكان سيد بني النضير في زمانه ذلك ، وصاحب كنزهم ، فاستأذن عليه ، فأذن له ، فقراه وسقاه ، وبطن له من خبر الناس ، ثم خرج في عقب ليلته حتى أتى أصحابه .

فبعث رجالاً من قُريش إلى المدينة ، فأتوا ناحية منها ، يقال لها : العُريض ، فحرقوا في أصْوار [٢] من نخل بها ، ووجدوا بها رجلاً من الأنصار وحليفا له في حرث لهما ، فقتلوهما ، ثم انصرفوا راجعين .

---

(١) يعني من السنة الثانية للهجرة .

(٢) الأصوار جمع صور وهو النخل المجتمع المتقارب .

ونذر بهم الناس فخرج رسول الله ﷺ في طلبهم واستعمل على المدينة بشير بن عبد المنذر ، وهو أبو لبابة ، فيما قال ابن هشام حتى بلغ قرقرة الكدْر ، ثم انصرف راجعا ، وقد فاته أبو سفيان وأصحابه ، وقد رأوا أزوادا من أزواد القوم قد طرحوها في الحرث يتخففون منها للنجاء ، فقال المسلمون ، حين رجع بهم رسول الله ﷺ : يارسول الله أتطمع لنا أن تكون غزوة ؟ قال : نعم .

قال ابن هشام : وإنما سُميت غزوة السويق ، فيما حدَّثني أبو عُبيدة : أن أكثر ماطرحَ القومُ من أزْوادهم السَّويقُ فَهجَم المسلمون على سويق كثير ، فسُمِّيت غزوة السويق [1] .

وفي هذه الغزوة مواقف منها :

أولاً : شدة اهتمام النبي ﷺ بالجهاد ، فما يكاد يطرق المدينة طارق شرٌّ إلا ويكون ﷺ في مقدمة المنتدبين لملاحقة ذلك الطارق ، ولقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يظل في أمن وطمأنينة وأن يرسل سرية في كل أمر يهمه ، خاصة وأن لديه من الجنود من يفدونه بأرواحهم وما ملكت أيديهم .

ولكنه ﷺ مشرِّع للأمة ، فهو يطمح دائمًا إلى معالي الأمور ، والقمم العليا من الأعمال الصالحة ، لأنه قدوة حسنة للمؤمنين ، فإذا رأوه يخرج بنفسه إلى الجهاد في سبيل الله تعالى مع مقدرته على أن يُنيب عنه من يؤدِّي المهمة بنجاح ، فإنهم يتنافسون على هذا العمل الصالح

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩٣ .

وأخرجه الواقدي وذكر نحوه - مغازي الواقدي ١/ ١٨١ - .

العالي ، وبالتالي فإن الأمة المستقيمة على منهج نبيها ﷺ لن تمر عليها ظروف يقل فيها عدد المجاهدين عن حاجة المسلمين .

وقد أبان النبي ﷺ عن رغبته الشديدة في الجهاد بقوله الذي أخرجه الإمام البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه « والذي نفسي بيده لولا أن رجالا من المؤمنين لاتطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغدو في سبيل الله ، والذي نفسي بيده لوددت أني أُقتل في سبيل الله ثم أحيا ، ثم أقتل ثم أحيا ، ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل » (١) .

ثانيًا : قول الصحابة رضي الله عنهم « يارسول الله أتطمع أن تكون لنا غزوة ؟ قال : نعم » .

فهذا يعتبر تطبيقا عمليا لما رباهم عليه النبي ﷺ من حب الجهاد والأمل الكبير في ثوابه الجزيل ، فحينما رجعوا بدون قتال خافوا أن لاتكتب لهم تلك السفرة غزوة في سبيل الله تعالى ، فطمأنهم النبي ﷺ على حصول ما يحبون من ذلك .

❊ ❊ ❊

(١) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، رقم ٢٧٩٧ (٦/١٦) .

٨ – موقف لرسول الله ﷺ في الثبات والشجاعة –
(غزوة غَطَفَان بذي أمَرّ)

قال محمد بن عمر الواقدي رحمه الله تعالى :

وكانت في ربيع الأول ، على رأس خمسة وعشرين شهراً . خرج رسول الله ﷺ يوم الخميس لثنتي عشرة خلت من ربيع[1] ، فغاب أحد عشر يومًا .

ثم روى عن عدد من شيوخه أنهم قالوا : بلغ رسول الله ﷺ أنّ جمعًا من ثَعلبة ومُحارب بذي أمر ، قد تجمعوا يُريدون أن يُصيبوا من أطراف رسول الله ﷺ ، جمعهم رجلٌ منهم يقال له دُعْثور بن الحارث بن مُحارب .

فندب رسول الله ﷺ المسلمين ، فخرج في أربعمائة رجل وخمسين، ومعهم أفراس ، فأخذ على المُنَقَّى[2] ، ثم سلك مضيق الخُبَيت[3] ، ثم خرج إلى ذي القَصَّة[4] ، فأصاب رجلاً منهم بذي القصة يقال له جبار من بني ثعلبة ، فقالوا : أين تُريد ؟ قال : أريد يثرب . قالوا : وماحاجتك بيثرب ؟ قال : أردت أن أرتاد لنفسي وأنظر . قالوا : هل مررت بجمع ، أو بلغك خبر لقومك ؟ قال : لا ، إلا أنه قد بلغني أن دُعثور بن الحارث في أناس من قومه عُزل .

---

(١) يعني في السنة الثالثة للهجرة .

(٢) المنقى : اسم للأرض التي بين أحد والمدينة (وفاء الوفا ، ٢/ ٣٧٩) .

(٣) الخبيت : على بريد من المدينة (معجم ما استعجم / ٣٠٦) .

(٤) ذو القصة : موضع على بريد من المدينة تلقاء نجد . (وفاء الوفا ٢/ ٣٦٢).

فأدخلوه على رسول الله ﷺ فدعاه إلى الإسلام فأسلم ، وقال : يامحمد ، إنهم لن يُلاقوك ، إن سمعوا بمسيرك هربوا في رءوس الجبال ، وأنا سائرٌ معك ودالُّك على عَوْرَتهم . فخرج به النبي ﷺ وضمه إلى بلال ، فأخذ به طريقًا أهبطه عليهم من كَثيب ، وهربت منه الأعرابُ فوق الجبال ، وقبل ذلك ما قد غيّبوا سَرْحهم في ذُرَى الجبال وذراريِّهم ، فلم يُلاق رسول الله ﷺ أحدًا ، إلا أنَّه ينظر إليهم في رءوس الجبال .

فنزل رسول الله ﷺ ذا أمَرّ وعسكر معسكرهم فأصابهم مطرٌ كثيرٌ ، فذهب رسول الله لحاجته فأصابه ذلك المطر فبلَّ ثوبَه ، وقد جعل رسول الله وادي ذي أمَرّ بينه وبين أصحابه . ثم نزع ثيابه فنشرها لتَجفَّ ، وألقاها على شجرة ثم اضطجع تحتها والأعرابُ ينظرون إلى كلِّ مايفعل .

فقالت الأعراب لدُعْثور ، وكان سيّدها وأشجعها : قد أمكنك محمد ، وقد انفرد من أصحابه حيث إن غَوَّث بأصحابه لم يُغَثْ حتى تقتله . فاختار سيفًا من سيوفهم صارمًا ، ثم أقبل مُشتملاً على السيف حتى قام على رأس النبي ﷺ بالسيف مشهوراً ، فقال : يامحمد ، من يمنعك مني اليوم ؟ قال رسول الله ﷺ : الله ! قال : ودفع جبريل عليه السلام في صدره ووقع السيف من يده ، فأخذه رسول الله ﷺ ، وقام به على رأسه فقال : من يمنعك مني اليوم ؟ قال : لا أحد . قال : فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله ، والله ، لا أكثِّر عليك جمعًا أبدًا ! فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه ، ثم أدبر ، ثم أقبل بوجهه فقال : أما والله لأنت خير مني . قال رسو ل الله ﷺ : أنا أحق بذلك منك .

فأتى قومه فقالوا : أين ماكنت تقول وقد أمكنك والسيف في يدك؟ قال : والله ، كان ذلك ولكني نظرت إلى رجل أبيض طويل ، دفع في صدري فوقعت لظهري ، فعرفت أنه ملك وشهدت أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله ، والله لا أكثِّر عليه ! وجعل يدعو قومه إلى الإسلام ، ونزلت هذه الآية فيه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ** ﴾(١) الآية .

وكانت غيبة النبي ﷺ إحدى عشرة ليلة ، واستخلف النبي ﷺ على المدينة عثمان بن عفان رضي الله عنه (٢) .

وهكذا كان النبي ﷺ في غاية الثبات ورباطة الجأش والسيف مصلت عليه . وقد حمله رجل شجاع ، كما كان في غاية التوكل على الله تعالى حينما قال له دعثور : من يمنعك مني ؟ فقال : الله . والنبي ﷺ يعطي بهذا درسًا بليغًا في التوكل على الله جل وعلا واستحضار عظمته ومعيَّته لأوليائه بالنصر والتأييد ، وقد استفاد من ذلك أولياء الله تعالى على مر الزمن ، فمنع الله سبحانه عنهم أعداءهم وحماهم حتى من السباع المهلكة ، وكانت كرامات منه تعالى لأوليائه المؤمنين الصادقين .

---

(١) سورة المائدة / ١١ .

والمشهور عند المفسرين أن هذه الآية نزلت حينما أراد بنو النضير أن يفتكوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل إنها نزلت حينما أراد رجل أن يفتك بالنبي صلى الله عليه وسلم في غزوة ذات الرقاع ، ومعنى الآية ينطبق على الوقائع الثلاث .

(٢) مغازي الواقدي ١/ ١٩٣ - ١٩٦ .

وأخرجه ابن إسحاق مختصرا - سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩٥ - .

وأدرك ذلك الرجل الذي جاء ليغدر بالنبي ﷺ أنه ممنوع منه ، ورأى بعينه الملك الذي جاء يحميه ، حيث ظهر له بصورة رجل أبيض طويل فدفع في صدره حتى وقع لظهره ، فكان ذلك سببا في استسلامه وإسلامه ، وكفَّه الله تعالى بذلك وقومه عن المؤمنين لأنه كان فيهم سيداً مطاعا .

* * *

٩ – مواقف في الرصد الحربي الدقيق –
(سرية القَرَدَة) (١)

قال محمد بن عمر الواقدي : فيها زيد بن حارثة ، وهي أول سرية خرج فيها زيد رضي الله عنه أميراً ، وخرج لهلال جمادى الآخرة على رأس سبعة وعشرين شهراً .

حدثني محمد بن الحسن بن أسامة بن زيد ، عن أهله ، قالوا : كانت قريش قد حذرت طريق الشام أن يسلكوها ، وخافوا من رسول الله ﷺ وأصحابه ، وكانوا قوما تُجّاراً ، فقال صفوان بن أمية : إن محمداً وأصحابه قد عوّروا علينا متجرنا ، فما ندري كيف نصنع بأصحابه ، لايبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه ، فما ندري أين نسلك ، وإن أقمنا نأكل رءوس أموالنا ونحن في دارنا هذه ما لنا بها بقاء ، إنما نزلناها على التجارة ، إلى الشام في الصيف وفي الشتاء إلى أرض الحبشة .

قال له الأسود بن المطلب : فنكّب عن الساحل ، وخذ طريق العراق . قال صفوان : لست بها عارفًا . قال أبو زَمعة : فأنا أدلك على أخبر دليل بها يسلكها وهو مُغمض العين إن شاء الله . قال : من هو ؟ قال : فُرات بن حَيّان العجليّ ، قد دوّخها وسلكها . قال صفوان : فذلك والله ! فأرسل إلى فُرات . فجاءه فقال : إني أريد الشام وقد عور علينا محمدٌ متجرنا لأن طريق عيراتنا عليه ، فأردت طريق العراق . قال فُرات : فأنا أسلك بك في طريق العراق ، ليس يطؤها أحدٌ من أصحاب

---

(١) القردة : من أرض نجد بين الربَذة والغمرة ، ناحية ذات عرق . (طبقات ابن سعد ٢/ ٣٦).

محمد ، إنما هي أرض نجد وفياف . قال صفوان : فهذه حاجتي ، أما الفيافي فنحن شاتون وحاجتنا إلى الماء اليوم قليل .

فتجهز صفوان بن أمية ، وأرسل معه أبو زمعة بثلثمائة مثقال ذهب ونُقَر[١] فضة ، وبعث معه رجال من قريش ببضائع ، وخرج معه عبد الله بن أبي ربيعة وحُوَيطب بن عبد العُزى في رجال من قُريش . وخرج صفوان بمال كثير - نُقَر فضة وآنية فضة وزن ثلاثين ألف درهم ، وخرجوا على ذات عرق .

وقدم المدينة نُعيم بن مسعود الأشجعي ، وهو على دين قومه ، فنزل على كنانة بن أبي الحُقيق في بني النضير فشرب معه ، وشرب معه سليط ابن النعمان بن أسلم - ولم تُحَرَّم الخمر يومئذ - وهو يأتي بني النضير ويُصيب من شرابهم . فذكر نعيم خروج صفوان في عيره ومامعهم من الأموال ، فخرج من ساعته إلى النبي ﷺ فأخبره .

فأرسل رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في مائة راكب ، فاعترضوا لها فأصابوا العير . وأفلت أعيان القوم وأسروا رجلاً أو رجلين ، وقدموا بالعير على النبي ﷺ فخمَّسها ، فكان الخُمُس يومئذ قيمة عشرين ألف درهم ، وقسم مابقي على أهل السرية . وكان في الأسرى فُرات بن حَيّان ، فأُتيَ به فقيل له : أسلم ، إن تُسلم نتركْك من القتل ، فأسلم فتركه من القتل[٢] .

وأخرج ابن إسحاق خبر هذه السرية دون بعض التفاصيل المذكورة ،

---

(١) النقرة : القطعة المذابة من الذهب والفضة .

(٢) مغازي الواقدي ١/ ١٩٧ .

وذكر في آخر روايته أبياتًا لحسان بن ثابت رضي الله عنه يشيد فيها بجهود الصحابة رضي الله عنهم في حصار المشركين حيث يقول :

دعوا فَلَجات الشام قد حال دونها
جِلادٌ كأفواه المخاض الأوارك[1]

بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم
وأنصاره حقا وأيدي الملائك

إذا سلكَتْ للغور من بطن عالج
فقولوا لها : ليس الطريق هنالك[2][3]

في هذه السرية مواقف وعبر ، فمن ذلك :

أولاً : في الحوار الذي دار بين صفوان بن أمية وبعض زعماء قومه وصف للأثر الكبير الموجع الذي أحدثه ما قام به المسلمون بقيادة النبي ﷺ من ذلك الحصار التجاري المحكم على قوافل الكفار ، حيث أغلقوا عليهم الطريق الأساسي إلى الشام بما يقومون به من اعتراض قوافلهم ، فلجئوا إلى سلوك الطريق الشرقي البعيد المحفوف ببعض المخاطر ، ولكن المسلمين تنبَّهوا لذلك ، فكان بعث هذه السرية التي أفزعتهم وأوجعتهم .

(١) أي دعوا مزارع الشام وخيراته فقد حالت بينكم وبينها حرب ضروس كأفواه الإبل الحوامل التي ألفت أكل شجر الأراك ، والمقصود من ذلك تضخيم شأن الحرب التي أثارها المسلمون ضد تجارة أهل مكة .

(٢) يعني إذا سلكت عير قريش ذلك الطريق لتأمين تجارتهم فلن يظفروا لأن المسلمين قد رصدوا لهم في جميع الطرق مايعوق سيرهم .

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٠٠ .

وهكذا كان النبي ﷺ خبيراً دقيق المعرفة بالوسائل الحربية التي تُخضع الخصوم وتقضي على عوامل قوتهم ، فكانت حربُه موجهة لقريش من السنة الأولى للهجرة في مجال إضعاف مصدرهم الوحيد للقوة والتمكين، ألا وهو المجال التجاري ، حيث لم يكونوا أهل زراعة ولا صناعة ولا رعي ، فإذا انقطع موردهم التجاري الكبير إلى الشام رجعت معيشتهم إلى الكفاف ولم يستطيعوا بعد ذلك أن يمولوا المعارك الكبرى كما صنعوا يوم بدر .

ثانيًا : أن الله تعالى ساق نُعيم بن مسعود الأشجعي [١] ليبيت ليلة عند كنانة بن أبي الحقيق أحد زعماء اليهود ، ويشاء الله سبحانه أن يحضر معهما أحد المسلمين وهو سُليط بن النعمان بن أسلم بحكم الصداقة بينهم ، فيجرهم الحديث إلى أن أخبر نعيم عن عير قريش التجارية التي غيرت مجال سيرها تلك المرة ، ولعل هذا التغيير هو الذي لفت نظر نعيم فأصبح الحديث عن تلك العير ذا بال ، ويأخذ الخبر سُليط ويوصله للنبي ﷺ ، فيكون على أثره تجهيز تلك السرية .

وهكذا كان حديث الكفار بعضهم مع بعض في مجلس عادي نصراً للمسلمين ودحراً للكفار ، ولكن ذلك إنما تم ليقظة المسلمين ودقتهم في الرصد الحربي ، فسُليط لم يضيع تلك الفرصة بل سارع إلى إخبار النبي ﷺ بذلك الخبر ، وهذا يفيد بأن جميع أفراد المسلمين آنذاك – حتى غير المشهورين منهم – على وعي تام بقضاياهم في السلم والحرب ، وكانوا جميعًا جنود استخبارات لدولة الإسلام من غير أن يكلفوا بذلك ، ومن غير أن يتقاضوا على ذلك أجراً دنيويًا .

(١) سيأتي له ذكر في غزوة الخندق حيث أسلم وقام بدور فعال في نصر المسلمين .

فَالْوَاحد من الصحابة كان يقوم بعمل عدد من الناس في عصرنا الحاضر فهو في السلم طالب علم مجتهد في أداء الشعائر التعبدية ، يشارك في عمارة الأرض بزراعة أو صناعة أو تجارة أو رعي ، فإذا دعا داعي الحرب كانوا كلهم مشاركين فيها إما في وقت واحد إذا لزم الأمر أو بالتناوب ، وهو في السلم والحرب رجل استخبارات خبير يقظ حريص على مصلحة أمته ودولته .

ومن هذا المنطلق وجدنا سليط بن النعمان قد أفاد من مجلس واحد نصراً مؤزراً للمسلمين .

ثم إن هذا الخبر ما كان ليفعل فعله لو كانت قيادة المسلمين متوانية مترددة ، أو مشتَّتة الرأي متفرقة الكلمة ، لكنه و افق قيادة النبي ﷺ الحازمة الحكيمة المطاعة ، فكان تجهيز تلك السرية بتلك السرعة التي أدت إلى كسب الموقف لصالح المسلمين .

ثالثًا : موقف لحسان بن ثابت رضي الله عنه فيما قاله في هذه المناسبة من شعر قوي بليغ ، كان له أثر بالغ في رفع معنوية المسلمين ، وخفض معنوية الكفار وتيئيسهم من العثور على طرق يأمنون فيها على تجارتهم ما دام المسلمون الأبطال الأتقياء قد وقفوا لهم بالمرصاد ، مدعومين بقيادة حكيمة حازمة من النبي ﷺ مؤيدين بالملائكة الأطهار عليهم السلام ، الذين لاتنسب قوة البشر إلى قوتهم ، معتمدين قبل ذلك كله على خالق الكون ومدبره جل وعلا ، فأين سيذهب أولئك الكفار الأقزام أمام قوة القاهر الجبار جل وعلا ، ثم أمام جنوده من المؤمنين الصادقين والملائكة المقربين ؟ ! .

* * *

١٠ - مثل عال من البطولة الفدائية -
(مقتل كعب بن الأشرف)

لما أصيب المشركون في بدر وقُتل عدد من زعمائهم وأسر عدد آخرون أحدث ذلك اضطرابا وفزعا لدى سائر الكفار المجاورين لمكة والمدينة ، وبدؤوا يفكرون بجد ونشاط في وسائل حرب المسلمين ومحاولة القضاء عليهم أو إضعاف قوتهم .

وكان من هؤلاء الكفار الذين بذلوا جهدا كبيرا في التأليب على رسول الله ﷺ كعب بن الأشرف اليهودي .

قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى : وكان من حديث كعب بن الأشرف : أنه لما أصيب أصحاب بدر ، وقدم زيدُ بن حارثة إلى أهل السافلة ، وعبد الله بن رواحة إلى أهل العالية بَشيرَين ، بعثهما رسولُ الله ﷺ إلى من بالمدينة من المسلمين بفتح الله عز وجل عليه ، وقتل من قُتل من المشركين ، كما حدثني عبد الله بن المغيث بن أبي بردة الظفري ، وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، وصالح بن أبي أمامة بن سهل ، كلٌّ قد حدثني بعض حديثه ، قالوا : قال كعب بن الأشرف وكان رجلا من طيِّء ، ثم أحد بني نبهان ، وكانت أمُّه من بني النضير - حين بلغه الخبرُ : أحق هذا ؟ أترون محمداً قتل هؤلاء الذين يُسمِّي هذان الرجلان - يعني زيداً وعبد الله ابن رواحة - فهؤلاء أشرافُ العرب وملوكُ الناس ، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم ، لبطنُ الأرض خيرٌ من ظهرها .

فلما تيقن عدوّ الله الخبر ، خرج حتى قدم مكة ، فنزل على المطلب

ابن أبي وداعة بن ضُبيرة السهمي ، وعنده عاتكة بنت أبي العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، فأنزلته وأكرمته ، وجعل يحرض على رسول الله ﷺ ، ويُنشد الأشعار ، ويبكي أصحاب القليب من قريش ، الذين أصيبوا ببدر ، قال :

طَحَنتْ رحى بدر لمَهْلك أهله ولمثل بدر تستهل وتدمعُ
قُتلَتْ سَراةُ الناس حول حياضهم لاتبعدوا ، إن الملوك تُصرَّع

إلى أن قال :

نُبِّئتُ أنّ الحارث بن هشامهم في الناس يبني الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع ، وإنما يحمي على الحسب الكريمُ الأروع

قال ابن إسحاق : ثم رجع كعب بن الأشرف إلى المدينة فشَبَّب[1] بنساء المسلمين حتى آذاهم .

فقال رسول الله ﷺ كما حدثني عبدُ الله بن المغيث بن أبي بردة : من لي بابن الأشرف ؟ فقال له محمد بن مسلمة ، أخو بني عبد الأشهل : أنالك به يارسول الله ، أنا أقتله ، قال : فافعل إن قدرت على ذلك وجاء في رواية عروة « إن كنت فاعلاً فلا تعجل حتى تشاور سعد بن معاذ ، قال : فشاوره فقال له : توجه إليه واشك إليه الحاجة وسله أن يسلفكم طعاماً »[2] .

قال ابن إسحاق : فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثًا لا يأكل ولايشرب إلا ما يُعْلق به نفسه ، فَذُكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فدعاه ،

(١) أي تغزل .

(٢) فتح الباري ٧/ ٣٣٨ .

فقال له : لم تركت الطعام والشراب ؟ فقال : يارسول الله ، قلت لك قولا لا أدري هل أفيَنَّ لك به أم لا ؟ فقال : إنما عليك الجهد ، فقال : يارسول الله ، إنه لابد لنا من أن نقول [1] ، قال : قولوا ما بدا لكم ، فأنتم في حل من ذلك .

فاجتمع في قتله محمد بن مسلمة ، وسلكان بن سلامة بن وَقْش ، وهو أبو نائلة ، أحد بني عبد الأشهل ، وكان أخا كَعْب بن الأشرف من الرضاعة ، وعباد بن بشر بن وَقْش ، أحدُ بني عبد الأشهل ، والحارث ابن أوس بن مُعاذ ، أحد بني عبد الأشهل ، وأبو عبس بن جبر ، أحد بني حارثة .

ثم قدَّموا إلى عدوّ الله كعب بن الأشرف ، قبل أن يأتوه سلكان بن سلامة أبا نائلة ، فجاءه ، فتحدث معه ساعة ، وتناشدا شعراً ، وكان أبو نائلة يقول الشعر ، ثم قال : ويحك يابن الأشرف ! إني قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عني ، قال : أفعلُ ، قال : كان قُدوم هذا الرجل علينا بلاءً من البلاء ، عادتْنا به العرب ، وَرَمَتْنا عن قوس واحدة وقطعت عنَّا السُّبل حتى ضاع العيال ، وجُهدت الأنفس ، وأصبحنا قد جُهدنا وجهد عيالنا ، فقال كعب بن الأشرف : أما والله لقد كنتُ أخبرك يابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول ، فقال له سلكان : إني قد أردت أن تبيعنا طعاما ونرهنك ونُوثق لك وتُحسن في ذلك ، فقال : أترهنوني أبناءكم ؟ قال : لقد أردت أن تفضحنا إنّ معي أصحابا لي على مثل رأيي ، وقد أردتُ أن آتيك بهم ، فتبيعهم وتُحسن في ذلك ،

---

(١) يعني أن نقول فيك وفي الإسلام غير مانعتقد .

ونرهنك من الحلقة (١) مافيه وفاء ، وأراد سلكان أن لايُنكر السلاح إذا جاءوا بها ، قال : إن في الحلقة لوفاء .

جاء في رواية الإمام البخاري أن الذي ذهب إليه وخاطبه هو محمد بن مسلمة ، وقال الحافظ ابن حجر في ذلك : وقع في هذه الرواية الصحيحة أن الذي خاطب كعبا بذلك هو محمد بن مسلمة ، والذي عند ابن إسحاق وغيره من أهل المغازي أنه أبو نائله ، وأومأ الدمياطي إلى ترجيحه ، ويحتمل أن يكون كل منهما كلّمه في ذلك لأن أبا نائلة أخوه من الرضاعة ومحمد بن مسلمة ابن أخته(٢) .

قال ابن إسحاق : فرجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم خبره ، وأمرهم أن يأخذوا السلاح ثم ينطلقوا فيجتمعوا إليه فاجتمعوا عند رسول الله ﷺ .

قال ابن إسحاق : فحدثني ثور بن زيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : مشى معهم رسولُ الله ﷺ إلى بقيع الغرْقد ، ثم وجههم، فقال : انطلقوا على اسم الله ، اللهم أعِنْهُم ، ثم رجع رسولُ الله ﷺ إلى بيته ، وهو في ليلة مُقمرة .

وأقبلوا حتى انتهوا إلى حصنه ، فهتف به أبو نائلة ، وكان حديث عهد بعُرس ، فوثب في ملحفته ، فأخذت امرأته بناحيتها ، وقالت : إنك امرؤ محارب ، وإن أصحاب الحرب لاينزلون في هذه الساعة ، قال : إنه أبو نائلة ، لو وجدني نائما لما أيقظني ، فقالت : والله إني

---

(١) يعني السلاح .

(٢) فتح الباري ٧/ ٣٣٨ .

لأعرف في صوته الشر ، قال : يقول كعب : لو يُدعى الفتى لطعنة لأجاب فنزل فتحدث معهم ساعة ، وتحدثوا معه ، ثم قالوا : هل لك يابن الأشرف في أن نتماشى إلى شعب العجوز ، فنتحدث به بقية ليلتنا هذه ؟ قال : إن شئتم . فخرجوا يتماشون ، فمشوا ساعة ، ثم إن أبا نائلة شام يده في فَوْد رأسه [١] ، ثم شم يده ، فقال : مارأيت كالليلة طيبا أعطر قطُّ ، ثم مَشَى ساعة ، ثم عاد لمثلها حتى اطمأن ، ثم مشى ساعة ، ثم عاد لمثلها ، فأخذ بفود رأسه ، ثم قال : اضربوا عدوّ الله ، فضربوه ، فاختلفت عليه أسيافهم ، فلم تُغْن شيئًا .

قال محمد بن مسلمة : فذكرت مغْولاً [٢] في سيفي ، حين رأيت أسيافنا لاتغني شيئًا ، فأخذته ، وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصنٌ إلا وقد أوقدت عليه نارٌ ، قال : فوضعته في ثُنَّته [٣] ثم تحاملتُ عليه حتى بلغتُ عانته فوقع عدو الله ، وقد أصيب الحارث بن أوس بن مُعاذ ، فجرح في رأسه أو في رجله ، أصابه بعضُ أسيافنا .

قال : فخرجنا حتى سَلَكنا على بني أمية بن زيد ، ثم على بني قُريظة . ثم على بُعاث حتى أسْندنا في حَرَّة العُريض وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارث بن أوْس ، ونَزَفه الدم فوقفنا له ساعة ، ثم أتانا يتبع آثارنا قال : فاحتملناه فجئنا به رسول الله ﷺ آخر الليل ، وهو قائم يصلي ، فسلمنا عليه ، فخرج إلينا ، فأخبرناه بقتل عدو الله ، وتَفَل على جُرح صاحبنا ، فرجع ورَجَعنا إلى أهلنا فأصبحنا وقد خافت يهود

(١) يعني أدخل يده في شعره وفود الرأس جانبه .

(٢) المغول سيف دقيق له قفا كهيئة السكين .

(٣) الثُّنَّة ما بين السرة إلى العانة .

لوقعتنا بعدو الله ، فليس بها يهودي إلا وهو يخاف على نفسه(١) .

وقد ذكر ابن إسحاق والواقدي أشعاراً لبعض شعراء الصحابة رضي الله عنهم في الإشادة بما قام به هؤلاء الأبطال .

قال ابن إسحاق : فقال كعب بن مالك :

فغُودر منهم كعبٌ صريعا ... فذلّت بعد مصرعه النضيرُ

على الكفّين ثم وقد علَتْهُ ... بأيدينا مشهَّرةٌ ذكور (٢)

بأمر محمد إذ دسّ ليلاً ... إلى كعب أخا كعب يسير (٣)

فما كَرِهُ فأنزله بمكر ... ومحمودٌ أخو ثقة جسور (٤)

---

(١) أشار الحافظ ابن حجر إلى هذا الخبر وحكم على إسناده بأنه حسن (الفتح ٧/ ٣٣٨) .

وخبر مقتل كعب بمجمله أخرجه الإمام البخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه - صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٠٣٧ (٧/ ٣٣٦) .

وأخرجه الواقدي من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه ومن حديث يزيد بن رومان ، ومن حديث عبد الله بن كعب بن مالك ، وذكر نحو خبر ابن إسحاق - مغازي الواقدي ١/ ١٨٤ - .

وأخرجه الحافظ إسحاق بن راهويه في مسنده من حديث ابن عباس رضي الله عنهما . ذكره الحافظ ابن حجر في - المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية ٤/ ٢١٤-٢١٦ وقال : هذا إسناد حسن متصل .

وأخرجه الإمام أحمد مختصرا من حديث عبد الله بن كعب بن مالك عن عمه - ذكره الحافظ الهيثمي وقال : ورجاله رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٦/ ١٩٦ - .

(٢) مشهرة أي مرفوعة ، وذكور أي حادة .

(٣) يعني أخاه من الرضاعة وهو أبو نائلة .

(٤) يعني محمد بن مسلمة .

وقال حسان بن ثابت يذكر قتل كعب بن الأشرف وقتل سلام بن أبي الحقيق :

لـلـه در عصابـة لاقـيتـهـم ... يابن الحقيق وأنت يابن الأشرف

يَسْرُون بالبيض الخفاف إليكم ... مرحًا كأسْد في عـريـن مُغـرف[1]

حتى أتوكم في محل بلادكـم ... فسقوكـم حتفا ببيض ذُفَّف[2]

مُسْتَنصرين لنصر ديـن نبيِّهم ... مُسْتَصغرين لكل أمر مُجحف[3]

في هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولاً : اهتمام النبي ﷺ بقطع جذور الفساد والإفساد قبل استفحالها ، فقد كان خطر كعب بن الأشرف على المسلمين آنذاك عظيما لكونه سيدا من سادات اليهود ، ولكونه شاعراً ، والشعر له أثره الكبير عند العرب ، فكان لابد من القضاء عليه قبل أن ينجح في تأليب قريش والقبائل الأخرى على المسلمين فتكون تضحية المسلمين كبيرة والبلاء عليهم عظيما ، فلذلك انتدب النبي ﷺ محمد بن مسلمة وأصحابه لهذه المهمة .

وهذا الأمر من النبي ﷺ يدل على أن جهاد الكفار لايقتصر على مواجهتهم في ميدان المعارك ، وإنما يتعدى ذلك إلى كل عمل تحصل به النكاية بالأعداء ما لم يكن إثما ، فإن الأعداء يتمنون الفتك بالبارزين من المسلمين بأي صورة تكون لو قدروا على ذلك ، وقد يوفر القضاء على

---

(١) يسرون أي يسيرون ليلا ، والبيض هي السيوف ، ومُغرف أي كثير الشجر .

(٢) أي بسيوف سريعة القتل .

(٣) سيرة ابن هشام ٢/٥٠٩ - ٥١٠ .

رجل له دوره البارز في حرب المسلمين جهودا كبيرة وخسائر فادحة يتكبدها المسلمون .

وهذا مشروط بالأمن من الفتنة ، وذلك بأن يكون للمسلمين دولة وقوة ، بحيث لايترتب على العمل الفدائي فتك بالمسلمين ، وإفساد في مجتمعهم قد يضعف من مستوى الاستقامة الدينية والدعوة إلى الإسلام .

ثانيًا : ما جرى من محمد بن مسلمة رضي الله عنه من الانصراف عن الطعام والشراب إلا بقدر الضرورة حينما توجه لهذا الأمر .

وهذا مثل مما كان يتمتع به الصحابة رضي الله عنهم من الحساسية المرهفة نحو الشعور بالمسئولية ، لقوة إيمانهم بالله تعالى وعظيم خشيتهم منه ، وهذه الحساسية المرهفة تشغل تفكيرهم وتفتّق أذهانهم حتى يتعرفوا على السبل الموصلة إلى الغرض المقصود بإنتاج أكثر ومؤنة أيسر ، مع وضع الاحتياطات اللازمة للنجاح والبعد عن المخاطر المفسدة للعمل قبل نهايته .

ولما كان هذا الأمر الذي استعد له محمد بن مسلمة رضي الله عنه مما لا يضمن نجاحه لاحتمال أن يذاع السر قبل تنفيذه ، الأمر الذي يجعل ابن الأشرف يحتاط لنفسه كثيراً ، وقد يُقتل ابن مسلمة قبل أن ينفّذ ما التزم به ، وهو لايهمه إزهاق روحه إنما يهمه أن ينفذ أمر رسول الله ﷺ وليكن عليه من الأذى مايكون . . لما كان الأمر كذلك حصل منه ماحصل من التأثر والقلق ، وقد بيّن له رسول الله ﷺ أن عليه أن يبذل جهده في محاولة الوصول إلى الهدف وليس عليه إدراك الهدف ، لأن

الأقدار بيد الله عز وجل وحده ، ولو فكر كل إنسان بنتائج العمل ، وساورته الهموم من خوف الإخفاق فيه ، وعدم الوصول إلى النتائج المطلوبة لما أقدم على العمل إلا القليل من الناس ، وصدق القائل :

وعليَّ أن أسعى وليـ ـس علي إدراك النجاح

وحينما قال : يارسول الله إنه لابد من أن نقول - يعني أن نقول أمرًا مخالفا للحقيقة لنخدع به الرجل - قال : قولوا مابدا لكم فأنتم في حل من ذلك فسُرِّي عن محمد بن مسلمة وانجلَى عنه كثير من الهمِّ الذي كان يساوره ؛ إذ أنه كان يعلم أن نجاح مثل هذا الأمر لابد له من الحيلة لكسب ثقة العدو ثم الإيقاع به بعد ذلك ، ولما كان ذلك في ظاهره يخالف الأخلاق الإسلامية في المعاملة تردد في الإقدام عليه ، ثم استأذن رسول الله ﷺ فأذن له وبين أنهم لايرتكبون إثمًا في ذلك ما داموا في حال حرب ، وهذا موافق لقوله ﷺ « الحرب خُدْعَة »[1] .

وإنما أبيحت مخادعة الأعداء في الحرب مع أنها محرمة بين المسلمين لأنها من التمهيد للنكاية بالأعداء ، شأنها شأن تتبع غفلات العدو للإيقاع به .

وجاء في صحيح الإمامين البخاري ومسلم من حديث أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيرا أو يقول خيرا » قالت : ولم أسمعه يُرخِّص في شيء

(١) صحيح البخاري ، الجهاد ، رقم ٣٠٢٧ (٦/ ١٥٧) ، صحيح مسلم ، الجهاد رقم ١٧٤٠ (ص١٣٦٢) .

مما يقول الناس إلا في ثلاث : الحرب ، والإصلاح بين الناس وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها [1] .

وكل هذه الأمور مقيَّدة بحصول المصلحة للمسلمين والخلو من الإثم .

ثالثًا : في هذا الخبر مثل من المقدرة الفائقة على الحفاظ على السِّرِّية وذلك في كتمان هذه الخطة مع كثرة من في المدينة من اليهود والمنافقين ومع تأخر تنفيذها وكون النبي ﷺ عرض هذا الأمر في مشهد من الصحابة وجرت فيه مشورة ، وهذا دليل على قوة إيمان هؤلاء الصحابة وإخلاصهم لدينهم .

رابعًا : في قول رسول الله ﷺ « انطلقوا على اسم الله » تذكير لهم بإخلاص القصد والتجرد لله عز وجل واستصحاب ذكره ، ثم دعا لهم بهذه الدعوة الكريمة « اللهم أعنْهم » ولاشك أن هذا الدعاء الصادر ممن لاينطق عن الهوى قد زودهم بثقة كبيرة وقوة عالية ، فانطلقوا وهم على طمأنينة من نجاح أمرهم .

ومع ثقتهم بهذا الدعاء الكريم فإنهم لم يغفلوا الأسباب الموصلة بهم إلى نجاح مقصودهم لأن المسلم مأمور بالجمع بين التوكل على الله تعالى وأخذ الأسباب التي شرعها الله سبحانه .

وهكذا كان هؤلاء الصحابة المغامرون يقومون بتنفيذ أدوار الخطة المحكمة التي اتفقوا عليها حتى أدركوا مقصدهم الأسمى ، ورسول

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الصلح ، رقم ٢٦٩٢ (٥/ ٢٩٩) صحيح مسلم ، البر ، رقم ٢٦٠٥ (ص ٢٠١١) .

الله ﷺ معهم بإحساسه الكبير ومشاعره الفياضة لقد كانوا يقومون بتنفيذ العملية بعقولهم وأجسامهم ، ورسول الله ﷺ يتولى قيادتها العليا بالاتصال بالله تعالى ودعائه لهم بالنصر والإعانه .

إن الوسائل التي شرعها الله سبحانه للوصول إلى المقاصد المترتبة عليها تبقى لها فعاليتها ما لم يكن قدر الله تعالى يقضي بغير ذلك ، فعند ذلك تنزع منها فعاليتها ، وقد يكون ذلك بسبب دعاء أولياء الله الصالحين، وكم أمَّل المسلمون بالنصر وتشوقت له نفوسهم حينما يكون في معيتهم رجال صالحون يتوجهون إلى الله تعالى بالدعاء ، ويشعرون في قرارة نفوسهم بأن الله تعالى معهم بنصره وتأييده .

هذا وإن البطولة والفدائية في قتل ابن الأشرف لاتكمن في عملية قتله حينما تم إفراده من قومه فهي عملية يسيرة حتى لو كان مُقَابِلُهُ فردا واحدا من المسلمين ، لأن المسلم قد تم إعداده ليقف مقابل عشرة من الكفار ، وإنما البطولة والفدائية في كون هؤلاء الصحابة قد دخلوا منطقة من مناطق اليهود واستطاعوا بالحيلة استدراج ذلك الرجل ، مع أن الاحتمال وارد بأن يدرك اليهود خطرهم فيحيطوا بهم من كل جانب سواء بعد تنفيذ العملية أو قبلها ، فالقيام بهذا العمل بحدِّ ذاته يعتبر مغامرة جريئة .

وتم ما أراده الرسول ﷺ من إرهاب كل من تسوِّل له نفسه من اليهود أن ينقض العهد ويتعرض للمسلمين بالأذى ، كما جاء في سياق رواية ابن إسحاق « فأصبحنا وقد خافت يهود لوقعتنا بعدو الله ، فليس بها يهودي إلا وهو يخاف على نفسه » .

وهكذا تم تأديب هؤلاء الخائنين الناكثين العهد بقطع بعض رؤوس الشر فيهم ، وحين يكون الداء في العضو مستفحلا فإنه لايجدي معه الدواء وإنما يحُدُّ من استشرائه بتره وتخليص الأعضاء السليمة منه .

رابعًا : فيما جرى من كعب بن الأشرف من تصديق أولئك الصحابة الذين أتوا إليه متذمرين - ظاهرا - من وضعهم مع النبي ﷺ عبرة ، حيث كان كعب معروفا بالدهاء ، ولم يكن من المتعارف تصديق رجال جاؤوا من العدو بهذه السهولة ، ولقد أدركت امرأته خطورة الموقف ، ولم تكن المرأة هذه أدهى من ابن الأشرف ولكن قضاء الله ماض وحكمه نافذ ، فقد طغى على فكره حقده الأسود على رسول الله ﷺ وشوقه الشديد إلى تفريق أصحابه عنه ، ومازال لكلام أبي نائلة رنين في أذنيه ، فهو يؤمل أن يكسب به طائفة من أصحابه تكون مصدر إزعاج لرسول الله ﷺ ونواةً لتفريق الناس عنه ، وماذلك إلا سبب لمضيٍّ قدر الله تعالى ، ولاننسى دعاء النبي ﷺ لهؤلاء الرهط الكرام بالإعانة ، فما نزول هذا الرجل المحارب في هذه الساعة من الليل إلا سبب من أسباب النصر أجراه الله تعالى ليتم به ما قضاه وقدره من نصرة الحق وخذلان الباطل .

وإذا أراد الله سبحانه نصرة دينه على يد أوليائه المؤمنين هيأ لهم أسباب النصر وأعمى أعداءهم عن سبل الحذر والوقاية ، فلا يُفْزِعَنَّ المسلمين ما يملكه أعداؤهم من وسائل الهجوم وأسباب الوقاية فهي لاتردُّ شيئًا من قضاء الله وقدره ، ولو أن هؤلاء الرهط الكرام نظروا إلى حصن هذا الرجل الشامخ وكونه بين قومه وعشيرته لما أقدموا على محاولة القضاء عليه .

خامسًا : مما يتعلق بهذا الموضوع ما أخرجه الواقدي من حديث إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال : قال مروان بن الحكم وهو على المدينة وعنده ابن يامين النَّضْري : كيف كان قتل ابن الأشرف ؟ قال ابن يامين : كان غدرًا ، ومحمد بن مسلمة جالسٌ شيخٌ كبير ، فقال : يامروان ، أيغدر رسول الله عندك ؟ والله ، ما قتلناه إلاَّ بأمر رسول الله ﷺ ، والله لايُؤْويني وإياك سقفُ بيت إلا المسجد ، وأما أنت ياابن يامين ، فللّه عليّ إن أفلتَّ وقدرت عليك وفي يدي سيف إلا ضربتُ به رأسك ، فكان ابن يامين لاينزل في بني قُريظة حتى يبعث له رسولاً ينظر محمد بن مَسْلَمة ، فإن كان في بعض ضياعه نزل فقضي حاجته ثم صدر ، وإلا لم ينزل .

فبينا محمد بن مسلمة في جنازة وابن يامين بالبقيع ، فرأى نَعشًا عليه جرائدُ رطبةٌ لامرأة ، جاءَ فحلَّه . فقام الناس فقالوا : يا أبا عبد الرحمن ، ما تصنع ؟ نحن نكفيك ، فقام إليه فلم يزل يضربه بها جريدةً جريدةً حتى كسر تلك الجرائد على وجهه ورأسه حتى لم يترك فيه مَصَحًا ، ثم أرسله ولاطَبَاخَ(1) به ، ثم قال : والله لو قدرتُ على السيف لضربتك به(2) .

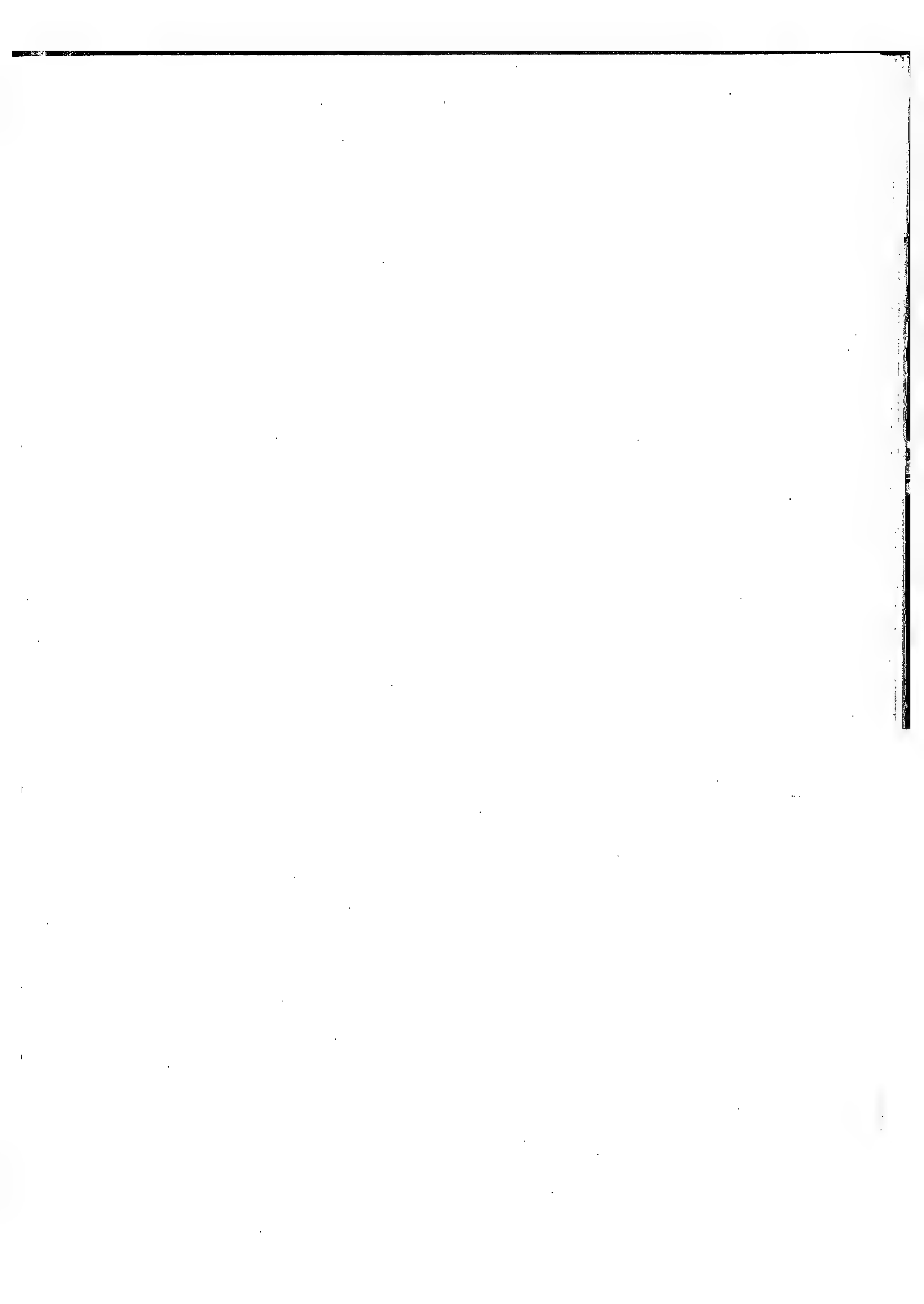
فهذا موقف يذكر لمحمد بن مسلمة رضي الله عنه في غيرته الدينية ودفاعه عن رسول الله ﷺ وقيامه بتعزير من تطاول عليه واتهمه بالغدر .

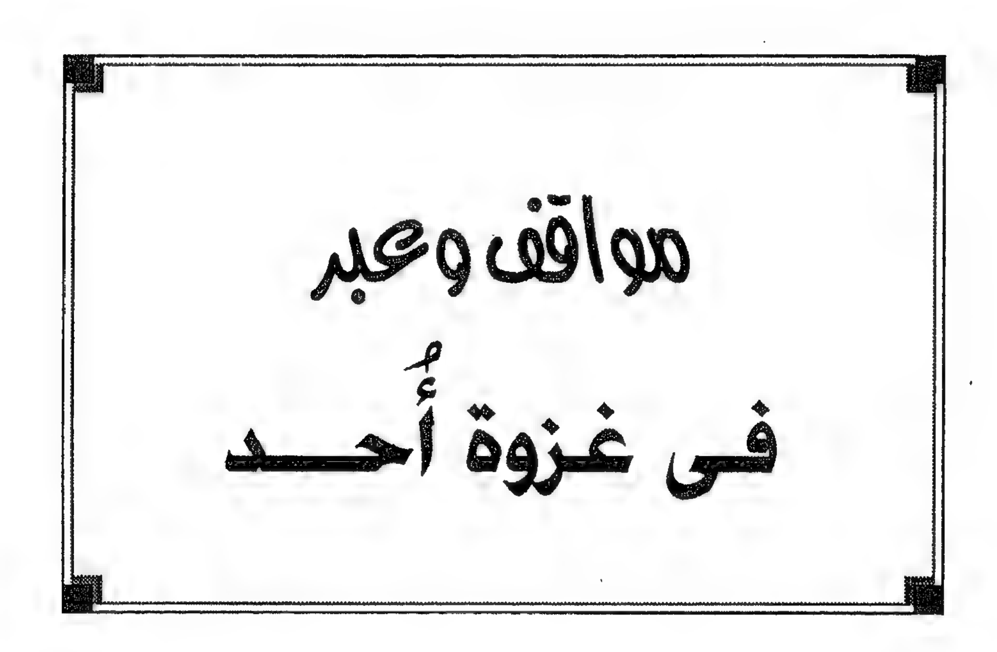
* * *

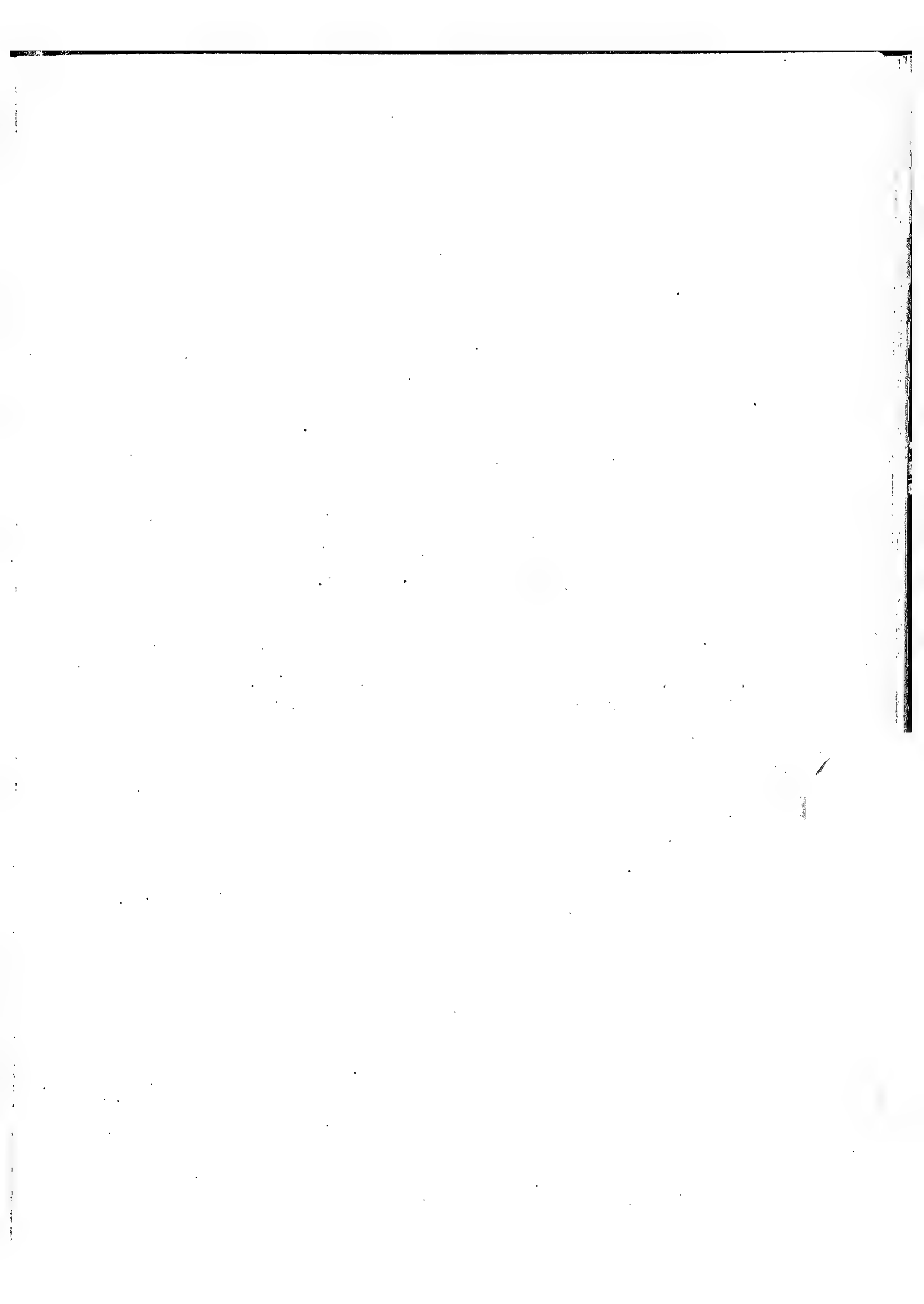
---

(1) أي لاقوة به .

(2) مغازي الواقدي 1/ 192 - 193 .




مواقف وعبر
فى غزوة أُحـــد



١ - اجتماع قريش وأحلافهم على غزو المسلمين -

قال الإمام محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى : وكان من حديث أحد كما حدثني محمد بن مُسلم الزُّهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ وغيرهم من علمائنا ، كلهم قد حدث بعض الحديث عن يوم أحد . وقد اجتمع حديثهم كله فيما سقتُ من هذا الحديث عن يوم أحد ، قالوا أو من قاله منهم :

لما أُصيب يوم بدر من كفار قريش أصحابُ القليب ، ورجع فَلُّهم[١] إلى مكة ، ورجع أبو سُفيان بن حرب بعيره[٢] ، مَشَى عبد الله بن أبي ربيعة ، وعكرمة ابن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، في رجال من قريش ، ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر فكلموا أبا سُفيان ابن حرب ، ومن كانت له في تلك العير من قُريش تجارة ، فقالوا : يامعشر قُريش إن محمداً قد وتركم ، وقتل خياركم ، فأعينُوا بهذا المال على حَربه ، فلعلنا نُدرك منه ثأرنا بمن أصاب منا ، ففعلوا .

فاجتمعت قريشٌ لحرب رسول الله ﷺ حين فعل ذلك أبو سُفيان بن حرب ، وأصحاب العير بأحابيشها[٣] ، ومن أطاعها من قبائل كنانة ، وأهل تهامة .

---

(١) أي بقيتهم المهزومة .

(٢) بكسر العين والراء يعني القافلة .

(٣) الأحابيش قبائل تحالفت على النصرة وحالفت قريشا على ذلك وقيل إنها سميت بذلك لأنها تحالفت عند جبل حبشي بأسفل مكة وقيل سميت بذلك لاجتماعهم ، والتجمع في كلام العرب هو التحبُّش ، - عيون الأثر ٢/ ٢٥ - .

وقال محمد بن عمر الواقدي في روايته : وخرجت قريش وهم ثلاثة آلاف بمن ضوى إليهم ، وكان فيهم من ثقيف مائة رجل ، وخرجوا بعدة وسلاح كثير ، وقادوا مائتي فرس ، وكان فيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير (١) .

وذكر ابن إسحاق أنهم حينما وصلوا المدينة نزلوا حول جبل عَيْنَين ببطن السبخة على شفير الوادي (٢) وذلك جهة جبل أحد .

تبين لنا من هذا الخبر أن كفار قريش ومن حالفهم قد اجتمعوا على محاربة المسلمين في المدينة .

وسبق لنا بيان ماحصل على الكفار في معركة بدر من الهزيمة وفقد عدد كبير من سادتهم ، ووقوع عدد آخرين أسرى بأيدي المسلمين .

وكان من نتائج ذلك أن صمم هؤلاء الكفار على غزو المسلمين في عُقْر دارهم في المدينة ، وكان قصدهم استئصالهم والقضاء على دينهم .

ولو نظرنا إلى الموضوع بنظرة مجردة عن اعتبار العقيدة وأن المسلمين يدافعون عن دينهم الحق وأن الكفار يدافعون عن دينهم الباطل فإن تذكر مافعله المشركون بالمسلمين من الأذى وهم في مكة على مدى عشر سنوات منذ أن جهر النبي ﷺ بدعوته ، وما قاموا به عند هجرتهم من تجريدهم من أموالهم والاستيلاء على مساكنهم يجعل هؤلاء المسلمين في نظر العقلاء مظلومين ظلمًا منكرًا من الكفار ، وأن ما أصاب قوافل المشركين التجارية أو أصابهم في بدر يعتبر قليلاً بالنسبة لما أصابوا من

---

(١) مغازي الواقدي ١/ ٢٠٣ .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٣-٧ .

المسلمين قبل ذلك وهم مجردون من القوة ، فكانت النظرة الصحيحة والتفكير السليم - لو كانوا يعقلون - أن يقوموا بتصحيح خطئهم الفادح الذي ارتكبوه مع المسلمين الذين أصبحت لهم دولة قوية في المدينة ، وذلك بعقد الصلح معهم وتعويض المهاجرين عن كل ما فقدوه من أموالهم .

ولكنهم مازالوا على عنجهيتهم واستكبارهم وجهلهم حيث لم يعترفوا بخطئهم الذي ارتكبوه ضد المسلمين ، ومازالوا يعتبرون أن المسلمين ضعفاء وأنهم ليس لهم كيان قوي يُخشى منه ، فلذلك كان عزمهم على غزو المسلمين في المدينة .

* * *

٢ - بَعْثُ الحباب بن المنذر لمعرفة جيش المشركين -

قال محمد بن عمر الواقدي في سياق رواية له : فلما نزلوا [يعني المشركين] وحلُّوا العُقد واطمأنُّوا ، بعث رسول الله ﷺ الحباب بن المُنذر بن الجموح إلى القوم ، فدخل فيهم وحَزَر ونظر إلى جميع مايُريد ، وبعثه سراً وقال للحباب : لاتُخبرني بين أحد من المسلمين إلا أن ترى قلَّة .

فرجع إليه فأخبره خاليًا ، فقال له رسول الله ﷺ : ما رأيت؟ قال : رأيت يارسول الله عددًا ، حزرتهم ثلاثة آلاف ، يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً ، والخيل مائتي فرس ، ورأيت دروعًا ظاهرة . حزرتها سبعمائة درع . قال : هل رأيت ظُعُنًا ؟ قال : رأيت النساء معهن الدِّفاف والأكبار - الأكبار يعني الطبول - فقال رسول الله ﷺ : أردْن أن يُحرّضن القوم ويُذكّرنهم قتلى بدر ، هكذا جاءني خبرهم ، لاتذكر من شأنهم حرفًا ، حسبُنا الله ونعم الوكيل ، اللّهم بك أجولُ وبك أصولُ[١] .

في هذا الخبر بيان اهتمام النبي ﷺ بمعرفة حجم جيش الكفار ومدى استعدادهم وقوتهم ، وهذا أمر ضروري للاستعداد ووضع الخطط المناسبة .

وقوله ﷺ للحباب « لاتخبرني بين أحد من المسلمين إلا أن ترى قلة» بيان لأهمية المحافظة على قوة معنوية المجاهدين وارتفاع حماسهم .

---

(١) مغازي الواقدي ١/ ٢٠٧ - ٢٠٨ .

وفي هذا الخبر موقفان للحباب بن المنذر رضي الله عنه :

الأول : في شجاعته حيث استطاع أن يدخل في جيش المشركين ويقوم بمهمة تقدير عددهم وعدتهم ، وهذه المهمة لايكفي فيها أن يجول حولهم من بعيد لأن ذلك لا يتيح له فرصة الاطلاع الكافي ، والأرقام التي قدمها للنبي ﷺ تدل على أنه قد دخل في جيشهم ، وتلك مغامرة جريئة لايقوم بها إلا من كانوا يجمعون بين الشجاعة والحذر .

والموقف الثاني : في دقة رصده الحربي حيث أفاد عن عددهم وعدد خيولهم وأدراعهم بما يوافق الإحصاءات التي تمت بعد ذلك أو يقاربها ، وهذه خبرة حربية عالية ، ولقد أحسن النبي ﷺ الاختيار حينما اختار الحباب لهذه المهمة .

وأخيرًا موقف جليل وذلك في جواب النبي ﷺ للحباب حيث قال : « حسبنا الله ونعم الوكيل اللهم بك أجول وبك أصول » وهذا يدل على قوة التوكل على الله تعالى حيث لم يذكر في ذلك الموقف الرهيب غير الله جل وعلا ، وهذا هو أهم عوامل النصر .

إن عوامل النصر المادية يشترك فيها المؤمنون والكفار ولكن العامل الوحيد الذي يختص به المؤمنون هو التوكل على الله سبحانه ، وبهذا العامل القوي العظيم انتصر رسول الله ﷺ على اعدائه وانتصر المؤمنون من بعده على أعدائهم .

* * *

٣ - موقف ثبات لسلمة بن سلامة بن وَقْش -

قال محمد بن عمر الواقدي في سياق رواية له : وخرج سلمة بن سلامة بن وقش يوم الجمعة حتى إذا كان بأدنى العرْض [١] إذا طليعة خيل المشركين عشرة أفراس ، فركضوا في أثره فوقف لهم على نشز من الحَرَّة ، فراشقهم بالنبل مرة وبالحجارة مرة حتى انكشفوا عنه . فلما ولَّوا جاء إلى مزرعته بأدنى العرض ، فاستخرج سيفًا كان له ودرع حديد كانا دُفنا في ناحية المزرعة ، فخرج بهما يعدو حتى أتى بني عبد الأشهل فخبر قومه بما لقي منهم . وكان مَقْدَمهم يوم الخميس لخمس ليال خلون من شوال ، وكانت الوقعة يوم السبت لسبع خلون من شوال [٢] .

هذا الخبر يدل على شجاعة سلمة بن سلامة بن وقش الأنصاري رضي الله عنه وقوة احتماله حيث ثبت أمام عشرة من الفرسان ، ولقد أعطى المشركين بذلك درسًا بليغاً في الصبر والثبات ، وهذا شاهد على أن الكفار لايبذلون في الحرب إلا جزءاً يسيرا من طاقتهم ، لأنهم يهتمون قبل كل شيء بالدفاع عن أنفسهم واستبقاء حياتهم ، وأن المؤمن الحق يبذل طاقة كبيرة تعادل طاقة عشرة من الكفار أو أكثر .

* * *

(١) العرض بكسر العين مكان يزرع فيه أهل المدينة مابين الوطاء بأحد إلى الجرف إلى العرصة - مغازي الواقدي ١/ ٢٠٧ .

(٢) مغازي الواقدي ١/ ٢٠٨ .

٤ – مواقف إيمانية فدائية –

(خبر رؤيا رسول الله ﷺ ومشورة أصحابه)

قال محمد بن عمر الواقدي : فحدثني محمد بن صالح . عن عاصم بن عمر بن قتادة . عن محمود بن لَبيد . قال : ظهر النبي ﷺ على المنبر . فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال : أيها الناس . إني رأيت في منامي رؤيا ، رأيت كأني في درع حصينة . ورأيت كأنَّ سيفي ذا الفَقار انقصم من عند ظُبته (١) . ورأيت بقرًا تُذبح . ورأيت كأني مُردفٌ كبشاً .

فقال الناس : يارسول الله ، فما أوّلتَها ؟ قال : أما الدِّرع الحصينة فالمدينة . فامكثوا فيها ، وأما انقصام سيفي من عند ظُبته فمُصيبةٌ في نفسي ، وأما البقر المُذبَّح . فقتلَى في أصحابي ، وأما مُردفٌ كَبشًا . فكبش الكتيبة نقتله إن شاء الله .

قال : وحدثني عمر بن عُقبة ، عن سعيد . قال : سمعت ابن عباس يقول قال النبي ﷺ : وأما انقصام سيفي . فقتل رجل من أهل بيتي .

ثم قال : حدثني محمد بن عبد الله . عن الزهري ، عن عروة ، عن المسور بن مخْرَمة . قال : قال النبي ﷺ : ورأيت في سيفي فَلاً فكرهته . فهو الذي أصاب وجهه ﷺ .

وقال النبي ﷺ : أشيروا عليّ ! ورأى رسول الله ﷺ ألاَّ يخرج من المدينة لهذه الرؤيا ، فرسول الله ﷺ يُحبّ أن يُوافق على مثل ما رأى وعلى ما عبَّر عليه الرؤيا . ثم ذكر رأي عبد الله بن أُبي بن سلول الموافق

---

(١) أي من طرفه .

لرأي النبي ﷺ إلى أن قال : فقال فتيانٌ أحداثٌ لم يشهدوا بدراً ، وطلبوا من رسول الله ﷺ الخروج إلى عدوّهم ، ورغبوا في الشهادة ، وأحبّوا لقاءَ العدوّ : اخرجْ بنا إلى عدوّنا ! وقال رجالٌ من أهل السنّ وأهل النِّيَّة ، منهم حمزة بن عبد المطلب ، وسعد بن عبادة ، والنعمان بن مالك بن ثَعْلَبَة ، في غيرهم من الأوس والخزرج : إنا نَخْشَى يارسول الله أن يظنّ عدوّنا أنَّا كرهنا الخروج إليهم جُبنًا عن لقائهم ، فيكون هذا جُرأةً منهم علينا ، وقد كنت يوم بدر في ثلثمائة رجل فظفرك الله عليهم ، ونحن اليوم بشرٌ كثيرٌ ، قد كنَّا نتمنّى هذا اليوم وندعو الله به ، فقد ساقه الله إلينا في ساحتنا . ورسول الله ﷺ لما يرى من إلحاحهم كاره ، وقد لبسوا السلاح يخطرون بسيوفهم ، يتسامون (١) كأنهم الفحول .

وقال مالك بن سنان أبو أبي سعيد الخُدري : يارسول الله ، نحن والله بين إحدى الحُسنيين - إما يُظفرنا الله بهم فهذا الذي نُريد ، فيُذلهم الله لنا فتكون هذه وقعة مع وقعة بدر ، فلا يبقى منهم إلا الشريد ، والأخرى يارسول الله ، يرزقنا الله الشهادة . والله يارسول الله ، ما أبالي أيهما كان ، إنَّ كُلاً لفيه الخير ! فلم يبلغنا أنَّ النبي ﷺ رجع إليه قولاً ، وسكت .

فقال حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه : والذي أنزل عليك الكتاب ، لا أطعَمُ اليوم طعامًا حتى أجالدهم بسيفي خارجًا من المدينة ، وكان يقال : كان حمزة يوم الجمعة صائمًا ، ويوم السبت صائمًا ، فلاقاهم وهو صائم .

---

(١) يتسامون : يتبارون . (القاموس المحيط ، ج٤ ، ص ٣٤٤) عن هامش المغازي .

قالوا : وقال النُّعمان بن مالك بن ثَعْلَبة أخو بني سالم : يارسول الله ، أنا أشهد أنَّ البقر المُذبَّح قتلَى من أصحابك وأنهم منهم ، فلمَ تحرمنا الجنَّة ؟ فو الذي لا إله إلا هو لأدخلنَّها . قال رسول الله ﷺ : بمَ؟ قال : أنّي أُحبّ الله ورسوله ولا أفرّ يوم الزَّحف . فقال رسول الله ﷺ : صدقت ! فاستُشهد يومئذ .

وقال إياس بن أوس بن عَتيك : يارسول الله ، نحن بنو عبد الأشهل من البقر المُذبح ، نرجو يارسول الله أن نُذبح في القوم ويُذبح فينا . فنصير إلى الجنَّة ويصيرون إلى النار . مع أنّي يارسول الله لا أُحب أن ترجع قُريش إلى قومها فيقولون : حصرنا محمداً في صياصي يثرب وآطامها ! فيكون هذا جُرأة لقُريش ، وقد وطئوا سَعَفَنا فإذا لم نذُبّ عن عرضنا [1] لم نزرع ، وقد كنَّا يارسول الله في جاهليتنا والعرب يأتوننا ، ولا يطمعون بهذا منا حتى نخرج إليهم بأسيافنا حتى نذبهم عنَّا ، فنحن اليوم أحق إذ أيدنا الله بك ، وعرفنا مصيرنا ، لانحصر أنفسنا في بيوتنا .

وقام خيثمة أبو سعد بن خَيثمة فقال : يارسول الله ، إن قُريشًا مكثت حولاً تجمع الجموع وتستجلب العرب في بواديها ومن تبعها من أحابيشها ، ثم جاءونا قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا فيحصروننا في بيوتنا وصياصينا ، ثم يرجعون وافرين لم يُكلموا [2] ، فيُجرئهم ذلك علينا حتى يشنُّوا الغارات علينا ، ويُصيبوا أطرافنا ، ويضعوا العيون والأرصاد علينا ، مع ماقد صنعوا بحروثنا ، ويجترئ علينا العرب حولنا حتى يطمعوا فينا إذا رأونا لم نخرج إليهم ، فنَذُبُّهم

(١) العرضُ مكان يزرعون فيه كما تقدم .

(٢) أي لم يجرحوا .

عن ديارنا وعسى الله أن يظفرنا بهم فتلك عادة الله عندنا ، أو تكون الأخرى فهي الشهادة ، لقد أخطأتْني وقعة بدر وقد كنت عليها حريصا ، لقد بلغ من حرصي أن ساهمت ابني في الخروج فخرج سهمه فرُزق الشهادة ، وقد كنت حريصًا على الشهادة ، وقد رأيت ابني البارحة في النوم في أحسن صورة ، يسرح في ثمار الجنة وأنهارها وهو يقول : الْحقْ بنا تُرافقنا في الجنة ، فقد وجدت ما وعدني ربي حقا وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقا إلى مرافقته في الجنة ، وقد كبرت سني ، ورق عظمي ، وأحببت لقاء ربي ، فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة سعد في الجنة . فدعا له رسول الله ﷺ بذلك ، فقتل بأحد شهيدا .

وقالوا : قال أنس بن قتادة : يا رسول الله ، هي إحدى الحسنيين ، إما الشهادة وإما الغنيمة والظفر في قتلهم . فقال رسول الله ﷺ : إني أخاف عليكم الهزيمة .

قالوا : فلما أبوا إلا الخروج صلى رسول الله ﷺ الجمعة بالناس . ثم وعظ الناس وأمرهم بالجد والجهاد ، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا . ففرح الناس بذلك حيث أعلمهم رسول الله ﷺ بالشخوص إلى عدوهم ، وكره ذلك المخرج بشر كثير من أصحاب رسول الله ﷺ . وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم . ثم صلى رسول الله ﷺ العصر بالناس وقد حشد الناس وحضر أهل العوالي ، ورفعوا النساء في الآطام ، فحضرت بنو عمرو بن عوف ولَفُّها والنبيت ولفها وتلبَّسوا السلاح .

فدخل رسول الله ﷺ بيته ، ودخل معه أبو بكر وعمر رضي الله

عنهما، فعمَّماه ولبَّساه، وصفَّ الناس له ما بين حجرته إلى منبره، ينتظرون خروجه. فجاءهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير فقالا: قلتم لرسول الله ﷺ ما قلتم، واستكرهتموه على الخروج، والأمر ينزل عليه من السماء، فردوا الأمر إليه، فما أمركم فافعلوه وما رأيتم له فيه هوى أو رأي فأطيعوه.

فبينا القوم على ذلك من الأمر، وبعض القوم يقول: القول ما قال سعد وبعضهم على البصيرة على الشخوص، وبعضهم للخروج كاره، إذ خرج رسول الله ﷺ، قد لبس لأمته [1]، وقد لبس الدرع فأظهرها، وحزم وسطها بمنطقة من حمائل سيف من أدم [2]، كانت عند آل أبي رافع مولى رسول الله ﷺ بعد، واعتم، وتقلد السيف. فلما خرج رسول الله ﷺ ندموا جميعا على ما صنعوا، وقال الذين يلحون على رسول الله ﷺ: ما كان لنا أن نلح على رسول الله في أمر يهوى خلافه. وندَّمهم أهل الرأي الذين كانوا يشيرون بالمقام، فقالوا: يا رسول الله، ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك، وما كان لنا أن نستكرهك والأمر إلى الله ثم إليك. فقال: قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم، ولا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه.

وكانت الأنبياء قبله إذا لبس النبي لأمته لم يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه. ثم قال رسول الله ﷺ: انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه، امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم [3].

---

(١) أي سلاحه.

(٢) أي من جلد.

(٣) مغازي الواقدي ١/ ٢٠٩ - ٢١٤.

وقد يقال: لماذا لم يعمل النبي ﷺ بالرؤيا التي رآها والتي مفادها الإقامة بالمدينة وعدم الخروج منها لقتال الأعداء مع أن رؤيا الأنبياء عليهم السلام حق ووحي؟ولماذا فتح باب الشورى مع وضوح الأمر في هذه الرؤيا؟

ويمكن أن يقال: إن تلك الرؤيا تشتمل على الأمرين: البقاء في المدينة مع قتال الأعداء فيها والخروج لقتالهم، ويمثّل الأمر الأول من الرؤيا قول رسول الله ﷺ «رأيت كأني في درع حصينة»، ويمثل الأمر الثاني قوله«ورأيت كأن سيفي ذا الفقار انقصم من عند ظبته، ورأيت بقرا تذبح»، فكأن هذه الرؤيا تخيير للنبي ﷺ بين الأمرين، وكان ﷺ رحيما بالمؤمنين، ولم يخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، فلذلك رأى البقاء في المدينة إشفاقا على أصحابه، ثم استشار أصحابه في أحد الأمرين، فلما رأى كثرة المشيرين بالخروج وشدة حماسهم وقوة اندفاعهم كره مخالفتهم ورغب في تلبيةمطالبهم وتحقيق طموحاتهم، فعدل عن رأيه وأخذ برأيهم.

فالنبي ﷺ لم يخالف أمر الله تعالى في الرؤيا وإنما أخذ بأحد أمرين

= وأخرجه ابن إسحاق باختصار - سيرة ابن هشام ٣/ ٥-٨ .

وذكره الحافظ الهيثمي من رواية الإمام أحمد مختصرا قال: ورجاله رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٦/ ١٠٧ .

وأخرجه الحاكم مختصرا وصححه وأقره الذهبي - المستدرك ٢/ ١٢٨-١٢٩ .

وأخرج الإمامان البخاري ومسلم خبر الرؤيا فقط من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه - صحيح البخاري، المغازي، رقم ٤٠٨١(٧/ ٣٧٤)، صحيح مسلم، رقم ٢٢٧٢(ص١٧٧٩)، كتاب الرؤيا .

خُيِّر فيهما بعد ما استشار أصحابه، فلا حاجة إلى القول بأن الرؤيا نسخت كما قال بعض العلماء لأن ذلك لم يثبت، ولأن الرؤيا ليس فيها أمر صريح بأحد الأمرين.

وفي هذا الخبر مواقف منها:

أولا: اهتمام النبي ﷺ باستشارة أصحابه مع أنه قد رأى في الرؤيا ما يؤيد أحد الأمرين اللذين استشارهم فيهما، وهو الإقامة في المدينة وقتال الأعداء من داخلها، وهذا يبين لنا أهمية الشورى في أمور المسلمين وخاصة المهمة منها.

ومما يزيد هذا الموقف بهاء وعظمة أن النبي ﷺ نزل عن رأيه إلى رأي المخالفين له المتحمسين للقتال خارج المدينة، وهو بذلك يضرب مثلا عاليا للمسئولين من أمته بأن لا يصروا على رأيهم وإن رأوا أنه الأقرب إلى الصواب.

ثانيا: في هذا الخبر تصوير لشجاعة المسلمين واندفاعهم القوي نحو الجهاد الذي هو مظنة ذهاب النفوس أو بعض الأعضاء، وحينما تأتي الأوامر من النبي ﷺ بالخروج للقتال فإن الاستجابة قد تكون من باب الطاعة وتنفيذ الأمر، ولكن حينما يكون رأي النبي ﷺ في لزوم المدينة والتحصن بها ثم يندفع هؤلاء المتحمسون إلى طلب الخروج فإن ذلك لا يفسَّر إلا بأنه شوق بالغ إلى الجهاد في سبيل الله تعالى، ومن وراء ذلك الشوق العظيم إلى الظفر برضوان الله تعالى والجنة.

ونجد أن هؤلاء الصحابة يندفعون إلى الجهاد مع ما ظهر لهم في تأويل النبي ﷺ لرؤياه بأن جماعة من صحابته سيقتلون، والصحابة

يعلمون أن رؤيا الأنبياء عليهم السلام حق، فلم يكن ذلك مثبطا لهم عن الخروج، بل كان بضد ذلك حافزا قويا لهم على الخروج للجهاد لأن الشهادة في سبيل الله تعالى هي أسمى أمانيهم.

ثالثا: في هذا الخبر موقف حازم قوي لرسول الله ﷺ حيث قال: «لا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه» فالمشورة وتبادل الرأي قبل العزم الأخير الذي يصل إلى حد التصميم والذي تمثل في هذا الموقف بلبس النبي ﷺ آلة الحرب و استعداده لذلك، وفي هذا درس بليغ للقادة ليجتنبوا حياة التردد الذي يفضي إلى الشقاق وفتور الحماس، وإذا وقع الشقاق ضاع أهم عامل من عوامل القوة وهو اجتماع الكلمة، وإذا فتر الحماس ضعف مستوى الأداء وبذل الطاقة.

ففي هذا الخبر يتعلم القادة أمرين مهمين:

أحدهما التخلق بخلق التواضع الذي من آثاره إتاحة الفرصة للأفراد من أهل الرأي أن يدلوا بآرائهم عن طريق الشورى، ثم الوصول بعد ذلك إلى الرأي الذي يتم ترجيحه.

الآخر استعمال الحزم والثبات على القرار الذي يتم اتخاذه أثناء مجلس الشورى.

وهذان الأمران بينهما تناقض في الظاهر حيث إن أحدهما يأخذ جانب اللين والآخر يأخذ جانب الشدة، ولكن الأمر ليس كذلك لاختلاف الحالين في الأمرين، فاللين كان سائغا في مجال الشورى لاستخراج آراء أهل الرأي ثم التوصل إلى أفضلها، والشدة أصبحت سائغة بعد اتخاذ القرار لضمان وحدة الجماعة والحفاظ على معنويات الأمة في أرقى مستوياتها.

* * *

٥-خروج النبي ﷺ إلى أحد وما فيه من مواقف

١-قال محمد بن عمر الواقدي في سياق رواية له: ومضى رسول الله ﷺ حتى أتى الشيخين[١] فعسكر به. وعُرض عليه غلمان: عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، والنعمان بن بشير، وزيد بن أرقم، والبراء بن عازب، وأسيد بن ظهير، وعرابة بن أوس، وأبو سعيد الخدري، وسمرة بن جندب، ورافع بن خديج. فردهم. قال رافع بن خديج، فقال ظُهَيْر بن رافع: يا رسول الله إنه رام! وجعلت أتطاول وعلي خُفَّان لي. فأجازني رسول الله ﷺ.

فلما أجازني قال سمرة بن جندب لربيبه مُرَيّ بن سنان الحارثي، وهو زوج أمه: يا أبة، أجاز رسول الله رافع بن خديج وردني، وأنا أصرع رافع ابن خديج فقال مري بن سنان الحارثي: يارسول الله رددت ابني وأجزت رافع بن خديج وابني يصرعه. فقال رسول الله ﷺ: تصارعا! فصرع سمرة رافعا فأجازه رسول الله ﷺ وكانت أمه امرأة من بني أسد[٢].

في هذا الخبر مثل جيد على حب الصحابة رضي الله عنهم للجهاد، وارتفاع مستواهم التربوي، حيث حببوا الجهاد لأبنائهم فأصبح غلمانهم يتسابقون إلى ميادين الجهاد.

وتتبدى هذه المظاهر المتأصلة في نفوس هؤلاء الغلمان في خروجهم مع جيش المسلمين، وكلهم أمل في أن يجيزهم رسول الله ﷺ وأن

(١) هو موضع بين المدينة وجبل أحد.

(٢) مغازي الواقدي ١/ ٢١٦.

وأخرجه ابن هشام في السيرة ٣/ ١٢.

يشاركوا في الجهاد، كما تتبدى في إلحاح رافع بن خديج على ولي أمره ليقنع النبي ﷺ بالسماح له بالجهاد بحجة أنه يجيد الرماية، ويشفق على نفسه من رد النبي ﷺ بالرفض فينتصب قائما على أصابع قدميه ليبدو طويلا قد بلغ مبلغ الرجال مخفيا هذا التطاول بخفيه السابغين اللذين يخفيان عقبيه، ويتم فوزه بإجازة النبي ﷺ إياه.

وتأخذ الحسرة سمرة بن جندب الذي رُدَّ مع الغلمان، ويعصف به الشوق إلى الجهاد فَيُدْلي بمسوِّغ آخر للقبول، أوَلَيس يصرع رافعا؟ فهو إذًا أقوى منه وما دام الأمر كذلك فهو أحق منه بالإجازة، ويهمس بذلك في أذن وليه، فينطلق بها إلى النبي ﷺ فرحا مسرورا بظفر ابنه بذلك المسوغ، ويتصارعان بأمر النبي ﷺ ويتم لسمرة ما أراد من تلك الإجازة.

إن فرحة هذين الغلامين وأمثالهما بالمشاركة في الجهاد تفوق كل ما يخطر على بال أقرانهم من أسْرَى المباهج الدنيوية والأهداف القريبة، وذلك شاهد على ارتفاع مستوى المجتمع الإسلامي آنذاك في المُثُل السامية والقيم العالية.

٢-قال الواقدي في سياق روايته:

واستعمل رسول الله ﷺ على الحرس محمد بن مسلمة في خمسين رجلا، يطوفون بالعسكر حتى أدْلَج رسول الله صلى الله عليه وسلم[١]. وكان المشركون قد رأوا رسول الله ﷺ حيث أدلج ونزل بالشيخين، فجمعوا خيلهم وظَهْرهم واستعملوا على حرسهم عكرمة بن أبي جهل في خيل من المشركين، وباتت صاهلة خيلهم لا تهدأ، وتدنو

(١) أي سار ليلا.

طلائعهم حتى تلصق بالحرة، فلا تصعد فيها حتى ترجع خيلهم، ويهابون موضع الحرة ومحمد بن مسلمة[1].

وهذا موقف يذكر لمحمد بن مسلمة ومن معه من الحرس رضي الله عنهم، حيث حفظوا الجيش الإسلامي من أعدائهم تلك الليلة.

قال الواقدي في سياق روايته:

وقد كان رسول الله ﷺ قال حين صلى العشاء: من يحفظنا هذه الليلة؟ فقام رجل فقال: أنا يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: من أنت؟ قال: ذكوان بن عبد قيس. قال: اجلس. ثم قال رسول الله ﷺ: من رجل يحفظنا هذه الليلة؟ فقام رجل فقال: أنا. فقال: من أنت؟ قال أنا أبوسبع. قال: اجلس. ثم قال رسول الله ﷺ: من رجل يحفظنا هذه الليلة؟ فقال رجل فقال: أنا. فقال: ومن أنت؟ قال: ابن عبد قيس. قال اجلس. ومكث رسول الله ﷺ ساعة ثم قال: قوموا ثلاثتكم. فقام ذكوان بن عبد قيس، فقال رسول الله ﷺ: أين صاحباك؟ فقال ذكوان: أنا الذي كنت أجبتك الليلة. قال: اذهب، حفظك الله! قال فلبس درعه وأخذ دَرَقَته، وكان يطوف بالعسكر تلك الليلة، ويقال كان يحرس رسول الله ﷺ لم يفارقه[2].

وهذا يعني أن النبي ﷺ قد كلف ذكوان بن عبد قيس بمهمة الحراسة داخل معسكر المسلمين، وهي تختلف عن مهمة محمد بن مسلمة وصحبه الذين كانوا يحرسون المعسكر من خارجه رضي الله عنهم

(١) مغازي الواقدي ١/٢١٧.

(٢) مغازي الواقدي ١/٢١٧.

أجمعين ، وكون هذا الصحابي الجليل ذكوان بن عبد قيس يجيب نداء النبي ﷺ ثلاث مرات معلنا اسمه في الأولى ومتنكرا في الأخيرتين دليل على اهتمامه البالغ بتقديم تلك الخدمة العسكرية لرسول الله ﷺ وأصحابه ، وذلك من التسابق إلى الخير والتنافس في العمل الصالح .

٤-قال الواقدي في سياق روايته :

ونام رسول الله حتى ادَّلج[١] ، فلما كان في السحر قال رسول الله ﷺ : أين الأدلاَّء؟ مَنْ رجل يدلنا على الطريق ويخرجنا على القوم من كثب؟[٢] فقام أبو حثمة الحارثي فقال : أنا يا رسول الله . ويقال أوس بن قيظي ، ويقال مُحَيِّصة وأثبت ذلك عندنا أبو حثمة .

قال : فخرج رسول الله ﷺ فركب فرسه ، فسلك به في بني حارثة ، ثم أخذ في الأموال[٣] حتى يمر بحائط مربَع بن قيظي ، وكان أعمى البصر منافقا ، فلما دخل رسول الله ﷺ وأصحابه حائطه قام يحثي التراب في وجوههم وجعل يقول : إن كنت رسول الله فلا تدخل حائطي . فيضربه سعد بن زيد الأشهلي بقوس في يده . فشجه في رأسه فنزل الدم ، فغضب له بعض بني حارثة ممن هو على مثل رأيه . فقال : هي عداوتكم يا بني عبد الأشهل ، لا تدعونها أبدا لنا . فقال أسيد بن حضير : لا والله ، ولكنه نفاقكم . والله لولا أني لا أدري ما يوافق النبي ﷺ

---

(١) ادَّلج بتشديد الدال سار آخر الليل .

(٢) أي قرب .

(٣) أي البساتين .

من ذلك لضربت عنقه وعنق من هو على مثل رأيه! فأسكتوا[1].

في هذا الخبر موقفان:

الأول: ما كان من سعد بن زيد الأشهلي رضي الله عنه حينما غضب لله تعالى ولرسوله ﷺ فقام بتأديب ذلك المنافق.

والموقف الثاني لأسيد بن حُضير رضي الله عنه حينما قضى على ذلك الجدل القبلي الذي أثاره أحد المنافقين وذلك بالتهديد باستعمال القوة في القضاء على ذلك المنافق وأمثاله لو سمح النبي ﷺ بذلك.

٥-قال ابن اسحاق: حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد، انخزل عنه عبد الله بن أبي ابن سلول بثلث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني، وما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس، فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو ين حرام، أخو بني سلمة يقول: يا قوم أذكِّركم الله أن تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم؛ فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال.

قال: فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم، قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه[2].

في هذا الخبر مواقف وعبر فمنها:

أولا: أن فيه درسا بليغا للمسلمين ليأخذوا العبرة مما جرى من أولئك

---

(١) مغازي الواقدي ١/٢١٨.

وأخرجه ابن إسحاق وذكر نحوه - سيرة ابن هشام ٣/ ١٠.

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٩.

المنافقين الذين خذلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين وهم في أحرج المواقف وأمام هذا الحادث المهم ترد بعض التساؤلات حول تصرفات المنافقين الغريبة في هذه المعركة، فقد خرجوا مع المؤمنين أوَّلاً ثم لما كانوا في أثناء الطريق رجعوا إلى المدينة بصورة تثير الشبهة عليهم وتبعث على الشك فيهم، فلماذا خرجوا مع المؤمنين ما داموا لايريدون نصرة الإسلام والمسلمين؟ ولماذا رجعوا من أثناء الطريق؟ والجواب أن يقال: يحتمل أنهم خرجوا من أجل الغنائم فيما إذا كان النصر للمسلمين فلما رأوا ضخامة جيش الكفار أصيبوا بالرعب وامتلأت قلوبهم ذعرا فرجعوا ولم يدخلوا المعركة.

ويحتمل أنهم خرجوا مبالغة منهم في ستر نفاقهم ثم أصيبوا بالرعب فلم يستطيعوا الاستمرار في تمثيل هذا النفاق الذي سيكلفهم تضحيات كبيرة، فرجعوا إلى المدينة مفضلين مواجهة نقمة المؤمنين المحتملة فيما إذا بقي لهم كيان بعد المعركة على مواجهة الموت المحقق في نظرهم على يد الكفار.

ويحتمل أنهم كانوا يسيرون على خطة مرسومة، وذلك في أن يخرجوا مع المؤمنين فإذا ما شارفوا على الوصول إلى الأعداء رجعوا محاولين بذلك التخذيل عن النبي ﷺ بإثارة الفزع والخوف بين المؤمنين.

كل ذلك محتمل، ولكن الذي يظهر أنهم لم يتفقوا على خطة مرسومة وهم في المدينة لأن النبي ﷺ حينما استشار الناس في الخروج أو البقاء وسمع رأي الفريقين دخل بيته ولبس لأمته وأمر الناس بالخروج، فليس هناك وقت كاف لاجتماع المنافقين واتفاقهم

على مثل هذه الخطة فالظاهر أنهم خرجوا نفاقا وربما كان لهم أو لبعضهم هدف في الغنيمة فلما رأوا جيش الكفار أصيبوا بالرعب فانسحب زعماؤهم وتبعهم من هو على شاكلتهم في النفاق ومن لم يتمكن الإسلام من قلبه فافتتن في ذلك اليوم ونافق، وربما كانوا يدبرون خطة الانسحاب في تلك الليلة التي بات فيها جيش المؤمنين قريبا من جيش الكفار على نحو يثير الفزع والاضطراب في في جيش المؤمنين حتى يرجع معهم أكبر قدر ممكن منهم ليحصل الفشل في المسلمين فينهزموا أمام أعدائهم، ، وليتفادَوا نقمة المؤمنين بهم فيما إذا انتصروا إذا كان عددهم كبيرا.

ولقد حصل لهم بعض ما أرادوا حيث رجع ثلث الجيش الإسلامي في ذلك اليوم وليس من المقطوع به أن جميع أولئك الذين رجعوا كانوا منافقين قبل ذلك بل يحتمل أن بعضهم كفروا في ذلك اليوم ثم أخفوا كفرهم عن المؤمنين.

وعلى أي حال فرجوع عبد الله بن أبي ومن معه من المنافقين في ذلك اليوم يعتبر خيانة مكشوفة ودليلا واضحا على نفاقهم، وهذا من أوضح الأدلة على ما يبيته المنافقون للمؤمنين من الشر والنوايا السيئة[1].

ولقد تبين من الحوار الذي جرى بين عبد الله بن عمرو بن حرام والمنافقين أن هؤلاء المنافقين متناقضون، فبينما يقول عبد الله بن أُبَيّ لحزبه من أهل النفاق في بيان سبب انسحابه: «أطاعهم وعصاني وما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس» نراه يقول هو وجماعته لعبد

---

(١) من كتاب « المنافقون في القرآن الكريم » للمؤلف ص ١٢٤ .

الله بن عمرو بن حرام: «لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكنا لا نرى أنه يكون قتال»، وهذا كلام لا يقوله عاقل يزن كلامه، لأن أي عاقل يدرك أن قريشا لم يخرجوا إلا لقتال، ثم إنه إذا كان يغلب على ظن هؤلاء المنافقين أنه لن يكون قتال فلماذا رجعوا وقال بعضهم لبعض: علام نقتل أنفسنا؟. وما أجابوا به عبد الله بن عمرو بن حرام قد أثبته الله سبحانه على سبيل التوبيخ لهم بقوله ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[آل عمران: ١٦٧,١٦٨]

ثانيا: موقف جليل لعبد الله بن حرام رضي الله عنه حيث سار خلف عبد الله بن أبي بن سلول ومن تبعه من المنافقين يرغبهم في الجهاد في سبيل الله تعالى، ويبعث فيهم النخوة والشهامة للدفاع عن بلدهم وأعراضهم وأموالهم إن لم يكن بهم رغبة في الجهاد في سبيل الله تعالى، وما زال يلح عليهم بالرجوع حتى وصلوا إلى المدينة فدعا عليهم دعاء المعتز بدينه الواثق بنصر الله تعالى لأوليائه مُظْهرًا لهم حقارة أمرهم وعدم احتياج المسلمين لنصرتهم.

وهكذا كان عبد الله بن عمرو بن حرام حكيما عظيم التقدير للأمور، فحينما دعاهم إلى الرجوع ذكَّرهم بوجوب النصرة وفظاعة الخذلان، فلما أن أصروا على الانسحاب بين لهم استغناء المؤمنين عنهم وأشعرهم بهوان أمرهم حتى لا يحملهم الغرور على تحقير المؤمنين وإثارة القلق والرعب في الذراري والنساء وأهل الأعذار.

٦- قال ابن هشام: وذكر غير زياد عن محمد بن إسحاق عن الزهري: أن الأنصار يوم أحد قالوا لرسول الله ﷺ: يارسول الله ألا نَسْتعين بحُلفائنا من يَهود؟ فقال: لاحاجة لنا فيهم[١].

وهذا الموقف الحذر من رسول الله ﷺ من اليهود يدلنا على بُعْد نظره، فهو يعلم من عداوة اليهود للمسلمين ما لايعلمه الأنصار الذين يظنون أن حلف اليهود لهم وهم في جاهليتهم قد بقى على ما هو عليه بعد إسلامهم، والحال أن اليهود أشد عداوة لهم من المشركين ولكنهم يبطنون العداوة ويتربصون بالمؤمنين الفرص المناسبة ليفتكوا بهم، وقد أبانت الأيام بعد ذلك بُعْد نظر النبي ﷺ وصدق تقديره للأمور، كما سيأتي بيان صور من غدر اليهود.

٧- قال ابن إسحاق في سياق روايته: ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل الشعب من أحد، في عدوة الوادي إلى الجبل، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وقال: لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال. وقد سرَّحت قريش الظهر والكراع[٢] في زروع كانت بالصمغة، من قناة للمسلمين فقال رجل من الأنصار حين نهى رسول الله ﷺ عن القتال: أتُرعَي زروع بني قيلة[٣] ولمَّا نضارب!

وتعبَّى رسول الله ﷺ للقتال، وهو في سبع مائة رجل، وأمَّر على الرماة عبد الله بن جبير، أخا بني عمرو بن عوف وهو مُعلَم يومئذ بثياب

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٩ . وزياد هو البكائي شيخ ابن هشام.

(٢) الظهر الإبل، والكراع هنا الخيل.

(٣) يعني الأوس والخزرج.

بيض، والرماة خمسون رجلا، فقال: انْضَح الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أوعلينا فاثبت مكانك لانؤتينَّ من قِبَلك.

وظاهرَ رسول الله ﷺ بين درعين[1] ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير أخي بني عبد الدار [2].

في هذا الخبر مواقف وعبر منها:

أوّلاً: حسن اختيار رسول الله ﷺ لمكان المعركة وبُعْد نظره في التخطيط الحربي، فالمسلمون كانوا مشاة بينما يتفوق عليهم المشركون بسلاح الفرسان الذين يبلغون مائتين وهم الذين يتقدمون في الهجوم عادةً فالمشركون قد اختاروا الأرض الصالحة للطراد والكر والفر فأبعدوا عن الجبل حتى يستفيدوا من فرسانهم، لكن الرسول ﷺ اختار الأرض المجاورة لجبل أحد ليعوق من سرعة الخيل ويحرم المشركين من الاستفادة الكاملة من فرسانهم.

هذا إلى جانب كون جبل أحد بارتفاعه ومنعرجاته يعتبر حصنا وملجأ للمسلمين فيما لو أصيبوا من أعدائهم.

ولما كان ذلك الموقع الحصين يشتمل على ثغرة خطيرة يمكن للأعداء

---

(١) أي لبس درعا فوق درع.

(٢) سيرة ابن هشام ١٠/١١.

وأخرج الإمام البخاري خبر الرماة ضمن خبر رواه البراء بن عازب رضي الله عنه عن غزوة أحد - صحيح البخاري، المغازي، رقم ٤٠٤٣ (٧/ ٣٤٩).

وخبر مظاهرة الرسول صلى الله عليه وسلم بين درعين أخرجه الحافظ أبو يعلى، ذكره الحافظ الهيثمي وقال: ورجاله رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٦/ ١٠٨ -.

أن ينفذوا منها إلى جيش المسلمين فإن رسول الله ﷺ قد رتب فيها أمر الحماية حيث أمر خمسين من الرماة بقيادة عبد الله بن جبير بالمرابطة فوق جبل عينين الصغير المطل على تلك الثغرة ليصدوا جيش الأعداء فيما لو جاؤوا المسلمين من خلفهم.

ثانيا: كون النبي ﷺ تحصن بدرعين دليل على مشروعية الاحتياط للنفس، وأن أخذ الأسباب لا ينافي التوكل على الله جل وعلا.

وقد فعل النبي ﷺ ذلك مع أن الله تعالى قد عصمه من الأعداء لأنه مشرع لأمته فهو يفعل ما يشرع لكل مسلم أن يفعله حيث إنه قدوة عليا لكل المسلمين.

* * *

٦- موجزفي تلخيص أحداث المعركة

حيث إن الاستفادة الكاملة من مواقف النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم تترتب على تصور أحداث المعركة، ونظرا لأن المعركة مرت بمرحلتين فإني رأيت تقديم موجز يبين أحداثها الأساسية بمرحلتيها.

فالمرحلة الأولى هي مرحلة انتصار المسلمين على المشركين، وقد بدأت بالمبارزة، حيث برز من المشركين طلحة بن أبي طلحة، فبرز إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقتله.

ثم بدأت الحرب بين الفريقين، وركز أبطال المسلمين من المهاجمين والرماة على حَمَلَة لواء المشركين وهم سبعة من بني عبد الدار حتى قتلوهم متتابعين، فسقط اللواء وحمله «صؤاب» وهو غلام لبني عبد الدار.

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العلم أن اللواء لم يزل صريعا حتى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية، فرفعته لقريش فلاثوا به، وكان اللواء مع صؤاب غلام لبني أبي طلحة حبشي، وكان آخر من أخذه منهم، فقاتل به حتى قطعت يداه، ثم برك عليه يقاتل، فأخذ اللواء بصدره وعنقه حتى قتل عليه، وهو يقول: اللهم هل أعززت - يقول: أعذرت - فقال حسان بن ثابت في ذلك:

فخرتم باللواء، وشرُّ فخر ... لواء حين رُدَّ إلى صُؤاب

جعلتم فخركم فيه لعبد ... وألأم من يطا عفر التراب[1]

---

(١) العفر ظاهر التراب.

ظننتم، والسفيه له ظنون | وما إن ذاك من أمر الصواب
بأن جلادنا يوم التقينا | بمكة بيعكم حمر العياب[1]

وفي هذا الخبر إشادة بجهاد الصحابة رضي الله عنهم يسجله بشعره حسان بن ثابت رضي الله عنه مع هجاء المشركين وتوبيخهم على موقفهم الانهزامي في بداية المعركة.

وشعْر شعراء المسلمين - وخاصة حسان - له أثر كبير في إغاظة المشركين بعد انقضاء المعركة لأنه تسير به الركبان ويتسامع به العرب، وكان العرب آنذاك شديدي الحساسية من الاتهام بالجبن والفرار من المعارك.

وما زال المسلمون يطاردون المشركين حتى هزموهم وأبعدوهم عن نسائهم وأثقالهم، بالرغم من كون المسلمين جميعا مشاة، بينما كان المشركون يتفوقون بالفرسان.

وقد جاء في رواية أخرجها الإمام الطبري من حديث ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة: ... واقتتل الناس حتى حميت الحرب، وقاتل أبو دجانة حتى أمعن في الناس وحمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب في رجال من المسلمين، فأنزل الله عز وجل نصره وصدَقهم وعده فحسُّوهم[2] بالسيوف حتى كشفوهم، وكانت الهزيمة لا شك فيها[3].

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٧ - ٢٨.

(٢) يعني استأصلوهم.

(٣) تاريخ الطبري ٢/ ٥١٣.

وهذا الخبر يبين عظمة الصحابة رضي الله عنهم وبلاءهم العظيم في الجهاد في سبيل الله تعالى، فقد كانوا أقل من ثلث الكفار وكانوا مشاة فتصدوا لفرسان الكفار حتى هزموهم في بداية المعركة.

وقد جاء في هذا الخبر الإشادة بجهاد أبي دجانة وحمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وهؤلاء ليسوا إلا نماذج من أبطال الصحابة الذين كان لهم دور كبير في سرعة كسب المعركة لصالح المسلمين وقد أفَرَدْتُ لهؤلاء الصحابة وغيرهم مواقف خاصة تدل على شجاعتهم ومواقفهم البطولية.

ولقد ذكر الله تعالى انتصار الصحابة هذا بقوله ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ** ﴾[1] والمراد بهذا الوعد هو ما وعدهم الله تعالى به من النصر على لسان رسوله ﷺ وهو قوله لهم حينما عزم علي الخروج للقتال: انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه، امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم[2].

المعنى: ولقد صدقكم الله ما وعدكم به رسوله ﷺ من النصر إذا صبرتم إذ تستأصلونهم قتلا بحكمه تعالى وقضائه وتسليطه إياكم عليهم[3].

أما المرحلة الثانية فهي مرحلة إصابة المسلمين، وتبدأ هذه المرحلة من الخلل الذي أحدثه أكثر الرماة.

---

(١) سورة آل عمران / ١٥٢ .

(٢) مغازي الواقدي ١/ ٢١٤ .

(٣) تفسير الطبري ٤/ ١٢٧ .

وقد تبين لنا أن النبي ﷺ أمر خمسين من الرماة بأن يقفوا فوق جبل عينين ليحولوا بين الكفار والهجوم على المسلمين من خلفهم وأنه قال لهم « إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا »، وأنهم لما رأوا المسلمين انتصروا واشتغل بعضهم بجمع الغنائم اختلفوا فرأى أكثرهم النزول بحجة أن المعركة انتهت لصالح المسلمين ولم يطيعوا قائدهم عبد الله بن جبير الذي ذكَّرهم بعهد النبي ﷺ لهم بأن لا يبرحوا الجبل على أي حال كان عليها المسلمون فنزل منهم أربعون، فلما رأى المشركون قلة من بقى من الرماة على الجبل أغاروا على المسلمين بخيولهم من خلفهم فارتبك المسلمون والتبس الأمر عليهم حتى صار بعضهم يواجه بعضا وهم لا يدرون.

يقول رافع بن خديج: فكنا أتينا من قبل أنفسنا ومعصية نبينا، واختلط المسلمون، وصاروا يُقْتَلون ويضرب بعضهم بعضا وما يشعرون بما يصنعون من العجلة والدهش، ولقد جُرِح يومئذ أسيد بن حضير جرحين، ضربه أحدهما أبو بردة وما يدري، يقول: خذها وأنا الغلام الأنصاري! قال: وكر أبو زعنة في حومة القتال فضرب أبا بردة ضربتين ما يشعر، إنه ليقول: خذها وأنا أبو زعنة! حتى عرفه بعد. فكان إذا لقيه قال: انظر إلى ما صنعت بي. فيقول له أبو زعنة: أنت ضربت أسيد بن حضير ولا تشعر، ولكن هذا الجرح في سبيل الله. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال ﷺ: هو في سبيل الله يا أبا بردة، لك أجره حتى كأنك ضربك أحد من المشركين؛ ومن قتل فهو شهيد[1].

(١) مغازي الواقدي ١/ ٢٣٣.

وأخرج الواقدي من حديث أبي بشير المازني، قال: لمّا صاح الشيطان أَزَبّ العَقَبَة [1] إنّ محمدًا قد قُتل، لمّا أراد الله عز وجل من ذلك، سُقط في أيدي المسلمين وتفرقوا في كل وجه، وأصعدوا في الجبل [2].

ولما رأى المنهزمون من مشاة الكفار فرسانهم قد أغاروا من خلف المسلمين تراجعوا إلى ميدان المعركة، وأصبح المسلمون بين فرسان المشركين من خلفهم ومشاتهم من أمامهم، وكان يمكن أن يقع المسلمون في طوق رهيب داخل معسكر المشركين لولا أن المسلمين أدركوا الخطر فهجموا بقوة وضراوة على فرسان المشركين فعقروا بعض خيولهم وقتلوا منهم عددا وسقط من المسلمين شهداء، ولكنهم استطاعوا الإفلات من تطويق الكفار.

وفي أثناء ذلك أشيع بأن النبي ﷺ قد قتل، وكان الشيطان قد نادى بذلك كما جاء في بعض الروايات، فدهش المسلمون وتحيروا واضطرب أمرهم، وتعددت اجتهاداتهم.

وقد تصور الشيطان بصورة أحد الصحابة، وفي ذلك يقول رافع بن خديج رضي الله عنه: وأقبل جُعال بن سراقة وأبو بردة بن نيار وكانا قد حضرا قتل عبد الله بن جبير وهما آخر من انصرف من الجبل حتى لحقا القوم؛ وإن المشركين على متون الخيل، فانتقضت صفوفنا.

ونادى إبليس وتصور في صورة جعال بن سراقة: إن محمدا قد قتل ثلاث صرخات، فابتُلي يومئذ جعال بن سراقة ببلية عظيمة حين تصور إبليس في صورته، وإن جعال ليقاتل مع المسلمين أشد القتال، وإنه إلى

(١) تقدم ذكره في بيعة العقبة حينما صاح بالمشركين يخبرهم باجتماع المسلمين.

(٢) مغازي الواقدي ١/ ٢٣٥.

جنب أبي بردة بن نيار وخوات بن جبير ؛ فوالله ما رأينا دولة كانت أسرع من دولة المشركين علينا .

وأقبل المسلمون على جعال بن سراقة يريدون قتله يقولون : هذا الذي صاح « إن محمدا قد قتل » . فشهد له خوات بن جبير وأبو بردة بن نيار أنه كان إلى جنبهما حين صاح الصائح . وأن الصائح غيره . قال رافع : وشهدت له بعد [١] .

١ - قال ابن إسحاق : وانكشف المسلمون ، فأصاب فيهم العدو ، وكان يوم بلاء وتمحيص ، أكرم الله فيه من أكرم من المسلمين بالشهادة ، حتى خلص العدو إلى رسول الله ﷺ ، فدُثَّ [٢] بالحجارة حتى وقع لشقِّه ، فأصيبَتْ رباعيته ، وشُجَّ في وجهه ، وكُلمَتْ شفته [٣] ، وكان الذي أصابه عتبة بن أبي وقاص .

قال ابن إسحاق : فحدثني حميد الطويل ، عن أنس بن مالك ، قال : كُسرَتْ رباعية النبي ﷺ يوم أحد وشج في وجهه ، فجعل الدم يسيل على وجهه ، وجعل يمسح الدم وهو يقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ! فأنزل الله عز وجل في ذلك : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] [٤] .

(١) مغازي الواقدي ١/ ٢٣٢ .

(٢) أي رمي .

(٣) أي جرحت .

(٤) وأخرجه الإمام البخاري مختصرا من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه - صحيح البخاري ، المغازي ، باب رقم ٢١ (الفتح ٧/ ٣٦٥) .

٢- قال ابن هشام: وذكر ربيح بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري: أن عتبة بن أبي وقاص رمى رسول الله ﷺ يومئذ، فكسر رباعيته اليمنى السفلى، وجرح شفته السفلى، وأن عبد الله بن شهاب الزهري شجه في جبهته، وأن ابن قمئة جرح وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، ووقع رسول الله ﷺ في حفرة من الحفر التي عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون، فأخذ علي بن أبي طالب بيد رسول الله ﷺ، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائما، ومص مالك بن سنان أبو أبي سعيد الخدري الدم عن وجه رسول الله ﷺ، ثم ازدرده فقال رسول الله ﷺ « من مس دمي دمه لم تصبه النار »[1].

وأخرجه أبو عبد الله الحاكم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وفيه أن النبي ﷺ قال: « من سره أن ينظر إلى من خالط دمي دمه فلينظر إلى مالك بن سنان » [2].

وأخرج الإمام البخاري عددا من الأحاديث في خبر إصابة النبي ﷺ، فمن ذلك مارواه بإسناده عن أبي حازم أنه سمع سهل بن سعد وهو يسأل عن جرح رسول الله ﷺ فقال أما والله إني لأعرف من كان

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٠ .

(٢) المستدرك ٣/ ٥٦٤ .

وذكر الحافظ ابن حجر في ترجمة مالك بن سنان الخدري رضي الله عنه هذا الخبر من رواية ابن أبي عاصم والبغوي وابن السكن بأسانيد متصلة إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقد ذكر الحافظ أن مالك بن سنان استشهد يوم أحد - الإصابة ٣/ ٣٢٥ رقم ٧٦٣٧ - فيكون استشهاده في نهاية المعركة بعد هذه الحادثة رضي الله عنه .

يغسل جرح النبي ﷺ ومن كان يسكب الماء وبما دُووِيَ. قال: كانت فاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ تغسله وعلي يسكب الماء بالمجَنّ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها وألصقتها فاستمسك الدم. وكُسرَتْ رباعيته يومئذ، وجُرح وجهه، وكُسرت البيضة على رأسه(١).

وقال الحافظ ابن حجر: ومجموع ما ذكر في الأخبار أنه ﷺ شُجَّ وجهه وكسرت رباعيته وجرحت وجنته وشفته السفلى من باطنها، ورمي منكبه من ضربة ابن قمئة، وجحشت ركبته(٢).

وقال ابن إسحاق: وكان أول من عرف رسول الله ﷺ بعد الهزيمة وقول الناس: قُتل رسول الله ﷺ كما ذكر لي ابن شهاب الزهري كعب ابن مالك، قال: عرفت عينيه تزهران من تحت المغفر، فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين، أبشروا، هذارسول الله ﷺ فأشار إلي رسول الله ﷺ: أن أنصت.

قال ابن إسحاق: فلما عرف المسلمون رسول الله ﷺ نهضوا به، ونهض معهم نحو الشعب، معه أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام رضوان الله عليهم، والحارث بن الصمة، ورهط من المسلمين(٣).

---

(١) صحيح البخاري، المغازي، رقم ٤٠٧٥ (الفتح ٧/ ٣٧٢) إنظر صحيح مسلم، الجهاد، رقم ١٧٩٠ (ص ١٤١٦).

(٢) فتح الباري ٧/ ٣٧٢.

(٣) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٤ - ٣٥.

وقال الواقدي: حدثني ابن سبرة، عن خالد بن رباح، عن يعقوب بن عمر بن قتادة، عن نملة بن أبي نملة - واسم أبي نملة عبد الله بن معاذ، وكان أبوه معاذ أخًا للبراء بن معرور لأمه - فقال: لما انكشف المسلمون ذلك اليوم نظرت إلى رسول الله ﷺ وما معه أحد إلا نُفَيْر، فأحدق به أصحابه من المهاجرين والأنصار وانطلقوا به إلى الشعب؛ وما للمسلمين لواء قائم، ولا فئة، ولا جمع، وإن كتائب المشركين لتحوشهم مقبلة ومدبرة في الوادي، يلتقون ويفترقون، ما يرون أحدا من الناس يردهم. فاتبعت رسول الله ﷺ فأنظر إليه وهو يؤم أصحابه؛ ثم رجع المشركون نحو عسكرهم وتآمروا في المدينة وفي طلبنا، والقوم على ما هم عليه من الاختلاف. وطلع رسول الله ﷺ إلى أصحابه، فكأنهم لم يصبهم شيء حين رأوا رسول الله ﷺ سالما(١).

وقال الواقدي: وحدثني موسى بن يعقوب، عن عمته، عن أمها، عن المقداد، قال: لما تصافقنا للقتال جلس رسول الله ﷺ تحت راية مصعب بن عمير، فلما قتل أصحاب اللواء وهُزم المشركون الهزيمة الأولى، وأغار المسلمون على عسكرهم فانتهبوا، ثم كروا على المسلمين فأتوا من خلفهم تفرق الناس، ونادى رسول الله ﷺ في أصحاب الألوية، فأخذ اللواء مصعب بن عمير ثم قتل. وأخذ راية الخزرج سعد بن عبادة، ورسول الله ﷺ قائم تحتها، وأصحابه محدقون به. ودفع لواء المهاجرين إلى أبي الروم العبدري آخر النهار، ونظرتُ إلى لواء الأوس مع أسيد بن حضير، فناوشوهم ساعة واقتتلوا على الاختلاط من الصفوف. ونادى المشركون بشعارهم: يا للعزى، يا لهبل! فأوجعوا والله

(١) مغازي الواقدي ١/ ٢٣٨ - ٢٣٩.

فينا قتلاذريعا، ونالوا من رسول الله ﷺ ما نالوا. لا والذي بعثه بالحق، إن رأيت رسول الله ﷺ زال شبرا واحدا، إنه لفي وجه العدو؛ وتثوب إليه طائفة من أصحابه مرة وتتفرق عنه مرة، فربما رأيته قائمًا يرمي عن قوسه أو يرمي بالحجر حتى تحاجزوا.

وثبت رسول الله ﷺ كما هو في عصابة صبروا معه، أربعة عشر رجلا، سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار: أبو بكر، وعبد الرحمن بن عوف، وعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة بن الجراح، والزبير بن العوام؛ ومن الأنصار: الحباب بن المنذر، وأبو دجانة، وعاصم بن ثابت، والحارث بن الصمة، وسهل بن حنيف، وأسيد بن حضير، وسعد بن معاذ. ويقال ثبت سعد بن عبادة، ومحمد بن مسلمة، فيجعلونهما مكان أسيد بن حضير وسعد بن معاذ. وبايعه يومئذ ثمانية على الموت - ثلاثة من المهاجرين وخمسة من الأنصار: علي، والزبير، وطلحة، وأبو دجانة، والحارث بن الصمة، وحباب بن المنذر، وعاصم بن ثابت، وسهل بن حنيف، فلم يقتل منهم أحد.

ورسول الله ﷺ يدعوهم في أخراهم، حتى انتهى من انتهى منهم إلى قريب من المهراس[1].

قال: وحدثني عتبة بن جبيرة، عن يعقوب بن عمرو بن

---

(١) قال السمهودي: مهراس الماء بجبل أحد، قاله المبرد، وهو معروف، أقصى شعب أحد، يجتمع من المطر في نُقَر كبار وصغار، والمهراس اسم لتلك النقر. (وفاء الوفا، ج٢، ص٣٧٨٩). عن هامش مغازي الواقدي.

قتادة، قال: ثبت بين يديه يومئذ ثلاثون رجلا كلهم يقول: وجهي دون وجهك، ونفسي دون نفسك، وعليك السلام غير مودع[1].

وقال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه: وكان أربعة من قريش قد تعاهدوا وتعاقدوا على قتل رسول الله ﷺ، وعرفهم المشركون بذلك: عبد الله بن شهاب، وعتبة بن أبي وقاص، وابن قمئة، وأُبَيّ بن خلف. ورمى عتبة يومئذ رسول الله ﷺ بأربعة أحجار وكسر رباعيته - أشظى[2] باطنها، اليمنى السفلى - وشج في وجنتيه حتى غاب حلق المغفر في وجنته وأصيبت ركبتاه فجُحشتا.

وكانت حُفَرٌ حفرها أبو عامر الفاسق كالخنادق للمسلمين، وكان رسول الله ﷺ واقفا على بعضها ولا يشعر به.

والثبت عندنا أن الذي رمى وجنتي رسول الله ﷺ ابن قمئة، والذي رمى شفته وأصاب رباعيته عتبة بن أبي وقاص. وأقبل ابن قمئة، وهو يقول: دلوني على محمد، فوالذي يحلف به، لئن رأيته لأقتلنه! فعلاه بالسيف، ورماه عتبة بن أبي وقاص مع تجليل السيف، وكان عليه ﷺ درعان، فوقع رسول الله ﷺ في الحفرة التي أمامه فجحشت ركبتاه، ولم يصنع سيف ابن قمئة شيئا إلا وَهْن الضربة بثقل السيف، فقد وقع لها رسول الله ﷺ، وانتهض رسول الله ﷺ وطلحة يحمله من ورائه، وعليّ آخذ بيديه حتى استوى قائما[3].

---

(١) مغازي الواقدي ١/ ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٢) أي كسر من باطنها كسرة.

(٣) مغازي الواقدي ١/ ٢٤٣ - ٢٤٤.

وأخرج الحافظ أبو داود الطيالسي بإسناده عن أم المؤمنين عائشة قالت : كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال : ذلك يوم كله يوم طلحة ، ثم أنشأ يحدث ، قال : كنت أول من فاء إلى رسول الله ﷺ يوم أحد ، فرأيت رجلا يقاتل مع رسول الله دونه - قال : أراه يحميه - قال ، فقلت : كن طلحة حيث فاتني ما فاتني فقلت يكون رجلا من قومي أحب إلي ، وبيني وبين النبي ﷺ رجل لا أعرفه وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه ، وهو يخطف المشي خطفا لا أخطفه ، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد كسرت رباعيته ، وشج في وجهه ، وقد دخل في وجنتيه حلقتان من حلق المغفر ؛ فقال رسول الله ﷺ : « عليكما صاحبكما » - يريد طلحة - وقد نزف ، فلم نلتفت إلى قوله ، وذهبت لأنزع ذلك من وجهه ، فقال أبو عبيدة : أقسمت عليك بحقي لما تركتني ، فتركته وكره أن يتناولها بيده فيؤذي النبي ﷺ ، وأزمَّ عليه[1] بفيه فاستخرج إحدى الحلقتين ووقعت ثنيته مع الحلقة ، وذهبت لأصنع ما صنع فقال : أقسمت عليك بحقي لما تركتني ، ففعل كما فعل المرة الأولى فوقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة ، فكان أبو عبيدة من أحسن الناس هتما[2] ، فأصلحنا من شأن النبي ﷺ ثم أتينا طلحة في بعض الجفار فإذا به بضع وسبعون أو أقل أو أكثر بين طعنة وضربة ورمية وإذا قد قطع اصبعه ، فأصلحنا من شأنه [3] .

---

(١) أي عض عليه .

(٢) الهتم هو انكسار الثنايا من أصلها .

(٣) المطالب العاليه ٤/ ٢٢٤ - ٢٢٥ رقم ٤٣٢٧ .

وأخرجه أبو عبد الله الحاكم من حديث عائشة رضي الله عنها وصححه-المستدرك٣/ ٤٦٦- =

وأخرج الحافظ أبو يعلى من حديث عكرمة قال، قال لي علي: لما انجلى الناس عن رسول الله ﷺ يوم أُحد نظرت إلى القتلى فلم أرَ رسول الله ﷺ فيهم، فقلت: والله ما كان ليفرّ وما أراه في القتلى، ولكني أرى أن الله غضب علينا بما عصينا، فرفع نبيه فما لي خير من أن أقاتل حتى أقتل، فكسرت جفن سيفي ثم حملت على القوم، فأفرجوا لي، فإذا أنا برسول الله ﷺ بينهم (1).

وقد تبين لنا من هذه الأخبار أن المسلمين أصيبوا بانتكاسة كبيرة في أثناء المعركة بعد أن حصل لهم النصر المؤزر على أعدائهم فتفرقوا واستُشهد منهم من استشهد وأفْرد النبي ﷺ بعدد قليل من أصحابه.

وتتلخص أسباب هذه الانتكاسة في أمرين: الأول هجوم فرسان المشركين عليهم من خلفهم، والثاني إشاعة مقتل النبي ﷺ.

ولا شك أن خبر إشاعة مقتل النبي ﷺ كان له أثر كبير في نفوس الصحابة، يدل على ذلك ما سيمر علينا من أخبارهم التي تفيد أنهم لما رأوا الرسول ﷺ حيًا نسوا جميع ما أصابهم.

وقد انقسم المسلمون إزاء هذه المصيبة إلى خمسة أقسام تقريبا:

القسم الأول: الذين فروا من ساحة المعركة ضعفا، وقصدهم النجاة بأنفسهم، وهؤلاء قليل جداً، وفيهم نزل قول الله تعالى ﴿إنَّ

= وذكره الحافظ ابن كثير من رواية الطيالسي - البداية والنهاية ٤/ ٣١ - .

وأخرجه الواقدي من حديث عائشة رضي الله عنها - المغازي ١/ ٢٤٦ - .

(1) المطالب العالية ٤/ ٢٢٣ رقم ٤٣٢٣ .

وقال المحقق: قال البوصيري: رواه أبو يعلى بإسناد حسن .

الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٥٥] .

القسم الثاني : الذين فروا نفاقا ، وقصدهم النجاة بأنفسهم والإرجاف بالمؤمنين ، وقد نزل من الآيات القرآنية ما يثبت وجود المنافقين مع المسلمين في المعركة حيث لم يرجعوا جميعا مع ابن أبي ابن سلول ، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

القسم الثالث : الذين انسحبوا إلى الخلف في وادي أحد ليتدبروا أمرهم على بصيرة ، وكان أكبر همِّهم البحثُ عن رسول الله ﷺ ، ثم اجتماع كلمة المسلمين واتحاد قوتهم ، وهؤلاء هم معظم الجيش الإسلامي ، وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة .

ولقد فاء هؤلاء سريعا على تفاوت بينهم منذ أن علموا بحياة النبي ﷺ ومقر وجوده وكوَّنوا مع من بقي من أفراد القسم الرابع والخامس التشكيل الأخير للجيش الإسلامي بقيادة رسول الله ﷺ .

القسم الرابع : قوم رأوا أن واجبهم يقضي بالاستمرار في قتال الأعداء في ميدان المعركة حتى الموت ، وإن غلب على ظنهم عدم

الانتصار عليهم ، وقد كانوا ينادون بالموت على ما مات عليه رسول الله ﷺ على فرض أنه قد استشهد .

وهؤلاء قد رُويت أخبار بعضهم كما سيأتي ومنهم حمزة بن عبد المطلب وأنس بن النضر وسعد بن الربيع .

القسم الخامس : قوم كانوا قريبين من رسول الله ﷺ فعلموا بمكانه فكان هَمُّهُم الكبير القيام بحمايته والدفاع عنه ، ونالوا شرف ذلك ، ومنهم طلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص وأبو طلحة كما سيأتي في أخبارهم .

المواقف والعبر في هذه الأخبار :

الأول : مواقف لبعض الصحابة رضي الله عنهم في العناية بالنبي ﷺ وخدمته بعدما أصيب ، ومنهم طلحة بن عبيد الله وعلي بن أبي طالب اللذين رفعاه من الحفرة التي سقط فيها وأخذا بيده حتى وصل إلى المكان الآمن في الجبل ، ومنهم أبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح اللذين تسابقا على نزع الحديد من وجه النبي ﷺ فنزعه أبو عبيدة وسقطت بذلك ثنيتاه ، ومنهم مالك بن سنان الخدري الذي مصّ الدم من وجه النبي ﷺ ثم ابتلعه تعبيراً عن حبه الكبير لرسول الله ﷺ ، فكانت بشراه النجاة من النار ، وما أعظمها من بشرى ، وما أبلغه من ثمن !! .

الثاني : ما جاء في هذه الأخبار من أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا في غَمٍّ شديد مما أصابهم من المشركين وما يتوقعونه منهم لو عادوا إلى متابعتهم والهجوم عليهم ، وأنهم لما طلع عليهم رسول الله ﷺ وهم في ذلك الغم الشديد نسوا كل شيء أصابهم وأهمَّهم ، فكأنهم لم

يصيبهم شيء حين رأوه سالما ، وهذا تعبير عن منتهى ما يمكن تصوره من المحبة البالغة والشوق العظيم .

الرابع : الإشارة إلى جهود الفئة الذين دافعوا عن رسول الله ﷺ في ساعات القتال الحرجة وفدوه بأنفسهم رضي الله عنهم .

الخامس : ما حصل للمسلمين في بداية المعركة ونهايتها فيه عبرة عظيمة ، فلقد ابتدأت بنصر الله إياهم ذلك النصر العظيم السريع الذي أثبته الله تعالى بقوله ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ** ﴾ كما سبق ، وانتهت بخذلان الله تعالى إياهم كما جاء في هذه الآية في قوله ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [**آل عمران** : ١٥٢] .

فما أسباب ذلك النصر ؟ وما أسباب ذلك الخذلان ؟ !

أما أسباب الخذلان فقد ذكرها الله تعالى في هذه الآية بقوله ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم** ﴾ فهي أولاً : الفشل وهو الضعف والجبن ، وثانيًا : التنازع في الأمر وهو اختلاف الكلمة والتفرق ، وثالثًا : العصيان .

وقد حصل الفشل حينما اصطدم فرسان الكفار بجيش المسلمين من خلفهم فضعف بعضهم وفروا عن ميدان المعركة .

وحصل التنازع مرتين : الأولى حينما تنازع الرماة فرأى أكثرهم النزول وترك الموقع ورأى أميرهم ومن ثبت معه البقاء .

والثانية : حينما تفرق المسلمون بعد الهجوم عليهم ولم تتَّحد كلمتهم .

وحصل العصيان من الرماة الذين رفضوا طاعة أميرهم ، وذلك بالتالي يعتبر معصية للنبي ﷺ الذي أمره ، كما قد يكون حصل ممن سمعوا نداء النبي ﷺ بالالتفاف حوله وعرفوه فلم يطيعوه ، وهؤلاء لايُتَصوَّر أن يكونوا من المؤمنين بل هم من المنافقين الذين لم يرجعوا مع عبد الله بن أبي ابن سلول .

أما أسباب النصر فهي بضد أسباب الخذلان فالفشل ضده الشجاعة والصبر ، والتنازع ضده اتفاق الرأي واتحاد الكلمة ، والعصيان ضده الطاعة .

وقد سبق ذكر العنصر الأول في قول رسول الله ﷺ « امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم » .

وقد صبر المسلمون في بداية المعركة ، وكانوا مجتمعين على كلمة واحدة ، وأطاعوا رسول الله ﷺ ، فكان الله تعالى معهم ، فنصرهم نصرا حاسما سريعا .

فلما فشل بعضهم وتنازعوا وعصوا صرفهم الله عن المشركين وقدَّر إصابتهم ليختبرهم فيظهر المؤمنون على درجاتهم في الإيمان ، وليتميَّزوا عن المنافقين .

فالأمر لله جل جلاله من قبل ومن بعد ، والنصر والخذلان بيده وحده سبحانه .

فوائد من إصابة المسلمين :

قال الحافظ ابن حجر : قال العلماء : وكان في قصة أحد وما أصيب

به المسلمون فيها من الفوائد والحكَم الربانية أشياء عظيمة : منها تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية وشؤم ارتكاب النهي ، لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم الرسول أن لا يبرحوا منه .

ومنها أن عادة الرسل أن تُبْتَلَى وتكون لها العاقبة كما تقدم في قصة هرقل مع أبي سفيان ، والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائمًا دخل في المؤمنين من ليس منهم ولم يتميز الصادق من غيره ، ولو انكسروا دائمًا لم يحصل المقصود من البعثة ، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب ، وذلك أن نفاق المنافقين كان مَخْفِيًّا عن المسلمين ، فلما جرت هذه القصة وأظهر أهل النفاق ما أظهروه من الفعل والقول عاد التلويح تصريحا ، وعرف المسلمون أن لهم عدوا في دورهم فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم .

ومنها أن في تأخير النصر في بعض المواطن هضما للنفس وكسرا لشماختها ، فلما ابتلى المؤمنون صبروا وجزع المنافقون .

ومنها أن الله هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لاتبلغها أعمالهم ، فقيض لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها .

ومنها أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء فساقها إليهم .

ومنها أنه أراد إهلاك أعدائه فقيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك في كفرهم وبغيهم وطغيانهم في أذى أوليائه ، فمحص بذلك ذنوب المؤمنين ، ومحق بذلك الكافرين [١] .

* * *

---

(١) فتح الباري ٧/ ٣٤٧ .

٧ – مثل من الحرص على الشهادة

(عمر بن الخطاب وأخوه زيد)

أخرج الطبراني بإسناده عن ابن عمر رضي الله عنهما أن عمر قال لأخيه : خذ درعي يا أخي ، قال : أريد من الشهادة مثل الذي تريد ، فتركاها جميعا .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : ورجاله رجال الصحيح [١] .

وهذا مثل يضاف إلى الأمثلة السابقة التي تبين حرص الصحابة رضي الله عنهم على الشهادة في سبيل الله تعالى ، فقد أعطى عمر بن الخطاب أخاه زيداً – رضي الله عنهما – درعه ليَلقى العدو حاسراً فينال الشهادة فأجابه زيد بأنه هو أيضًا يريد الشهادة .

وقد علم الله تعالى صدق نيتهما في ذلك فمنحهما الشهادة بعد عمْر قضياه في إعلاء كلمة الله تعالى وخدمة المسلمين حيث استشهد زيد بن الخطاب في معركة اليمامة ، وساق الله جل وعلا الشهادة لأمير المؤمنين عمر في مسجد رسول الله ﷺ .

* * *

(١) مجمع الزوائد ٥/ ٢٩٨ .

٨ – موقف إيماني جليل –
(الأنصار يردون عَرْضَ أبي سفيان)

جاء في رواية للإمام الطبري من حديث ابن إسحاق قال : حدثني جعفر بن عبد الله بن أسلم مولى عمر بن الخطاب عن رجل من الأنصار من بني سَلَمَة قال : . . . . وقد أرسل أبو سفيان رسولا ، فقال : يامعشر الأوس والخزرج خلوا بيننا وبين ابن عمنا ننصرف عنكم فإنه لاحاجة لنا بقتالكم ، فردوه بما يكره[1] .

وهكذا ظهر لون من ألوان خداع المشركين للمسلمين حيث أرادوا تفريق كلمتهم بمحاولة إقناع الأنصار بالتخلي عن رسول الله ﷺ ، وقد كان الكفار في غاية السذاجة في التفكير حينما تقدموا بهذا الطلب ، لأن من خَبر حال المؤمنين في ارتباطهم برسول الله ﷺ علم أنهم جميعا يفدونه بأرواحهم وأنه من المستحيل أن يستجيبوا لهذا الطلب .

ولقد كان موقفا جليلا للأنصار رضي الله عنهم حينما ردوا على المشركين بما يكرهون وأبانوا لهم قوة ارتباطهم برسول الله ﷺ واهتمامهم بحماية دينهم .

وهذا الموقف يعتبر تبكيتا للمشركين وتحطيما لمعنويتهم حيث أظهر الأنصار تصلبهم في حماية الإسلام مع ما يكلفهم ذلك من حرب شعواء تظهر للمتأمل المتجرد من الإيمان بتغليب كفة المشركين لكونهم أكثر عددا وأقوى عدة ، ولكونهم موتورين جاؤوا لطلب الثأر ، ولكون المدينة تشتمل على أعداء للمسلمين من اليهود والمنافقين .

* * *

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٥١١ .

٩- مثل من الأماني السامية -
(خبر عبد الله بن جحش)

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: روى البغوي من طريق إسحق بن سعد بن أبي وقاص: حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد ألا تأتي فندعوا! قال: فخلَونا في ناحية فدعا سعد، فقال: يا رب إذا التقينا اليوم غداً فلقِّني رجلا شديدا حَرْدُه أقاتله فيك ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله وآخذ سلبه، قال: فأمَّن عبد الله بن جحش، ثم قال عبد الله: اللهم ارزقني رجلا شديدا حرده أقاتله فيك حتى يأخذني فيجدع أنفي وأذني فإذا لقيتك قلت: هذا فيك وفي رسولك فتقول صدقت، قال سعد: فكانت دعوة عبد الله خيرا من دعوتي فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقان في خيط [1].

وهكذا كانت أمنية عبد الله بن جحش رضي الله عنه أن ينال الشهادة وأن يمثل به الكفار لينال أجر ذلك بعد أن يقارع الأقران الأشداء، وقد استجاب الله تعالى دعاءه فنال الشهادة على الصورة التي أحبها.

لقد وفقه الله تعالى لهذا الدعاء لأنه سبحانه أراد أن يتخذ منه شهيدا

---

(١) الإصابة ٢/ ٢٧٨، رقم ٤٥٨٣.

وأخرجه الحاكم من حديث سعيد بن المسيب قال قال عبد الله بن جحش .. وذكر نحوه، وقال قال سعيد بن المسيب: إني لأرجو أن يبرَّ الله آخر قسمه كما بر أوله، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين لولا إرسال فيه، وقال الذهبي: مرسل صحيح - المستدرك ٣/ ١٩٩-٢٠٠ -، وذكره الهيثمي من رواية الطبراني وقال: ورجاله رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٩/ ٣٠١ - ٣٠٢ -.

مع إخوانه الشهداء الأبرار، ووفق سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إلى الدعاء المذكور الذي لم يشتمل على طلب الشهادة لأنه سبحانه أراد منه أن يُعَزَّ الإسلام وأهله وأن يذل الكفر وأهله على يديه، ولقد تأخر أجله حتى فتح الله تعالى به مملكة الفرس، وأعز به دولة الإسلام.

* * *

١٠- مواقف قيادية وبطولية -

(رسول الله ﷺ يعطي سيفه أبا دجانة)

أخرج الحافظ البزار بإسناده عن الزبير بن العوام قال عرض رسول الله ﷺ سيفا يوم أحد فقال من يأخذ هذا السيف بحقه فقام أبو دجانة سماك بن خرشة فقال: يا رسول الله أنا آخذه بحقه فما حقه؟[١] قال: فأعطاه إياه فخرج واتبعته فجعل لا يمر بشئ إلا أفراه وهتكه حتى أتى نسوة في سفح الجبل ومعهن هند[٢] وهي تقول:

نحن بنات طارق[٣] نمشي على النمارق

والمسك في المفارق إن تُقبلوا نعانق

أو تُدبروا نفارق فراق غير وامق[٤]

قال: فحملت عليها فنادت يالَصخْر[٥] فلم يجبها أحد فانصرفت عنها فقلت له: كل صنيعك رأيته فأعجبني غير أنك لم تقتل المرأة

---

(١) جاء جواب هذا الاستفهام في رواية ابن إسحاق وفي رواية الطبراني الآتية حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أن تضرب به العدو حتى ينحني» قال: أنا آخذه بحقه يارسول الله - سيرة ابن هشام ٣/ ١٢ - .

(٢) يعني هند بن عتبة .

(٣) قيل إن هذه الأبيات لهند بنت بياضة بن طارق الإيادي ، قالته حين لقيت إياد جيش الفرس ، وقد تمثلت به هند بنت عتبة هنا - عيون الأثر ٢/ ٢٥ - .

(٤) أي غير محب .

(٥) جاء في المطبوع من مجمع الزوائد «فنادت بالصحراء» والتصويب من رواية ذكرها الصالحي رحمه الله في «سبل الهدى والرشاد ٤/ ١٩٢» وصخر هو اسم زوجها أبي سفيان بن حرب .

قال : فإنها نادت فلم يجبها أحد فكرهت أن أضرب بسيف رسول الله ﷺ امرأة لا ناصر لها (١).

وقال محمد بن يوسف الصالحي الشامي : وعند الطبراني عن قتادة ابن النعمان : أن عليا قام فطلبه فقال له : اجلس ، ثم قال رسول الله ﷺ : « من يأخذه بحقه ؟ » فقام أبو دجانة - بضم الدال المهملة وبالجيم والنون - فقال : يا رسول الله ، وما حقه ؟ قال : « أن تضرب به في العدو حتى ينحني » قال : أنا آخذه يا رسول الله بحقه . قال « لعلك إن أعطيتكه تقاتل في الكَيُّول » (٢) فأعطاه إياه .

وكان أبو دجانة رجلا شجاعا يختال عند الحرب ، وكان له عصابة حمراء يُعْلم بها عند الحرب ، يعتصب بها ، فإذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل ، فلما أخذ السيف من يد رسول الله ﷺ أخرج عصابته تلك ، فعصب بها رأسه ، فقالت الأنصار : أخرج أبو دجانة عصابة الموت . وهكذا كانت تقول إذا اعتصب بها ، ثم جعل يتبختر بين الصفين ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه يتبختر : « إنها لَمشْية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن » .

---

(١) ذكره الحافظ الهيثمي من رواية البزار وقال : ورجاله ثقات - مجمع الزوائد ١٠٩/٦ .

وأخرجه الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه - صحيح مسلم ، فضائل الصحابة ، رقم ٢٤٧٠ (ص ١٩١٧) .

وأخرجه الحاكم من حديث أنس والزبير رضي الله عنهما ، وصححه وأقره الذهبي - المستدرك ٣/ ٢٣٠ - ٢٣١ - .

وأخرجه الطبري من حديث الزبير رضي الله عنه - تاريخ الطبري ٢/ ٥١٠ - .

(٢) الكيُّول هو آخر الصفوف .

قال الزبير: ولما أعطى رسول الله ﷺ السيف لأبي دجانة وجَدتُ في نفسي حين سألته فمنعني وأعطاه إياه، وقلت: أنا ابن صفية عمة رسول الله ﷺ، وقد قمت إليه وسألته إياه قبله، فأعطاه إياه وتركني، والله لأنظرن ما يصنع به، فاتبعته، فخرج وهو يقول:

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل

ألاّ أقوم الدهر في الكَيُّول أضْربْ بسيف الله والرسول

قال: فجعل لا يمر بشيء إلا أفراه وفتكه، وفلق به هام المشركين، وكان إذا كَلّ شحذه بالحجارة، ثم يضرب به العدو كأنه منْجَل، وكان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحا إلا ذفف عليه، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله تعالى أن يجمع بينهما، فالتقيا فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته فعضت بسيفه، وضربه أبو دجانة فقتله.

في هذا الخبر مواقف منها:

أولا: ما قام به النبي ﷺ من شحذ الهمم والتحريض على القتال بصورة مؤثرة حيث رفع السيف فقال: «من يأخذ هذا السيف بحقه؟» فكان من نصيب أبي دجانة سماك بن خرشة رضي الله عنه، وكان من آثار ذلك أن عصب رأسه بعصابة الموت معلنا أنه سيبذل كل طاقته في القتال، ثم كان منه ما ذكره الزبير بن العوام وقتادة بن النعمان رضي الله عنهما، وذلك بما قام به من التنكيل بالأعداء والإثخان فيهم.

وهكذا يضرب الرسول ﷺ مثلا عاليا للقادة من بعده في محاولة استخراج كل الطاقات الكامنة في النفوس، والاستفادة منها في قضايا

الدعوة والجهاد، والتشهير بذوي البأس والنجدة ليتأسى المسلمون بهم، وإنزال الناس منازلهم في الإشادة بما لديهم من مواهب، وعدم مجاملة الآخرين وإن كانوا يقاربونهم في هذه المواهب أو يتفوقون عليهم في مواهب أخرى، أو يشاركونهم في نفس المواهب ولكن الموطن يتطلب أناسا بأعيانهم لهم أثر في استجاشة المشاعر وإلهاب الحماس، وهكذا كان مقام أبي دجانة في قومه وأثره في الحرب وإن كان الزبير وعلي لا يَقلان عنه بأسا ونجدة رضي الله عنهم.

ثانيا: اشتمل هذا الخبر على مواقف بطولية لأبي دجانة رضي الله عنه حيث فتك بالأعداء وتعرض لذوي البأس منهم، ولقد حقق بهذه المواقف العالية أمل النبي ﷺ فيه حينما اختصه بذلك السيف.

* * *

١١- موقف للأنصار في البراءة من الكفار - (الأوس يردون على أبي عامر)

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة: أن أبا عامر عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان أحد بني ضُبَيعة، وقد كان خرج حين خرج إلى مكة مباعدا لرسول الله ﷺ معه خمسون غلاما من الأوس، وبعض الناس كان يقول: كانوا خمسة عشر رجلا، وكان يَعدُ قريشا أن لو قد لقى قومه لم يختلف عليه منهم رجلان، فلما التقى الناس كان أول من لقيهم أبو عامر في الأحابيش وعبدان أهل مكة فقال: يا معشر الأوسِ، أنا أبو عامر، قالوا: فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق، وكان أبو عامر يسمَّى في الجاهلية الراهب، فسماه رسول الله ﷺ الفاسق فلما سمع ردهم عليه قال: لقد أصاب قومي بعدي شر، ثم قاتلهم قتالا شديدا، ثم راضخهم بالحجارة[1].

في هذا الخبر موقف من مواقف الولاء والبراء، فقد ظهر ولاء الأنصار رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ والمؤمنين من المهاجرين وبراءتهم من سيد من ساداتهم في الجاهلية كان موضع السمع والبصر في قومه الأوس حيث لم يبق من السادة الكبار بعد حرب بعاث إلا هو من الأوس وعبد الله بن أبي ابن سلول من الخزرج، فكان لمَا لَه من شرف سابق فيهم يَعدُ المشركين بأن قومه سيطيعونه وينضوون إليه إذا التقى الصفان، ولكن الله تعالى خيب أمله بهذا الرد القوي الذي لقيه من قومه.

* * *

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ١٣ .

وأخرجه الواقدي في مغازيه بنحوه - مغازي الواقدي ١/ ٢٢٣ .

١٢- مواقف جهادية لعدد من الصحابة -

قال محمد بن سعد:

فصاح طلحة بن أبي طلحة صاحب اللواء: من يبارز؟ فبرز له علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فالتقيا بين الصفين فبدره علي فضربه على رأسه حتى فلق هامته فوقع، وهو كبش الكتيبة، فَسُرَّ رسول الله ﷺ بذلك وأظهر التكبير، وكبر المسلمون وشدوا على كتائب المشركين يضربونهم حتى نغضت صفوفهم، ثم حمل لواءهم عثمان بن أبي طلحة أبو شيبة وهو أمام النسوة يرتجز ويقول:

إن علَى أهل اللواء حقا   أن تُخْضَبَ الصَّعدة أو تندقَّا

وحمل عليه حمزة بن عبد المطلب فضربه بالسيف على كاهله فقطع يده وكتفه حتى انتهى إلى مؤتزره وبدا سحره، ثم رجع وهو يقول: أنا ابن ساقي الحجيج، ثم حمله أبو سعد بن أبي طلحة فرماه سعد بن أبي وقاص فأصاب حنجرته فأدلع لسانه إدْلاع الكلب فقتله، ثم حمله مسافع بن طلحة بن أبي طلحة فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح فقتله، ثم حمله الحارث بن طلحة بن أبي طلحة فرماه عاصم بن ثابت فقتله، ثم حمله كلاب بن طلحة بن أبي طلحة فقتله الزبير بن العوام، ثم حمله الجلاس بن طلحة بن أبي طلحة فقتله طلحة بن عبيد الله[١]، ثم حمله أرطأة بن شرحبيل فقتله علي بن أبي طالب[٢].

---

(١) جاء في رواية لابن إسحاق أن الذي قتل الجلاس هو عاصم بن ثابت - سيرة ابن هشام٣/ ٢٢- .

(٢) طبقات ابن سعد ٢/ ٤٠ - ٤١ .

في هذا الخبر مواقف بطولية لعدد من الصحابة رضي الله عنهم :

الأول : موقف علي بن أبي طالب الذي قتل طلحة بن أبي طلحة العبدري مبارزة وكان مشهورا بالشجاعة، وهو كبش الكتيبة الذي جاء في رؤيا النبي ﷺ السابقة، وكان قتله فاتحة خير على المسلمين حيث فرحوا بذلك وهجموا على أعدائهم.

الثاني : مواقف الصحابة الآخرين الذين تتابعوا على قتل حملة اللواء، وقد تبين لنا من هذه المواقف شجاعة حمزة بن عبد المطلب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وبراعة سعد بن أبي وقاص وعاصم بن ثابت في الرماية.

وهذا التركيز الجيد من هؤلاء الصحابة على قتل حملة لواء المشركين كان المقصود منه تحطيم معنوية المشركين وإحداث الخلل في صفوفهم إذا سقط لواؤهم.

* * *

١٣- موقف لأبي بكر في تحقيق الولاءوالبراء -

قال الواقدي في سياق رواية له :

وطلع يومئذ عبد الرحمن بن أبي بكر على فرس، مدججا لا يُرى منه إلا عيناه، فقال: من يبارز ؟ أنا عبد الرحمن بن عتيق. قال: فنهض إليه أبو بكر فقال: يا رسول الله، أبارزه. وقد جرد أبو بكر سيفه، فقال رسول الله ﷺ: شمْ سيفك، وارجع إلى مكانك ومتعنا بنفسك(١).

فهذا موقف لأبي بكر الصديق رضي الله عنه في تحقيق مبدأ الولاء للمؤمنين والبراء من الكافرين وإن كانوا من أقاربه الأدنين، فقد كان مصمما على مبارزة ابنه عبد الرحمن الذي كان آنذاك مع الكفار، لولا أن الرسول ﷺ منعه من ذلك، وهذا دليل على وضوح العقيدة وصدق اليقين عند أبي بكر رضي الله عنه.

ولقد أسلم بعد ذلك عبد الرحمن وحسن إسلامه وأصبح من أكابر المسلمين رضي الله عنه.

* * *

---

(١) مغازي الواقدي ١/٢٥٧ .

١٤- مثل من شجاعة الحباب بن المنذر(١) -

أخرج الواقدي من حديث عمارة بن خزيمة قال : حدثني من نظر إلى الحباب بن المنذر بن الجموح وإنه لَيَحُوشُهم يومئذ كما تُحاش الغنم ، ولقد اشتملوا عليه حتى قيل قد قتل ، ثم برز والسيف في يده وافترقوا عنه ، وجعل يحمل على فرقة منهم وإنهم ليهربون منه إلي جمع منهم ، وصار الحباب إلى النبي ﷺ ، وكان الحباب يومئذ معلما بعصابة خضراء في مغفره(٢) .

هذا الخبر يدل على شجاعة الحباب بن المنذر رضي الله عنه ورباطة جأشه ، حيث استطاع الصمود لفئة من الكفار وإلجائهم إلى الفرار منه لسرعة هجومه ومقدرته على التحرك في القتال في عدة اتجاهات .

إن وجود مثل هذا البطل في جيش المسلمين يُفزع الكفار ويملأ قلوبهم رعبا ، ويجعلهم يترددون كثيراً قبل التفكير في مواجهة المسلمين .

* * *

(١) هو أبو عمرو الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري الخزرجي السَّلمي - الإصابة ١/ ٣٠٢رقم ١٥٥٢ - .

(٢) مغازي الواقدي ١/ ٢٥٧ .

١٥ - (أخبار عمرو بن الجموح واليمان وثابت بن وقش)

١ - قال ابن إسحاق : وحدثني أبي إسحاقُ بن يسار ، عن أشياخ من بني سَلِمَة : أن عمرو بن الجموح كان رجلا أعرج شديد العرج ، وكان له بنون أربعة مثل الأسْد يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد ، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه ، وقالوا له : إنّ الله عزّ وجل قد عَذرك ، فأتى رسول الله ﷺ فقال : إن بَنيَّ يريدون أن يَحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك فيه ، فو الله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة ، فقال رسول الله ﷺ : أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك ، وقال لبنيه : ما عليكم لعل الله أن يرزقه الشهادة ، فخرج معه فقتل يوم أحد(١) .

وأخرج خبره الإمام أحمد من حديث أبي قتادة رضي الله عنه قال : أتى عمرو بن الجموح إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله أرأيت إن قاتلت في سبيل الله حتى أقتل أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة ؟- وكانت رجله عرجاء - فقال رسول الله ﷺ : نعم ، فقُتلوا يوم أحد هو وابن أخيه ومولًى لهم ، فمر عليه رسول الله ﷺ فقال : كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة ، فأمر رسول الله ﷺ بهما وبمولاهما فجُعلوا في قبر واحد (٢) .

وذكره الحافظ الهيثمي وقال : ورجاله رجال الصحيح غير يحيى بن نصر الأنصاري وهو ثقة (٣) .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٤٥ .

(٢) مسند أحمد ٥/ ٢٩٩ .

(٣) مجمع الزوائد ٩/ ٣١٥ .

في هذا الخبر موقف لعمرو بن الجموح وذلك في إظهار شوقه الشديد للجهاد في سبيل الله تعالى ، مع أن الله سبحانه قد عذره في القعود بعرَجه الشديد ، ومن كان كذلك فإنه لايستطيع أن يجاهد بطاقة كاملة ، وإن كان الدافع الإيماني لديه قويا ، ومع كونه مصابا بهذا العذر ومع كونه قد قدَّم للجهاد بنين أربعة في غاية الشجاعة فإنه لم يقبل عرض بَنيه عليه بالقعود ورجا الله تعالى أن يطأ بعرجته تلك في الجنة ، وذلك بما يرجوه من نيل الشهادة .

ولما ذكر هذا الأمل لرسول الله ﷺ أبان له بأنه ممن عذر الله تعالى ولكنه أشار على بنيه بتمكينه من الخروج لعل الله تعالى أن يحقق له تلك الأمنية الغالية ، وقد تحقق له ما رجاه حيث قتل شهيدا رضي الله عنه .

ومع كونه شديد العرج فإنه قد أبلى في المعركة بلاء حسنا كما ذكر أبو طلحة ، وكان لايفارقه شعوره بالشوق إلى الجنة حتى استشهد رضي الله عنه .

٢- قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لَبيد قال : لما خرج رسول الله ﷺ إلى أُحد ، رُفع حُسَيل بن جابر ، وهو اليمان أبو حُذيفة بن اليمان وثابت بن وقَش في الآطام [(١)] مع النساء والصّبيان ، فقال أحدهما لصاحبه وهما شيخان كبيران : لا أبالك، ما تنتظر ؟ فو الله ما بقي لواحد منّا من عمره إلا ظمء[(٢)] حمار ، إنما نحن هامةُ اليوم أوغد[(٣)] ، أفلا نأخذ أسيافنا ثم نلحق برسول

(١) يعني الحصون .

(٢) أي مقدار مابين شربتي الحمار .

(٣) أي نموت اليوم أو غداً .

الله ﷺ ، لعلّ الله يرزقنا شهادة مع رسول الله ﷺ ؟ .

فأخذا أسيافهما ثم خرجا حتى دخلا في الناس ولم يُعلم بهما ، فأمّا ثابت بن وَقَش فقتله المشركون ، وأما حسيل بن جابر فاختلفت عليه أسيافُ المسلمين فقتلوه ولا يعرفونه ، فقال حذيفة : أبي فقالوا : والله إن عرفناه ، وصدقوا . قال حذيفة : يغفرُ الله لكم وهو أرحم الراحمين ، فأراد رسول الله ﷺ أن يَديهُ ، فتصدق حُذيفة بديته على المسلمين ، فزاده ذلك عند رسول الله ﷺ خيراً(١) .

في هذا الخبر مواقف منها :

الأول : ما كان من ذينك الشيخين الكبيرين : حُسَيل بن جابر (اليمان) وثابت بن وقش الأنصاريين رضي الله تعالى عنهما ، حيث اشتاقت نفوسهما إلى الاستشهاد في سبيل الله تعالى ، فخرجا إلى الجهاد مع كونهما ممن عذرهم الله سبحانه بالقعود لكبر سنهما ، لكن دفعهما إلى الخروج رغبتهما في الشهادة التي هي غاية أماني المؤمنين المتقين ، وقد حصل لهما ما أرادا من ذلك رضي الله عنهما .

الثاني : موقف لحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما حينما سامح المسلمين الذين قتلوا أباه خطأ وتصدق بديته على المسلمين ، مما أثار إعجاب النبي ﷺ به وزاد في مكانته عنده .

* * *

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٤٠ ، وأخرجه الحاكم من طريق ابن إسحاق بإسناده وصححه على شرط مسلم - المستدرك ٣/ ٢٠٢ - .

وأخرجه الإمام البخاري باختصار من حديث عائشة رضي الله عنها - صحيح البخاري ، المغازي رقم ٤٠٦٥ (فتح الباري ٧/ ٣٦١) .

١٦- موقف جهادي لعاصم بن ثابت -

قالن ابن إسحاق : وقاتل عاصمُ بن ثابت بن أبي الأقْلح فقتل مُسافع بن طلحة وأخاه الجُلاس بن طلحة ، كلاهما يُشْعره سَهْمًا (١) ، فيأتي أمَّه سُلافة فيضع رأسه في حجْرها فتقول : يابُني من أصابك ؟ فيقول : سمعتُ رجلا حين رماني وهو يقول : خُذْها وأنا ابن أبي الأقْلح ، فنذرت إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر .

وكان عاصم قد عاهد الله أن لايمس مُشركا أبدًا ، ولايمسه مشرك(٢) .

فهذا الخبر يبين براعة عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأنصاري رضي الله عنه في الرماية ، فقد أصاب اثنين من حملة لواء المشركين هما مسافع والجلاس ابنا طلحة بن أبي طلحة العبدري ، وقَتْلُ حملة اللواء له أثره الكبير في النكاية بالأعداء وتفريق صفهم .

وقول الراوي : وكان عاصم قد عاهد الله أن لايمس مشركا ولايمسه مشرك أبدًا ، إشارة إلى خبر سيأتي - إن شاء الله - بيانه في قصة استشهاده في سرية الرجيع .

* * *

(١) أي يصيبه بسهم .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٢ .

١٧ - مثل من أثر الجهاد في الإيمان -
(إسلام الأصيرم وجهاده)

قال ابن إسحاق : وحدثني الحُصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ عن أبي سفيان مولى ابن أبي أحمد عن أبي هريرة قال : كان يقول : حدِّثوني عن رجل دخل الجنة لم يُصلِّ قطُّ ، فإذا لم يعرفه الناسُ سألوه : من هو ؟ فيقول : أصيرم بني عبد الأشهل ، عمرو بن ثابت بن وقش .

قال الحصين : فقلت لمحمود بن لبيد : كيف كان شأن الأصيرم ؟ قال : كان يأبى الإسلام على قومه فلما كان يوم خرج رسولُ الله ﷺ إلى أُحد ، بدا له في الإسلام فأسلم ثم أخذ سيفه فعدا حتى دخل في عرض الناس ، فقاتل حتى أثبتته الجراحة .

قال : فبينا رجال من بني عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة إذا هم به ، فقالوا : والله إن هذا للأصيرمُ ، ماجاء به ؟ لقد تركناه وإنه لَمُنْكر لهذا الحديث ، فسألوه ماجاء به ، فقالوا : ماجاء بك ياعمرو ؟ أَحَدَبٌ على قومك أم رغبة في الإسلام ؟ قال : بل رغبة في الإسلام آمنت بالله وبرسوله وأسلمتُ ثم أخذت سيفي فغدوتُ مع رسول الله ﷺ ثم قاتلت حتى أصابني ما أصابني ، ثم لم يلبث أن مات في أيديهم ، فذكروه لرسول الله ﷺ ، فقال : إنه لمن أهل الجنة [١] .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٤٤ .

وذكره الحافظ ابن حجر في ترجمة عمرو بن ثابت من رواية ابن إسحاق وحسَّن إسناده - الإصابة ٢/ ٥١٩ ، رقم ٥٧٨٧ - .

وأخرجه الإمامان أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن عمرو بن أُقَيْش كان له ربًا في الجاهلية فكره أن يسلم حتى يأخذه . . ثم ذكر خبر مجيئه إلى أُحد (١) .

في هذا الخبر مثل واضح على أثر الجهاد في الإيمان بالله تعالى فهذا الأصيرم عمرو بن ثابت الأشهلي كان قبل يوم أحد منكرًا للإسلام مباعدًا لقومه من المسلمين ، فلما حضر ما حضر من غزو الكفار للمسلمين في بلادهم ، لا طمعاً في بلادهم وأموالهم وإنما فقط ليصرفوهم عن دينهم عظُم هذا الدين في نظر الأصيرم فدخل قلبه الإسلام ، وكان إيمانه قويا إلى الحد الذي حمله على المشاركة في الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام، فلحق بقومه في أحد وقاتل الأعداء حتى استشهد رضي الله عنه .

لقد كان في حسِّ الأصيرم وأمثاله أن دينًا يحمل معتنقيه على التضحية بالأنفس والأموال من أجله ، ويحمل أعداءه على تجييش الجيوش من أجل القضاء عليه . . أنه دين عظيم في غاية الجلال والعظمة ، وإن أدنى ذلك أن يسارع المقتنعون بعظمته إلى اعتناقه ، ثم أن يبذلوا وسعهم وطاقتهم في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله .

* * *

---

(١) سنن أبي داود ، الجهاد ، باب فيمن يسلم ويقتل رقم ٢٥٣٧ (٣/ ٤٣) ، المستدرك٣/ ٢٨ .

١٨ - إسلام مخيريق وجهاده -

قال ابن إسحاق : وكان من حديث مُخيريق ، وكان حَبْراً عالمًا ، وكان رجلاً غنيًا كثير الأموال من النخل ، وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته ، وما يجد في علمه ، وغلب عليه إلْفُ دينه فلم يزل على ذلك ، حتى إذا كان يومُ أُحُد وكان يومُ أُحد يومَ السبت ، قال : يامعشر يهود ، والله إنكم لتعلمون إن نصرَ محمد عليكم لحقٌ ، قالوا : إن اليوم يومُ السبت ، قال : لاسَبتَ لكم ، ثم أخذ سلاحه ، فخرج حتى أتى رسولَ الله ﷺ وأصحابه بأحُد ، وعَهد إلى منْ وراءه من قومه : إنْ قُتلتُ هذا اليوم . فأمْوالي لمحمد ﷺ يصنع فيها ما أراه الله ، فلما اقتتل الناسُ قاتل حتى قُتل ، فكان رسول الله ﷺ - فيما بلغني - يقول : مخيريق خيرُ يهود . وقَبض رسولُ الله ﷺ أمواله ، فعامَّةُ صَدَقات رسول الله ﷺ بالمدينة منها [١] .

في هذا الخبر بيان إسلام مخيريق أحد علماء اليهود ، وإنفاقه جميع ماله في سبيل الله تعالى ، وجهاده مع المسلمين واستشهاده . . مواقف عالية من هذا العالم الحَبْر تتابعت كلها في يوم واحد ، فقد كان يعلم أن رسول الله ﷺ هو الرسول الذي بشر به أنبياؤهم وأمروهم بالإيمان به ونصره إذا ظهر ، وقد تيقظ ضميره يوم أحد وتذكر وجوب نصر النبي ﷺ الذي تكالب عليه أهل الباطل ، فكان ذلك دافعا له إلى إعلان إسلامه .

ومثل هذا العالم يكون عادة مترددا بين قناعته بصدق دعوة النبي ﷺ

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٥٢ ، ٣/ ٤٢ .

ووجوب اتباعه وبين مداراة قومه الذين كفروا به وناصبوه العداء ، ويكون الفكر المهيمن على هذا وأمثاله هو تأجيل البَتِّ في الأمر رجاء أن يقتنع علماء قومه بالإسلام فيدخل معهم ويجمع بين إرضاء ضميره وإرضاء قومه .

ولكن نزول ذلك البلاء بالمسلمين واحتياجهم الشديد للنصرة عجل بموضوع البت في القضية فأعلن مخيريق إسلامه أمام قومه وأمرهم بذلك .

ولقد كان إسلام هذا الرجل إسلام العالم الموقن فلم يكْتَف بمجرد الإسلام وإنما قام بإنفاق جميع أمواله في سبيل الله تعالى ، والمال من أعز المحبوبات لدى الإنسان فالخروج من المال دليل على قوة الإيمان بهذا الدين الذي خرج من أمواله في سبيله .

ثم لم يكتف بذلك وإنما خرج بنفسه للجهاد في سبيل الله تعالى ، وهذا دليل على ارتفاع مستوى الإيمان عنده حيث حمله على بذل نفسه بعد ماله في سبيل الله جل وعلا .

ولقد أكرمه الله تعالى بالشهادة في ذلك اليوم فنال أجرا عظيما في وقت قصير جدا .

* * *

١٩ - مثل من تعظيم الشهادة والشوق إليها -

(خبر حنظلة الغسيل)

أخرج محمد بن عمر الواقدي بإسناده عن شيوخه قالوا : وكان حَنظلة بن أبي عامر تزوج جميلة بنت عبد الله بن أُبي ابن سلول ، فأدخلتْ عليه في الليلة التي في صُبحها قتال أُحد . وكان قد استأذن رسول الله ﷺ أن يبيت عندها فأذن له ، فلمّا صلّى الصبح غدا يُريد رسول الله ﷺ . ولزمته جميلة فعاد فكان معها ، فأجنب منها ثم أراد الخروج ، وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعةٍ من قومها فأشهدتهم أنه قد دخل بها ، فقيل لها بَعْدُ : لمَ أشهدت عليه ؟ قالت : رأيت كأنّ السماء فُرِجَتْ فدخل فيها حنظلة ثم أطبقَت ، فقلت : هذه الشهادة ! فأشهدتْ عليه أنه قد دخل بها . وتَعْلَق بعبد الله بن حنظلة ، ثم تزوجها ثابت بن قيس بعدُ فولدت له محمد بن ثابت بن قيس .

وأخذ حنظلة بن أبي عامر سلاحه ، فلحق برسول الله ﷺ بأُحُد وهو يُسوّي الصفوف . قال : فلمّا انكشف المشركون اعترض حنظلة ابن أبي عامر لأبي سُفيان بن حرب فضرب عُرقوب فَرَسه فاكتسعت الفرس ، ويقع أبو سفيان إلى الأرض ، فجعل يصيح : يامعشر قُريش ، أنا أبو سفيان بن حَرب ! وحنظلة يريد ذبحه بالسيف ، فأسمع الصوت رجالاً لايلتفتون إليه من الهزيمة حتى عاينه الأسود بن شَعوب ، فحمل على حنظلة بالرمح فأنفذه ، فمشى حنظلة إليه بالرمح وقد أثبته ، ثم ضربه الثانية فقتله . وهرب أبو سُفيان يعدو على قدميه فلحق ببعض قُريش ، فنزل عن صدر فَرسه وردف وراء أبي سُفيان .

قال : وقال رسول الله ﷺ : إني رأيت الملائكة تُغسِّل حنظلة بن أبي عامر بين السماء والأرض بماء المُزْن في صحاف الفضَّة .

قال أبو أسيد الساعديّ : فذهبنا فنظرنا إليه فإذا رأسُه يقطُر ماءً ، قال أبو أُسَيد ، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته ، فأرسل إلى امرأته فسألها ، فأخبرَتْه أنه خرج وهو جُنُبٌ(١) .

وأخرجه أبو عبد الله الحاكم من طريق ابن إسحاق قال : حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله عن أبيه عن جده رضي الله عنه مختصرا وجاء في آخره : فقال رسول الله ﷺ : لذلك غسلته الملائكة (٢) .

في هذا الخبر مواقف وعبر منها :

الأول : في تعلُّق جميلة بنت عبد الله بن أبي بحنظلة بن أبي عامر حين رأت له تلك الرؤيا التي فسرتها بالشهادة ، فالمظنون في مثل هذه الحال أن تحاول الابتعاد عنه حتى لاتحمل منه فتكون بعد ذلك غير حظيَّة لدى الخُطَّاب ، لكنها تعلقت به رجاء أن تحمل منه فتلد ولدًا ينسب لذلك الشهيد الذي بلغ درجات عليا في الصلاح باستقامته أوَّلا ثم بما ترجوه من نيله الشهادة .

ولقد حصل لها ما أمَّلت به فحملت منه وولدت ولدًا ذكرًا سمِّي عبد الله ، وكان له ذكرٌ بعد ذلك ، وكان من أعلى ما يفتخر به أن يقول : أنا ابن غسيل الملائكة .

وهكذا نجد ارتفاع مستوى الصحابة في النظر إلى رفعة الدين والعلو

---

(١) مغازي الواقدي ١/ ٢٧٣ .

(٢) المستدرك ٣/ ٢٠٤ ، وعبد الله المذكور في السند هو عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما .

في الآخرة واعتبار الأمور الدنيوية أمورا ثانوية خاضعة لأمر الدين .

الثاني : في شوق حنظلة القوي إلى الجهاد في سبيل الله تعالى ، الذي يتمثل في سرعة خروجه إلى الميدان ، الأمر الذي لم يتمكن معه من غُسل الجنابة ، حيث اعتبر أن ذلك مما يعوقه عن الجهاد .

والذي يغلب على الظن أن امرأته جميلة قد أخبرته برؤياها ، وأنها قد جعلت من تلك الرؤيا مسوِّغا لإقناعه باللُّبث معها ذلك الوقت رجاء أن تَعْلَق منه بابن ينسب لذلك الشهيد الصالح ، إذ أنه يبعد أن تخبر بتلك الرؤيا الأباعد ولا تخبر بها زوجها ، خصوصا وأن رجاء الشهادة كان هدفا ساميا ومقصدا عاليا عند الصحابة رضي الله عنهم ، فيكون إسراعه بالخروج مع علمه بتلك الرؤيا شاهدا على قوة إيمانه ورسوخ يقينه ، وتكون استجابته لها لتغليب هذا المقصد السامي ليكون له عقب يرجو صلاحه ودعاءه الصالح ، لا لمجرد قضاء شهوة لاتخطر له على بال في الغالب وقد نزل بالمسلمين ما نزل .

الثالث : موقف جهادي كبير حينما تصدى حنظلة لقائد المشركين أبي سفيان بن حرب والقائد غالبا يكون حوله من يحميه ، وهو فارس وحنظلة راجل ، ولقد كاد أن يقضي عليه لولا معاجلة الأسود بن شعوب له بطعنة من خلفه ليقضي الله أمرا كان مفعولا ، لينال حنظلة الشهادة ، وليبقى أبو سفيان على قيد الحياة حتى يوفقه الله تعالى للإسلام بعد ذلك .

الرابع : عبرة عظيمة في نزول الملائكة عليهم السلام لتغسيل حنظلة

بمياه المزن في صحاف الفضة ، فإن هذا الخبر يدل على عظمة المؤمن ومنزلته العالية عند الله تعالى ، حيث أمر جلّ وعلا ملائكته بالنزول لتطهير حنظلة لتصعد روحه إلى الملأ الأعلى وجسمه طاهر .

الخامس : في إخبار النبي ﷺ الصحابة بذلك معجزة بالغة حيث لم ير الصحابة الملائكة وماقاموا به من تغسيل حنظلة ، فرؤية النبي ﷺ ذلك من المعجزات النبوية .

* * *

٢٠ – موقف جليل في ثبات عبد الله بن جبير وأصحابه –

١ – أخرج الإمام البخاري من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال : لقينا المشركين يومئذ ، وأجلس النبي ﷺ جيشًا من الرُّماة ، وأمَّر عليهم عبد الله [١] وقال : لاتبرحوا ، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تُعينونا . فلما لقينا هربوا ، حتى رأيتُ النساء يشتددن في الجبل ، رفعن عن سُوقهن قد بدت خلاخلهنَّ فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمة . فقال عبدُ الله : عهد إلي النبيُّ ﷺ أن لاتبرحوا . فأبوا . فلما أبوا صُرفَ وُجوهُهم ، فأصيب سبعون قتيلا[٢] . .

تقدم في رواية ابن إسحاق أن النبي ﷺ أمر خمسين من الرماة أن يبقوا فوق جبل عينين وأن يحرسوا المسلمين حتى لايأتيهم الأعداء من خلفهم ، فلما رأى الرماة انتصار المسلمين واشتغال بعضهم بحيازة الغنائم نادى بعضهم بعضا للنزول من الجبل ومشاركة المسلمين في جمع الغنائم ، فنهاهم قائدهم عبد الله بن جبير بن النعمان الأنصاري ، فأطاعه تسعة منهم وظلوا معه مرابطين ونزل الآخرون إلى ساحة المعركة .

قال الواقدي : وحدّثني صالح بن خوات . عن يزيد بن رومان ، قال : قال خوات بن جبير : لما كرّ المشركون انتهوا إلى الجبل ، وقد عَرِيَ

---

(١) هو عبد الله بن جبير كما في رواية زهير عند البخاري (الفتح ٧/ ٣٥٠) .

(٢) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٠٤٣ (٧/ ٣٤٩) .

من القوم ، وبقي عبد الله بن جبير في عشرة نفر ، فهم على رأس عينين فلما طلع خالد بن الوليد وعكرمة في الخيل ، قال لأصحابه[1] : انبسطوا نَشَراً[2] لئلا يجوز القومُ ! فصفوا وجه العدوّ . واستقبلوا الشمس ، فقاتلوا ساعة حتى قُتل أميرهم عبد الله بن جُبير ، وقد جُرح عامَّتهم[3] .

وقال رافع بن خَديج : فلمّا انصرف الرُّماة وبقي من بقي ، نظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلَّة أهله ، فكرّ بالخيل وتبعه عكرمة في الخيل ، فانطلقا إلى بعض الرُّماة فحملوا عليهم . فراموا القوم حتى أصيبوا ، ورامى عبد الله بن جُبير حتى فنيت نَبْله ، ثم طاعن بالرمح حتى انكسر ، ثم كسر جَفن سيفه ، فقاتلهم حتى قُتل رضي الله عنه[4] .

في هذين الخبرين بيان ثبات أمير الرماة عبد الله بن جبير هو ومن بقي من الرماة ، وكانوا كما جاء في رواية خوات بن جبير عشرة ، ولقد حاول عبد الله جهده منع خيل المشركين من الاقتحام على المسلمين فنشر أصحابه في طريقهم ، ولكنهم كانوا أقل من أن يقفوا في وَجه أولئك الفرسان ، فدخلوا معهم في معركة غير متكافئة كانت نتيجتها القضاء على أولئك الرماة والانطلاق نحو جيش المسلمين .

ولقد ضرب ابن جبير وصحبه في ذلك مثلا عاليا في طاعة رسول

---

(١) يعني عبد الله بن جبير .

(٢) أي منتشرين .

(٣) مغازي الواقدي ١/ ٢٨٤ .

(٤) مغازي الواقدي ١/ ٢٣٢ .

الله ﷺ والتضحية بالنفس في سبيل حماية المسلمين .

لقد استعمل رضي الله عنه كل ما في جعبته من سلاح فرماهم بالنبل حتى فنيت سهامه ثم طاعنهم بالرمح حتى انكسر ثم كسر جفن سيفه مُشعراً أعداءه بأنه سيستقتل هو وأصحابه حماية للمسلمين ، وهذا يصور لنا قوة المقاومة التي شنها ابن جبير على الأعداء .

وقد يقال : ماقيمة عشرة مشاة في مقابل جيش من الفرسان ؟! أفلا انحازوا إلى جيش المسلمين ليحموا أنفسهم وليكثّروا الجيش الإسلامي؟! .

فيقال : إن هؤلاء أوّلاً من قوم لايُلقون بالاً لحماية أنفسهم ، بل إن أسمى أمانيهم أن يفوزوا بالشهادة في سبيل الله تعالى ، وثانيا هم يُنفِّذون أمر النبي ﷺ فهم لا يلتفتون إلى أي سلوك آخر يتعارض مع طاعة الأمر النبوي ، وثالثًا فإن وقوفهم في وجه الأعداء يؤخر هجومهم بعض الوقت وربما تنبه لهم المسلمون فيقومون بهجوم مضاد عليهم ، فوقوف هؤلاء النفر في وجه الاعداء المهاجمين كان هو عين الحكمة لهذه الوجوه المذكورة وغيرها .

❊ ❊ ❊

٢١ – ثبات النبي صلى الله عليه وسلم العظيم –

بعد أن داهم فرسان المشركين المسلمين من خلفهم ، وصاح الشيطان بهم : ألا إن محمداً قد قتل ، حصل ما حصل على المسلمين من الاضطراب والارتباك ففر منهم من فر وانسحب منهم إلى سفح الجبل من انسحب وثبت من ثبت في ميدان المعركة .

أما رسول الله ﷺ فإنه لم يفر ولم ينسحب ، ولقد ضرب بنفسه أروع الأمثال في الشجاعة ورباطة الجأش والإقدام على المكاره ، فلقد أُفرد في نفر من أصحابه فثبت وقاتل الكفار هو ومن ثبتوا معه ، بل أعظم من ذلك أنه نادى المسلمين المنسحبين إلى أعلى الوادي من خلفهم يقول : إليّ عباد الله ، إليّ عباد الله .

وقد نزل في ذلك قول الله تعالى ﴿ **إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٥٣]

وأخرج الإمام ابن جرير الطبري من طريق ابن جُريج عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله تعالى ﴿ **وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ** ﴾ : إليَّ عباد الله إليَّ عباد الله [١] .

وقوله تعالى ﴿ **فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ** ﴾ معناه أن الله تعالى جازاهم بغمٍّ جديد و هو إشراف جيش الكفار عليهم بعد توقف المعركة على غمِّهم السابق بالإصابة وفوات النصر كما أخرج الإمام ابن جرير من طريق أسباط بن نصر عن السدي

(١) تفسير الطبري ٤/ ١٣٤ .

الكبير إسماعيل بن أبي كريمة قال : فلما اجتمعوا وفيهم رسول الله ﷺ حين ذهب عنهم الحزن - يعني برؤيتهم رسول الله ﷺ حيًا - فأقبلوا يذكرون الفتح وما فاتهم منه ويذكرون أصحابهم الذين قُتلوا ، فأقبل أبو سفيان حتى أشرف عليهم ، فلما نظروا إليه نسوا ذلك الذي كانوا عليه وهمَّهم أبو سفيان [1] .

فكَوْن النبي ﷺ يرفع صوته بنداء أصحابه يُعتبر منتهى الشجاعة والبطولة لأنه هو مقصود المشركين الأول وهم يعرفون صوته ، وهو بهذا النداء يغري المشركين بنفسه ، لكنه لم يلتفت إلى ذلك لأن عودة المؤمنين واجتماعهم تحت قيادته أهمُّ من أمر سلامته مع بقائه منفردا عن أصحابه وتفرقهم بغير قيادة ولا نظام .

وقد أقبل المشركون إلى النبي ﷺ وقاتلهم وقاتل دونه عدد قليل من أصحابه حتى قُتل بعضهم بين يديه وأثخن بعضهم بالجراح ، إلى أن فاء المسلمون بعدما عرفوا مكان النبي ﷺ كما سيأتي .

إن مشاركة النبي ﷺ في الجهاد وثباته العظيم في وجه العدو دليل واضح على اهتمامه الكبير بأصحابه وترفُّعه عن النظر إلى الذات ، فلقد كان بوسعه ﷺ أن يبقى في مكان حصين وأن يجعل حوله حرسا يحمونه من هجمات الأعداء ، وسيجد أن جميع الصحابه سيتنافسون على حمايته ووقايته بأرواحهم ، ولكنه واجه حَرَّ المعركة وتعرَّض لاستهداف العدو لأنه يشرِّع لأمته ويرسم للقادة من بعده الطريق الأمثل ، وعلى هذا الطريق سار قادة المسلمين من الصحابة رضي الله عنهم . هذا وقد

---

(١) تفسير الطبري ٤/ ١٣٦ .

جاءت روايات تبين جهود النبي ﷺ في الجهاد ، فمن ذلك ما أخرجه الواقدي في سياق رواية له قال : وباشر رسول الله ﷺ القتال ، فرمى بالنَّبل حتى فنيت نَبلُه وتكسّرت سيَة قوسه ، وقبل ذلك انقطع وتَره ، وبقيت في يده قطعةٌ تكون شبراً في سية القوس ، وأخذ القوس عُكَّاشة ابن محْصَن يُوتره له ، فقال : يارسول الله ، لايبلغ الوتَر . فقال رسول الله ﷺ : مُدّه ، يبلغْ ! قال عُكَّاشة : فو الذي بعثه بالحقّ ، لمددتُه حتى بلغ وطويتُ منه اثنين أو ثلاثة على سية القوس . ثم أخذ رسول الله ﷺ قوسه ، فما زال يرمي القوم ، وأبو طلحة أمامهم يَستْره مُترّسًا عنه ، حتى نظرت إلى قوسه قد تحطّمت ، فأخذها قتادة بن النُّعمان [1] .

فهذا الخبر فيه بيان شيء من الجهد الذي بذله رسول الله ﷺ في قتال الأعداء ، حيث لم يكن عمله قاصرا على إدارة المعركة ، وإنما تجاوز ذلك إلى الإسهام في القتال ، ولقد كان الجهد الذي بذله في الرمي كبيرا حيث بلغت كثافة الرمي إلى الحد الذي أتلف قوسه .

* * *

(١) مغازي الواقدي ١/ ٢٤٢ .

٢٢ - مواقف من جهاد حمزة بن عبد المطلب واستشهاده -

١ - أخرج الإمام أبو عبد الله البخاري من حديث جعفر بن عمرو بن أمية الضمري قال « خرجت مع عبيد الله بن عدي بن الخيار ، فلما قدمنا حمص قال لي عبيد الله بن عدي : هل لك في وحشي نسأله عن قتل حمزة ؟ قلتُ : نعم . وكان وحشيٌ يسكنُ حمص ، فسألنا عنه ، فقيل لنا : هو ذاك في ظل قصره كأنه حَميت[1] .

قال فجئنا حتى وقفنا عليه بيسير ، فسلمنا ، فرد السلام ، قال وعبيد الله مُعتجرٌ بعمامته ما يرى وحشيٌ إلا عينيه ورجليه فقال عبيد الله : ياوحشي أتعرفني ؟ قال فنظر إليه ثم قال : لا والله ، إلا أني أعلمُ أن عدي بن الخيار تزوج امرأةً يقالُ لها أم قتال بنت أبي العيص ، فولدت له غلاماً بمكة فكنتُ أسترضع له ، فحملتُ ذلك الغلام مع أمه فناولتها إياهُ، فلكأنِّي نظرتُ إلى قدميك .

قال فكشف عُبيد الله عن وجهه ثم قال : ألا تخبرنا بقتل حمزة؟ قال : نعم ، إن حمزة قتل طُعيمة بن عدي بن الخيار ببدر ، فقال لي مولاي جبير بن مُطعم : إن قتلت حمزة بعمي فأنت حرّ قال : فلما أن خرج الناسُ عام عينين - وعينين جبل بحيال أحد ، بينه وبينه واد - خرجتُ مع الناس إلى القتال ، فلما اصطفوا للقتال خرج سباع فقال : هل من مبارز ؟ قال فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فقال : ياسباعُ ،

(١) حَميت بوزن رغيف أي زقّ كبير قاله الحافظ ابن حجر وقال : وفي رواية لابن عائذ «فوجدناه رجلا سمينا محمرة عيناه » : الفتح ٧/ ٣٦٨) .

يابن أم أنمار مقُطعة البُظور[1] ، أتحادُّ الله ورسوله ﷺ ؟ قال ثم شدَّ عليه ، فكان كأمس الذاهب . قال : وكمنتُ لحمزة تحت صخرة ، فلما دنا مني رميته بحربتي فأضعها في ثُنَّته[2] حتى خرجت من بين وركيه ، قال فكان ذلك العهد به .

فلما رجع الناسُ رجعتُ معهم ، فأقمت بمكة حتى فشا فيها الإسلامُ . ثم خرجتُ إلى الطائف ، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ رُسُلا ، فقيل لي : إنه لايهيج الرسل ، قال : فخرجتُ معهم حتى قدمت على رسول الله ﷺ ، فلما رآني قال : آنت وحشي ؟ قلت : نعم . قال : أنت قتلتَ حمزة ؟ قلتُ : قد كان من الأمرُ مابَلَغكْ . قال : فهل تستطيع أن تُغيب وَجَهك عني ؟ .

قال فخرجت . فلما قُبض رسولُ الله ﷺ فخرج مُسيلمة الكذابُ قلت لأخرجن إلى مُسيلمة لعلي أقتله فأكافيء به حمزة . قال فخرجت مع الناس فكان من أمره ما كان ، قال : فإذا رجلٌ قائم في ثلمة جدار كأنه جملٌ أورقُ ثائر الرأس ، قال فرميتُه بحربتي ، فأضعها بين ثدييه حتى خرجَتْ من بين كتفيه . قال ووثب رجلٌ من الأنصار فضربه بالسيف على هامته » .

قال قال عبدُ الله بن الفضل : فأخبرني سليمانُ بن يسار أنه سمع عبد الله بن عمر يقول « فقالت جاريةٌ على ظهر بيت : وا أمير المؤمنين ، قتله العبدُ الأسود »[3] .

---

(١) يعني الختَّانة قال الحافظ ابن حجر : قال ابن إسحاق : وكانت أمه ختانة بمكة تختن النساء أهـ قال : والعرب تطلق هذا اللفظ في مَعْرض الذم وإلا قالوا : خاتنة – الفتح ٧/ ٣٦٩) .

(٢) أي في عانته .

(٣) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٠٧٢ (الفتح ٧/ ٣٦٨) .

في هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولاً : بيان شجاعة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه العظيمة ، فلقد ذكر وحشي قتله لأحد المبارزين من المشركين بصورة تدل على قوة حمزة وشجاعته الخارقة ومقدرته الحربية الفائقة .

وذكر الحافظ ابن حجر عن رواية الطيالسي لهذا الخبر « فإذا حمزة كأنه جمل أورق ما يرفع له أحد سيفه إلا قمعه بالسيف فَهبتُه » ، قال : وعند ابن عائذ « فرأيت رجلا إذا حمل لايرجع حتى يهزمنا ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : حمزة ، قلت : هذا حاجتي »(١) .

وهذا يعني أنه كان متلثما فلم يعرفه وحشي ، لكن أهل الخبرة الحربية يعرفونه بجلاده لتميزه عن غيره في الحرب .

وجاء في رواية ابن إسحاق : ويهدُّ الناس بسيفه هدًا ، ما يقوم له شيء »(٢) .

وهذا يدل على مقدار شجاعة حمزة أسد الله وأسد رسوله ﷺ ، ومبلغ النكاية التي أوقعها بالكفار في تلك المعركة .

ثانيًا : موقف رسول الله ﷺ من وحشي قاتل حمزة حينما أسلم ، وقد ذكر الحافظ ابن حجر في ذلك روايات أخرى ، منها رواية الطيالسي وفيها يقول وحشي عن نفسه : « فأردت الهرب إلى الشام فقال لي رجل : ويحك والله ما يأتي محمداً أحد بشهادة الحق إلا خلّى عنه ،

---

(١) فتح الباري ٧/ ٣٦٩ .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ١٩ .

قال : فانطلقت فما شعر بي إلا وأنا قائم على رأسه أشهد شهادة الحق . . فقال : ويحك حدثني عن قتل حمزة ، قال : فأنشأت أحدثه كما حدثتكما » [1] .

وقد قبل منه النبي ﷺ إسلامه لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، ولم يصل إليه من رسول الله ﷺ ولا مجرد عتاب ، وهذا منتهى ما يتصوره الإنسان من السماحة والعفو والإحسان .

ولابد لنا هنا من أن نقف وقفة تأمل أمام هذا المشهد العظيم ، فهذا حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ يُقتل غدرا من هذا الرجل الحبشي ويمثِّل الكفار بجسده ويَحزن عليه الرسول ﷺ حزنا بالغا ، ومع ذلك ينطلق قاتله ليعيش في مكة حُرًّا طليقًا لايخشى من كيد المسلمين ولم يخطر بباله أن رسول الله ﷺ يمكن أن يدبِّر خطة للانتقام منه ، لانه لم يسبق له أن فعل ذلك مع أمثاله ، ولو فعله مع ذلك الرجل لم ينتطح في قتله عنزان ، فهو رجل كان مملوكا فلا قوم له بمكة ولا عشيرة ، ومع ذلك فإن شيئًا من ذلك لم يحدث ، لأن رسول الله ﷺ - وهو الإمام الأول للمسلمين - لم يكن يتصرف بدافع من الانتصار للنفس ، وإنما كان يُقْدم أحيانا على تدبير المكائد للكفار إذا كانوا من الزعماء الذين يكيدون للمسلمين ، فالقضاء عليهم قبل ذلك يوفر على المسلمين معارك قد تُضعف من قوتهم ، أما أن يفكر في قتل رجل لا قوة له ولاعشيرة لمجرد الانتقام منه فإن ذلك لايفيد شيئًا في نصر الإسلام ولايوهن من كيد الكافرين .

---

(١) فتح الباري ٧/ ٣٧٠ .

وكون ذلك الرجل أغاظ النبي ﷺ وأحزنه صحيح ، ولكن الذي يرفع هذا الحزن والغيظ هو احتساب الأجر عند الله تعالى والإيمان بأن أمَد هذه الحياة قصير وأن هناك لقاء خالدا في الآخرة ، ورسول الله ﷺ هو أعظم من يمثل هذا المبدأ السامي .

أما قول رسول الله ﷺ لوحشي « فهل تستطيع أن تُغيِّب وجهك عني؟ » فهذا لايعني شيئًا من المؤاخذة والتأثيم ، وإنما هو تذكير له بأن رؤيته إياه تجلب له شيئًا من المتاعب النفسية لأن ذلك يذكره بتلك المصيبة العظيمة التي كا ن لها في نفسه أثر بالغ ، فأشار عليه النبي ﷺ بأن يغيب وجهه حتى يفقد مصدر التذكير بتلك المصيبة .

إن الرجال الكُمَّل من صفاتهم أن نفوسهم مرهفة الإحساس ، يتأثرون إذا أخطأ عليهم أحد خطأً كبيرا ، ولكنهم مع ذلك يكتمون مشاعر نفوسهم فلا يتصرفون إلا بما يوافق العقل السليم ، وإذا أخطئوا على غيرهم تأثروا كثيراً وسارعوا إلى الاعتذار ومحو آثار ذلك الخطأ ، ومع ذلك يبقى في نفوسهم شيئ من أثر ذلك .

وإن من رحمة الله تعالى بالإنسان أنه ينسى سريعًا ، فتمر عليه المصائب فلا تخلِّف في نفسه أثر بالغا لأنه ينساها ويُشغَل بما في حاضره ، ولكن حينما يواجه مشهداً من مشاهد تلك المصائب فإنه يتذكر حالاً في الغالب ، فيحصل له شيء من التأثر النفسي إذا كان مرهف الإحساس .

والنبي ﷺ وهو القدوة العظمى لأمته لم يكتم ذلك ويصبر على تحمل الآثار النفسية كلما واجه ذلك الرجل ، لأنه مشرِّع للأمة ، وكلمته هذه التوجيهية تبين أن شعور الإنسان بالألم والحزن عند تذكر المصيبة

لايعني نقصًا في الإيمان بقضاء الله تعالى وقدره ، ولا ضعفا في الصبر على الأذى ، لأن ذلك أمر جبلِّي فطر الله الإنسان عليه ، فلا يملك محوه من نفسه ، وإنما يملك جوارحه أن تقول أو تفعل ما لايليق .

لقد كان الرسول ﷺ إذًا يتحمل الكثير من الآلام النفسية من مواجهة عتاة الكفار الذين كانوا يواجهونه بأنواع من الأذى النفسي والجسمي ثم يرى وجوههم مع كل صباح ومساء ! .

ولقد ظل طويلا يذكر ما واجهه به عتاة ثقيف حينما خرج لدعوتهم لما سألته عائشة رضي الله عنها عن أشد يوم مرَّ عليه كما سبق .

٢- أخرج أبو عبد الله الحاكم من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل قال : سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول : فقد رسول الله ﷺ يوم أُحد حمزة حين فاء الناس من القتال ، قال : فقال رجل : رأيته عند تلك الشجرة وهو يقول : أنا أسد الله وأسد رسوله اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء لأبي سفيان وأصحابه وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء من انهزامهم ، فسار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نحوه فلما رأى جبهته بكى ولما رأى ما مُثِّل به شهق ثم قال : ألاَ كَفَنٌ فقام رجل من الأنصار فرمى بثوب قال جابر : فقال رسول الله ﷺ : سيد الشهداء عند الله تعالى يوم القيامة حمزة .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي (١) .

هذا الخبر يفيد بأن حمزة رضي الله عنه تأخر استشهاده حتى

---

(١) المستدرك ٣/ ١٩٩ .

حصلت الإصابة على المسلمين ؛ فيكون قد أبلى بلاء عظيما في المرحلة الأولى من المعركة وثبت حينما حصل الارتباك في صفوف المسلمين إلى أن استشهد ، وهذا شاهد على شجاعته الفذة وثباته العظيم رضي الله عنه .

٣ - أخرج الأئمة أحمد وأبو يعلى والبزار من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه أنه لما كان يوم أحد أقبلت امرأة تسعى حتى كادت أن تشرف على القتلى قال فكره النبي ﷺ أن تراهم ، فقال : المرأة المرأة ، قال الزبير : فتوسمت أنها أمي صفية قال : فخرجت أسعى إليها قال فأدركتها قبل أن تنتهي إلى القتلى ، قال : فَلَدَمَتْ [١] في صدري وكانت امرأة جَلْدة قالت : إليك عني لا أرض لك فقلت : إن رسول الله ﷺ عزم عليك قال : فوقفتْ و أخرجتْ ثوبين معها فقالت : هذان ثوبان جئت بهما لأخي حمزة فقد بلغني مقتله فكفنوه فيهما ، قال : فجئنا بالثوبين لنكفِّن فيهما حمزة فإذا إلى جنبه رجل من الأنصار قتيل فُعل به كما فُعل بحمزة قال : فوجدنا غضاضةً وحَنًى أن يكفَّن حمزة في ثوبين والأنصاري لاكفن له ، فقلنا : لحمزة ثوب وللأنصاري ثوب فقدرناهما فكان أحدهما أكبر من الآخر فأقرعنا بينهما فكفَّنَّا كل واحد منهما في الثوب الذي طار له .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : فيه عبد الرحمن بن أبي الزناد وهو ضعيف وقد وثق [٢] .

---

(١) أي ضربت ودفعت .

(٢) مجمع الزوائد ٦/ ١١٨ .

في هذا الخبر مواقف :

الأول : ما كان من صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها حينما رضيت وسلَّمت لأمر النبي ﷺ لها بالرجوع بينما كانت قبل ذلك تخاطب ولدها الزبير رضي الله عنه بعنف وتضرب في صدره ظنّا منها أنه هو الذي يمنعها من رؤية أخيها حمزة رضي الله عنه ، والوقوف عند أوامر النبي ﷺ دليل على قوة الإيمان .

الثاني : موقف أخلاقي نبيل وذلك حينما واسى آل حمزة أخاه الأنصاري المقتول بجانبه في الكفن فجعلوا لكل واحد منهما ثوبا ، ويبلغ هؤلاء العظماء منتهى النبل في المعاملة حينما لجئوا إلى القرعة في توزيع الثوبين على الشهيدين ولم يفضِّلوا حمزة بأكبرهما .

إن هذا المشهد يكشف لنا صورة من أخلاق الصحابة رضي الله عنهم العالية في المعاملة بينهم من الإيثار والمواساة والبعد عن الأثرة والأنانية .

* * *

٢٣ – من مواقف النساء الجهادية –
(أخبار أم عمارة)

أخرج محمد بن عمر الواقدي بإسناده عن شيوخه قالوا : وكانت نُسيبة بنت كعب أمّ عُمارة ، وهي امرأة غَزيّة بن عمرو ، وشهدت أُحدًا هي وزوجها وابناها ، وخرجت معها شَنّ لها في أوّل النهار تُريد أن تسقي الجرحى ، فقاتلتْ يومئذ وأبْلَتْ بلاءً حسنًا ، فجُرحت اثنى عشر جُرحًا بين طعنة برمح أو ضربة بسيف .

فكانت أُمّ سعد بنت سعد بن الرَبيع تقول : دخلتُ عليها فقلتِ لها : ياخالة حدثيني خبرك ، فقالت : خرجت أوّل النهار إلى أُحُد ، وأنا أنظرُ ما يصنع الناس ، ومعي سقاءٌ فيه ماءٌ ، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه ، والدَّولة والريح للمسلمين ، فلمّا انهزم المسلمون انْحَزْتُ إلى رسول الله ﷺ ، فجعلت أُباشر القتال وأذُبّ عن رسول الله ﷺ بالسيف وأرمي بالقوس حتى خلصتْ إلي الجراحُ .

فرأيت على عاتقها جُرحًا له غَورٌ أجْوَف ، فقلت : يا أُمّ عُمارة ، من أصابك بهذا ؟ قالت : أقبل ابن قَمئة ، وقد ولّى الناس عن رسول الله ﷺ ، يصيح : دُلّوني على محمد ، فلا نجوتُ إن نجا ، فاعترض له مُصْعَبُ بن عُمير وأُناس معه ، فكنت فيهم ، فضربني هذه الضربة ، ولقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكنَّ عدو الله كان عليه درعان .

قلت : يدك ، ما أصابها ؟ قالت : أصيبتْ يوم اليَمامة لمّا جَعَلَت الأعرابُ ينهزمون بالناس ، نادت الأنصارُ : « أخلصونا » ، فأُخلصَت

الأنصارُ ، فكنت معهم ، حتى انتيهنا إلى حديقة الموت [1] ، فاقتتلنا عليها ساعة حتى قُتل أبو دُجانة على باب الحديقة ، ودخلتُها وأنا أُريد عدوّ الله مُسيْلمة ، فيعترض لي رجلٌ منهم فضرب يدي فقطعها ، فوالله ما كانت لي ناهيةٌ ولاعرّجتُ عليها حتى وقفتُ على الخبيث مقتولاً ، وابني عبد الله بن زيد المازني يمسح سيفه بثيابه . فقلت : قتلتَه ؟ قال : نعم . فسجدت شكراً لله . وكان ضمرة بن سعيد يُحدّث عن جدته ، وكانت قد شهدت أُحُدًا تسقي الماء ، قالت : سمعت النبي ﷺ يقول : لَمقام نُسيبة بنت كَعب اليوم خير من مقام فلان وفلان ! وكان يراها تُقاتل يومئذ أشد القتال ، إنها لحاجزةٌ ثوبها على وسطها ، حتى جُرحت ثلاثة عشر جُرْحًا ، فلما حضرتْها الوفاةُ كنت فيمن غسّلها ، فعددت جراحها جُرْحًا جُرْحًا فوجدتها ثلاثة عشر جُرْحًا . وكانت تقول : إني لأنظر إلى ابن قَمئة وهو يضربها على عاتقها – وكان أعظم جراحها ، لقد داوته سنة – ثم نادى مُنادي النبي ﷺ إلى حَمْراء الأسد ، فشدّتْ عليها ثيابها فما استطاعت من نَزْف الدَّم ، ولقد مكثنا ليلنا نُكمِّد الجراح حتى أصبحنا ، فلما رجع رسول الله ﷺ من الحَمْراء ، ما وصل إلى بيته حتى أرسل إليها عبد الله بن كعب المازني يسأل عنها ، فرجع إليه يُخبره بسلامتها فُسرّ النبي ﷺ بذلك .

وأخرج الواقدي ، عن موسى بن ضَمْرَة بن سعيد ، عن أبيه ، قال : أتيَ عمر بن الخطاب بمُروط [2] ، فكان فيها مرْطٌ واسع جيد ، فقال بعضهم : إنَّ هذا المرْط لثَمن كذا وكذا ، فلو أرسلت به إلى زوجة

(١) البستان الذي كان مسيلمة قد تحصن به في اليمامة .

(٢) أي بملابس .

عبد الله بن عمر صَفية بنت أبي عُبيد - وذلك حدثانَ ما دخلت على ابن عمر: فقال: أبعثُ به إلى مَن هو أحقّ منها، أُمّ عُمارة نُسيبة بنت كعب. سمعت رسول الله ﷺ يوم أُحد يقول: ما التفتُّ يمينًا ولا شمالاً إلا وأنا أراها تُقاتل دوني.

فقال الواقدي: حدثني سعيد بن أبي زيد، عن مروان بن أبي سعيد ابن المُعَلَّى، قال: قيل لأُم عمارة: هل كنَّ نساءُ قُريش يومئذ يُقاتلن مع أزواجهنَّ؟ فقالت: أعوذ بالله، ما رأيت امرأة منهنَّ رمت بسهم ولا بحجر، ولكن رأيت معهنَّ الدِّفاف والأكبار، يضربن ويُذكِّرن القوم قتلى بَدْر، ومعهنَّ مكاحلُ ومَرَاود، فكلّما ولّى رجلٌ أو تكعكع[1] ناولته إحداهن مرْوَدًا ومكْحلة ويقلن: إنما أنت امرأة! ولقد رأيتهنَّ ولَّين مُنهزمات مُشمِّرات - ولَهَا عنهنّ الرجالُ أصحاب الخيل، ونَجَوْا على متون الخيل - يتبعن الرجال على الأقدام، فجعلن يسقطن في الطريق. ولقد رأيت هند بنت عُتبة، وكانت امرأة ثقيلة ولها خَلْقٌ، قاعدةً خاشيةً من الخيل ما بها مَشْيٌ، ومعها امرأة أخرى، حتى كرّ القوم علينا فأصابوا منّا ما أصابوا، فعند الله نحتسب ما أصابنا يومئذ من قبَل الرماة ومعصيتهم لرسول الله ﷺ.

قال الواقدي: حدّثني ابن أبي سَبْرَة، عن عبد الرحمن بن عبد الله ابن أبي صَعْصَعَة، عن الحارث بن عبد الله، قال: سمعت عبد الله بن زيد بن عاصم يقول: شهدتُ أُحدًا مع رسول الله ﷺ، فلما تفرّق الناسُ عنه دنوت منه، وأُمي تَذُبّ عنه، فقال: يا ابن أُمّ عُمارة! قلت:

(١) أي تكعكع: أحجم وتأخر إلى وراء (النهاية، ج٤، ص ٢٣) عن هامش المغازي.

نعم . قال : ارْمِ ! فرميت بين يديه رجلاً من المشركين بحجر ، وهو على فَرَس ، فأصبتُ عين الفَرَس فاضطرب الفَرَس حتى وقع هو وصاحبه ، وجعلت أعلوه بالحجارة حتى نضَّدتُ عليه منها وِقْراً ، والنبي ﷺ ينظر ويتبسم ، فنظر إلى جُرْح بأُمي على عاتقها فقال : أُمَّك ، أُمَّك ! اعصبْ جُرْحَها ، بارك الله عليكم من أهل بيت ! مقام أُمك خيرٌ من مقام فلان وفلان ، ومَقام ربيبك - يعني زوج أُمّه - خير من مقام فلان وفلان ، ومقامك لخيرٌ من مقام فلان وفلان ، رحمكم الله أهلَ بيت ! قالت : ادع الله أن نُرافقك في الجنَّة . قال : اللَّهمّ اجعلهم رفقائي في الجنة قالت : ما أُبالي ما أصابني من الدنيا [1] .

في هذه الأخبار مواقف منها :

الأول : الإشارة إلى الدور الذي كانت تقوم به النساء في العهد النبوي من الأعمال الجهادية حيث كنَّ يقمن بحمل الماء وسقي المجاهدين والاستعداد بمواد الإسعافات لتضميد الجرحى وغير ذلك من الخدمات التي يقدِّمْنَها للمجاهدين .

ولقد ظلت نساء المسلمين يقمْن بهذه الخدمات الجهادية بعد ذلك في عصر الفتوحات الإسلامية .

الثاني : ما قامت به أم عمارة نسيبة بنت كعب رضي الله عنها من التحول عن أداء مَهَامِّها كامرأة إلى أداء مهام الرجال الجهادية ، وذلك حينما وقعت الإصابة على المسلمين وأُفردَ النبي ﷺ في نفر من أصحابه ،

---

(١) مغازي الواقدي ١/ ٢٦٨ - ٢٧٣ .

وذكر ابن هشام بعض رواية سعيد بن أبي زيد الأنصاري - الروض الأنف ٥/ ٤٤٤ - .

فرأت أم عمارة أن واجبها آنذاك أكبر من تقديم الخدمات المساعدة فباشرت قتال المشركين دفاعا عن رسول الله ﷺ ، وحصل منها ماذُكر في هذه الأخبار من التصدي للأعداء والمشاركة في رد هجماتهم .

إن هذه الأعمال الجهادية الخشنة لايستغرب صدورها من الرجال لأنهم - خصوصا في ذلك العهد - قد مَرَنوا عليها وألفَتْ عليها أجسامهم ، لكن صدور ذلك من النساء أمر غير مألوف عادة ، فكَوْن أم عمارة تقوم بذلك الجهد الكبير ، وتواصل الدفاع عن النبي ﷺ رغم إصابتها بتلك الجراح التي بلغت ثلاثة عشر يعتبر تضحية كبيرة وطاقة عالية غير معتادة ، ولايشك المتأمل بأن هذه الصحابية الجليلة قد حظيت بعون من الله تعالى جعلها تصمد ذلك الصمود العجيب وتقدِّم ذلك الجهد الكبير .

ومن المدهش في خبر تلك المرأة العظيمة أنها لم تُقَدِّم نفسها في الجهاد فحسب بل قدمَّت ابنيها ليكونا فداء للنبي ﷺ ، ولئن كان الدافع لدى زوجها وابنيها مألوفا في مجتمع الصحابة رضي الله عنهم فإن صدور ذلك من أمهما وهي تشاهدهما وتتوقع في أي لحظة أن يكونا تحت سنابك الخيل شهيدين . . إن ذلك يعتبر مثالا عاليا لقوة الإيمان ورسوخ اليقين .

فلهذه الأفاعيل الكبيرة والتضحيات العالية من أم عمارة بنفسها وبحثٍّ بنيها على الجهاد نجد رسول الله ﷺ يثني عليها ذلك الثناء الطيب ، ولكنها لقوة إحساسها بالحياة الآخرة وشدة استحضارها لما أعده الله تعالى لأهل الجنة من النعيم المقيم لاتكتفي بسماع ذلك الثناء من

رسول الله ﷺ بل تهتَبل هذه الفرصة الغالية لتطلب منه ﷺ أن يدعو الله تعالى لها ولأفراد أسرتها بمرافقته في الجنة وهي تعلم علم اليقين أنه في أعلى عليين .

ونجد أم عمارة مع هذا الجهد الكبير والجراح المتعددة المؤلمة تقوم لتَشُدَّ عليها ثيابها لما سمعت منادي رسول الله ﷺ يدعو المسلمين لملاحقة جيش العدو في حمراء الأسد ، ولكنها لم تستطع المشاركة في هذه المهمة لأن جراحها مازالت تنزف دما ، فأي عزيمة كانت تملكها تلك المرأة ، وأي حيوية كان يشتمل عليها قلبها الكبير ؟ !! .

إن الطاقة لدى الفرد المسلم لاتحدها الحدود المعتادة إذا كان وراء تلك الطاقة إيمان قوي محرك ، وإذا كانت هذه المرأة المؤمنة قد قامت بهذه العجائب وهي لم تكن مؤهلة لذلك بحكم طبيعتها النسوية فكيف بالرجال إذا ملكوا ذلك الإيمان القوي الحيوي ؟ ! .

وتمر الأيام ويقع المسلمون في لحظات حرجة جداً وهم يواجهون أعنف مقاومة واجهوها في حروب الردة ، وتبرز أم عمارة بصحبة ابنها لتبحث عن رأس المشركين المرتدين مسيلمة الكذاب وهي تريد أن تتصدى لقتله وإراحة المسلمين منه ، ولاتبالي وهي تدفع نفسها لهذا الهدف العالي بيدها التي قُطعت وهي تؤدي هذه المهمة ، لأن الله تعالى قد أبقى لها اليد الأخرى التي بإمكانها أن تبذل بها ما تستطيع من طاقة ، ولكن ابنها عبد الله بن زيد المازني يسبقها لأداء هذه المهمة فيشارك في قتل رأس الكفر مسيلمة ، وتَقَرُّ عين أم عمارة بهذه النهاية الحميدة للمسلمين وبما قدمه ابنها للإسلام والمسلمين من عمل جليل .

الموقف الثالث : ما كان من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه من تقدير أهل الفضل وتَذَكُّر ما قدمته أم عمارة يوم أحد من بلاء وتضحية في سبيل الدفاع عن النبي ﷺ ، فحينما وردت عليه وهو في خلافته ملابس مما أفاءه الله تعالى على المسلمين وكان فيها لباس متميز أرسله إلى أم عمارة وذكر جهادها المشكور ولم يلتفت إلى من أشار عليه ببعثه إلى زوجة ابنه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

وهذا موقف يذكر لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، ويضاف إلى مواقفه الكثيرة في العدالة وتقديم أهل الفضل والتقدم في خدمة الإسلام والمسلمين .

* * *

٢٤ - موقف جهادي لوهب المزني وابن أخيه -

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه : و أقبل وهب بن قابوس المزني، ومعه ابن أخيه الحارث بن عقبة بن قابوس ، بغَنَم لهما من جبل مُزَينة ، فوجدا المدينة خلواً فسألا : أين الناس ؟ فقالوا : بأُحُد ، خرج رسول الله ﷺ يقاتل المشركين من قريش. فقالا : لا نبتغي أثرا بعد عين.

فخرجا حتى أتيا النبي ﷺ بأحد فيجدان القوم يقتتلون ، والدولة لرسول الله ﷺ وأصحابه ، فأغارا مع المسلمين في النهب ؛ وجاءت الخيل من وراءهم ؛ خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ، فاختلطوا ، فقاتلا أشد القتال . فانفرقت فرقة من المشركين فقال رسول الله ﷺ : مَنْ لهذه الفرقة ؟ فقال وهب بن قابوس : أنا يا رسول الله . فقام فرماهم بالنبل حتى انصرفوا ثم رجع .

فانفرقت فرقة أخرى فقال رسول الله ﷺ : من لهذه الكتيبة ؟ فقال المزني : أنا يارسول الله . فقام فذبها بالسيف حتى ولَّوْا ، ثم رجع المُزَنيّ. ثم طلعت كتيبةُ أخرى فقال : من يقوم لهؤلاء ؟ فقال المزني : أنا يارسول الله . فقال : قم وأبشرْ بالجنة . فقام المزني مسروراً يقول : والله لا أقيل ولا أستقيل . فقام فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسيف ، ورسول الله ﷺ ينظر إلى المسلمين ، حتى خرج من أقصاهم ، ورسو ل الله ﷺ يقول : اللهم ارحمه ! ثم يرجع فيهم فما زال كذلك ، وهم مُحدقون به ، حتى اشتملت عليه أسيافهم ورماحهم فقتلوه ، فوُجد به يومئذ عشرون طعنةً برمح ، كلها قد خلصت إلى مقتل ، ومُثِّل به أقبح المثل يومئذ .

ثم قام ابن أخيه فقاتل كنحو قتاله حتى قُتل ، فكان عمر بن الخطاب يقول : إنَّ أحبَّ ميتة أموتُ عليها لَمَا مات عليها المُزنيّ .

وكان بلال بن الحارث المُزني يُحدّث يقول : شهدنا القادسية مع سعد بن أبي وقّاص . فلما فتح الله علينا وقُسمَتْ بيننا غنائمنا ، فأسقط فتى من آل قابوس من مُزينة (١) . فجئت سعداً حين فرغ من نومه فقال : بلال ؟ قلت : بلال ! قال : مرحبًا بك . من هذا معك ؟ قلت : رجلٌ من قومي من آل قابوس . قال سعد : ما أنت يافتى من المُزني الذي قُتلَ يوم أُحد ؟ قال : ابن أخيه . قال سعد : مرحبًا وأهلاً وأنْعَمَ الله بك عَيْنًا ، ذلك الرجل شهدتُ منه يوم أحُد مشهداً ما شهدتُه من أحَد ، لقد رأيُتنا وقد أحدق المشركون بنا من كلّ ناحية ، ورسول الله ﷺ وسطنا والكتائب تطلع من كل ناحية ، وإنَّ رسول الله ﷺ ليرمي ببصره في الناس يتوسّمهم (٢) يقول : من لهذه الكتيبة ؟ كلّ ذلك يقول المُزنيّ : أنا يارسول الله ! كلُّ ذلك يردّها ، فما أنسى آخر مرّة قامها فقال رسول الله ﷺ : قمْ وأبشر بالجنَّة ! قال سعد : وقمت على أثره ، يعلم الله أني أطلبُ مثل ما يطلب يومئذ من الشهادة ، فخُضْنا حَوْمتهم حتى رجعنا فيهم الثانية ، وأصابوه رحمه الله . ووددتُ والله أني كنت أُصبت يومئذ معه ، ولكن أجَلي استأخر . ثم دعا سعد من ساعته بسهمه فأعطاه وفضَّله وقال : اختر في المقام عندنا أو الرجوع إلى أهلك ، فقال بلال : إنه يستحب الرجوع ، فرجعنا .

وقال سعد : أشهدُ لرأيتُ رسول الله ﷺ واقفًا عليه وهو مقتول ،

(١) أي أسقط اسمه من قسمة الغنائم .

(٢) أي يتفرس فيهم .

وهو يقول : رضي الله عنك فإني عنك راض . ثم رأيت رسول الله ﷺ قام على قدميه - وقد نال النبيَّ ﷺ من الجراح ماناله ، وإني لأعلم أن القيام ليشقُّ عليه - على قبره حتى وُضع في لحده ، وعليه بُرْدَة لها أعلامٌ خُضْر ، فمدّ رسول الله ﷺ البُرْدَة على رأسه فَخَمَّره ، وأدرجه فيها طولاً وبلغت نصف ساقَيه ، وأمرَنا فجمعْنا الحَرْمَل فجعلناه على رجلَيه وهو في لحده ، ثم انصرف . فما حالٌ أموتُ عليها أحبُّ إليّ من أن ألقى الله تعالى على حال المُزَنيّ"(١) .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : بيان الجهد الكبير الذي بذله في الجهاد وهب بن قابوس المزني وابن أخيه الحارث بن عقبة بن قابوس رضي الله عنهما حيث تركا ما قدما من أجله من بيع غنمهما في المدينة وخرجا إلى موقع المعركة في أحد ، ولم يكن لهما دافع إلى الخروج إلا نصرة الإسلام والمسلمين ، ولقد بذل كل واحد منهما جهداً كبيراً في صد الأعداء والنكاية بهم حتى سقطا شهيدين .

وإننا لنجد في هذا الخبر مثلا لقوة تمثُّل الحياة الآخرة في أذهان الصحابة ، فحينما بشَّر النبي ﷺ وهبًا المزني بالجنة قام مسروراً وهو يقول : لا أُقيل ولا أستقيل فقد اشترى الجنة بنفسه وطلب موطن الشهادة بعد ما أثخن في العدو ، ونجد أن الصحابة يتمنون أن يموتوا تلك الميتة التي رافقها ضمان دخول الجنة .

وهذا الشعور القوي نحو الحياة الآخرة هو الذي أنتج العجائب في

---

(١) مغازي الواقدي ١/ ٢٧٥ - ٢٧٧ .

حياة الصحابة رضي الله عنهم ، حيث أصبحوا قوة عظمى على قلة العَدد وضعف العُدد ، واشتهر في أوساط الأمم أن المسلمين لايمكن أن يقف لهم أحد مهما كانت قوة استعداده وكثرة جنوده .

ثانيًا : موقف جليل لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في تذكر خبر وهب المزني بالرغم من مرور ثلاث عشر ة سنة تقريبا على غزوة أحد لمجرد مرور اسم رجل من عشيرته عليه ، وهذا يعني اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بأخبار أهل الفضل والمواقف الحميدة في الإسلام ، وكذلك ينبغي أن يُشادَ بأهل المكارم والمحامد لتحصل الأسوة الحسنة بهم .

* * *

٢٥ - موقف جهادي للحارث بن الصمة وأبي دجانة -

قال الواقدي فما يرويه عن شيوخه : وأقبل عثمان بن عبد الله بن المُغيرة المَخزومي يُحضر فرسًا له[١] أبلق ، يُريد رسول الله ﷺ ، وعليه لأمَة له كاملة [٢] ، ورسول الله ﷺ مُوَجِّهٌ إلى الشِّعب ، وهو يصيح : لانجوتُ إن نجوتَ ! فيقف رسول الله ﷺ ويعثر به[٣] فرسه في بعض تلك الحفر التي كانت حَفَر أبو عامر ، فيقع الفَرس لوجهه ، وخرج الفرس عائرًا فيأخذه أصحاب رسول الله ﷺ فيعقرونه[٤].

ويمشي إليه الحارث بن الصِّمَّة فتضاربا ساعةً بسيفين ، ثم يضرب الحارث رجله - وكانت الدِّرعُ مُشمِّرة - فَبَرك وذَفَّف عليه . وأخذ الحارث يومئذ درعًا جيدة ومغفرا وسيفًا جيدًا ، ولم يُسمع بأحد سُلب يومئذ غيره . ورسول الله ﷺ ينظر إلى قتالهما وسأل رسول الله ﷺ عن الرجل ، فإذا عُثمان بن عبد الله بن المُغيرة ، فقال : الحمد لله الذي أحانه[٥] .

وكان عبد الله بن جَحش أسره ببطن نَخْلَة حتى قدم به على رسول الله ﷺ ، فافتدى فرجع إلى قُريش حتى غزا أُحُدًا فقُتل به .

ويرى مَصرعه عُبيد بن حاجز العامريّ - عامر بن لُؤَيّ - فأقبل يعدو

---

(١) أي يعدو بها ، والحَضْر ارتفاع الفرس في عدوه .

(٢) اللأمة هي الدرع ومايتبعه من المغفر والبيضة ونحو ذلك .

(٣) أي بعثمان المخزومي .

(٤) أي يقطعون قوائمه حتى لاينجو عليه صاحبه ، والعائر الذي أفلت وانطلق على وجهه .

(٥) أحانه : أهلكه (الصحاح ، ص ٢١٠٦) ، عن هامش المغازي .

كأنه سَبُع ، فيضرب الحارث بن الصِّمَّة ضربةً جَرَحه على عاتقه ، فوقع الحارث جريحًا حتى احتمله أصحابه . ويُقبل أبو دُجانة على عُبيد فتناوشا ساعة من نهار ، وكلّ واحد منهما يتّقي بالدَّرَقَة ضربَ السيف ، ثم حمل عليه أبو دُجانة فاحتضنه ، ثم جلَد به الأرض ، ثم ذبحه بالسيف كما تُذبح الشاة ، ثم انصرف فلحق برسول الله ﷺ (١) .

في هذا الخبر موقفان بطوليان للحارث بن الصمة وأبي دجانة رضي الله عنهما ، فأما الحارث فإنه تصدَّى لعثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومي مع كونه قد حصَّن نفسه بالحديد الواقي من السلاح ، وبذلك وقى رسول الله ﷺ من ذلك الذي أقبل يريد قتله .

وأما أبو دجانة فإنه قام بإنقاذ الحارث الذي أسرع إليه عبيد بن حاجز مغتنما فرصة انشغاله مع ابن المغير ة حيث أصابه بجرح فكان أبو دجانة له ، ولم يحتمل طول الصراع والمصاولة حيث هجم على ابن حاجز فاحتضنه وضرب به الأرض ثم ذبحه كما تذبح الشاة ، وهذا العمل يدل على شجاعة فائقة من أبي دجانة ، كما أنه يعتبر إهانة لمن وقع عليه مثل هذا النوع من القتل .

❊ ❊ ❊

---

(١) مغازي الواقدي ١/ ٢٥٢ - ٢٥٣ .

٢٦ - موقف جهادي لطلحة وعدد من الصحابة -

أخرج الإمام البيهقي بإسناده عن جابر بن عبد الله ، أنه قال : انهزم الناس عن رسول الله ﷺ يوم أُحُد وبقي معه أحَدَ عشر رجلاً من الأنصار فيهم طلحة بن عبيد الله وهو يصعد في الجبل فلحقهم المشركون فقال : ألا أحَدٌ لهؤلاء ؟ فقال طلحة : أنا يارسول الله ، فقال : كما أنت ياطلحة فقال رجل من الأنصار : فأنا يارسول الله فقاتل عنه ، وصَعد رسول الله ﷺ ومن بقي معه ، ثم قُتلَ الأنصاريُّ ، فلحقوه ، فقال : ألا أحد لهؤلاء ؟ فقال طلحة مثل قوله ، فقال رسول الله ﷺ مثل قوله ، فقال رجل من الأنصار : أنا يارسول الله فأذن له ، فقاتل مثل قتاله وقتال صاحبه ، ورسول الله ﷺ وأصحابه يصعدون ، ثم قُتل فلحقوه .

فلم يزل رسول الله ﷺ يقول مثل قوله الأول ، ويقول طلحة : أنا يارسول الله فيحبسُه ، فيستأذنه رجل من الأنصار للقتال ، فيأذن له ، فقاتل مثل قتال من كان قبله ، حتى لم يَبْق معه إلا طلحة فغشوهما ، فقال رسول الله ﷺ : من لهؤلاء ؟ فقال طلحة : أنا : فقاتل مثل قتال جميع من كان قبله وأصيبَتْ أنامله فقال حَسِّ(١) . فقال رسول الله ﷺ : لو قلت بسم الله ، أو ذكرت اسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون إليك حتى تلج بك في جو السماء ، ثم صعد رسول الله ﷺ إلى أصحابه وهم مجتمعون (٢) .

---

(١) حَسِّ بكسر السين المشددة تعبير عن الألم الشديد .

(٢) دلائل النبوة ٣/ ٢٣٦ - ٢٣٧ .

وأخرجه الإمام النسائي من حديث جابر رضي الله عنه وذكر مثله - سنن النسائي ٦/ ٢٩-٣٠، كتاب الجهاد ، باب ما يقول من يطعنه العدو . =

في هذا الخبر بيان لموقف جهادي عظيم لطلحة بن عبيد الله وعشرة من الأنصار لم تذكر أسماؤهم .

هذا الجهاد تم في أخطر مرحلة من مراحل المعركة ، وذلك حينما أصيب المسلمون بالذهول لهول المفاجأة بهجوم خيول العدو من خلفهم وإشاعة أن رسول الله ﷺ قد قُتل ، فقرر النبي ﷺ الانسحاب عن مركز القيادة بمن بقي معه للاعتصام بجبل أحد ، فتولى طلحة ورفاقه حماية النبي ﷺ حتى تمت عملية الانسحاب بسلامة النبي ﷺ بعد أن قدَّم الأنصار العشرة أرواحهم فداء له .

وإن ما قام به هؤلاء الأنصار يعتبر تضحية خالدة وعملاً عظيمًا نالوا به الشرفين : شرف حماية النبي ﷺ والإسلام وشرف الظفر بالشهادة فرضي الله عنهم أجمعين .

أما طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه فإنه كان يتقدم في كل مرة فيبقيه النبي ﷺ ، لاحمايةً له وإنما ادخارًا له لموقف أكثر صعوبة وأبلغ خطرًا ، وقد مثَّل هذا الموقف أبلغ تمثيل حيث قاتل المشركين وحده كقتال العشرة من الأنصار ، حتى عرف أبو بكر وأبو عبيدة ومن اجتمع من الصحابة رضي الله عنهم موقع النبي ﷺ فقاموا جميعا بإكمال تلك المهمة .

وهذا موقف عظيم في التضحية والشجاعة يذكر لطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ، مما حدا بأبي بكر رضي الله عنه إلى أن يقول « ذلك يوم كله لطلحة » .

= وذكره الحافظ الذهبي وقال : رواته ثقات - سير أعلام النبلاء ١/ ٢٧ - .
وقال الحافظ ابن حجر : إسناده جيد - فتح الباري ٧/ ٣٦٠ - .

وقـول جـابر رضي الله عنه في هذه الرواية « انهـزم الناس » قـال الحـافظ ابن حجر في بيان ذلك في حديث آخـر : أي بعضـهـم أو أطلق ذلك باعتبار تفرقهم (١) ، وقد تقدم بيان أقسام الناس بعد الإصابة .

وأخرج الواقدي من حديث شيوخه قالوا : وقـاتل طلحةُ بن عُبيد الله يومئذ عن النبي ﷺ قتـالاً شديداً ، فكان طلحة يقول : لقد رأيت رسول الله ﷺ حين انهزم أصحابه ، وكرّ المشركون وأحدقوا بالنبي ﷺ من كلّ ناحية ، فما أدري أقومُ من بين يديه أو من ورائه ، أو عن يمينه أو عن شـمـالـه ، فـأذُبُّ بالسـيف من بين يديه مـرّة وأخـرى من ورائه حتى انكشفوا . فجعل رسول الله ﷺ يومئذ يقول لطلحة : قد أنْحَب (٢) .

وقال سعد بن أبي وقاص وذكر طلحة فقال : يرحمه الله ، إنه كان أعظمنا غناءً عن رسـول الله ﷺ يوم أحُد ! قيل : كيف يا أبا إسـحاق ؟ قال : لزم النبي ﷺ وكنا نتفرّق عنه ثم نثوب إليه ، لقد رأيته يدور حول النبي ﷺ يُترّس بنفسه .

وسُئل طَلحة : يا أبا محمدّ ، ما أصاب إصبعك ؟ قال : رمى مالك ابن زُهير الجُشَمي بسهم يُريد رسول الله ﷺ ، وكان لاتُخطئ رميته ، فاتَّقيت بيدي عن وجه رسول الله ﷺ فأصاب خنصَري ، فَشُكَّ فَشُلَّ إصبعه . وقال حين رماه . حَسِّ ! فقال رسول الله ﷺ : لو قال بسم الله لدخل الجنة والناس ينظرون ! من أحبّ أن ينظر إلى رجل يمشي في الدنيا وهو من أهل الجنة فلينظر إلى طلحة بن عُبيد الله ، طلحة ممّن قضى نحْبَه .

---

(١) فتح الباري ٧/ ٣٦٢ .

(٢) أي قضى ما عليه ، والنَّحب هو النذر المحكوم بوجوبه - مفردات الراغب ٤٨٤ - .

وقال طلحة : لمّا جال المسلمون تلك الجولة ثم تراجعوا ، أقبل رجلٌ من بني عامر بن لُؤيّ بن مالك بن المُضَرَّب يجرّ رمحًا له ، على فَرَس كُمَيت أغرّ ، مُدجَّجًا في الحديد ، يصيح : أنا أبو ذات الوَدَع[1] ، دُلّوني على محمّد ! فأضربُ عرقوبَ فرسه فانكسعتْ ، ثم أتناول رمحه فو الله ما أخطأت به عن حَدَقَته ، فخار كما يخور الثور ، فما برحتُ به واضعًا رجلي على خَدّه حتى أزرتُه شَعُوبَ[2] . وكان طَلحة قد أصابته في رأسه المُصلَّبة ، ضربه رجلٌ من المشركين ضربتين ، ضربة وهو مُقبلٌ والأخرى وهو مُعرض عنه[3] ، وكان قد نَزَف منها الدم . قال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه : جئت إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يوم أُحُد فقال : عليك بابن عمّك ! فأتى طَلحة بن عُبيد الله وقد نَزَف الدم ، فجعلت أنضح في وجهه الماء وهو مَغشيٌّ عليه ، ثم أفاق فقال : ما فعل رسول الله ؟ فقلت : خيرًا ، هو أرسلني إليك . قال : الحمد لله ، كلّ مُصيبة بعده جَلَلٌ[4] .

وكان ضرار بن الخَطّاب الفِهْريّ يقول : نظرت إلى طَلحة بن عُبيد الله قد حلق رأسه عند المَرْوَة في عُمْرَة ، فنظرت إلى المُصلَّبة في رأسه . فقال ضرار : أنا والله ضربته هذه ، استقبلني فضربته ثم أكرُّ عليه وقد أعرض فأضربُه أخرى .

---

(١) الودع خرز بيض تستخرج من البحر .

(٢) أي الموت .

(٣) يعني صارت الضربتان على هيئة صليب .

(٤) أي صغيرة ، وهذا من أسماء الأضداد يطلق على الكبير والصغير ويعرف المراد به من السياق .

وقالوا : لمّا كان يوم الجمل وقَتَل عَلِّي عليه السلام من قتل من الناس ودخل البَصْرَة ، جاءَه رجلٌ من العرب فتكلّم بين يديه ، ونال من طَلحة فزبَره عَلِّي وقال : إنَّك لم تشهد يوم أُحُد وعظَم غَنائه في الإسلام مع مكانه من رسول الله ﷺ . فانكسر الرجل وسكت .

فقال رجلٌ من القوم : وما كان غَناؤه وبلاؤه يوم أُحُد يرحمه الله ؟ فقال عَلِّي : نعم ، يرحمه الله ! فلقد رأيته وإنه ليُترّس بنفسه دون رسول الله ﷺ ، وإنَّ السيوف لتغشاه والنَّبل من كلّ ناحية ، وإنْ هو إلا جُنَّة بنفسه لرسول الله ﷺ . فقال قائل : إنْ كان يومًا قد قُتل فيه أصحاب رسول الله ﷺ ، وأصاب رسول الله فيه الجراحة . فقال عَلِّي عليه السلام : أشهدُ لسمعت رسول الله ﷺ يقول : ليت أني غودرت مع أصحاب نحْص الجبل (١) . قال ابن أبي الزِّناد : نُحْص الجبل أسفله .

ثم قال عَلِّي عليه السلام : لقد رأيتني يومئذ وإني لأذُبُّهم في ناحية ، وإنَّ أبا دُجانة لفي ناحية يَذُبّ طائفة منهم ، وإنَّ سعد بن أبي وقاص يذب طائفة منهم ، حتى فرج الله ذلك كله . ولقد رأيتني وانفردَتْ منهم يومئذ فرقةٌ خشناءُ فيها عكْرمة بن أبي جهل ، فدخلتُ وسْطها بالسيف فضربت به واشتملوا عليّ حتى أفضَيت إلى آخرهم ، ثم كررت فيهم الثانية حتى رجعتُ من حيث جئت ، ولكن الأجل استأخر ويقضي الله أمرًا كان مفعولاً (٢) .

---

(١) قول الرسول صلى الله عليه وسلم هذا اخرجه الحافظ البزار بإسناد حسن – المطالب العالية٤/ ٢٢٢ – .

(٢) مغازي الواقدي ١/ ٢٥٤ – ٢٥٦ .

هذه الأخبار تبين لنا الجهد الكبير الذي بذله طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه بشهادة هؤلاء الصحابة الكرام من الدفاع عن رسول الله ﷺ ووقايته من سلاح الأعداء ، ولقد استمر يجمع بين حماية النبي ﷺ والدفاع عنه حتى فاء عدد من الصحابة رضي الله عنهم وكان طلحة قد أُغمي عليه من كثرة ما واجه من سلاح الأعداء .

ولقد استحق بهذا ثناء النبي ﷺ والحكم له بأنه قد أدّى ما عليه كاملاً .

كما اشتملت هذه الأخبار على موقف جليل لعلي بن أبي طالب الذي اثنى على طلحة رضي الله عنهما ودافع عنه بالرغم مما جرى بينهما من خلاف ، ولقد ذكره بأبرز موقف تفوّق فيه على غيره من الصحابة .

وهذا دليل على مبلغ الرقي الأخلاقي الذي وصل إليه الصحابة رضي الله عنهم حيث كانوا يُشيدون بإخوانهم ويذكرون محاسنهم وإن وقع الخلاف بينهم إلى حد المواجهة في الميدان .

كما أن في هذا الخبر وصفا لشجاعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث كان وحده يقاتل كتيبة من كتائب المشركين فلم يستطيعوا إصابته .

❊ ❊ ❊

٢٧ - ضرار بن الخطاب يصف شجاعة الأنصار -

قال الواقدي في سياق رواية له : وكان ضرار بن الخطاب يُحدّث ويذكر وقعة أُحُد [١] ، ويذكر الأنصار ويترحّم عليهم ، ويذكر غناءَهم في الإسلام ، وشجاعتهم وإقدامهم على الموت ، ثم يقول : لمّا قُتل أشراف قومي ببدر جعلتُ أقول : مَن قتل أبا الحكَم ؟ يقال : ابن عَفْراءَ . من قتل أُميّة بن خلَف ؟ يقال : خُبَيب بن يَساف . من قتل عُقبة بن أبي مُعيط ؟ قالوا : عاصم بن ثابت بن أبي الأقْلَح . مَن قتل فلانًا ؟ فيُسمَّى لي . مَن أسر سُهَيل بن عمرو ؟ قالوا : مالك بن الدُّخْشُم .

فلما خرجنا إلى أُحُد وأنا أقول : إن أقاموا في صَياصيهم [٢] فهي مَنيعة ، لاسبيل لنا إليهم ، نُقيم أيّامًا ثم ننصرف ، وإن خرجوا إلينا من صَياصيهم أصبنا منهم - معنا عددٌ كثيرٌ أكثر من عددهم ، ونحن قوم موتورون[٣] ، خرجنا بالظُّعُن [٤] يذكّرْننا قتلى بَدْر ، معنا كُراعٌ ولاكُراع معهم [٥] ومعنا سلاح أكثرُ من سلاحهم .

فقُضي لهم أن خرجوا ، فالتقينا ، فو الله ما أقمنا لهم حتى هُزمنا وانكشفنا مُولّين ، فقلت في نفسي : هذه أشدّ من وقعة بَدْر ! وجعلتُ أقول لخالد بن الوليد : كُرّ على القوم ! فجعل يقول : وترى وجها نكر فيه ؟

(١) يعني بعدما أسلم .

(٢) أي في حصونهم .

(٣) أي سبقت لنا الإصابة على يد المسلمين فنحن نأخذ بالثأر ومن كا ن كذلك يكون أقوى في القتال .

(٤) أي النساء .

(٥) المراد بالكراع هنا الخيل .

حتى نظرت إلى الجبل الذي كان عليه الرماة خاليا ، فقلت : يا أبا سليمان ، انظر وراءك ! فعطف عنان فرسه . فكر وكررنا معه ، فانتهينا إلى الجبل فلم نجد عليه أحدا له بال ، وجدنا نُفَيْرًا فأصبناهم ، ثم دخلنا العسكر ، والقوم غارُّون ينتهبون العسكر ، فأقحمنا الخيل عليهم فتطايروا في كل وجه ، ووضعنا السيوف فيهم حيث شئنا .

وجعلت أطلب الأكابر من الأوس والخزرج فلا أرى أحدا ، قد هربوا ، فما كان حَلْبُ ناقة حتى تداعت الأنصار بينها ، فأقبلت فخالطونا ونحن فرسان ، فصبروا لنا ، وبذلوا أنفسهم حتى عقروا فرسي وترجلت ، فقتلت منهم عشرة . ولقيت من رجل منهم الموت الناقع حتى وجدت ريح الدم . وهو معانقي ، ما يفارقني حتى أخذَتْه الرماح من كل ناحية ووقع ، فالحمد لله الذي أكرمهم بيدي ولم يُهنِّي بأيديهم[١] .

هذا الخبر فيه وصف لحال المسلمين مع أعدائهم من بداية المعركة حتى حصلت الإصابة على المسلمين .

وفيه ثناء واضح على الأنصار رضي الله عنهم بالشجاعة والثبات من رجل كان مع الكافرين وأثخن في المسلمين بعد إصابتهم ثم هداه الله تعالى للإسلام فسجل في هذا الخبر موقف المسلمين الثابت وخاصة الأنصار منهم الذين كانوا مقصد الكفار بعد رسول الله ﷺ لكون الأنصار هم أكثر من قتل المشركين يوم بدر .

وكون المسلمين يثبتون وهم مشاة لأعدائهم وهم فرسان مع تفوق

---

(١) مغازي الواقدي ١/ ٢٨٢ - ٢٨٣ .

المشركين كثيرا في العدد يبين لنا شجاعة المسلمين العالية وإقدامهم على بذل أرواحهم في سبيل الله تعالى .

ونجد في نهاية الخبر شعور المسلم الموقن حيث يحمد ضرار بن الخطاب ربه تعالى على أن أبقاه حيا حتى دخل في الإسلام ، وحيث عبر عن قتل الشهداء بأنه إكرام من الله تعالى لهم وعن قتل الكفار بأنه إهانة منه تعالى لهم .

* * *

٢٨ - مثل من شجاعة النبي ﷺ ومعجزة ظاهرة - (مقتل أُبَيّ بن خلف)

قال محمد بن عمر الواقدي رحمه الله تعالى :

فحدثني يونس بن محمد الظفري ، عن عاصم بن عمر ، عن عبد الله بن كعب بن مالك ، عن أبيه ، قال : كان أُبَيُّ بن خلف قدم في فداء ابنه ، وكان أسر يوم بدر ، فقال : يا محمد إن عندي فرسا لي أعلفها فَرَقا[1] من ذرة كل يوم ، أقتلك عليها . فقال رسول الله ﷺ : بل أنا أقتلك عليها إن شاء الله . ويقال قال ذلك بمكة فبلغ رسول الله ﷺ كلمته بالمدينة فقال : أنا أقتله عليها إن شاء الله .

قالوا : وكان رسول الله ﷺ في القتال لا يلتفت وراءه ، فكان يقول لأصحابه : إني أخشى أن يأتي أُبَيّ بن خلف من خلفي ، فإذا رأيتموه فآذنوني به . فإذا بأُبَيّ يركض على فرسه ، وقد رأى رسول الله ﷺ فعرفه ، فجعل يصيح بأعلى صوته : يا محمد ، لا نجوتُ إن نجوتَ ! فقال القوم : يا رسول الله ، ما كنت صانعا حين يغشاك ! فقد جاءك ، وإن شئت عطف عليه بعضنا . فأبى رسول الله ﷺ .

ودنا أُبَيّ فتناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة . ثم انتفض بأصحابه كما ينتفض البعير ، فتطايرنا عنه تطاير الشعارير[2] ، ولم يكن أحد يشبه رسول الله ﷺ إذا جَدَّ الجدّ . ثم أخذ الحربة فطعنه

---

(١) الفرق مكيال بقدر ستة عشر رطلا .

(٢) في رواية ابن إسحاق « الشَّعراء » قال ابن هشام : الشَّعراء ذباب له لدغ .

رسول الله ﷺ بالحربة في عنقه وهو على فرسه [١]. فجعل يخور كما يخور الثور .

ويقول له أصحابه : أبا عامر ، والله ما بك بأس . ولو كان هذا الذي بك بعين أحدنا ما ضرَّه . قال واللات والعزى ، لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون ! أليس قال : « لأقتلنك » ؟ فاحتملوه وشغلهم ذلك عن طلب النبي ﷺ ولحق رسول الله ﷺ بعُظْم أصحابه في الشِّعب . ويقال تناول الحربة من الزبير بن العوام [٢] .

وأخرجه ابن إسحاق بأخصر من هذا ، وذكر شعراً لحسان بن ثابت يوبخ فيه أُبَيَّ بن خلف ويشيد بموقف النبي ﷺ في قتله إياه ، ومن ذلك قوله :

ألا مــــن مبلـغ عني أبيًّا	لقد أُلقيتَ في سحق السعير
تمنَّى بالضـــلالة مــن بعيد	وتُقسم إن قدرت مع النذور
تَمنِّيك الأمـاني مــن بعيد	وقول الكفر يرجع في غرور
فقد لاقتك طعنة ذي حفاظ [٣]	كريم البيت ليس بذي فجور
له فضل على الأحياء طُـرًّا	إذا نابت ملمَّـات الأمــور [٤]

---

(١) جاء في رواية الزهري عند البيهقي « وأبصر رسول الله ﷺ ترقوة أبيّ من خلف من فرجة بين سابغة البيضة والدرع فطعنه بحربته ، فوقع أبي عن فرسه ولم يخرج من طعنته دم » .

(٢) مغازي الواقدي ١/ ٢٥١ - ٢٥٢ .

(٣) أي أنَفَة وترفع عن الدنايا .

(٤) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٥ - ٣٨ .

وذكر هذا الخبر الإمام البيهقي من روايته عن الإمام الزهري من حديث سعيد بن المسيب وعن أبي الأسود من رواية عروة بن الزبير رضي الله عنه [1].

في هذا الخبر مثل من شجاعة النبي ﷺ الفائقة فقد أقبل عليه أُبَيّ بن خلف وهو فارس ومدجج بالسلاح ، وصار يتوعده بالقتل فتصدى له النبي ﷺ ولم يقبل من أصحابه أن يكفوه أمره ، ولقد كان متدرعا بالحديد الواقي من السلاح ولكن النبي ﷺ استطاع أن يطعنه بالرمح من فرجة صغيرة في عنقه بين الدرع والبيضة ، ومثل هذه الفجوات عادة لا تتم إصابتها إلا عن قرب وفي حال غفلة ممن وجهت إليه ، ولذلك لا يهتم بها المقاتلون .

وفي هذا الخبر معجزة للنبي ﷺ حيث قال لأُبَيّ قبل ذلك بزمن حينما توعده « بل أنا أقتلك إن شاء الله » فتم ذلك بمشيئة الله تعالى .

وفي الخبر عبرة في إيمان المشركين بأن النبي ﷺ إذا قال شيئا وقع فقد كان أُبَيّ بن خلف على يقين بأنه سيموت من تلك الطعنة الخفيفة لقول النبي ﷺ السابق ، ومع ذلك لم ينفعهم ذلك في الإيمان به والدخول في الإسلام لأنهم كانوا يعبدون أهواءهم .

* * *

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٢٠٦ - ٢١٠ و ٢٥٨ - ٢٥٩ .

٢٩ - من مواقف سعد بن أبي وقاص الجهادية -

١ - أخرج أبو عبد الله الحاكم من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : لما جال الناس عن رسول الله ﷺ تلك الجولة يوم أحد تنحيت فقلت : أذود عن نفسي فإما أن أستشهد وإما أن أنجو حتى ألقى رسول الله ﷺ .

فبينا أنا كذلك إذا رجل مخمِّر وجهه ما أدري من هو ، فأقبل المشركون حتى قلت قد ركبوه فملأ يده من الحصى ثم رمى به في وجوههم فَنُكبوا على أعقابهم القهقرى حتى يأتوا الجبل ، ففعل ذلك مرارا ولا أدري من هو ، وبيني وبينه المقداد بن الأسود ، فبينا أنا أريد أن أسأل المقداد عنه إذ قال المقداد : يا سعد هذا رسول الله ﷺ يدعوك ، فقلت : وأين هو ؟ فأشار لي المقداد إليه ، فقمت ولكأنه لم يصبني شيء من الأذى ، فقال رسول الله ﷺ : أين كنت اليوم يا سعد ؟ فقلت : حيث رأيت يا رسول الله ، فأجلسني أمامه ، فجعلت أرمي وأقول : اللهم سهمك فارم به عدوك ، ورسول الله ﷺ يقول اللهم استجب لسعد ، اللهم سدد لسعد رميته ، إيهاً يا سعد[١] ، حتى إذا فرغت من كنانتي نثر رسول الله ﷺ ما في كنانته فَنَبَّلني سهما نَضيًّا ، قال : وهو الذي قد ريْشَ وكان أشد من غيره .

قال الزهري : إن السهام التي رمى بها سعد يومئذ كانت ألف سهم .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي[٢] .

(١) يعني زدْ ياسعد وهي كلمة يعبَّر بها عن الرضى .

(٢) المستدرك ٣/ ٢٦ .

في هذا الخبر معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ حيث كان يأخذ الحصى فيرمي به المشركين فيتحول إلى أسلحة فتاكة لا تُبقي أحدًا منهم ثابتا في مكانه .

وفي هذا الخبر موقفان لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه :

الأول : في حبه العظيم لرسول الله ﷺ حيث زال عنه كل ما يجد من الغم والحزن لما رأى النبي ﷺ سالما ، وتجددت له طاقة عالية وحماس قوي نحو الجهاد .

الثاني : في إسهامه الكبير في رماية الأعداء ، وسلاح الرماية أمضى في العدو من سلاح المواجهة خصوصا إذا كان الرمي من رام ماهر كسعد رضي الله عنه .

وإنه لجهد كبير أن يرمي فرد واحد بألف سهم في بعض يوم .

ولقد حاز سعد على شرف دعاء النبي ﷺ له بتسديد رميته وإجابة دعوته ، فكان بعد ذلك مشهورا بدقة الإصابة في الرمي وإجابة الدعاء ، كما حاز على شرف فداء النبي ﷺ إياه بأبيه وأمه ، وقد أخرج الإمام البخاري خبر ذلك عن سعد رضي الله عنه قال : « نثل لي رسول الله ﷺ كنانته يوم أحد فقال : ارم فداك أبي وأمي » (١).

٢ - قال الواقدي في سياق روايته عن شيوخه :

وجعل رسول الله ﷺ يومئذ يُذمِّر الناس ويحضهم على القتال ، وكان رجال من المشركين قد أذلقوا المسلمين بالرمي ، منهم حبَّان بن العَرِقة ، وأبو أسامة الجشمي ، فجعل النبي ﷺ يقول لسعد بن أبي

---

(١) صحيح البخاري المغازي ، رقم ٤٠٥٥ (٧/٣٥٨) .

وقاص : ارم ، فداك أبي وأمي ! ورمى حبان بن العرقة بسهم فأصاب ذيل أم أيمن - وجاءت يومئذ تسقي الجرحى - فقلبها وانكشف ذيلها عنها ، فاستغرب في الضحك ؛ فشق ذلك على رسول الله ﷺ ، فدفع إلى سعد بن أبي وقاص سهما لا نصل له فقال : ارم ! فوقع السهم في ثغرة نحر حبان فوقع مستلقيًا وبدت عورته .

قال سعد : فرأيت رسول الله ضحك يومئذ حتى بدت نواجذه . ثم قال : استقاد لها سعد ؛ أجاب الله دعوتك وسدد رميتك ! ورمى يومئذ مالك بن زهير الجشمي أخوأبي أسامة الجشمي ، وكان هو وحبان بن العرقة قد أسرعا في أصحاب رسول الله ﷺ وأكثرا فيهم القتل بالنبل ، يتستران بالصخر ويرميان المسلمين . فبينا هم على ذلك أبصر سعد بن أبي وقاص مالك بن زهير وراء صخرة ، قد رمى وأطلع رأسه ، فيرميه سعد فأصاب السهم عينه حتى خرج من قفاه ، فنزا في السماء قامة ثم رجع فسقط ، فقتله الله عز وجل [1] .

وهذا الخبر يدل على دقة سعد في الرماية وجودته في إصابة الهدف ، وقد أراح المسلمين من اثنين من رماة الكفار كانا قد أضرا بالمسلمين ، فكم هي الجهود الكبيرة التي بذلها سعد لرسول الله ﷺ والمؤمنين في تلك المعركة ! !

ولقد كان لسعد شرف القيام بإهباط المشركين من الجبل بالرماية الهادفة المسددة كما ذكر الأموي في مغازيه : أن المشركين صعدوا على الجبل فقال رسول الله ﷺ لسعد : « اردد هم » فقال : كيف أردهم

---

(١) مغازي الواقدي ١/ ٢٤١ .

وحدي ؟ فقال ذلك ثلاثا ، فأخذ سعد سهما من كنانته فرمى به رجلا فقتله ، قال : ثم أخذت سهمي أعرفه فرميت به آخر فقتلته ، ثم أخذته أعرفه فرميت به آخر فقتلته ، فهبطوا من مكانهم (١).

وقوله « ثم أخذت سهمي أعرفه » يفسره ما جاء في رواية أخرجها الواقدي بإسناده عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : لقد رأيتني أرمي بالسهم يومئذ فيرده علي رجل أبيض حسن الوجه لا أعرفه ، حتى كان بعد فظننت أنه مَلَك (٢).

٣ - قال ابن إسحاق : فحدثني صالح بن كيسان عمن حدثه عن سعد بن أبي وقاص أنه كان يقول : والله ما حرصت على قتل رجل قط كحرصي على قتل عتبة بن أبي وقاص ، وإن كان ما علمت لسيء الخلق مبغَضا في قومه ، ولقد كفاني منه قول رسول الله ﷺ : اشتد غضب الله على من دمَّى وجه رسوله (٣).

في هذا الخبر موقف إيماني لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، ببراءته من أهل الشرك وإن كانوا من أقرب الناس إليه ، فقد حرص على قتل أخيه عتبة لإصابته رسول الله ﷺ ، وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم يلغون عامل القرابة إذا تعارض مع الدين ، وهذا دليل على قوة إيمانهم .

* * *

---

(١) ذكره الصالحي في سبل الهدى والرشاد ٤/ ٢١١ .

(٢) مغازي الواقدي ١/ ٢٣٤ .

(٣) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٨ .

٣٠ - موقف جهادي لأبي طلحة -

أخرج الإمامان البخاري ومسلم واللفظ له من حديث أنس بن مالك، قال : لما كان يوم أحد انهزم ناس من الناس عن النبي ﷺ وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ مُجَوِّبٌ عليه بحجفة [١] قال : وكان أبو طلحة رجلا راميا شديد النزع [٢]. وكسر يومئذ قوسين أو ثلاثا ، قال : فكان الرجل يمر معه الجعبة [٣]من النبل فيقول : انثرها لأبي طلحة .

قال : ويشرف نبي الله ﷺ ينظر إلى القوم . فيقول أبو طلحة يا نبي الله ! بأبي أنت وأمي لا تشرف لا يصبك سهم من سهام القوم ، نحري دون نحرك ، قال : ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان ، أرى خدم سوقهما [٤] تنقلان القرب على متونهما [٥] ثم تفرغانه في أفواههم ، ثم ترجعان فتملآنها ، ثم تجيئان تفرغانه في أفواه القوم ، ولقد وقع السيف من يدي أبي طلحة إما مرتين وإما ثلاثا من النعاس [٦].

وأخرج الإمام أحمد بإسناده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أبا

---

(١) (مجوّب عليه بحجفة) أي مترس عنه ليقيه سلاح الكفار . وأصل التجويب الاتقاء بالجوب، كثوب ، وهو الترس .

(٢) (شديد النزع) أي شديد الرمي بالسهام .

(٣) (الجعبة) هي الكنانة التي تجعل فيها السهام .

(٤) (خدم سوقهما) الواحدة خَدَمَة ، وهي الخلخال . والسوق جمع ساق .

(٥) (على متونهما) أي على ظهورهما . وهذه التعليقات عن هامش صحيح مسلم .

(٦) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٠٦٤ (الفتح ٧/ ٣٦١) صحيح مسلم ، الجهاد ، رقم١٨١١ (ص ١٤٤٣) .

طلحة رضي الله عنه كان يرمي بين يدي رسول الله ﷺ يوم أحُد ، والنبي ﷺ خلفه يتترس به [١] ، وكان راميا ، وكان إذا رمى رفع رسول الله ﷺ شخصه ينظر أين يقع سهمه ، ويرفع أبو طلحة صدره ويقول هكذا بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لا يصيبك سهم ، نحري دون نحرك ، وكان أبو طلحة يسوق نفسه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ويقول إني جَلْد [٢] يا رسول الله ألا فوجهني في حوائجك ومرني بما شئت .

وأخرج عنه أيضا أن رسول الله ﷺ قال : صوت أبي طلحة في الجيش خير من فئة قال : وكان يجثو بين يديه في الحرب ثم ينثر كنانته [٣] ويقول وجهي لوجهك الوقاء ونفسي لنفسك الفداء [٤] .

تبين لنا من هذه الأخبار شيء من مواقف أبي طلحة زيد بن سهل الأنصاري النَّجَّاري الخزرجي ، وقد تبين من مظاهر خبرته الحربية مهارته في الرمي ، وجهوده الكبيرة في الدفاع عن النبي ﷺ والإثخان في الكفار بسلاح الرماية ، كما أنه كان جهير الصوت ويرعب الأعداء بصوته مما جعل النبي ﷺ يعتبره بصوته المرعب عن فئة من الجيش .

هذا إضافة إلى ما قام به من وقاية النبي ﷺ بنفسه حيث جعل من جسده تُرسًا له دون سلاح الأعداء .

* * *

---

(١) أي يحتمي به .

(٢) بفتح الجيم وسكون اللام أي قوي صلب .

(٣) أي جعبة السهام .

(٤) الفتح الرباني ٢٢ / ٣٨٨ - ٣٨٩ .

٣١ – موقف جهادي لعمارة بن زياد وعدد من الأنصار –

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه : وقالوا : إن رسول الله ﷺ لَمَّا لَحَمه القتال وخُلص إليه وذبّ عنه مُصْعب بن عُمير وأبو دُجانة حتى كَثُرت به الجراحة ، جعل رسول الله ﷺ يقول : من رجلٌ يَشرى نفسَه ؟ فوثب فئة من الأنصار خمسةٌ ، منهم عُمارة بن زياد بن السَّكن ، فقاتل حتى أُثبتَ ، وفاءَتْ فئةٌ من المسلمين فقاتلوا حتى أجهضوا أعداء الله ، فقال رسول الله ﷺ لعُمارة بن زياد : ادنُ منّي ! إليّ ، إليّ ! حتى وسَّده رسول الله ﷺ قدمَه – وبه أربعةَ عشرَ جرحًا – حتى مات[1] .

في هذا الخبر موقف لعمارة بن زياد بن السكن الأنصاري الأشهلي وعدد من الأنصار رضي الله عنهم في حماية النبي ﷺ والدفاع عنه في موقف من أشد المواقف حاز فيه عمارة شرف الشهادة بعد أن أبلى بلاء حسنا هو وأصحابه رضي الله عنهم .

* * *

(١) مغازي الواقدي ١/ ٢٤١ .
وقد ذكره ابن الأثير من رواية ابن إسحاق ، ولكن فيه تردد في صاحب القصة هل هو عمارة بن زياد أو أبوه زياد – أسد الغابة ٤/ ٤٩ – .

٣٢ - موقف لسهل بن حنيف -

أخرج أبو عبد الله الحاكم من طريق الواقدي بإسناده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : وشهد سهل بن حنيف بدراً وأحداً ، وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أحد حين انكشف الناس وبايعه على الموت ، وجعل ينضح يومئذ بالنبل عن رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله : نَبِّلوا سهلاً فإنه سهل [١] .

في هذا الخبر موقف جهادي لسهل بن حنيف رضي الله عنه ، حيث كان من الذين ثبتوا مع النبي ﷺ وبايعوه على الموت في حال إصابة المسلمين وتفرقهم ، وقد كان من الرماة المشهورين ، فبذل طاقة كبيرة في الرماية حماية لرسول الله ﷺ ودفاعا عنه .

* * *

---

(١) المستدرك ٣/ ٤٠٩ .

٣٣ - موقف لشَمَّاس بن عثمان المخزومي (١) -

قال الواقدي في سياق رواية له وقال رسول الله ﷺ : ما وجدتُ لشَمَّاس بن عُثمان شَبَهًا إلا الجُنَّة (٢) - يعني مما يُقاتل عن رسول الله ﷺ يومئذ . وكان رسول الله ﷺ لا يرمي(٣) يمينًا ولا شمالاً إلا رأى شَماسًا في ذلك الوجه يَذُبّ بسيفه ، حتى غُشي رسول الله ﷺ فترّس بنفسه دونه حتى قُتل ، فذلك قول النبي ﷺ : ما وجدت لشَمَّاس شَبَهًا إلا الجُنَّة (٤) .

وهكذا حوَّل شماس بن عثمان المخزومي جسمه إلى ترس يقي به رسول الله ﷺ من سلاح الأعداء إلى جانب الدفاع عنه بسيفه ، حتى إذا غُشي على رسول الله ﷺ ترَّس بنفسه دونه حتى استشهد رضي الله عنه .

وفي هذا الخبر وأمثاله نستشف مثلا من أمثلة العظمة حيث تذوب الأجسام في مراد العقول السليمة يتمثل بالطموح العالي نحو بلوغ رضوان الله تعالى والجنة ، فيتعرض أولو الألباب لمواطن الشهادة التي فيها رجاء الوصول السريع لتحقيق ذلك الهدف العالي .

* * *

---

(١) هو شماس بن عثمان بن الشريد المخزومي القرشي ، من المهاجرين الأولين .

(٢) الجُنَّة بضم الميم الوقاية ، شبهه بالمجنّ الذي يُتَّقى به من السلاح .

(٣) أي لا يرمى ببصره .

(٤) مغازي الواقدي ١/ ٢٥٧ .

وذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة في ترجمته - ٢/ ١٥٢ رقم ٣٩١٩- من رواية الزبير بن بكار .

٣٤ - مواقف جهادية لأبي دجانة -

١ - قال الواقدي في سياق رواية له : وكان كعب بن مالك يقول : أصابني الجراح يوم أُحُد ، فلمّا رأيت مَثْل المشركين بقتلى المسلمين أشدّ المثل وأقبحه ، قمت فتجاوزت عن القتلى حتى تنحيت .

قال كعب : وإذا رجلٌ من المشركين جامع اللأمَة(١) يصيح : استوسقوا كما يستوسق جُرْبُ الغَنَم . وإذا رجلٌ من المسلمين عليه لأمَته ، فمشيتُ حتى كنت من ورائه ثم قمت أُقدّر المسلمَ والكافر ببَصَري ، فإذا الكافر أكثرهما عُدَّةً وأُهْبَةً ، فلم أزل أنظرهما حتى التقيا ، فضرب المسلم الكافرَ على حبل عاتقه بالسيف ، فمضى السيف حتى بلغ وركيه ، وتفرق المشرك فرقتين . وكشف المسلم عن وجهه فقال : كيف ترى ياكعب ؟ أنا أبو دُجانة (٢) .

هذا الخبر يبين شجاعة أبي دجانة رضي الله عنه وقوة بدنه فإنه استطاع التغلب على ذلك الكافر الذي هو أكمل منه في السلاح المادي ، ولقد ظهرت قوة أبي دجانة في تلك الضربة القاصمة التي قطع بها الدرع وقسم جسد ذلك الكافر إلى قسمين .

٢ - قال الواقدي في سياق رواية له : ويُقبل عبد الله بن حُميد بن زُهير حين رأى رسول الله ﷺ على تلك الحال ، يَركُض فرسه مُقنَّعًا في الحديد يقول : أنا ابن زُهَير ، دلّوني على محمّد ، فو الله لأقتلنَّه أو لأموتنَّ دونه ! فتعرض له أبو دجانة فقال : هَلُمّ إلى من يَقي نفسَ محمّد بنفسه ! فضرب فرسه فعرقبها فاكتسعت الفرس ، ثم علاه بالسيف وهو

---

(١) أي مكتمل العدة الحربية .

(٢) مغازي الواقدي ١/ ٢٦٠ .

يقول : خذها وأنا ابن خَرَشَة ! ورسول الله ﷺ ينظر إليه يقول : اللَّهم ارض عن ابن خَرَشَة كما أنا عنه راض [1] .

في هذا الخبر موقف جليل لأبي دجانة رضي الله عنه في حماية النبي ﷺ والدفاع عنه ، فقد تصدى لابن زهير الذي جعل هدفه الأول قتل النبي ﷺ وقام بعدة محاولات أصابه في بعضها بجراح ، فوقف له البطل العظيم أبو دجانة مظهراً له أن الوصول إلى رسول الله ﷺ دونه خَرْط القتاد ، حيث إن كل من حوله يفدونه بأرواحهم .

وإذا كان ابن زهير يفادي بنفسه في محاولة قتل النبي ﷺ ليَعظُم ذكره في قومه وينال المجد الدنيوي فإن مَنْ حول النبي ﷺ وعلى رأسهم أبو دجانة يفدونه بأرواحهم لا طمعا في ذكر دنيوي وإنما برجاء بلوغ رضوان الله تعالى والأجر الأخروي ، ولن تكون تضحية من يريد الذكر الدنيوي كتضحية من يريد الذكر الأخروي لأن من أراد الدنيا فإنه إنما يُضحِّي ببعض طاقته ويستبقي طاقة أعظم للدفاع عن نفسه حتى يستمتع بالذكر الدنيوي ، أما رُوَّاد الذكر الأخروي فإنهم يبذلون كل طاقتهم في خدمة أهدافهم النبيلة لأنهم يعتقدون أن حصولهم على الشهادة هو أقرب وأسمى طريق لبلوغ الذكر الأخروي ، فلذلك استطاع أبو دجانة أن يتغلب بسهولة وهو راجل على ابن زهير وهو فارس ، وأن يلقِّن أصحابه من الكفار درساً لن ينسوه ما بقوا على قيد الحياة .

هذا وقد سبق ذكر بعض مواقف أبي دجانة الجهادية بمناسبة إعطاء النبي ﷺ سيفه له .

* * *

(١) مغازي الواقدي ١/٢٤٦ .

٣٥ - موقف في الثبات والتضحية من سعد بن الربيع -

أخرج أبو عبد الله الحاكم من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد لطلب سعد بن الربيع، قال: إن رأيته فأقْرئْه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك؟ قال: فجعلت أطوف بين القتلى فأصبته وهو في آخر رمق وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم، فقلت له: ياسعد إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ويقول: : أخبرني كيف تجدك؟ قال: عَلَى رسول الله السلام، قل له: يارسول الله أجدني أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لاعذر لكم أن يُخْلَص إلى رسول الله ﷺ وفيكم شَفْرٌ يَطْرِف [١].

قال: وفاضت نفسه رحمه الله.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي [٢].

وأخرجه الحافظ أبو يعلى من حديث عمرو بن يحيي المازني وذكر نحوه [٣].

وأخرجه محمد بن إسحاق وذكر نحوه [٤].

في هذا الخبر موقف جليل في الثبات والتضحية يقدِّمه علم من

---

(١) أي عين تبصر.

(١) المستدرك ٣/ ٢٠١.

(٣) المطالب العالية ٤/ ٢٢٠ رقم ٤٣١٧.

(٤) سيرة ابن هشام ٣/ ٥٠.

أعلام الأنصار وأحد نقبائهم في بيعة العقبة ، سعد بن الربيع الأنصاري الخزرجي ، فقد ثبت رضي الله عنه في ميدان المعركة وكان ممن واجهوا هجوم الأعداء الأخير حتى استشهد رضي الله عنه .

وإن ما في هذا الخبر من إصابته بسبعين إصابة ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم يدل على قوة احتماله وأنه كان يقارع القوم وهو مثخن بالجراح حتى سقط على الأرض .

ولقد ظل اهتمامه بالنبي ﷺ حتى فاضت روحه مذكِّرا قومه بوجوب فداء النبي ﷺ بأرواحهم وأنهم لاعذر لهم إن وَصل إليه الأعداء وفيهم رجل على قيد الحياة .

* * *

٣٦ - موقف ثبات لثابت بن الدحداحة وجماعة من الأنصار -

أخرج الواقدي من حديث الحارث بن الفُضَيل الخَطْمي ، قال : أقبل ثابت بن الدَّحداحة يومئذ والمسلمون أوزاعٌ ، قد سُقطَ في أيديهم ، فجعل يصيح : يامعشر الأنصار ، إليَّ ! إليَّ ! أنا ثابت بن الدَّحداحة ، إن كان محمدٌ قد قُتل فإنَّ الله حيٌّ لايموت ! فقاتلوا عن دينكم ، فإنَّ الله مُظهركم وناصركم ! فنهض إليه نَفَرٌ من الأنصار ، فجعل يحمل بمن معه من المسلمين ، وقد وقفت لهم كَتيبةٌ خشناء ، فيها رؤساؤهم : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبي جهل ، وضرار بن الخطاب . فجعلوا يناوشونهم . وحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح ، فطعنه فأنفذه فوقع ميتًا ، وقُتل من كان معه من الأنصار .

فيقال إنّ هؤلاء لآخرُ من قُتل من المسلمين ، ووصل رسول الله ﷺ إلى الشِّعْب مع أصحابه فلم يكن هناك قتال (١) .

هذا الخبر يبين لنا مشهداً من مشاهد ثبات الأنصار رضي الله عنهم يوم أحد ، فقد دعاهم ثابت بن الدحداحة (٢) إلى الثبات وقتال الأعداء ، وكان في حال من اليقين والبصيرة حينما لم يثنه عن القتال ما أُشيع من مقتل رسول الله ﷺ حيث أبان لقومه أن الجهاد ماض لإعلاء كلمة الله تعالى ، وقد استجاب له جماعة من قومه فقاتلوا الكفار بقوة وضراوة حتى سقطوا جميعًا شهداء رضي الله عنهم .

* * *

(١) مغازي الواقدي ١/ ٢٨١ .

(٢) هو ثابت بن الدحداحة البلوي الأنصاري حليف بني عمرو بن عوف من الأنصار .

٣٧ - مواقف لثلاثة من الأنصار في الثبات -

قال الواقدي في سياق رواية له : وكان عَبّاس بن عُبادة بن نَضْلة [(١)]، وخارجة بن زيد بن أبي زُهير[(٢)]، وأوْس بن أرْقَم بن زيد[(٣)] ، وعباس رافعٌ صوته يقول : يامعشر المسلمين اللهَ اللهَ في نبيِّكم ! هذا الذي أصابكم بمعصية نبيّكم، وعدكم النصر فما صبرتم ! ثم نزع مغْفَره عن رأسه وخلع درعه فقال لخارجة بن زيد : هل لك في درعي ومغْفَري؟ قال خارجة : لا ، أنا أُريد الذي تُريد . فخالطوا القوم جميعًا، وعَبّاس يقول : ما عُذْرُنا عند ربنا إن أُصيب رسولُ الله ومنَّا عَينٌ تَطرف؟ يقول خارجة : لاعُذْرَ لنا عند ربّنا ولا حُجَّة .

فأمَا عباس فقتله سُفيان بن عبد شمس السُّلَمّي ، ولقد ضربه عَبّاس ضربتين فجرحه جرحين عظيمين ، فارْتُثَّ يومئذ جريحًا فمكث جريحًا سنةً ثم استبلّ . وأخذت خارجةَ بن زيد الرِّماحُ فجُرح بضْعة عشر جرحًا، فمرّ به صَفوان ابن أُمية فعرفه فقال : هذا من أكابر أصحاب محمّد وبه رَمَقٌ ! فأجهز عليه . وقُتل أوْس بن أرْقَم[(٤)] .

فهؤلاء الأنصار الثلاثة الخزرجيون ثبتوا في حال إصابة المسلمين حتى استشهدوا رضي الله عنهم .

ولقد نادى عباس بن نضلة قومه وحثهم على الثبات وذكّرهم بوعد

(١) هو العباس بن عبادة بن نضلة الخزرجي الأنصاري من أصحاب العقبة - الإصابة٢/ ٢٦٢ رقم ٤٥٠٦ .

(٢) هو خارجة بن زيد بن أبي زهير الخزرجي الأنصاري الإصابة ١/ ٣٩٩ رقم ٢١٣٥ .

(٣) هو أوس بن الأرقم بن زيد الخزرجي الأنصاري - الإصابة ١/ ٩١ رقم ٣١٢- .

(٤) مغازي الواقدي ١/ ٢٥٨ .

رسول الله لهم بالنصر إذا صبروا ، ولكن أكثر الرماة لم يصبروا وخالفوا أمره فأصيب المسلمون بسبب مخالفتهم ، وحثَّهم على بذل الطاقة في حماية النبي ﷺ والدفاع عنه .

ولقد قام بعمل فدائي مرعب للأعداء عادة وهو نزع الدرع والمغفر مما يُشعر بطلب الشهادة ، وقد عرض درعه ومغفره على خارجة بن زيد فلم يقبلهما لأنه أيضًا يريد الشهادة .

وهكذا ضرب هؤلاء الأنصار مثلا عاليا في الثبات والتضحية حيث جعلوا من أنفسهم - هم وأمثالهم - حواجز بشرية قوية حالت دون تكاثف الأعداء على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما أنهم بثباتهم وإشغالهم الأعداء بالجلاد القوي المتواصل لم يمكِّنوا الأعداء من ملاحقة المسلمين الذين انحازوا إلى جبل أحد .

* * *

٣٨ - مواقف جهادية لعمر بن الخطاب وبعض المهاجرين -

قال ابن إسحاق : فبينا رسول الله ﷺ بالشِّعب ، معه أولئك النَّفر من أصحابه ، إذ علَت عاليةٌ من قريش الجبلَ فقال رسول الله ﷺ : اللهم إنه لاينبغي لهم أن يَعْلونا ، فقاتل عمرُ بن الخطاب ورهْطٌ معه من المهاجرين حتى أهْبطوهم من الجبل (١) .

هذا الخبر حكاية عن بعض ما جرى على المسلمين بعد توقف المعركة، وقد كان سبب توقفها اعتصام المسلمين بجبل أحد ، حيث لايستطيع المشركون الوصول إليهم بخيولهم ، ولايتمكنون من قتالهم وهم مشاة لتفوق المسلمين في الكفاءة القتالية ، ولكون المسلمين أعلى منهم في المكان ، ففكر بعض المشركين في صعود جبل أحد من الخلف ليكونوا أعلى من المسلمين فيتمكنوا منهم ، فدعا رسول الله ﷺ ربه أن لايمكنهم من الإشراف عليهم ، فانتدب لقتالهم عمر بن الخطاب في رهط من المهاجرين رضي الله عنهم فقاتلوهم حتى أهبطوهم من الجبل .

وإذا تصورنا أن المشركين كانوا أعلى من المسلمين فإن قتالهم في غاية الصعوبة ، ومع ذلك أقدم عليه عمر ومن ساعده من المهاجرين ، وهذا دليل على علو كفاءة المسلمين القتالية ، واجتهادهم في بذل طاقتهم في الجهاد .

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٩ .

٣٩ - موقف ثبات وتضحية لأنس بن النضر -

أخرج الإمامان البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن عمه غاب عن بدر فقال : غبتُ عن أول قتال النبي ﷺ ، لئن أشهدني الله مع النبي ﷺ ليرَينَّ ما أجِدُّ ، فلقي يوم أحد فهُزم الناس ، فقال : اللهم إني اعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما جاء به المشركون ، فتقدم بسيفه فلقيَ سعد بن معاذ فقال : أين ياسعد ؟ إني أجد ريح الجنة دون أحد ، فمضى فقُتل ، فما عُرف حتى عرفته أخته بشامة - أو ببنانه - وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم [(١)] .

في هذا الخبر بيان موقف في الثبات والتضحية لأنس بن النضر الأنصاري الخزرجي رضي الله عنه حيث ثبت في ميدان المعركة وتلقى هجوم الأعداء العنيف بعد كرَّتهم .

ولقد ظل يقاوم مع إصابته ببضع وثمانين مابين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم حتى سقط على الأرض ، وهذا يدل على قوة احتماله وصبره الشديد .

وفي قوله « إني أجد ريح الجنة دون أحد » قال الحافظ ابن حجر : يحتمل أن يكون ذلك على الحقيقة بأن يكون شم رائحة طيبة زائدة عما يعهد فعرف أنها ريح الجنة ، ويحتمل أن يكون أطلق ذلك باعتبار ما عنده من اليقين حتى كأن الغائب عنه صار محسوسا عنده ، والمعنى أن الموضع الذي أقاتل فيه يئول بصاحبه إلى الجنة [(٢)] .

---

(١) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٠٤٨ (٧/ ٣٥٤) صحيح مسلم ، الإمارة رقم ١٩٠٣ (ص١٥١٢) وانظر سيرة ابن هشام ٣/ ٣٣ - ٣٤ .

(٢) فتح الباري ٧/ ٣٥٥ .

٤٠ - حوار أبي سفيان ومواقف للمسلمين -

أخرج الإمام البخاري من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: لاتُجيبوه. فقال أفي القوم ابنُ أبي قُحافة؟ قال: لاتُجيبوه. فقال: أفي القوم ابنُ الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قُتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمرُ نفسه فقال: كذَبت ياعدو الله، أبقى اللهُ عليك مايُخزيك. قال أبو سفيان: اعلُ هُبَل. فقال النبي ﷺ: أجيبوه. قالوا: مانقول؟ قال قولوا: اللهُ أعلى وأجلّ. قال أبو سفيان: لنا العُزَّى ولاعُزى لكم. فقال النبي ﷺ: أجيبوه. قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: الله مولانا ولامولى لكم، قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر والحرب سجال، وتجدون مُثلة لم آمر بها ولم تَسُؤْني [(١)].

وقوله «فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت ياعدو الله» جاء في رواية ابن عباس رضي الله عنهما «فقال عمر: ألا أجيبه؟ قال: بلى» ذكره الحافظ ابن حجر وقال: وكأنه نهى عن إجابته في الأولى وأذن له في الثالثة.

وقوله «في الثالثة» يعني أن أبا سفيان كرر قوله ثلاث مرات، كما ذكر الحافظ ابن حجر عند قوله «فقال: أفي القوم محمد؟»: زاد زهير ثلاث مرات في المواضع الثلاثة [(٢)].

---

(١) صحيح البخاري، المغازي رقم ٤٠٤٣ (٧/ ٣٤٩).

(٢) فتح الباري ٧/ ٣٥٢.

وهذا يعني أن عمر سكت في المرتين الأولين ، ثم استأذن النبي ﷺ في إجابته بعد الثالثة فأذن له ، وهذا هو المظنون بعمر رضي الله عنه أنه لايتجاوز أمر النبي ﷺ .

ولقد كان النبي ﷺ حينما أمر الصحابة بعدم إجابة أبي سفيان يراعي الإبقاء على المسلمين وعدم تعريضهم لاستئناف المعركة بعد توقفها وهم مثخنون بالجراح ، فإذا سكت المسلمون فإن أبا سفيان وقومه يفهمون من ذلك عدم وجود النبي ﷺ وصاحبيه ، وأبو سفيان قد اعتبر أن ذهاب هؤلاء الثلاثة يعني ذهاب الإسلام وانتهاء دولته ، وفي هذا مزية كبرى لعظيمَي الإسلام بعد رسول الله ﷺ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

لكن عمر لاحظ إظهار عزة المسلمين وإغاظة الكافرين وإن ترتب على ذلك استئناف المعركة ، وقد وافقه النبي ﷺ على إجابة المشركين بعد النداء الثالث لأبي سفيان ، وفي ذلك جمع بين المقصدين مقصد الإبقاء على المسلمين حيث إن المشركين سيخالجهم الشك في بقاء النبي ﷺ على قيد الحياة لسكوت المسلمين في النداء الأول والثاني وسيقوم عندهم احتمال أن عمر أجاب في الثالثة لهدف سياسي ، خصوصا وقد سمعوا النداء بموت النبي ﷺ وأخبرهم بذلك ابن قمئة ، والرسول ﷺ هو هدفهم الأول ، والمقصد الثاني إظهار عزة المسلمين وإغاظة الكافرين ، وقد تحقق ذلك بتأكد المشركين من سلامة عمر واحتمال سلامة النبي ﷺ وأبي بكر بشكل ظاهر لإخبار عمر بذلك .

ونجد في هذا الحوار الفرق الشاسع بين مفاهيم الإسلام ومفاهيم

الجاهلية ، فأبو سفيان يعتزُّ بكبير أصنامهم هُبَل ، والمسلمون يعتزون بالله عزَّ وجلّ ، والمشركون يعلنون ولاءهم لصنم آخر كبير من أصنامهم وهو العزَّى ، ويطلبون منه قضاء حوائجهم والمسلمون يتولَّون الله تعالى ويطلبون منه وحده قضاء حوائجهم .

* * *

٤١ – مواقف لرسول الله ﷺ في عودتهم إلى المدينة –

١ – قال ابن إسحاق : ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : إن موعدكم بدر العام القابل ، فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه : قُل : نعم ، هو بيننا وبينكم موعد .

ثم بعث رسولُ الله ﷺ عليّ بن أبي طالب ، فقال : اخرُجْ في آثار القوم فانظُر ماذا يَصْنعون وما يريدون فإن كانوا قد جنَّبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيلَ وساقوا الإبل فإنهم يُريدون المدينة ، والذي نفسي بيده ، لئن أرادوها لأسيرنّ إليهم فيها ، ثم لأناجزنهم قال عليّ : فخرجت في آثارهم أنظُر ماذا يصنعون ، فجنّبوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، ووجَّهوا إلى مكة [١] .

في هذا الخبر موقف من مواقف الشجاعة لرسول الله ﷺ حيث هدد بقتال المشركين في المدينة مع ما به وأصحابه من الجراح الشديدة .

٢ – قال الواقدي في سياق رواية له : وكان أبو سعيد الخُدْري يُحدث أنَّ رسول الله ﷺ أُصيب وجهُه يوم أُحُد فدخلت الحَلْقَتان مع المِغْفَر في وجنتَيه ، فلما نُزعتا جعل الدَّمُ يسرُب كما يسرُب الشَّنّ [٢] ، فجعل مالك بن سنان يَملُج الدم بفيه ثم ازْدَرَده ، فقال رسول الله ﷺ : مَن أحبّ أن ينظر إلى من خالط دمه دمي فلينظر إلى مالك بن سنان . فقيل لمالك : تشرب الدم ؟ فقال : نعم ، أشرب دم رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : من مَسّ دمه دمي ، لم تُصبه النارُ . قال أبو

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٤٩ .

(٢) أي القربة القديمة .

سَعيد : فكنَّا ممّن رُدّ من الشيخَين[1] لم نُجَز مع المُقاتلة ، فلمّا كان من النهار وبلغَنا مُصابُ رسول الله ﷺ وتفرُّقُ الناس عنه ، جئت مع غلمان من بني خُدْرَة نعترض لرسول الله ﷺ وننظر إلى سلامته فنرجع بذلك إلى أهلنا ، فلقينا الناس مُنصرفين ببطن قَنَاة ، فلم يكن لنا همَّة إلا النبي ﷺ ننظر إليه ، فلمّا نظر إليّ قال : سعد بن مالك ؟ قلت : نعم ، بأبي وأمي ! فدنوت منه فقبّلت رُكبته وهو على فرسه ، ثم قال : آجرك الله في أبيك ! ثم نظرت إلى وجهه فإذا في وجنتَيه موضع الدرهم في كلِّ وَجنة ، وإذا شَجّةٌ في جبهته عند أصول الشَّعَر ، وإذا شفته السفلى تَدْمَى ، وإذا رَباعيته اليمنى شَظية ، فإذا عَلَى جرحه شيءٌ أسود . فسألت : ماهذا على وجهه ؟ فقالوا : حَصيرٌ مُحرَّقٌ . وسألت : من دمَّى وَجنتَيْه ؟ فقيل : ابن قمئة . فقلت : من شجّه في جبهته؟ فقيل : ابن شهاب . فقلت : من أصاب شفته ؟ فقيل : عُتْبة .

فجعلت أعدو بين يديه حتى نزل ببابه ، فما نزل إلا حَمْلاً ، وأرى رُكبتَيه مجحوشتين ، يتّكئ على السعدين - سعد بن عُبادة وسعد بن مُعاذ- حتى دخل بيته . فلما غَربَت الشمس وأذَّن بلال بالصلاة خرج رسول الله ﷺ على مثل تلك الحال يتوكَّأ على السعدَين ، ثم انصرف إلى بيته ، والناس في المسجد يُوقدون النيران يُكمّدون بها الجراح .

ثم أذَّن بلالٌ بالعشاء حين غاب الشَّفَق ، فلم يخرج رسول الله ﷺ وجلس بلالٌ عند بابه حتى ذهب ثُلُثُ الليل ثم ناداه : الصلاة ، يارسول الله ! فخرج رسول الله ﷺ وقد كان نائمًا . قال : فرمقتُه فإذا هو أخفّ

---

(١) هو المكان الذي عرض فيه النبي صلى الله عليه وسلم جيشه وردَّ فيه الغلمان الذين لم يبلغوا كما سبق .

في مشيته منه حين دخل بيته ، فصلَّيتُ معه العشاءَ ثم رجع إلى بيته ، وقد صفَّ له الرجال ما بين بيته إلى مُصَلاّه ، يمشي وَحْدَه حتى دخل ، ورجعتُ إلى أهلي فخبَّرتهم بسلامة رسول الله ﷺ ، فحمدوا الله على ذلك وناموا ، وكانت وجوه الخَزْرج والأوس في المسجد على باب النبي ﷺ يحرسونه فَرَقًا من قُرَيش أن تكرَّ[1] .

في هذا الخبر بيان ماكان عليه غلمان الصحابة من حب عظيم لرسول الله ﷺ ، وارتفاع في مستوى التفكير والاهتمامات ، حيث يشعرون بشعور الكبار فيسرهم ما يسرهم ويسوؤهم ما يسوؤهم ، وهذا دليل على نجاح النبي ﷺ في تربية الصحابة ونجاحهم في تربية أبنائهم .

وفي هذا الخبر بيان موقف السعدين سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج في خدمة رسول الله ﷺ وحراسته هما ومن معهما من الأنصار رضي الله عنهم .

* * *



(١) مغازي الواقدي ١/ ٢٤٧ - ٢٤٩ .

٤٢ - مواقف لبعض النساء -

١ - أخرج الإمام البخاري من حديث ثعلبة بن أبي مالك قال: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قسم مُروطًا [١] بين نساء من نساء أهل المدينة، فبقي مرطٌ جيد فقال له بعض من عنده: يا أمير المؤمنين أعْط هذا بنت رسول الله ﷺ التي عندك - يريدون أم كلثوم بنت علي - فقال عمر: أمُّ سَليط أحق به، وأم سليط من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله ﷺ [٢]، قال عمر: فإنها كانت تُزفِرُ لنا القِرَب [٣] يوم أحد [٤].

ففي هذا الخبر بيان موقف جهادي لأم سليط المازنية رضي الله عنها، وذلك في حمل الماء وسقي المجاهدين، كما أن فيه موقفا عاليًا لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث ذكر فضل هذه المرأة وأشاد بعملها الجهادي وفضلها على زوجته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب بالرغم من علو نسبها رضي الله عنهم أجمعين.

٢- قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الواحد بن أبي عَون عن إسماعيل بن محمد عن سعد بن أبي وقاص قال مرّ رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجُها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد، فلما نُعُوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيرًا ياأمّ

---

(١) جمع مرط وهو كساء من الصوف أو الحرير.

(٢) هي بنت عبيد بن زياد من بني مازن، كنِّيَتْ بابنها سليط بن عمرو بن قيس النجاري، وقد توفي عنها عمرو فتزوجها مالك بن سنان الخدري فولدت له أبا سعيد الخدري رضي الله عنهم جميعًا - فتح الباري ٦/ ٧٩، ٧/ ٣٦٧ -.

(٣) أي تحمل قرب الماء.

(٤) صحيح البخاري، رقم ٢٨٨١، ٤٠٧١ (٦/ ٧٩، ٧/ ٣٦٦).

فلان ، هو بحمد الله كما تحبِّين ، قالت أرُونيه حتى أنظر إليه قال : فأُشير لها إليه حتى إذا رأته قالت : كلّ مُصيبة بعدك جَلَل ، تريد صغيرة[١] .

وأخرجه الواقدي وذكره نحوه[٢] .

٣- وقال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه : وخرجَتْ أمُّ سعد بن مُعاذ - وهي كَبْشَة بنت عُبَيد بن مُعاوية بن بلْحارث بن الخَزْرَج - تعدو نحو رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ واقفٌ على فَرَسه ، وسعد بن مُعاذ آخذٌ بعنان فرسه ، فقال سعد : يارسول الله ، أُمِّي ! فقال رسول الله ﷺ مرحبًا بها ! فدنت حتى تأمّلت رسول الله ﷺ فقالت : أمّا إذا رأيتُك سالمًا ، فقد أشْوَت[٣] المُصيبة . فعزَّاها رسول الله ﷺ بعمرو بن مُعاذ ابنها، ثم قال : يا أُم سعد ، أبشري وبَشِّري أهليهم أنَّ قتلاهم قد ترافقوا في الجنَّة جميعًا - وهم اثنا عشر رجلاً - وقد شُفِّعوا في أهليهم . قالت : رضينا يارسول الله ، ومن يبكى عليهم بعد هذا ؟ ثم قالت : ادعُ يارسول الله لمن خُلِّفوا . فقال رسول الله ﷺ : اللَّهم أذْهب حُزنَ قلوبهم واجْبُر مُصيبتهم ، وأحْسن الخَلَف على من خُلِّفوا .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٥٧ .

وقال ابن هشام : الجَلَل يكون من القليل ويكون من الكثير ، وهو هنا من القليل ، قال امرؤ القيس في الجلل القليل :

لَقَتْلُ بني أسد ربهم ... ألا كل شيء سواه جلل

قال ابن هشام : وأما قول الشاعر وهو الحارث بن وعلة الجرمي :

ولئن عفوت لأعفُوَنْ جللا ... ولئن سطوت لأوهنَنْ عظمى

فهو من الكثير .

(٢) مغازي الواقدي ١/ ٢٩٢ .

(٣) أي صارت صغيرة خفيفة .

ثم قال رسول الله ﷺ : خَلِّ أبا عمرو الدابّة . فخلّى الفَرَس وتبعه الناس ، فقال رسول الله ﷺ : يا أبا عمرو ، إنَّ الجراح في أهل دارك فاشيةٌ ، وليس فيهم مجروحٌ إلا يأتي يوم القيامة جُرْحُه كأغْزَر ما كان ، اللَّون لونُ دم والريح ريحُ مسْك ، فمن كان مجروحًا فليَقرَّ في داره وليُداو جُرْحَه ، ولايبلُغْ معي بيتي عَزْمةً منّي . فنادى فيهم سعدٌ : عَزْمَة رسول الله ﷺ ألاَّ يتبع رسول الله ﷺ جريحٌ من بني عبد الأشْهَل ، فتخلَّف كلّ مجروح ، فباتوا يُوقدون النيران ويُداوون الجراح ، وإنَّ فيهم لثلاثين جريحًا [(١)] .

٤ - وروى الطبراني عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لمَّا كان يوم أُحد حاصَ أهلُ المدينة حَيْصة ، وقالوا : قُتل محمد ، حتى كثر الصراخ في ناحية المدينة ، فخَرجَت امرأة من الأنصار محرمة ، فاستُقبلت بأبيها وابنها وزوجها وأخيها ، لا أدري أيّهم استقبلت به أولاً ، فلما مرَّت على آحدهم قالت : من هذا ؟ قالوا : أبوك ، زوجك ، أخوك ، ابنك ، فتقول : مافعل رسول الله ؟ يقولون : أمامك ، حتى دُفعت إلى رسول الله ﷺ ، فأخذت بناحية ثوبه ، ثم قالت : بأبي أنت وأُمّي يارسول الله ، لاأُبالي إذا سَلمتَ منْ عَطب ! . ذكره الهيثمي وقال : رواه الطبراني في الأوسط عن شيخه محمد بن شعيب ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات [(٢)] .

هذه الأخبار تدل على قوة الإيمان ورسوخ اليقين عند نساء الصحابة رضي الله عنهم جميعا ، فالمرأة الدينارية قد نُعي لها زوجها وأبوها وأخوها فلم تتأثر بذلك ، وسألَتْ عن سلامة رسول الله ﷺ ، فلم يَشْف

---

(١) مغازي الواقدي ١/ ٣١٥ - ٣١٦ .

(٢) مجمع الزوائد ٦/ ١١٥ ، وذكره الصالحي في سبل الهدى والرشاد ٤/ ٢٢٨ .

الخبر عن سلامته وجدَها عليه ولم يطفئ حرقة خوفها عليه حتى شاهدته بعينيها فاطمأن قلبها واستصغرت كل مصيبة تصاب بها أو يصاب بها غيرها ما دام رسول الله ﷺ سالما ، وهذا دليل على كمال محبة رسول الله ﷺ التي هي من كمال الإيمان ، كما أن عدم تأثر تلك المرأة بموت أبيها وزوجها وابنها دليل على كمال اتصافها بالصبر الجميل والرضا بقضاء الله تعالى وقدره .

وكذلك ما كان من أم سعد بن معاذ التي أعلنت فرحتها برؤية النبي ﷺ واستصغرت كل ما أصاب قومها في جانب سلامته .

ولقد كانت قوية الإيمان راسخة اليقين حينما قالت : ومن يبكي عليهم بعد هذا ! وذلك حينما بشرها رسول الله ﷺ بأن شهداء قومها قد ترافقوا في الجنة ، وهذا دليل على قوة استشعار الصحابة رضي الله عنهم للحياة الآخرة ، واهتمامهم بتنظيم سلوكهم بناء على ذلك .

وبمثل هذا الشعور القوي نحو محبة رسول الله ﷺ تتحدث المرأة الأنصارية التي أمسكت بطرف ثوب النبي ﷺ وقالت : بأبي أنت وأمي يارسول الله ﷺ لا أبالي إذا سلمتَ من عطب ، وكانت قد أُخبرت بموت أفراد من أسرتها كما جاء في رواية الطبراني الأخيرة ، وقد تعددت الأخبار بذلك ، وماذُكر لا يمثِّل إلا القليل مما تجيش به مشاعر الصحابة رجالاً ونساء نحو النبي ﷺ .

* * *

٤٣ – مثل رفيع من خلق الوفاء –

أخرج الإمام البخاري بإسناده عن أنس بن مالك رضي الله عنه «أن النبي ﷺ طلع له أُحُد فقال : هذا جبل يحبنا ونحبه »[١] .

هذا التعبير البليغ من رسول الله ﷺ يدلنا على اتصافه بمنتهى الكمال في مكارم الأخلاق ، التي يأتي على رأسها خلق الوفاء .

لقد احتضن جبل أحد المسلمين بعد إصابتهم ، حيث وجدوا في تجاويفه وتعاريجه حصونا امتنعوا بها من هجوم العدو ، ولقد عبَّر النبي ﷺ عما أفاده ذلك الجبل المسلمين بالمحبة ، ثم عبر بمحبة المسلمين ذلك الجبل عما خالط نفوسهم آنذاك من الغبطة والسرور بامتناعهم من المشركين بحصون ذلك الجبل المنيعة .

فجبل أحد يحب المسلمين لأنهم لما لجئوا إلى أكنافه حنا عليهم فامتنعوا به ، والمسلمون يحبونه لأنه كان سببا في امتناعهم من الكفار .

فما أدق شعور النبي ﷺ ، وما أبلغ إحساسه ! حيث قارن بين ماكسبه المسلمون من منعة التحصن والاحتماء بذلك الجبل وماأودعه الله تعالى فيه من قابليةٍ لذلك ، فعبر عن ذلك بأرقى وشائج الصلة وهي المحبة .

أفلا يُعتبر هذا الوجدان الحي والإحساس المرهف مثلا أعلى على التخلق بخلق الوفاء ؟ !

ألا وإن الذي يعترف بفضل الحجارة الصماء ويُضفي عليها من

---

(١) صحيح البخاري ، المغازي رقم ٤٠٨٤ ، (٧/ ٣٧٧) .

الأخلاق السامية ما لا يتصف به إلا أفاضل العقلاء لَجدير به أن يعترف بأدنى فضل يكون من بني الإنسان .

وإذا كان وفاؤه ﷺ للجماد قد سَمَى حتى حاز أرقى العبارات وأرقَّها فأَخْلقْ ببني الإنسان الأوفياء أن ينالوا منه أعظم من ذلك ، فضلا عن من تجمعه بهم الأخوة في الله تعالى .

* * *

٤٤ - من مواقف شعراء المسلمين في أحد -

لقد جادت قرائح شعراء المسلمين بمناسبة غزوة أحد بأشعار كثيرة عالية ، أشادوا فيها بمواقف أبطال المسلمين ، وهوَّنوا عليهم مصابهم فيها ، ووبَّخوا المشركين على فرارهم في أول المعركة الذي لم يكن له أي مسوغ إلا الجبن والتخاذل ، وأيْأسُوهم من التغنِّي بنتائج نصرهم الوهمي بإشعارهم بأن وجود القتلى على أرض المعركة من المسلمين لايعني انهزامهم .

ولقد اخترت للعرض هنا أربع قصائد من أروع ما قيل من الشعر في هذه المناسبة لشاعرين عظيمين من شعراء المسلمين هما حسان بن ثابت وكعب بن مالك الأنصاريان رضي الله عنهما (١) .

١ - قال كعب بن مالك رضي الله عنه بعد أبيات له :

مُجَالَدُنا عن ديننا كل فَخْمة
مُدرَّبة فيها القَوانس تلمع (٢)

وكل صَمُوتٍ في الصِّوان كأنها
إذا لبست نَهْيٌ من الماء مُترع (٣)

(١) قد رجعت في بيان الغريب من كلمات هذه القصائد إلى كل من « عيون الأثر » لابن سيد الناس، و« سبل الهدى والرشاد » للصالحي ، إضافة إلى تعليقات الهراس على سيرة ابن هشام .

(٢) الفخمة العظيمة والمراد بها الكتيبة ، ومدرَّبه ، من الدُّربة ، يعني أنهم دربوا للقتال ، والقوانس جمع قونس وهي بيضة السلاح .

(٣) الصموت الدرع التي أُحكم نسجها فلا يسمع لها صوت ، والصوان ماتصان فيه الدروع ونحوها ، والنَّهي مجتمع الماء ، والمترع المملوء .

ولكن ببـدْر سـائلوا من لقـيـتم

من الناس والأنبـاء بالغـيب تَنفع

وإنا بأرضِ الخـوْف لو كـان أهلها

سـوانا لقـد أجْلَوا بليل فـاقـشعـوا [١]

إذا جـاء منا راكبٌ كـان قـولِه

أعـدُّوا لما يُزجِي ابن حـرب ويجمعُ [٢]

فـمـهـمـا يُـهمُّ الناس مما يكيـدنا

فنحنُ له من سـائر الناس أوسع [٣]

فلو غـيرنُا كـانت جـميعًا تكيـده الـ

بـرية قـد أعْطوا يدًا وتوزعـوا [٤]

---

(١) أقشعوا : فروا وزالوا ، وهذا تعبير عما يعانيه المسلمون في المدينة من حياة الخوف والرعب، حيث تعاديهم أكثر القبائل المحيطة بهم ، إلى جانب عداوة اليهود والمنافقين داخل المدينة، فهذا الوضع الصعب لايستطيع البقاء عليه إلا الأبطال العظماء الذين نذروا أنفسهم للجهاد واستعدوا للموت .

(٢) ابن حرب هو أبو سفيان ، وهذا تصوير بليغ لحالة الخوف التي تساورهم من هجوم المشركين من أهل مكة عليهم .

(٣) يقول : إن أعداءنا قد جعلوا شغلهم الشاغل وهمهم الغالب في أن يدبروا المكائد للقضاء علينا ، وفي سبيل ذلك يبذلون أموالا طائلة لكسب ود القبائل وإثارتهم علينا ، بينما نحن في سعة بال وطمأنينة عيش لأننا متوكلون على الله تعالى ، واثقون بنصره أولياءه في النهاية .

(٤) نعم فلو صُبّت هذه المصائب على غير المسلمين لاستسلموا لأعدائهم وتفرقوا في البلاد، لأنهم غير موصولين بالله تعالى ، وإنما ينظرون للأسباب المادية وحدها .

نجـــالد لاتُبــقي علينا قــبـيلة

من الناس إلا أن يهــابوا ويفظُعــوا (١)

ولما ابتنوا بالعِـرض قـال سَـراتنا (٢)

عــلامَ إذا لم نمنع العــرضَ نزرع

وفــينا رســول الله نَتْـبع أمــره

إذا قــال فــينا القــول لانتطلع

تـدلَّى عليــــه الرُّوحُ من عند ربّه

يُنزَّل من جــو الســمــاء ويُرفع

نشــاوره فــيمــا نُريد وقـصْـرُنا (٣)

إذا مــا اشــتــهى أنا نطيع ونسـمع

وقــال رســول الله ﷺ لما بَـدوا لـنــا

ذرُوا عنكم هـول المنيَّــات واطمــعــوا

وكــونوا كــمن يشــري الحـيـاة تقـرّبا

إلى مـلك يُحـــيــا لَدَيه ويُرجع

---

(١) فالقبائل لاترتدع عن ظلم المسلمين والاعتداء عليهم إلا بقوة المسلمين في الجهاد وصبرهم على الجلاد ، فيرتدعون هيبة من المسلمين ورهبة منهم لاخضوعا لمكارم الأخلاق .

(٢) ابتنوا : ضربوا أبنيتهم وهي الخيام ، والعرض بكسر العين مكان بين المدينة وأحد ، وسراة القوم أشرافهم .

(٣) قصرنا أي غايتنا .

ولكن خُذوا أسيافكم وتوكلوا
على الله إن الأمرَ لله أجمع

فسرنا إليهم جهْرَةً في رحالهم
ضُحَيّاً علينا البيض لانتخشع (١)

بملمُومة فيها السَّنَوّر والقَنا
إذا ضَربوا أقدامها لاتُورَّع (٢)

فجئنا إلى موج من البحر وسطه
أحابيشُ منهم حاسرٌ ومُقنَّع

ثلاثة آلاف ونحن نصيَّةٌ
ثلاث مئين إن كثرنا وأربع (٣)

نُغاورهم تجرى المنية بيننا
نُشارعهم حوضَ المنايا ونَشْرع (٤)

---

(١) البيض الدروع والسيوف ، والتخشع الخضوع والذل .

(٢) ملمومة أي كتيبة مجتمعة ، والسَّنَوّر السلاح ، والقنا الرماح ، وتُورَّع أي تكف .

(٣) النَّصيَّة الخيار من القوم ، وقوله ثلاث مئين الخ على التقريب وإلا فإنه قد ثبت في الروايات السابقة أن عدد المسلمين الذين شاركوا في المعركة ستمائة وخمسين إضافة إلى خمسين من الرماة الذين رابطوا فوق الجبل ، ويحتمل أن كعب بن مالك عد المقاتلين الأشداء ولم يعتبر الشيوخ والغلمان .

(٤) نغاورهم أي نتبادل معهم الغارة ، ونشارعهم حوض المنايا ونشرع أي نوردهم حوضها ونسقيهم منه .

تهـادَى قـسيٌّ النبع فـينا وفـيهمُ

ومـاهو إلا اليَـثـربي المقَطَّع (١)

ومنجـوفـةٌ حِـرمَّـيـةٌ صـاعـدَّيةٌ

يُذَرّ عليـهـا السُّم سـاعـة تُصْنَع (٢)

تَصُـوبُ بأبدان الرِّجـال وتارةً

تَمُـرٌّ بأعـراض البـصـار تَقعـقع (٣)

وخَـيلٌ تراها بالفـضـاء كـأنهـا

جَـرَاد صَـبًـا في قَـرّة يَتَـرَيَّـع (٤)

فلـمَّـا تلاقـيْنا ودارت بنا الرَّحى

وليس لأمْـر حَـمَّـه الله (٥) مَـدْفع

ضَـربناهُـم حـتى تركنا سَـرَاتهم

كـأنهمُ بالقـاع خُـشْب مـصَـرّع

---

(١) تهادى أي تتمايل ، وقسي جمع قوس ، والنبع شجر تصنع منه القسي ، واليثربي هي الأوتار تنسب إلى يثرب .

(٢) المنجوفة السهام العريضة النصل ، وحِرمِّيَّة منسوبة إلى أهل الحرم ، وصاعديَّة منسوبة إلى صانع اسمه صاعد .

(٣) تصوب : تقع ، والأعراض : الجوانب ، والبصار : بكسر الباء نوع من الحجارة، وتقعقع : يظهر لها صوت .

(٤) الصبا : الريح الشرقية ، والقرَّة : البرد .

(٥) حمَّه الله : قدره وقضاه .

لَدُن غـدوةً حـتى اسـتـفـقنا عـشـيـة
كـــأنّ ذَكَـــانـا حـــرّ نـار تَـلـفَّـع(١)

وراحـوا سـراعًـا مـوجـفين كـأنهم
جَـهـامٌ هـراقت مـاءَهُ الريحُ مُـقلع(٢)

ورحـنا وأُخـــرانـا بطاءٌ كـــأنّنا
أُســودٌ على لحم ببـيــشــة ظُلَّع(٣)

فـنلـنا ونـال القــومُ مـنا ، وربما
فـعلـنا ، ولكن مـا لدى الله أوسع

ودارتْ رَحـانـا واسـتــدارت رَحـاهـم
وقـد جَـعلـوا كلٌّ من الشـرّ يَشْـبع

ونـحن أُنـاس لانرى القــتل سُـبَّـةً
على كلّ مَن يحـمى الذّمـار ويمنعُ(٤)

جِـلادٌ على ريَب الحَـوادث لاترى
على هالك عَـينًا لـنا الدَّهر تدمَع(٥)

---

(١) الذّكا الالتهاب في الحرب ، وتلفّع أي يشتمل حرها على من دنا منها .

(٢) موجفين أي مسرعين ، والجهام السحاب الرقيق الذي ليس فيه ماء .

(٣) بيشة واد في الحجاز يشتهر بالأسود ، وظُلّع أي مائلون .

(٤) الذمار : ما يجب على الرجل أن يحميه ، يُبيّن في هذا البيت أن سقوط الشهداء من المسلمين لا يُعتبر سُبَّة عليهم ، ولايَعني انهزامهم ماداموا معتصمين بمبادئهم المقدسة التي آمنوا بها وقاتلوا من أجلها .

(٥) جلاد : جمع جَلْد وهو الصبور ، وريب الحوادث مصائبها . فالمسلمون لايكون =

بنو الحــرب لانَعْـيــا بشيء نقــوله

ولانحن مما جَــرَّت الحــربُ نجــزَع[1]

بنو الحــرْب إن نظْفــر فلسنا بفُـحَّش

ولانحنُ من إظفــارها نَتـــوجع[2]

وكنَّا شــهـــابا يتَّــقى الناسُ حـرّه

ويُفــرجُ عنه من يَليــه ويَسْــفع[3]

قال ابن هشام : وكان كعب بن مالك قد قال :

مُجَالَدُنا عن جِذْمنَا [4] كلّ فخمة

= شهداءهم حسرة عليهم وأسفا على موتهم لأنهم يعلمون أنهم قد قدموا على خير مما هم فيه وأنهم سيلتقون معهم في حياة أخرى .

(١) نعيا : أي نعجز ، المعنى أننا إذا قلنا شيئًا فنحن قادرون على تنفيذه ، ثم يبين أن المسلمين لايجزعون من المصائب التي تجرها عليهم الحرب ، لأنهم يعلمون أنها بقضاء الله تعالى وقدره ، وأنهم إذا صبروا عليها فلهم أجر عظيم .

(٢) في الشطر الأول يبيِّن كعب بن مالك رضي الله عنه مبدأ إسلاميًا عاليا في شئون الحرب ، وهو أن المسلمين إذا غلبوا لم يبطروا ولم يتكبروا على الناس ولم يتجبروا عليهم ، بل يظلون مستقيمين على مكارم الأخلاق ، وقد سبق لنا صورة من معاملة الصحابة لأسرى بدر بناء على توصية النبي ﷺ حيث لم يقتصروا على مساواتهم بأنفسهم في المأكل بل آثروهم بأطايب الطعام .

وفي الشطر الثاني يبين أن المسلمين يتجمَّلون بالصبر على شدائد الحروب ، وبهذا الصبر العظيم بلغ الصحابة رضي الله عنهم ما بلغوا في الفتوحات الإسلامية .

(٣) يصف شجاعة الصحابة رضي الله عنهم بأن الواحد منهم يشبه شهابا من النار يتقيه الناس ويفسحون له ليَمُرّ ، ومن أصابه أحرقه وغيَّر لونه .

(٤) أي عن أصلنا .

فقال رسول الله ﷺ : أيصلح أن تقول : مجالدنا عن ديننا ؟ فقال كعب : نعم ؛ فقال رسول الله ﷺ : فهو أحسن ؛ فقال كعب : مجالدنا عن ديننا [1] .

وهذا مثال على اهتمام النبي ﷺ بتربية أصحابه على الانتماء الديني بدلا من الانتماء القبلي ، فالدفاع ليس هو عن القبيلة أو الوطن وإنما هو عن الدين ، ويكون الدفاع عن القبيلة والوطن تبعا لم يقصد لذاته .

وفي هذا مثل من لطف النبي ﷺ وسُمُوِّ تعبيره في النقد حيث عرض ما يريد عرضا ولم يأمر به أمراً .

٢- وقال كعب بن مالك أيضًا :

أَبْلـغ قُـريشًا عـلى نأيها	أتفخـر منـا بما لـم تَلي
فَخَـرتم بقَتلى أصابتـهـمُ	فواضلُ من نعـم المُفضل
فَحَـلُّوا جنانًا وأبـقوا لكـم	أُسُودًا تحامي عن الأشْبل
تقَاتل عن دينها ، وَسطَـها	نَبيٌّ عن الحـقّ لـم ينكل
رَمتْـهُ مَعَـدٌّ بعُـور الكـلام	ونَبْل العـداوة لاتـأتلي [2] [3]

في هذه القصيدة يوبخ كعب بن مالك الكفار من قريش على افتخارهم بنتائج معركة أحد ، ويبين لهم أنهم لم يحصلوا على النصر الحقيقي ، وإنما هي فرصة من تقصير بعض المسلمين انتهزوها ، ثم أوقفوا

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ١١٠ - ١١٤ .

(٢) عور الكلام قبيحة ومستهجنه ، ولاتأتلى : يعني لاتقصّر .

(٣) سيرة ابن هشام ٣/ ١٤٩ .

المعركة ورجعوا على أعقابهم حتى لايهزموا ويضيع منهم ذلك النصر المتوهَّم .

ويبين لهم أن قتل من يُقتل من المسلمين ليس مما يفتخر به الأعداء ، لأن الشهادة نعمة يتفضل بها الله سبحانه على الشهداء ، وأن من بقي من المسلمين لم يحزنوا عليهم لأن كل واحد من الباقين يتمنى أن يكون قد نال الشهادة ، وإنما الذي يحق له الفخر هم المسلمون إذا قتلوا من أعدائهم لأنهم يكونون قد أصابوهم بفاجعة عُظمى يظل الكفار في أساها وحزنها دهراً طويلاً .

ثم يبين أنهم إن قَتلوا عدداً من المسلمين فإنهم قد أبقوا أسوداً لا يُرام جنابُها ، تقاتل عن دينها وأبنائها بقيادة نبي عظيم ثابت على الحق ﷺ لم يتخلف عن أداء الواجب .

٣ - قال حسان بن ثابت رضي الله عنه بعد أبيات له :

تلك أفعالنا وفعل الزِّبَعْرَى(١)

خاملٌ في صديقه مذمُوم

ربَّ حلْمٍ أضاعه عدَمَ الما

ل ، وجَهْلٍ غَطَّى عليه النعيم

---

(١) هو عبد الله بن الزِّبَعْرَى أحد شعراء المشركين في مكة ، وله قصائد في هجاء المسلمين والافتخار بقومه .

لاتسبَّنَّني فلست بسِبِّي[1]

إنّ سبِّي من الرّجال الكريم

ما أُبالي أنَبَّ بالحزْنِ تَيْسٌ

أم لحاني بظهر غيب لئيم[2]

ولِيَ البأسَ منكم إذْ رحلتم

أسرةٌ من بني قصيّ صميم

تسْعة تَحْمل اللواء وطارت

في رعاع من القَنا مَخْزوم[3]

وأقامُوا حتى أبيحوا جميعًا

في مقام ، وكلهم مذموم[4]

بدم عاتك ، وكان حفاظًا

أن يُقيموا ، إن الكريم كريم[5]

وأقامُوا حتى أزِيروا شَعُوبًا

والقَنا في نُحورهم مَحْطوم[6]

---

(١) أي لست أهلا لأن تكون ندًا لي في الهجاء .

(٢) نبَّ أي صوَّت والحَزْن المرتفع ، ولحاني أي هجاني .

(٣) يعرِّض بكفار مكة إذ لم يحموا لواءهم حيث قتل سبعة منهم ثم آل أمره إلى مولى لهم ثم إلى امرأة ، كما يعرض بقبيلة مخزوم ويصفهم بالجبن والضعف حيث فروا ولم يواجهوا الرماح .

(٤) أبيحوا أي استؤصلوا .

(٥) دم عاتك : أي شديد الحمرة ، والحفاظ : الحمية .

(٦) شعوب اسم من أسماء الموت .

وقُريش تفرّ منا لواذًا

أن يُقيموا وخَفَّ منها الحلوم

لم تُطِقْ حمله العواتق منهم

إنما يَحمل اللواء النجوم[1][2]

٤ – وقال حسان بن ثابت أيضًا :

سُقتم كنانة جهلا من سفاهتكم

إلى الرسول فجند الله مخزيها[3]

أوردتموها حياض الموت ضاحية

فالنار مَوعدها ، والقتل لاقيها[4]

جمَّعتموها أحابيشًا بلا حَسَب

أئمة الكفْر غَرَّتكم طواغيها[5]

---

(١) العواتق النساء ، يعرِّض بالمشركين حيث تركوا لواءهم لامرأة تحمله وفروا عنه ، والنجوم السادة الأشراف .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ١٣٣ .

(٣) سقتم كنانة : يخاطب كنانة ويريد بذلك قبيلة قريش .

(٤) ضاحية : أي بارزة للشمس .

(٥) الأحابيش الأخلاط من قبائل شتى ، والطواغي جمع طاغي وهو العاتي المتجبر .

ألا اعـتـبـرتم بخـيْل الله إذ قَـتَلَت
أهلَ القَليب وَمَن أَلْقَـينه فـيـهـا [1]
كم مـن أسـيـر فكَكْناهُ بلاثَمَن
وَجَـزٍّ ناصـيـة كنا مَـوَاليـهـا [2][3]

في هذه القـصـيدة يشيد حسان بن ثابت رضي الله عنه بشجاعة المسلمين ، حيث استطاعوا أن يقتلوا حملة لواء المشركين ، ويُوبِّخ المشركين ويصفهم بالجبن حينما لم يستطيعوا حماية لوائهم حتى كان في النهاية بيد امرأة منهم ، وولَّى أشرافهم وتركوه ، وفي هذا الهجاء تذكير للمشركين بمواقف الذل والجبن التي تعرضوا لها في بداية المعركة حتى لايغتروا بما حصلَ في نهايتها من إصابة المسلمين .

ولقد أصاب حسان من المشركين مقتلا حينما عيرهم بالتخلي عن اللواء وإقدام امرأة منهم على حمله ، وهذا يتضمن وصفهم بالجبن الشديد حيث أقدمت امرأة على ما نكلوا عنه .

* * *

تم بحمد الله هـذا الجـزء ويليه الجـزء السادس

وأوله مواقف وعبر بين أحد والخندق

---

(١) خيل الله : أراد جند الله ، وأهل القليب هم القتلى من زعماء المشركين يوم بدر الذين ألقاهم المسلمون في إحدى الآبار .

(٢) جَزٌّ شعر الناصية يفعله العرب إذا اطلقوا أسراهم تكرما منهم عليهم .

(٣) سيرة ابن هشام ٣/ ١٠٩ .

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

السيرة النبوية

٦

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢
الترقيم الدولى
977 - 253 - 151 - 8

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
١ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية
ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥
مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع
حى السلامة - شارع عبد الرحمن السديرى - مركز الزومان التجارى
ص.ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف / فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩
المملكة العربية السعودية

التاريخ الإسلامي

مواقف وعبر

السيرة النبوية

الجزء السادس

تأليف

دكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مواقف وعبر
بين أُحد والخندق

١- مواقف للصحابة بعد أحد في الرد على المنافقين واليهود -

قال الواقدي في سياق رواية له : ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة عند نكْبَة قد أصابت أصحابه ، وأُصيب رسول الله ﷺ في نفسه . فجعل ابن أُبَيّ والمنافقون معه يَشمَتون ويُسَرُّون بما أصابهم ويُظهرون أقبح القول . ورجع من رجع من أصحابه وعامّتهم جريحٌ ، ورجع عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ وهو جريح ، فبات يكوي الجراحة بالنار حتى ذهب الليل ، وجعل أبوه يقول : ما كا ن خروجك معه إلى هذا الوجه بر أي! عصاني محمّد و أطاع الولدان ، والله لكأني كنت أنظر إلى هذا . فقال ابنه : الذي صنع الله لرسوله وللمسلمين خيرٌ .

وأظهرت اليهود القولَ السَّيِّئ فقالوا : ما محمّد إلا طالبُ مُلْك ، ما أُصيب هكذا نبيٌّ قطُّ ، أُصيب في بدنه وأُصيب في أصحابه ! وجعل المنافقون يُخذّلون عن رسول الله ﷺ أصحابه ويأمرونهم بالتفرّق عن رسول الله ﷺ ، وجعل المنافقون يقولون لأصحاب رسول الله ﷺ : لو كان مَن قُتل منكم عندنا ما قُتل . حتى سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك في أماكن ، فمشى إلى رسول الله ﷺ ليستأذنه في قتل من سمع ذلك من اليهود والمنافقين . فقال رسول الله ﷺ ، ياعمر . إن الله مُظهر دينه ومُعزّ نبيّه ، ولليهود ذمَّةٌ فلا أقتلُهم . قال : فهؤلاء المنافقون يارسول الله ! فقال رسول الله ﷺ : أليس يُظهرون شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟ قال : بلى يارسول الله ، وإنما يفعلون ذلك تعوّذاً من السيف ، فقد بان لهم أمرهم وأبدى الله أضغانهم عند هذه النَّكبَة . فقال رسول الله ﷺ : نُهيتُ عن قتل من قال لا إله إلا الله وأنَّ محمداً

رسول الله . يا ابن الخطاب . إنَّ قُرَيشًا لن ينالوا منَّا مثل هذا اليوم حتى نستلم الرُّكْن [1] .

في هذا الخبر أمثلة مما صدر من المنافقين واليهود من الشماتة بالمسلمين في مصابهم بأحد ، فقد أظهر عبد الله بن أُبيٍّ ابن سلول نفاقه في تحسير المسلمين وتوهين رأيهم حينما خرجوا لقتال عدوهم والتَّبَجُّح بترديد رأيه الذي أبداه قبل المعركة حيث أشار بعدم الخروج ، ولكن ابنه عبد الله رضي الله عنه رد عليه رد المؤمن التقي الذي يكل الأمور كلها إلى الله تعالى حيث أبان لأبيه أن ما أصاب المسلمين إنما هو بقضاء الله تعالى وقدره ، والمؤمن الحق يرضى بقضاء الله تعالى وقدره ويصبر على بلائه ، وبذلك أسكت أباه الذي لايستطيع أن يحاوره في هذا المنهج الذي لايتصوره على الحقيقة لأنه لايؤمن به بقلبه ولايستطيع أن يظهر كفره بذلك لأنه قد ارتضى النفاق منهجًا له في الحياة .

ونجد في هذا الخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسوؤه ما يسمع من المنافقين واليهود من نفَثَات الحقد والضغينة وعبارات التَّشفِّي من المؤمنين فيمشي إلى رسول الله ﷺ يستأذنه في قتل من سمع منهم ذلك الكلام السيء ، ولكن النبي ﷺ يبين له أن الله تعالى مظهر دينه ومعزٌّ نبيه ولو كره ذلك اليهود والمنافقون وأظهروا عداءهم بالحرب النفسية التي يتقنها الجبناء عادة ويرون فيها عزاء لأنفسهم المريضة من تخلفهم عن الجهاد الذي يعشقه الرجال الأبطال .

كما أبان له أن لليهود ذمة وأنه لايجوز نقض العهد إلا إذا بدر منهم

---

(١) مغازي الواقدي ١/ ٣١٧ - ٣١٨ .

العداء الحربي ، وأن المنافقين قد أظهروا الإسلام وأن الله تعالى نهاه عن قتل من نطق بالشهادتين .

ونظراً لكون المؤمنين الصادقين - ومنهم عمر - يَحُزُّ في نفوسهم أن يروا الكفار من اليهود والمنافقين يسرحون ويمرحون في المدينة ويأخذون حريتهم في الكلام الذي يسوء المؤمنين ، مع ما أصابهم به أعداؤهم من كفار مكة فإن النبي ﷺ بشَّر عمر ببشرى تَطْمئن لها قلوب المؤمنين حيث أفاده بأن كفار مكة لن ينالوا من المسلمين مثل ما نالوا ذلك اليوم ، وأن الله تعالى سيفتح لهم مكة وستنتهي دولة الكفار فيها ، فكأن النبي ﷺ أراد أن يقول لعمر أبشر فإن المنافقين واليهود لن يفرحوا علينا ولن يشمتوا بنا بعد اليوم لأننا لن نصاب بمثل ما أُصبنا به في أحد .

وهكذا يضع رسول الله الأمور مواضعها فلا يستجيب لطلب عمر لَمَا يترتب عليه من نتائج سيئة على المسلمين في المستقبل ، ولكنه في نفس الوقت لايتركه في تأجج نفسي واضطراب فكري ، بل يُعزِّيه ويواسيه- هو وأصحابه - بما يرفع من نفوسهم شبح تكرر المأساة وتكرر شماتة الأعداء ، وكونها إصابة واحدة وتنتهي وينتهي معها تشفِّي الأعداء يُسلِّي النفوس ويقوي فيها الصبر والتهوين من شأن الأعداء في حروبهم القتالية والنفسية .

* * *

٢- مواقف الرسول ﷺ وأصحابه في غزوة حمراء الأسد -

قال ابن إسحاق : وكان يوم أُحد يوم السّبت للنِّصف من شوال قال : فلما كان الغد من يوم الأحد لستَّ عشرة ليلة مضت من شوّال أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدوّ ، فأذَّنَ مؤذّنه أن لايخرجنَّ معنا أحدٌ إلا أحدٌ حضرَ يومنا بالأمس .

فكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حَرَام ، فقال يارسول الله ، إنّ أبي كان خَلّفني على أخوات لي سبْع ، وقال : يابُنيّ ، إنه لاينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النِّسوة لا رَجل فيهنّ ، ولستُ بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي فتخلَّف على أخواتك فتخلفتُ عليهن فأذن له رسول الله ﷺ فخَرَج معه .

وإنما خرج رسولُ الله ﷺ مُرْهبًا للعدوّ ، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ، ليظنوا به قوة ، وأن الذي أصابهم لم يُوهنْهم عن عدوهم .

قال ابن إسحاق : فحدثني عبدُ الله بن خارجة بن زيد بن ثابت ، عن أبي السائب مولى عائشة بنت عثمان : أن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ ، من بني عبد الأشهل ، كان شهد أُحداً مع رسول الله ﷺ ، قال : شهدتُ أحداً مع رسول الله ﷺ ، أنا وأخ لي ، فرَجعنا جَريحين ، فلما أذَّن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدوّ ، قلت لأخي أو قال لي : أتفوتُنا غَزوةٌ مع رسول الله ﷺ ؟ والله مالنا من دابة نركبها ، وما منَّا إلا جَريح ثَقيل ، فخرجنا مع رسول الله ﷺ ، وكنت أيسَر جُرحًا

منه ، فكان إذا غُلب حملته عُقبة ، ومشى عُقبةً ، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون .

قال ابن إسحاق : فخرج رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى حَمراء الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميال (١) ، فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء ثم رجع إلى المدينة .

قال : وقد مَرّ به - كما حدثني عبد الله بن أبي بكر - معبدُ بن أبي مَعْبد الخزاعي ، وكانت خُزاعة مُسلمهم ومُشركهم عَيْبةَ(٢) نُصح لرسول الله ﷺ ، بتهامة ، صفقتهم معه ، لايخفون عنه شيئًا كان بها ، ومَعبد يومئذ مُشرك ، فقال : يامحمد ، أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك في أصحابك ولوددنا أن الله عافاك فيهم .

ثم خرج ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالرَّوْحاء ، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، وقالوا : أصبنا حَدّ أصحابه وأشرافهم وقادتهم ، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم لَنَكُرَّن على بقيتهم ، فلنفرغن منهم . فلما رأى أبو سفيان معبدًا ، قال ما وراءك يامعبد ؟ قال : محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قطُّ ، يتحرقون عليكم تحرُّقًا ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على ما صنعوا ، فيهم من الحَنق عليكم شيء لم أر مثله قط .

قال : ويحك ! ما تقول ؟ قال : والله ما أرى أن ترْتحل حتى ترى

---

(١) قال ابن هشام : واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .

(٢) عيبة الرجل موضع سره .

نواصي الخَيْل ، قال : فو الله لقد أجمعنا الكرَّة عليهم ، لنستأصل بقيتهم ، قال : فإني أنهاك عن ذلك ، قال : والله لقد حَملني ما رأيتُ على أن قلتُ فيهم أبياتاً من شعر ، قال : وماقلت ؟ قال : قلت :

كادت تُهدُّ من الأصوات راحلتي إذ سالت الأرضُ بالجرد الأبابيل[1]

تردى بأسد كرام لا تنابلة عند اللقاء ولا ميل مَعازيل[2]

فظلتُ عَدْواً أظنّ الأرض مائلة لَمَّا سَمَوا برئيس غير مخذول[3]

فقلتُ : ويل ابن حَرْب من لقائكم إذا تَغَطمطت[4] البطحاء بالجيل

إني نذير لأهل البَسْل صاحيةً لكل ذي إربة منهم ومعقول[5]

من جيش أحمد لا وَخْش[6] تنابلة وليس يُوصَفُ ما أنذرتُ بالقيل

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه .

ومر به ركبٌ من عبد القيس ، فقال : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة ؟ قال : ولمَ ؟ قالوا : نُريد الميرة[7] ، قال : فهل أنتم مُبْلغون عني

(١) تهد يعني تخر وتسقط والجرد جمع أجرد وهو السبَّاق من الخيل والأبابيل يعني الجماعات .

(٢) تردى أي تجرى وترجم الأرض بحوافرها والتنابل جمع تنبل وهو البليد الكسلان والميل جمع أميل وهو الجبان والمعازيل جمع معزال وهو الضعيف الأحمق .

(٣) يعني فظللت أسرع الهروب من وجه هذا الجيش الذي كادت تميد الأرض من كثرته لما علوا برئيس موفق مظفر يعني به النبي صلى الله عليه وسلم .

(٤) أي اضطربت .

(٥) النذير من يعلم بشيء مخوف وأهل البَسْل يعني أهل الحرم وهم قريش والإربة الدهاء والحيلة .

(٦) الوخش رذال الناس وأسقاطهم ويستعمل مع المفرد والجمع بلفظ واحد .

(٧) الميرة الطعام الذي يدخره الإنسان ، وهذه التوضيحات عن هامش السيرة .

محمداً رسالة أرْسلكم بها إليه ، وأُحمِّل لكم هذه غداً زبيبا بعكاظ إذا وافيتُموها ؟ قالوا : نعم ، قال : فإذا وافيتُموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم ، فمر الركبُ برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأصحابه ، فقال : حسبنا الله ونعم الوكيل(١) .

في هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أوّلاً : اهتمام النبي ﷺ بالخروج لملاحقة العدو بعد المعركة بيوم واحد مع مابه وبأصحابه من جراح بليغة يدل على بُعْد نظر وحكمة في وضع الخطط الحربية وإدراك عميق لأثر الحرب النفسية ، فإن الهدف من خروجه إرهاب أعدائه من أهل مكة وجميع الأعداء المحيطين بالمدينة مَنْ قرُب أو بَعُد ، وذلك لأن إصابة المسلمين في معركة أحد قد حطّت من سمعتهم الحربية لدى قريش والقبائل الأخرى ، وتعالت احتمالات الطمع بغزو المدينة ، فأراد النبي ﷺ أن يظهر للأعداء جميعا أن إصابة أحُد لم تكن نتيجة ضعف في المسلمين ولاتخاذل وإنما هي نتيجة خطأ حربي ارتكبه بعض الجنود ، وقد عاد جنود الإسلام بقيادة نبيهم ﷺ إلى ملاحقة الجيش الذي أصابهم على ضخامته فكيف الحال بجيوش القبائل الصغيرة لو فكرت بغزو المدينة ؟ ! .

ولقد حدث ما فكّر به النبي ﷺ وخطّط لتفاديه ، حيث إن جيش

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٥٩ - ٦٣ .

وأخرج خبر هذه الغزوة مختصرا الإمام البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها - صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٠٧٧ (الفتح ٧/ ٣٧٣) .

قريش قد ندموا على اكتفائهم بإصابة المسلمين وعدم قيامهم باستئصالهم ففكروا بالعودة إلى المدينة واستئناف الحرب مرة أخرى كما جاء في هذه الروايات لولا ما بلغهم من خروج النبي ﷺ بجيشه إلى حمراء الأسد لملاحقتهم فعلموا بذلك أن قوة المسلمين ماتزال حية وأن الجراح لم تكن عائقا لهم عن الخروج .

إن أي فكر بشري يتصور موقف المسلمين آنذاك وقد أحاط بهم الأعداء من الداخل والخارج سيصيبه الهلع والرعب والخوف على مستقبل هذه الفئة المؤمنة ، ولن يستطيع أي فرد مهما كان في قوته ودهائه أن يتحمل مسئولية تلك الفئة المحاربة من كل جانب، أما الرسول ﷺ فإنه لم يَهُنْ في مواجهة تلك الظروف القاهرة ، ولم تَلنْ له قناة أمامها ، لأنه مؤيد بنصر الله وقد وعده الله إتمام هذا الأمر مهما تكالب عليه الأعداء ، ولن يخلف الله وعده ، والرسول ﷺ على ثقة من أن الله تعالى سينجز له ما وعد ، فلم يضعف أمام تلك الظروف القاسية بل واجهها جميعا بقوة وحزم حيث قام بإرهاب أعدائه جميعا من أهل المدينة ومن حولها والبعيدين منها حينما مضى يتعقب جيش الكفار حتى بلغ حمراء الأسد.

وقد قامت هذه الحملة بدورها المؤثر في إرهاب أعداء الإسلام من أهل المدينة ومن حولها حيث عرفوا أنه ليس من السهل القضاء على المؤمنين ولاتفريقهم عن رسول الله ﷺ وقد استجابوا لدعوته إلى الجهاد مع ما بهم من الجراح المؤلمة .

أما أثر هذه الحملة على كفار قريش فقد ظهر في تصرفات أبي سفيان قائد جيشهم حيث استأجر جماعة ليخذِّلوا رسول الله ﷺ عنه لما علم بخروجه كما جاء في هذا الخبر .

ثانيًا : في هذا الخبر مثل من حرص الصحابة رضي الله عنهم على الجهاد وسعيهم الجاد في تذليل الصعوبات التي تعوقهم عن الخروج ، فمن ذلك خبر الأنصاري الأشهلي وأخيه اللذين خرجا مع شدة ما أصابهما من الجراح حتى كان أحدهما وهو جريح يحمل أخاه الذي كان أشد مصابا منه ولم يعتبر تلك الجراح مسوغا للقعود ، وعلى شاكلتهما كثير من الصحابة ، وقد أثنى الله سبحانه عليهم بذلك بقوله ﴿ **الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ [آل عمران : ١٧٢]

ثالثًا : ما جرى من معبد الخزاعي من تخذيل المشركين عن رسول الله ﷺ فيه عبرة عظيمة ، فقد قيَّظه الله تعالى ليقوم بدور مهم في نصر المسلمين حيث ضخَّم جيشهم في عين أبي سفيان وصدَّه عن العودة إلى المدينة بأسلوب قوي مؤثر ، ولقد صدقه أبو سفيان لكونه مايزال مشركًا .

وهكذا ينصر الله تعالى أولياءه بجنود كثيرة منها المعتدلون من الكفار الذين كانوا معجبين بسلوك المسلمين في السلم والحرب .

والحقيقة أن أبا سفيان وقومه كانوا مترددين في أمر العودة إلى المدينة ، يدفعهم حب القضاء على الإسلام وأهله ، ويَرْدَعُهم خشية الوقوع في الهزيمة والأسر على يد المسلمين ، خصوصًا وأنهم يدركون بأن ما أصاب المسلمين لم يكن عن ضعف ولاجُبْن وإنما هو بسبب خطأ ارتكبه بعض جنود الإسلام ، وهم يعلمون جيدا أن الأخطاء لا تتكرر غالبًا خاصة من المسلمين الذين جربوا تفوقهم في التخطيط الحربي وفي القتال في بدر وفي أول النهار يوم أحد ، ولذلك ما أن حذرهم معبد

الخزاعي من جيش المسلمين حتى غلّبوا جانب السلامة والحفاظ على النصر الذي توهموه .

رابعًا : حينما مرَّ ركب من عبد القيس بأبي سفيان وقومه استأجرهم أبو سفيان ليُخذّلوا المسلمين ويرهبوهم ، فمر الركب برسول الله ﷺ والمسلمين وهم بحمراء الأسد فأبلغوهم رسالة أبي سفيان وأصحابه فما كان جواب رسول الله ﷺ إلا أن قال : حسبنا الله ونعم الوكيل .

وهذا الجواب يدل على صدق التوكل وعمق اليقين ورسوخ الإيمان ، وقد عبر النبي ﷺ بهذا الجواب عن شعور الصحابة رضي الله عنهم الذين لم يخرجوا وهم على تلك الحال إلا ثقة بالله تعالى وتوكلا عليه ، وقد أثنى الله تعالى على رسوله ﷺ والمؤمنين في هذا الموقف بقوله ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

* * *

٣ – مثل من نفاق ابن أُبَيّ ومواقف لبعض الأنصار –

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه : قالوا : فكان لعبد الله بن أبَيّ مقام يقومه كلّ جمعة شرفًا له لايُريد تركه . فلما رجع رسول الله ﷺ من أُحُد إلى المدينة جلس على المنبر يوم جمعة ، فقام ابن أُبي فقال : هذا رسول الله ﷺ بين أظهُركم ، قد أكرمكم الله به ، انصروه وأطيعوه . فلما صنع بأُحُد ما صنع قام ليفعل ذلك . فقام إليه المسلمون فقالوا : اجلس ياعدوّ الله ! وقام إليه أبو أيوب وعُبادة بن الصامت ، وكان أشد من كان عليه ممّن حضر ، ولم يقم إليه أحدٌ من المهاجرين . فجعل أبو أيوب يأخذ بلحيته ، وعُبادة بن الصامت يدفع في رقبته ، ويقولان له : لست لهذا المقام بأهل ! فخرج بعد ما أرسلاه ، وهو يتخطى رقاب الناس وهو يقول : كأنما قلت هُجْرًا[١] ، قمت لأشدّ أمره ! فلقيه مُعَوِّذ بن عَفراء فقال : مالك ؟ قال : قمت ذلك المقام آلذي كنت أقوم أولاً ، فقام إليّ رجالٌ من قومي ، فكان أشدهم علي عُبادة ، وخالد بن زيد . فقال له : ارجع فيستغفر لك رسول الله . فقال : والله ما أبغي يستغفر لي . فنزلت هذه الآية﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ** .. ﴾[٢] الآية . قال : ولكأني أنظر إلى ابنه جالسٌ في الناس ، مايشدّ الطَّرْف إليه ، فجعل يقول : أخرجني محمد من مربَد سَهل وسُهَيل[٣] .

---

(١) أي قبيحا من الكلام .

(٢) تكملتها ﴿ لَوَّوا رؤوسهم ورأيتهم يَصُدُّون وهم مستكبرون ﴾ – المنافقون / ٥– وهذه السورة نزلت بعد ذلك عقب غزوة بني المصطلق كما سيأتي ، فيحتمل تكرر نزول الآية .

(٣) مغازي الواقدي ١/ ٣١٨ – ٣١٩ .

وأخرجه ابن إسحاق من حديث الإمام الزهري وذكره نحوه – سيرة ابن هشام١/ ٦٤–٦٥– والمربد هو المكان الذي يجفف فيه التمر .

في هذا الخبر صورة من صور النفاق التي كان عبد الله بن أبَيّ وجماعته من المنافقين يجيدونها ويتظاهرون بها .

وقد كانوا جميعًا يؤدون تكاليف الإسلام الظاهرة كالصلاة ويحرصون على أدائها في المسجد أحيانا ليراهم المؤمنون ، ولقد كان هذا الأمر محتملا منهم لأن تلك الأمور واجبات ظاهرة لابد أن يؤدوها وإلا اتهموا في دينهم ، أما أن يتحولوا من مرحلة الالتزام الشخصي إلى مرحلة الدعوة إلى الإسلام فهذا ما أنكره بشدة على ابن أبَيّ جماعته من الأنصار وقد حصل منه ما حصل يوم أحد .

ولقد كان موقفا مشكورا من أبي أيوب خالد بن زيد وعبادة بن الصامت الأنصاريين ومن كان معهما من الأنصار حيث أسكتوا ابن أبي وجروه وأخرجوه من المسجد بقوة ، وأبانوا له بأنه ليس بأهل أن يصل إلى مرتبة الدعاة وقد جرى منه ما جرى .

وهذا يدل على براءة الأنصار رضي الله عنهم من الولاء لأعداء الإسلام وإن كانوا من قبائلهم وهذا من كمال إيمانهم ورسوخ يقينهم رضي الله عنهم .

ونجد في نهاية الخبر مثلا من حقد المنافقين على الإسلام ومشاعره العظيمة حيث يقول ابن أُبيّ « أخرجني محمد من مربد سهل وسهيل» ولم يقل من المسجد لأنه لايعترف بالمسجد ويتمنى زواله ليعود مكانه مربدا كما كان .

* * *

٤ – مواقف في سرية أبي سلمة إلى بني أسد –

قال الواقدي فيما يروي عن شيوخه بعد أن ذكر خبر إصابة أبي سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه بجرح في أحد : فلما كان هلال المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً من الهجرة ، دعاه رسول الله ﷺ فقال : اخرج في هذه السَّرية فقد استعملتك عليها . وعقد له لواءً وقال : سرْ حتى تَرد أرض بني أسد ، فأغرْ عليهم قبل أن تلاقَى عليك جُموعهم . وأوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ، فخرج معه في تلك السرية خمسون ومائة .

وقد ذكر أسماء بعض البارزين منهم إلى أن قال : والذي هاجه أنَّ رجلاً من طَيّئ قدم المدينة يُريد امرأة ذات رحم به من طيء متزوجةً رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ [١] ، فنزل على صهره الذي هو من أصحاب رسول الله فأخبره أن طُليحة وسَلَمَة ابني خُوَيلد تركهما قد سارا في قومهما ومن أطاعهما بدَعْوَتهما إلى حرب رسول الله ﷺ يُريدون أن يدنوا للمدينة ، وقالوا : نسير إلى محمد في عُقْر داره ، ونصيب من أطرافه ، فإنَّ لهم سرْحًا يرعى جوانب المدينة ، ونخرج على متون الخيل ، فقد أربعنا [٢] خيلنا ، ونخرج على النجائب المخبورة [٣]، فإن

(١) جاء في رواية أخرى للواقدي أن اسم الرجل الطائي الوليد بن زهير بن طريف وأن صهره الصحابي هو طليب بن عمير ، وطليب هو بن عمير بن وهب بن عبد بن قصي القرشي –أسد الغابة ٣/ ٦٥ – .

وذكر خبر هذه السرية الحافظ الذهبي والحافظ ابن كثير من طريق الواقدي – تاريخ الإسلام/ المغازي/ ٢٢٩ ، البداية والنهاية ٤/ ٦٣ – ٦٤– .

(٢) أي رعيناها في الربيع حتى قويت .

(٣) أي على الإبل التي خبرنا جودتها وسرعتها .

أصبنا نهبًا لم نُدرك ، وإن لاقينا جمعهم كنا قد أخذنا للحرب عُدتها ، معنا خيلٌ ولاخيل معهم ، ومعنا نجائبُ أمثال الخيل ، والقوم منكوبون قد أوقعت بهم قُريش حديثًا ، فهم لايستبلّون دهرًا ، ولايثوب لهم جمعٌ .

فقام فيهم رجلٌ منهم يقال له قيس بن الحارث بن عُمير ، فقال : ياقوم ، والله ما هذا برأي ! مالنا قبَلَهم وَتْرٌ وماهم نُهبةٌ لُمنتهب ، إنَّ دارنا لبعيدة من يثرب وما لنا جمعٌ كجمع قُريش . مكثت قُريش دهرًا تسير في العرب تستنصرها ولهم وترٌ يطلبونه ، ثم ساروا وقد امتطوا الإبل وقادوا الخيل وحملوا السلاح مع العدد الكثير - ثلاثة آلاف مُقاتل سوى أتباعهم- وإنما جُهدكم أن تخرجوا في ثلاثمائة رجل إن كَمُلوا ، فتُغرِّرون بأنفسكم وتخرجون من بلدكم ، ولا آمن أن تكون الدائرة عليكم . فكاد ذلك أن يُشككهم في المسير ، وهم على ماهم عليه بعدُ .

فخرج به الرجل الذي من أصحاب رسول الله ﷺ إلى النبي ﷺ فأخبره ما أخبر الرجل ، فبعث رسول الله ﷺ أبا سَلَمة ، فخرج في أصحابه وخرج معه الطائيّ دليلاً فأغذّوا (1) السير ، ونكّب بهم عن سَنَن الطريق ، وعارض الطريق وسار بهم ليلاً ونهارًا ، فسبقوا الأخبار وانتهوا إلى أدنى قَطَن - ماء من مياه بني أسَد ، هو الذي كان عليه جمعهم- فيجدون سَرْحًا فأغاروا على سَرْحهم فضمّوه ، وأخذوا رعاءً لهم مماليك ثلاثة . وأفلت سائرهم فجاءُوا جمعهم فخبروهم الخبر وحذروهم جمع أبي سلمة . وكثروه عندهم فتفرق الجمع في كل وجه . وورد أبو سَلَمَة الماء فيجد الجمع قد تفرق ، فعسكر وفرق أصحابه في

(1) أي أسرعوا .

طلب النَّعَم والشاء . فجعلهم ثلاث فرق - فرقةٌ أقامت معه . وفرقتان أغارتا في ناحيتين شتى . وأوعز إليهما ألاَّ يمعنوا في طلب وألاَّ يبيتوا إلاَّ عنده إن سَلموا ، وأمرهم ألا يفترقوا ، واستعمل على كل فرقة عاملاً منهم . فآبوا إليه جميعًا سالمين ، قد أصابوا إبلاً وشاءً ولم يَلقوا أحدًا، فانحدر أبو سَلَمة بذلك كله إلى المدينة راجعًا ، ورجع معه الطائي ، فلما ساروا ليلة قال أبو سلمة : اقتسموا غنائمكم . فأعطى أبو سَلَمَة الطائي الدَّليل رضاه من المَغْنَم ، ثم أخرج صَفيًا لرسول الله ﷺ عبدًا ، ثم أخرج الخمس ، ثم قسم ما بقي بين أصحابه فعرفوا سُهمانهم ، ثم أقبلوا بالنَّعَم والشاء يسوقونها حتى دخلوا المدينة (١) .

في هذا الخبر مواقف وعبر فمن ذلك :

أولاً : مجيء ذلك الرجل الطائي زهير بن طريف وإخباره طليب بن عمير رضي الله عنه بخبر بني أسد فيه عبرة ، حيث قدر الله قدومه إلى المدينة في الوقت المناسب ونزوله على ذلك الصحابي وإخباره بالخبر وهذا من تسخير الله تعالى لأوليائه المؤمنين .

ثانيًا : موقف لذلك الصحابي طليب بن عمير رضي الله عنه حيث أسرع بإخبار النبي ﷺ بخبر بني أسد ، وهذا دليل على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعيشون مع قضايا أمتهم ويبذلون جهدهم في حل تلك القضايا ، وهذا من الوعي الفكري عند الصحابة رضي الله عنهم في واقعهم وواقع اعدائهم .

ثالثًا : اهتمام النبي ﷺ بإرسال تلك السرية إلى بني أسد ليباغتهم

---

(١) مغازي الواقدي ١/ ٣٤١ - ٣٤٣ .

قبل أن يجتمعوا ويكون لهم جيش كبير وهذا يدل على الدقة في التخطيط الحربي ، وقد حصل ما أراده النبي حيث أدركهم أبو سلمة قبل أن يجتمعوا فذُهلوا من وصول المسلمين إليهم وهم يظنون أن وقعة أحد قد قضت عليهم فأصيبوا بالرعب من المسلمين وعدلوا عن عزمهم على غزو المدينة .

وبنو أسد لم يستفيدوا من درس غزوة حمراء الأسد التي أراد بها الرسول ﷺ إرهاب أعدائه جميعًا وإظهار المسلمين بمظهر القوة ، فجاءت هذه السرية لتُلَقِّن بني أسد درسًا لن ينسوه ، أما بقية الأعداء وعلى رأسهم أهل مكة فإنهم قد وعوا الدرس جيداً فلم يتجرؤوا على غزو المدينة .

رابعًا : خروج هذه السرية إلى أرض بعيدة من المدينة وإقدام أصحابها على غزو قوم في بلادهم يعتبر نوعا من الفدائية ، وقد ضمَّت عددًا من وجوه المسلمين من المهاجرين والأنصار الذين اشتهروا بالشجاعة والإقدام ، وإذا تذكرنا أن بلاد بني أسد مجاورة لقبيلة غطفان الكبيرة القوية فإن مجرد الإقدام على غزو تلك القبيلة في عقر دارها يعتبر مغامرة جريئة .

إن الذي يشارك في مثل هذا الخروج لايؤمِّل في أن يعود سالما غانما وإنما الذي يغلب على ظنه أن يظفر بالشهادة ، ولهذا الهدف النبيل كان الصحابة رضي الله عنهم يسارعون في الخروج إلى الجهاد ويُغلِّبون جانب الدخول في مواطن الهلاك والخطر ، كما مر علينا في تحمسهم للخروج إلى الأعداء يوم أحد ، ولهذا فإن الناظر في هذه السرية الذي

يريد أن يقدر مواقف أصحابها لاينبغي له أن ينظر إلى نهايتها ونتائجها ، وإنما ينبغي له أن ينظر إلى ا حتمال أن يكون بنو أسد قد علموا بالمسلمين منذ خروجهم من المدينة فسارعوا في جمع الجموع لهم بالمستوى الذي كانوا يريدون به غزو المدينة ، ثم يقدر جسامة الموقف وعظم الخطر على المسلمين الذين سيواجهون - وهم مشاة - أضعافهم من الأعداء الذين يملكون الخيل ، فعند ذلك تظهر للمتأمل عظمة المسلمين وبطولتهم الخارقة .

خامسًا : في هذا الخبر مثل من تفوق المسلمين في الرصد الحربي والدقة في التوقيت حيث استطاع أصحاب هذه السرية أن يصلوا إلى الأعداء قبل أن يعلموا عنهم أي شيء رغم بُعْد المسافة ، ولقد كان هذا هو أهم عوامل نجاح المسلمين في هذه السرية .

إن مجرد شعور الأعداء بمقدرة المسلمين على الاستخفاء والقيام بالحروب الخاطفة المفاجئة تجعلهم يمتلئون رعبا منهم ويتوقعون منهم الإغارة في أي وقت ، وهذا الشعور يحملهم على الاعتراف بقوة المسلمين ومسالمتهم .

* * *

٥ - سياسة حازمة وفدائية نادره -

(خبر ابن أُنَيْس مع خالد الهذلي)

أخرج الإمام أحمد من طريق ابن إسحاق قال : حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن ابن عبد الله بن أنيس عن أبيه قال : دعاني رسول الله ﷺ فقال : إنه بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي الناس ليغزوني، وهو بعرنة[١] فَأته فاقتله ، قال : قلت : يارسول الله انعته لي حتى أعرفه ، قال إذا رأيته وجدت له قشعريره [٢] .

قال : فخرجت متوشحًا بسيفي ، حتى وقعْت عليه وهو بعرنة مع ظُعْن [٣] يرتاد لهن منزلا وحين كان وقت العصر ، فلما رأيته وجدت ماوصف لي رسول الله ﷺ من القشعريرة ، فأقبلت نحوه وخشيت أن يكون بيني وبينه مجاولة [٤] تشغلني عن الصلاة ، فصليت وأنا أمشي نحوه أومئ برأسي للركوع والسجود .

فلما انتهيت إليه قال : من الرجل ؟ قلت : رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل فجاءك لهذا ، قال : أجل أنا في ذلك ، قال : فمشيت معه شيئًا حتى إذا أمكنني حملت عليه السيف حتى قتلته ، ثم خرجت وتركت ظعائنه مكبَّات عليه .

---

(١) هو الوادي المشهور بعرفة .

(٢) جاء في رواية الواقدي « وكنت لا أهاب الرجال فقلت : يارسول الله ما فَرِقْتُ من شيء قط ، فقال رسول الله ﷺ : بلى آيةٌ بينك وبينه أن تجد له قشعريرة إذا رأيته » - مغازي الواقدي٢/ ٥٣٢ - .

(٣) يعني النساء .

(٤) أي صراع وطراد .

فلما قدمت على رسول الله ﷺ فرآني قال : أفلح الوجه ، قال قلت : قتلته يارسول الله ، قال : صدقت ، قال : ثم قام معي رسول الله ﷺ فدخل في بيته فأعطاني عصا ، فقال : أمسك هذه عندك ياعبد الله بن أنيس .

قال : فخرجت بها على الناس فقالوا : ماهذه العصا؟ قال قلت : أعطانيها رسول الله ﷺ وأمرني أن أمسكها ، قالوا : أولا ترجع إلى رسول الله ﷺ فتسأله عن ذلك ! قال : فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله لمَ أعطيتني هذه العصا ؟ قال : آية بيني وبينك يوم القيامة ، إن أقلَّ الناس المتخصِّرون يومئذ [1] ، فقرنها عبد الله بسيفه ، فلم تزل معه حتى إذا مات أمر بها فضمَّت في كفنه ثم دفنا جميعا[2] .

وأخرجه ابن هشام عن ابن إسحاق بهذا الإسناد غير أنه سقط من الإسناد ابن عبد الله بن أنيس ، وذكر مثله وزاد : وقال عبد الله بن أنيس في ذلك :

تركت ابن ثور كالحُوَار[3] وحوله نوائح تَفْري كل جيب مقدَّد

---

(١) يعني المتكئون على المخاصر وهي العصيّ .

(٢) مسند أحمد ٣/ ٤٩٦ ، وقد تم تصحيح بعض الأخطاء فيه من سيرة ابن هشام .

وأخرجه الإمام أبو داود في سننه - كتاب الصلاة ، باب صلاة الطالب ، رقم ١٢٤٩ (٢/ ٤١) وحسَّن الحافظ ابن حجر إسناده (فتح الباري ٧/ ٣٨٠) .

وذكره الحافظ الهيثمي من رواية الإمام الطبراني وقال : رجاله ثقات - مجمع الزوائد ٧/ ٢٠٤- .

(٣) الحوار بضم الحاء هو جنين الناقة إذا استخرج من بطنها بعد نحرها .

تناولته والظُّعن خلفي وخلفه　　　بأبيض من ماء الحديد مهنَّد (١)

إلى أن قال :

وقلت له خذها بضربة ماجد　　　حنيف على دين النبي محمد

وكنت إذا همَّ النبي بكافر　　　سبقت إليه باللسان وباليد (٢)

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : موقف للرسول ﷺ في دقة الرصد الحربي والحزم في مواجهة الفتن وقوة الإدراك في سياسة الأمور ، وإعداد الحلول المناسبة للمشكلات والأزمات في وقتها الملائم لها ، فقد رأينا رسول الله ﷺ في هذا الخبر قد تنبَّه لتحركات عدو خطير بدأ يجمع الناس حوله لغزو المسلمين ، فلم يُمهله حتى يكثر جمعه ويشتد ساعده ، بل فكر في القضاء على الفتنة وهي في أيامها الأولى بالقضاء على مصدرها وأساسها ، فوجه للقضاء عليها سهمًا من سهامه الصائبة الذين رباهم على يديه ، ورفعهم الله بدعوته إلى الآفاق العليا .

وهكذا يجب على من ولاه الله أمرا من أمور الأمة أن يكون حازما في قطع مادة الفتنة وهي لاتزال في مهدها لأنها والحال هذه لاتكلف الأمة تضحيات كبيرة ، بخلاف ما إذا استفحل أمرها فإن خطرها يكون كبيرا ، والقضاء عليها يكلف الأمة جهودا كبيرة وخسائر فادحة .

ثانيًا : حسن اختيار النبي ﷺ لذوي الكفاءات ، حيث كان يختار لكل مهمة من يناسبها فيختار للقيادة من يجع بين سداد الرأي وحسن

(١) أي بسيف مصنوع من الحديد الخالص ومن انتاج الهند وهي أجود السيوف .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٨٣ - ٣٨٦ .

التصرف والشجاعة ، ويختار للدعوة والتعليم من يجمع بين غزارة العلم ودماثة الخلق والمهارة في اجتذاب الناس ، ويختار للوفادة على الملوك والأمراء من يجمع بين حسن المظهر وفصاحة اللسان وسرعة البديهة ، وفي الأعمال الفدائية يختار من يجمع بين الشجاعة الفائقة وقوة القلب والمقدرة على التحكم في المشاعر .

وهكذا اختار النبي ﷺ لهذه المهمة عبد الله بن أنيس لكونه عالي الشجاعة قوي القلب ، ومما يدل على قوة قلبه قوله « وكنت لا أهاب الرجال » وقوله « ما فَرِقْت من شيء قط » أي أنه لم يكن يشعر بالخوف من أي إنسان إذا قابله ولو كان في غاية الشجاعة والقوة ، ولا من أي حيوان وإن كان في غاية الوحشية ، فلذلك اختاره النبي ﷺ وجعل علامة خالد الهذلي التي يعرفه بها أنه إذا رآه وجد في نفسه قشعريرة منه يعني من الخوف ، وهذا يعني أنه لم يكن يجد ذلك في نفسه من أحد قبله وإلا لما حصلت له هذه العلامة .

كما أن عبد الله بن أنيس كان يتمتع بالمقدرة على التحكم في مشاعره ، فهو حينما رأى خالد الهذلي بدا عليه الخوف ، والخوف يظهر في اصفرار الوجه ، وحينما همَّ بالفتك به لابد أن يكون قد ارتفعت عنده نسبة الغضب إلى حد كبير ، والغضب عادة يظهر في اسوداد الوجه ، وكلما همَّ الإنسان في الدخول في أمر عظيم ظهر ذلك على تقاسيم وجهه ، لكن ابن أنيس استطاع كتمان مشاعره ، وظهر لذلك ا لرجل وكأنه لم يشعر نحوه بأي خوف ، ثم أقدم على قتله وكأنه لم يظهر عليه شيء من الغضب ، وبذلك استطاع أن يلبِّس عليه أمره وأن يظهر أمامه

بمظهر الرجل الناصح الذي يريد أن يكون تابعا له ينفذ له أوامره ، وبهذه المقدرة الفائقة من ابن أنيس على كتمان مشاعره وثق به خالد الهذلي فأمنه ولم يحترز منه .

ثالثًا : الإشارة إلى الجهد الكبير الذي بذله هذا الصحابي الجليل في تنفيذ أمر النبي ﷺ حيث قطع وحده مسافات شاسعة ، وبالغ في الاستخفاء حتى لاينكشف أمره ثم تحيَّن الفرصة المناسبة للقضاء على عدوه ، حتى قضى عليه وأراح المسلمين من شره وبلائه .

وإذا أردنا أن نتصور عظمة الجهد الذي بذله فلنتصور مشاعره وهو مقدم على أداء تلك المهمة ، حيث تكتنفه مشاعر الفرح في حال نجاحه ، والكآبة والحزن في حال إخفاقه ، ثم لنتصور أسوأ الاحتمالات التي سيلقاها مثل أن يواجه خصمه وهو في عصبة من قومه ، ثم يكتشف خصمه مراده ، فماذا يكون موقفه آنذاك ؟ .

إنه وأمثاله من الأطهار الذين تخرجوا في مدرسة النبوة لايهتمون لأنفسهم إطلاقا ، بل أسمى أمانيهم أن يفوزوا بالشهادة ، ولكنه يهتم لموضوع الإخفاق في أداء مهمته ، حيث إنه لو استشهد واكتشف عدوه مهمته فإن ذلك سيزيد في إيغار صدره على المسلمين وإغرائه بهم ، وهذا يعني أن ابن أنيس سيبذل كل طاقته في سبيل نجاح مهمته .

رابعًا : إن كل عامل يقدِّم أعمالا كبيرة أو صغيرة فإنه ينتظر جزاءها ، فأهل الدنيا يحصلون على جزائهم بالمكافآت المادية أو المعنوية ، لكن الصحابة رضي الله عنهم وسائر المتقين لاينتظرون جزاء في الدنيا . ولو حصلوا على شيء من ذلك فإنه لايعتبر عندهم شيئًا كبيرا ، وإنما ينتظرون جزاءهم في الآخرة .

ولهذا كانت مكافأة هذا البطل العظيم التي غبطه عليها الصحابة هي تلك العصا التي ستكون علامة بينه وبين رسول الله ﷺ يوم القيامة ، وهذا يعني أن ذكْره سيرتفع في الآخرة .

وهكذا كافأه النبي بهذا الجزاء العظيم الذي تهون أمامه الدنيا بأسرها ، وهل أعظم جزاءً من أن يعده النبي ﷺ بملاقاته يوم القيامة؟ ! وهل كانت أماني الصحابة التي كانوا حولها يدندنون إلا أن يكونوا مع النبي ﷺ في الجنة ؟ ! .

* * *

٦ - مواقف في سرية الرجيع [١] -

أخرج الإمام البخاري من حديث ابن شهاب الزهري قال أخبرني عمرُو بن جارية الثقفيُّ حليفُ بني زُهرة ، وكان من أصحاب أبي هريرة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال « بعث رسول الله ﷺ عشرة عينا وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري جد عاصم بن عمر بن الخطاب ، حتى إذا كانوا بالهدأة بين عُسفان ومكة[٢] ذُكروا لحَيٍّ من هُذيل يقال لهم بنو لحيان ، فنفروا لهم بقريب من مائة رجل رام ، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم التمر في منزل نزلوه ، فقالوا : تمرُ يثرب ، فاتبعوا آثارهم . فلما حَسَّ بهم عاصمٌ وأصحابهُ لجأوا إلى مَوضع . فأحاطَ بهم القوم فقالوا لهم : انزلوا فأعطوا بأيديكم ، ولكمُ العهدُ والميثاق أن لا نقتل منكم أحدًا .

فقال عاصمُ بن ثابت : أيها القوم ، أما أنا فلا أنزلُ في ذمة كافر . ثم قال : اللهم أخبر عنا نبيك ﷺ . فرموهم بالنبل فقتلوا عاصما[٣]، ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق ، منهم خُبيبٌ وزيدُ بن الدَّثنة ورجل آخر[٤] . فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيِّهم فربطوهم بها ، قال

---

(١) الرجيع اسم مكان في بلاد هذيل ، كانت الوقعة بقربه قال البلادي : ويعرف اليوم بالوطيَّه (الوطأة) وهو ماء شرق عسفان يسار الخارج من عسفان إلى مكة ، يفرق طريقه على ثلاثة عشر كيلا من عسفان ويبعد عن الطريق قرابة سبعة أكيال في لحف حرة الجابرية - معجم معالم الحجاز ٤/ ٣٥ - .

(٢) الهَدْأة اسم مكان لهذيل قرب الرجيع .

(٣) جاء في نسخة البخاري التي اختارها الحافظ ابن حجر « فقتلوا اعاصما في سبعة » قال : أي في جملة سبعة .

(٤) هو عبد الله بن طارق كما في رواية ابن إسحاق .

الرجلُ الثالث : هذا أولُ الغَدر ، والله لا أصحبُكم ، إن لي بهؤلاء أسوة - يريدُ القتلى - فجرَّروه وعالجوه ، فأبي أن يَصحبهم [1] .

فانطُلق بخبيب وزيد ابن الدَّثِنَّة حتى باعوهما بعد وقعة بدر ، فابتاع بنو الحارث بن عامر بن نوفل خُبيبًا - وكان خبيبُ هو قتل الحارث بن عامر يومَ بدر - فلبث خبيبٌ عندهم أسيرًا حتى أجمعوا قتله ، فاستعار من بعض بنات الحارث موسى يستحدُّ بها ، فأعارته ، فدرج بُنَيٌّ لها وهي غافلة حتى أتاه ، فوجدته مُجلِسَه على فخذه والموسى بيده . قالت : ففزعتُ فزعةً عرَفها خُبيب . فقال : أتخشين أن أقتله؟ ماكنتُ لأفعل ذلك .

قالت : والله ما رأيتُ أسيرًا قطُّ خيرًا من خُبيب ، والله لقد وجدته يومًا يأكلُ قطفا من عنب في يده وإنه لموثقٌ بالحديد ، ومابمكة من ثمرة . وكانت تقول : إنه لرزقٌ رزقه الله خبيبًا .

فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحل قال لهم خبيب : دَعُوني أصلي ركعتين ، فتركوهُ فركع ركعتين فقال : والله لولا أن تحسبوا أنَّ مابي جزعٌ لزدت . ثم قال اللهم أحصهم عددًا ، واقتلهم بددا ، ولاتُبق منهم أحدا . ثم أنشأ يقول :

فلستُ أُبالي حين أُقْتَلُ مسلمًا على أيِّ جنب كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإلـه وإن يشأ يُبارك على أوصال شلو ممـزع

ثم قام إليه أبو سرْوعة عُقبة بن الحارث فقتله . وكان خبيبٌ هو سَنَّ لكل مسلم قُتل صبرًا الصلاة .

(١) جاء في رواية ابن إسحاق « ثم أخذ سيفه فاستأخر عنه القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه» .

وأخبر - يعني النبي ﷺ - أصحابه يوم أصيبوا خبرهم .

وبعث ناسٌ من قريش إلى عاصم بن ثابت حين حُدِّثوا أنه قُتل أن يؤتَوا بشيء منه يُعرف - وكان قتلَ رجلا عظيماً من عظمائهم - فبعث الله لعاصم مثل الظُّلة من الدَّبْر فحَمتْهُ من رُسُلهم ، فلم يقدروا أن يَقطعوا منه شيئًا » (١) .

وأخرجه ابن إسحاق بزيادات واختلاف في بعض سياقه (٢) .

وقد جاء في رواية ابن إسحاق أن المشركين قالوا للمسلمين : إنا والله ما نريد قتلكم ولكن نريد أن نصيب بكم شيئًا من أهل مكة ، ولكم عهد الله وميثاقه أن لانقتلكم .

فأما مرثد بن أبي مرثد ، وخالد بن البكير ، وعاصم بن ثابت فقالوا : والله لانقبل من مُشرك عهدًا ولاعقدا أبدا ، فقال عاصم بن ثابت :

ما علَّتي وأنا جَلْدٌ نابل ... والقَوْسُ فيها وترٌ عنابلُ (٣)

تَزلُّ عن صفحتها المعابل (٤) ... الموتُ حقٌ والحياةُ باطل

وكلُّ ماحَمَّ الإله نازل ... بالمرء ، والمرءُ إليه آئل

إن لم أقاتلكم فأمي هابل (٥)

(١) صحيح البخاري ، المغازي رقم ٣٩٨٩ و ٤٠٨٦ (٧/ ٣٠٨، ٣٧٨) .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ١٥٦ - ١٦٦ .

(٣) أي غليظ .

(٤) أي النصال العريضه الطويلة .

(٥) قال ابن هشام : هابل : ثاكل .

وقال عاصم بن ثابت أيضًا :

أبو سُليمان ومثْليَ رامَـــى وكـان قوْمي معشرًا كـراما

وكان عاصم بن ثابت يكنى : أبا سليمان ثم قاتل القوم عاصم حتى قُتل وقُتل صاحباه .

فلما قتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه ، ليبيعوه من سُلافة بنت سَعد بن شُهيد ، وكانت قد نذَرت حين أصاب ابنيها يوم أُحد : لئن قَدَرَتْ على رأس عاصم لتشربن في قحفه [١] الخمر ، فمنعته الدَّبْر [٢] ، فلما حالت بَيْنه وبينهم الدبْرُ قالوا : دعُوه حتى يُمسي فتذهب عنه ، فنأخذه ، فبعث الله الوادي [٣] ، فاحتمل عاصما ، فذهب به [٤] . وقد كان عاصم قد أعطى الله عهدا أن لايمسَّه مشرك ، ولايمس مُشركًا أبدًا ، تنجُّسا ، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول حين بلغه أن الدّبْر منعته : يحفظ الله العبد المؤمن ، كان عاصم نَذَر أن لايمسَّه مشركٌ ، ولايمسّ مُشركًا أبدا في حياته ، فمنعه الله بعد وفاته ، كما امتنع منه في حياته .

قال ابن إسحاق : وأما زيد بن الدَّثنة فابتاعه صَفوان بن أُميَّة ليقتله

---

(١) القحف العظم الذي فوق الدماغ .

(٢) جمع الدبُّور ، يعني صارت الدبابير تلسعهم فحمته منهم .

(٣) أي أجرى الله الوادي بالسيل .

(٤) وجاء في رواية الواقدي : فلما جاء الليل بعث الله عليه سيلا – وكنا ما نرى في السماء سحابا في وجه من الوجوه – فاحتمله فذهب به فلم يصلوا إليه .

بأبيه أميَّة بن خلف ، وبعث به صفوان بن أُمية مع مولى له يقال له نسطاس إلى التنعيم ، وأخرجوه من الحرم ليقتلوه ، واجتمع رهط من قُريش ، فيهم أبو سفيان ابن حرب ، فقال له أبو سفيان حين قُدِّم ليُقتل : أنشُدُك الله يازيد ، أتحبّ أن محمدا عندنا الآن في مكانك نَضْرب عنقه ، وأنك في أهلك ؟ قال : والله ما أحبّ أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تُصيبه شوكةٌ تُؤذيه ، وأني جالس في أهلي . قال : يقول أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يُحبّ أحدًا كحبّ أصحاب محمد محمداً ، ثم قتله نسطاس ، يرحمه الله .

قال ابن إسحاق : وكان مما قيل في ذلك من الشعر ، قول خُبيب بن عديّ حين بلغه أن القومَ قد اجتمعوا لصَلبه .

لقد جمَّع الأحزابُ حولي وألّبوا	قبائلهم واستجمعوا كلّ مجمع
وكلُّهمُ مُبدي العداوة جاهدٌ	عَليّ لأني في وَثاق بمضيع
وقد جمعوا أبناءَهم ونساءَهم	وقُرِّبتُ من جذع طَويل مُمنَّع
إلى الله أشكو غُرْبتي ثم كُرْبتي	وماأرْصَد الأحزاب لي عند مصرعي
فذا العرش صبرِّني على ما يُرادُ بي	فقد بَضَعوا لحمي وقد ياس مطمَعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ	يُبارك على أوصال شلْو مُمزَّع
وقد خيَّروني الكفْر والموتُ دونه	وقد هَمَلت عيناىَ من غير مَجزع
ومابي حذارُ الموت إني لميتٌ	ولكنْ حذَاري جَحْم نار مُلفِّع
فو الله ما أرجُو إذا متّ مُسْلما	عَلَى أيّ جَنْب كان في الله مصرعي
فَلَستُ بمبد للعَدُوّ تَخَشُّعا	ولا جزَعاإني إلى الله مَرْجعي(١)

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ١٥٧ - ١٦٧ .

في هذا الخبر مواقف وعبر فمن ذلك :

أولاً : خروج هذه السرية بهذا العدد القليل إلى تلك المسافة البعيدة يعتبر مغامرة جريئة وتضحية كبيرة .

وقد كانت مهمتهم التجسس على الأعداء كما جاء في هذه الرواية ، وذلك لما تنامَى إلى أسماع النبي ﷺ وأصحابه من أخبار بعض القبائل التي تتحدث بغزو المدينة ، ومن ذلك ما سبق في خبر بني أسد وخالد بن نبيح الهذلي ، فكان لا بد من المغامرة بعدد محدود من المسلمين ليوافوا رسول الله ﷺ ومستشاريه بأخبار الأعداء قبل أن يتجمعوا ويصعب القضاء عليهم .

وقد جاء في رواية ابن إسحاق ما يفيد بأن لهذه السرية مهمةً دعوية ، وفي ذلك يقول عاصم بن عمر بن قتادة : قدم على رسول الله ﷺ بعد أحد رهط من عضل والقارة ، فقالوا : يارسول الله إن فينا إسلاما فابعث نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين ويقرؤوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام .

وقد ذكر الحافظ ابن كثير رواية البخاري ، ثم قال : وقد خالفه محمد بن إسحاق وموسى بن عقبة وعروة بن الزبير في بعض ذلك ، ولنذكر كلام ابن إسحاق ليعرف ما بينهما من التفاوت والاختلاف ، على أن ابن إسحاق إمام في هذا الشأن غير مدافع ، كما قال الشافعي رحمه الله : من أراد المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق [1] .

= وأخرجه الواقدي عن عدد من الشيوخ وذكره نحوه - مغازي الواقدي ١/ ٣٥٤ - ٣٦٣ - . وذكر أن الوقعة كانت في شهر صفر سنة أربع من الهجرة .

(١) البداية والنهاية ٤/ ٦٦ .

لكن يمكن الجمع بين الروايتين باحتمال أن النبي ﷺ قد بعث أفراد تلك السرية للمهمتين معا ، وأن إحدى المهمتين علنية وهي المهمة الدعوية التي ذكرها عاصم بن عمر في رواية ابن إسحاق ، والأخرى سرية وهي مهمة التجسس على الأعداء ، فذكر عاصم عن أشياخه من الأنصار المهمة المعلنة ، ووعى أبو هريرة المهمة السرية عمن أخبره من الصحابة حيث لم يهاجر إلى المدينة إلا في العام السابع فحدث بها ، ولعله رأى هو أو من حدثه أنها المهمة الأساسية فاكتفى بذكرها ، ويكون من أخبر عاصم بن عمر بن قتادة بالمهمة العلنية لم يعلم بالمهمة السرية والله أعلم .

هذا هو أهم الاختلافات بين الروايتين ، وهناك اختلافات أخرى منها أن أمير السرية في رواية البخاري هو عاصم بن ثابت ، وفي رواية ابن إسحاق مرثد بن أبي مرثد ، ومنها أن عدد أفراد السرية في رواية البخاري عشرة ، وفي رواية ابن إسحاق ستة ، لكن رواية البخاري هي المقدمة في ذلك لأنها أصح .

ثانيًا : موقف جليل لعاصم بن ثابت وجماعته رضي الله عنهم حيث أبوا أن يستسلموا وأن ينزلوا على ذمة الكفار ، وتصدوا لقتال مائة من الرماة ، وقُتل بنبال العدو سبعة من العشرة فيهم أميرهم عاصم بن ثابت ، وبقي ثلاثة هم خبيب بن عدي وزيد بن الدَّثِنَّة ، وعبد الله بن طارق ، فاختاروا الاستسلام بعد قتل أصحابهم ، ثم حاول المقاومة بعد ذلك عبد الله بن طارق فقتلوه وبقي خبيب وزيد ، وكان بقاؤهما خيرا للمسلمين حيث سطرا في الأيام الأخيرة من حياتهما مواقف عالية في الصبر على الأذى واحتساب الأجر عند الله تعالى وإظهار عزة الإسلام .

ثالثًا : في أشعار عاصم بن ثابت التي ذكرها ابن إسحاق في روايته تظهر عزة الإسلام والقوة في تحدي أهل الباطل .

وما جرى له من حماية الدبابير ومنعها المشركين من الدنو من جثته، ثم مجيء السيل وحمل جسده ودفنه عبرة عظيمة ، حيث كان هذا الصحابي الجليل نذر أن لايمس جسده مشرك تنجُّساً ، وجاء في رواية الواقدي أنه بعد أن قاتل القوم قال : اللهم حَميْت دينك أول النهار فاحْم لي لحمي آخره .

فقد أكرم الله هذا الولي الصالح فاستجاب دعاءه فلم يعبث المشركون بجسده ، ولم تتمكن سلافة بنت سعد بن شُهَيد من شفاء غيظها منه بشرب الخمر في قحف رأسه .

ولقد كانت هذه الكرامة آية أظهرها الله تعالى لأولئك الأعراب، حيث عجزوا عن الوصول إلى جسد عاصم مرتين ، ولئن قالوا بأن الدبابير جاءت صُدفة فكيف يقولون في السيل الذي جاء وما في السماء قطعة سحاب ؟ ! وكيف يجتمع الأمران على سبيل الصدفة ؟ .

لقد كان فيما جرى لهم من عاصم عبرة ، لو اعتبروا بها لقادتهم إلى الإسلام ، ولكفَّروا عن ذنبهم الكبير بإطلاق الأسرى الثلاثة واتخاذهم أئمة هدى يتعلمون الإسلام منهم ، ولكنهم أصحاب هوى ، والدين الذي يخضعون له هو مصالحهم الدنيوية ، فقد قاموا بذلك العمل الشنيع من أجل أن يستأسر لهم أفراد السرية ثم يبيعوهم من قريش ، ولقد حرصوا على أخذ رأس عاصم لضخامة الجُعل الذي جعلته سلافة لمن يأتي لها برأسه ، كما جاء في رواية الواقدي أنها جعلت لمن جاء برأس

عاصم مائة ناقة ، وكان عاصم قتل ابنيها الحارث ومسافعا كما جاء في رواية الواقدي وكما سبق في غزوة أحد .

وهكذا تضيع الفضيلة وتُفقد الكرامة حينما تسيطر النظرة المادية على تفكير الإنسان ، وإذا خلا قلبه من الإيمان بالله تعالى الذي يسمو بفكره نحو الحياة الآخرة فإن تفكيره يكون مقصورا على الحياة الدنيا . . من أجلها يحب ويبغض ، ومن أجلها يوالي ويعادي ، ويقسو قلبه ويتجبر حينما يغلب غيره ويكون في موطن القوة ، ويضعف ويستخذى حينما يُغلَب ويكون تحت رحمة غيره .

رابعًا : جرى لخُبيب بن عدي رضي الله عنه وهو في محبسه مواقف وعبر ، فمن ذلك خبره مع بُنيّ المرأة التي كان محبوسا عندها حينما فزعت لما رأته معه والموسى بيده فقال « أتخشين أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل» وجاء في رواية الواقدي : « ما كنت لأقتله وما نستحل في ديننا الغدر» وهذا مثل من عظمة الصحابة رضي الله عنهم حيث يطبقون أخلاق الإسلام على أنفسهم مع أعدائهم وإن كانوا قد ظلموهم ، وهذا دليل على وعيهم وكمال إيمانهم .

ومن ذلك تجمُّله بالصبر وعدم إشفاقه من القتل ، وفي ذلك تقول ماوية مولاة بني عبد مناف التي كان محبوسا عندها : « فقلت له : ياخبيب هل لك من حاجة ؟ قال : لا ، إلا أن تسقيني العذب ولاتطعميني مما ذبح على النُّصُب ، وتخبريني إذا أرادوا قتلي ، قالت : فلما انسلخ الأشهر الحرم وأجمعوا على قتله أتيته فأخبرته ، فو الله ما رأيته اكترث لذلك » . ذكره الواقدي في روايته وذكر أن ماوية هذه قد أسلمت فيما بَعْد وحسن إسلامها .

ومن جلَده وصبره الجميل قوله لهم « دعوني أصلي ركعتين فتركوه فركع ركعتين فقال : والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع لزدت » وقوله في شعره الذي جاء في هذه الروايات :

فلست أبالي حين أُقتل مسلما ... على أي جَنْب كان لله مصرعي

إلى أن قال :

فلست بمُبْـد للعـدو تخشعـا ... ولا جزعا إني إلى الله مرجعي

ولاشك أن هذا الجَلَد القوي والصبر الجميل يغيظ الأعداء لأنه يُضعف من مفعول كيدهم .

وفي صلاة خبيب قبل القتل يروي الواقدي بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : أول من سنَّ الركعتين عند القتل خبيب .

وهذا موقف يذكر له رضي الله عنه حيث كانت الصلاة هي آخر عمل قدَّمه قبل موته .

وجاء في رواية الواقدي أنهم ساوموه ليرجع عن دينه فأبى عليهم ، وفي ذلك يقول فيما يرويه عن شيوخه : قالوا : فلما صلى الركعتين حملوه إلى الخشبة ، ثم وجهوه إلى المدينة وأوثقوه رباطا ، ثم قالوا : ارجع عن الإسلام نُخَلِّ سبيلك ، قال : لا والله ما أحب أني رجعت عن الإسلام وأن لي ما في الأرض جميعا .

وهذا مشهد من مشاهد الإيمان والفداء ، حيث تعلو النفوس الزكية عن الاستجابة لرغبات الأجسام ، فتضرب الأمثلة الحية للموازين العادلة والمفاهيم العالية ، فما في الأرض جميعا من متاع لا يساوي شيئا في جانب الهداية إلى الصراط المستقيم ، والبقاء على قيد الحياة مطلب

رخيص إذا قورن بالثبات على الإيمان والاستشهاد في سبيله ، وقد جاء هذا المعنى في كلام خبيب كما في رواية الواقدي « فجعلوا يقولون : ارجع يا خبيب ، قال : لا أرجع أبدا ، قالوا : أما واللات والعزى لئن لم تفعل لنقتلنَّك ، قال : إن قتلي في الله لقليل » .

وجاء في إحدى روايات البخاري : أن خبيبا لما قُتل مكث ساعة يوحد الله ويشهد أن محمدا رسول الله ، ثم ذكر الراوي قول الأخنس بن شريق : لو ترك ذكر محمد على حال لتركه على هذه الحال ، ما رأينا قط والدا يَجدُ بولد ما يجد أصحاب محمد بمحمد ﷺ .

ومن ذلك ما أكرمه الله تعالى به من العنب الذي وصل إليه وهو موثق بالحديد ولم يكن بمكة آنذاك شيء من العنب ، وهذه الكرامة ساقها الله تعالى إليه ليثبته ولتعظم طمأنينته بأن الله تعالى معه وأنه قد رضي عنه ، فإن شاء جل وعلا لَهُ الحياة فسينالها رغم ما هو فيه من حبس وقيود ، وإن شاء أن يتخذه شهيداً فهذا غاية ما يتمناه المؤمن الصادق .

ولقد كان في إشاعة هذا الخبر بين المشركين آية تهديهم إلى الإيمان بهذا الدين الذي كان سببا في ظهور تلك الكرامة الخارقة للعادة على يد خبيب ولكنهم لم يكونوا متجردين من الهوى ، ومن كان منهم قد تأثر بهذه العبرة وأمثالها فإنه لا يستطيع أن يظهر مشاعره خشيةً من زعماء الكفار .

خامسا : تبين لنا في رواية ابن إسحاق أنه حينما قَدَّم المشركون زيد ابن الدثنة رضي الله عنه للقتل قال له أبو سفيان : أَنشُدُكَ اللهَ يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن نضرب عنقه وأنك في أهلك ؟ قال : والله ما

أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وأني جالس في أهلي ، قال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً .

وهذا تعبير بليغ عن حب الصحابة الشديد لرسول الله ﷺ الذي يصل إلى فدائه بأنفسهم فضلاً عن أموالهم ، ولقد جاء في روايةٍ للواقدي مثل ذلك عن خبيب بن عدي رضي الله عنه .

ولقد اعترف بذلك زعماء الكفار في ذلك العصر كما في هذا الخبر عن أبي سفيان وفي خبر خبيب صدر عن الأخنس بن شريق [1]. وصدور هذا الاعتراف من الزعماء يدل على شهرة ذلك إلى الحد الذي لا يستطيعون إخفاءه .

وإذا نظرنا إلى حب الصحابة لرسول الله ﷺ باعتباره زعيما لتجمع ديني كما يراه الكفار المعاصرون له الذين لا يؤمنون بكونه رسولا فإن ذلك يبعث فيهم الإحباط واليأس من إمكانية القضاء عليه وعلى تجمعه لاستحالة وجود أهم عناصر الفشل والانهزام وهو ضعف الثقة بين الزعيم وجنوده ، كما أن اعتراف زعماء الكفار بعدم وجود زعيم يحبه جنوده كحب المسلمين لرسول الله ﷺ يجب أن يقودهم إلى التفكير المتأمل في هذا الموضوع ، لمعرفة سبب انفراد النبي ﷺ من بين الزعماء بهذه الميزة العظيمة ، وبالتالي فإن ذلك يفرض عليهم الإيمان بكونه رسولاً من عند الله تعالى ، لأن هذه هي الخصوصية الوحيدة البارزة ،

---

(١) ينبغي أن يعلم أن أبا سفيان قد أسلم عام الفتح وحسن إسلامه وذكر الحافظ ابن حجر الخلاف في إسلام الأخنس ورجح إسلامه – الإصابة ١/ ٣٩ رقم ٦١ – .

وكونه ﷺ يتمتع بأعلى المواهب الإنسانية إنما هو من لوازم الرسالة ، ولم يكن النبي ﷺ ينسب لنفسه أي تفوق في تلك المواهب وإنما كان الشيء الوحيد الذي يدعو إليه هو الإيمان بكونه مرسلاً من الله تعالى ، ولكن الكفار كانوا في سبات عميق وحُجُب كثيفة من اتباع هوى النفوس وتقديس ميراث الآباء والأجداد والاعتزاز بالمجد الدنيوي ، فلم يُعملوا أفكارهم في المقارنة بين المقدمات والنتائج ، فكانوا يطلقون المقدمَات التي تُلزمهم بنتائجها ولكنهم لا يبحثون في أسباب تلك المقدمات ولا يُلزمون أنفسَهم بنتائجها .

سادسا : في هذا الخبر بُذلت دماء زكية في سبيل الله تعالى ، وبعضها قُتل أصحابها صبراً وعلى مشهد يضم جمعاً كبيراً من الناس ، وهذه الدماء الزكية تُعتبر من أهم الأسباب التي تُغَذِّي الدعوة الإسلامية وتدفع بها إلى الأمام ، لأن الذين يحضرون هذه المشاهد أو تُروى لهم يعلمون أن وراءها هدفاً كبيراً سامياً هو نصرة الإسلام ، وبالتالي يعلمون بأن هذا الدين الذي يحمل أتباعه على بذل النفوس طواعية وبشوق بالغ من أجله ، والصبر الطويل الجميل على الأذى في سبيله . . يعلمون أنه الدين الحق الذي يجب الإيمان به واتباعه .

ولا شك أن هذا الحادث الجلل قد ترك أثراً واضحاً على مفكري قريش ، حيث دفعهم إلى الميل نحو الإسلام والتعاطف مع المسلمين ، إضافةً إلى الأحداث الأخرى المشابهة ، مِمَّا جعل دخولهم في الإسلام سريعاً بعد فتح مكة المكرمة .

* * *

٧ - مواقف في سرية بئر مَعُونة -

قال ابن إسحاق : فأقام رسول الله ﷺ بقية شوّال وذا القعدة وذا الحجة - ووَلي تلك الحجة المشركون - والمحرم ، ثم بعث رسولُ الله ﷺ أصحابَ بئر معونة في صفر ، على رأس أربعة أشهر من أحُد [١] .

وكان من حديثهم ، كما حدثني أبي إسحاق بن يسار عن المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وغيره من أهل العلم قالوا : قدم أبو بَراء عامر بن مالك بن جعفر مُلاعب الأسنَّة على رسول الله ﷺ المدينة ، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ، ودعاه إليه ، فلم يُسلم ولم يبعد من الإسلام ، وقال : يا محمد ، لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد ، فدعوهم إلى أمرك ، رجوت أن يستجيبوا لك ؛ فقال رسول الله ﷺ : إني أخشى عليهم أهل نجد ؛ قال أنا لهم جار ، فابْعَثْهُمْ فليدْعُوا الناس إلى أمرك .

فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة ، المُعْنق ليموت[٢] ، في أربعين رجلا من أصحابه [٣] ، من خيار المسلمين ، منهم : الحارث بن الصِمَّة ، وحرام بن مِلْحان أخو بني عدي بن النَّجَّار ،

---

(١) يعني في السنة الرابعة للهجرة .

(١) المعنق : المسرع ، وإنما سمي بذلك لإسراعه إلى الشهادة ، واللام في «ليموت» للعاقبة ، أي إن عاقبة خروجهم الموت .

(٣) جاء في رواية الإمام البخاري ومسلم أن عددهم سبعون ويمكن الجمع بين الروايتين بأن الأربعين هم القراء الذين وكل إليهم النبي ﷺ مهمة الدعوة ، والثلاثين أتباع لهم يساعدونهم في المهام الجهادية من الحراسة والحماية والدفاع ، فيكون بعض الرواة ذكروا العدد الكامل وبعضهم ذكر عدد الذين أنيطت بهم المهمة المذكورة .

=

وعروة بن أسماء بن الصَّلت السلمي ونافع بن بُدَيل بن وَرْقاء الخُزاعيّ ، وعامر بن فُهيرة مولى أبي بكر الصدِّيق ، في رجال مُسمَّين من خيار المسلمين . فساروا حتى نزلوا ببئر معونة ، وهي بين أرض بني عامر وحَرة بني سُليم ، كلا البلدين منها قريب ، وهي إلى حرة بني سُليم أقرب .

فلما نزلوها بعثوا حرام بن ملْحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدوّ الله عامر بن الطفيل ؛ فلما أتاه لَم ينظُر في كتابه حتى عدا على الرجل فقتله [(١)] ، ثم استصرخ عليهم بني عامر ، فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه ، وقالوا : لن نُخْفرَ أبا بَراء ، وقد عقد لهم عقداً وجواراً ؛ فاستصرخ عليهم قبائلَ مَن بني سُلَيم من عُصيَّة ورعْل وذَكْوان ، فَأجابوه إلى ذلك ، فخَرجوا حتى غَشُوا القَوم ، فأحاطوا بهم في رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ، ثم قاتلوهم حتى قُتلوا من عند آخرهم ، يرحمهم الله ، إلا كعب بن زيد أخا بني دينار بن النجار ، فإنهم تركوه وبه رمق ، فارتُث [(٢)] من بين القتلى ، فعاش حتى قُتل يوم الخندق شهيداً، رحمه الله .

وكان في سَرْح [(٣)] القوم عمرو بن أُمية الضَمْري ، ورجل من

= ولعل الحافظ ابن حجر يشير إلى ذلك حينما قال في الجمع بين الروايتين بعدما ذكر خبر ابن إسحاق : ويمكن الجمع بينه وبين الذي في الصحيح بأن الأربعين كانوا رؤساء وبقية العدة أتباعا - فتح الباري ٧/ ٣٨٧ - .

(١) جاء في رواية البخاري « فأومئوا إلى رجل فأتاه من خلفه فطعنه » فتكون نسبة القتل إلى عامر لأنه هو الذي أمر بذلك .

(٢) ارتث على البناء المجهول ، أي حمل من المعركة رثيثا أي جريحا وبه رمق .

(٣) السرح : الماشية في حال ذهابها إلى المرعى .

الأنصار ، أحد بني عمرو بن عوف [٢] . فلم يُنبئهما بمُصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على العَسكر ، فقالا : والله إن لهذه الطير لشأناً ، فأقبلا لينظرا ، فإذا القوم في دمائهم ، وإذا الخيلُ التي أصابتهم واقفة . فقال الأنصاري لعمرو بن أُميّة : ما ترى ؟ قال : أرى أن نلحق برسول الله ﷺ ، فنخبره الخبر ؛ فقال الأنصاري : ما كنتُ لأرغبَ بنفسي عن مَوْطن قُتل فيه المنذر بن عمرو ، وما كنت لتُخْبرني عنه الرجال ؛ ثم قاتل القومَ حتى قُتل ، وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً ، فلما أخبرهم أنه من مُضَر أطلقه عامر بن الطفيل ، وجز ناصيته ؛ وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه .

فخرج عمرو بن أُمية حتى إذا كان بالقَرْقرة من صَدر قناة ، أقبل رجلان من بني عامر [٣] حتى نزلا معه في ظل هو فيه . وإنَّ مع العامريَّيْن عَقدٌ من رسول الله ﷺ وجوار ، لم يَعلم به عمرو بن أُمية ، وقد سألهما حين نزلا : ممن أنتما ؟ فقالا : من بني عامر ، فأمهلهما ، حتى إذا ناما ، عدا عليهما فقتلهما ، وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثُؤْرةً من بني عامر ، فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ ، فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ ، فأخبره الخَبر ، قال رسول الله ﷺ : لقد قتلت قتيلين ، لأدينَّهما !

ثم قال رسول الله ﷺ : هذا عمل أبي بَراء ، قد كنت لهذا كارهاً مُتَخَوفا . فبلغ ذلك أبا براء ، فشقّ عليه إخفارُ عامر إيَّاه ، وما أصاب

---

(١) قال ابن هشام : هو المنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح .

(٢) قال ابن هشام : ثم من بني كلاب ، وذكر أبو عمرو المدني أنهما من بني سليم .

أصحاب رسول الله ﷺ بسببه وجواره ؛ وكان فيمن أصيب عامر بن فُهيرة .

قال ابن إسحاق : فحدثني هشام بن عُروة ، عن أبيه أن عامر بن الطفيل كان يقول : مَنْ رجل منهم لما قُتل رأيته رُفع بين السماء والأرض ، حتى رأيت السماء من دونه ؟ قالوا : هو عامر بن فُهيرة [1] .

قال ابن إسحاق : وقد حدثني بعض بني جَبار بن سَلْمى بن مالك ابن جعفر ، قال - وكان جبَّار فيمن حضرها يومئذ مع عامر ثم أسلم - قال : فكان يقول : إن مما دعاني إلى الإسلام أني طعنتُ رجلا منهم يومئذ بالرمح بين كتفيه فنظرتُ إلى سنان الرمح حين خرج من صدره ، فسمعته يقول : فُزْتُ والله ! فقلت في نفسي : ما فاز ! ألستُ قد قتلتُ الرجلَ ! قال : سألت بعد ذلك عن قوله ، فقالوا : للشهادة ، فقلت : فاز لَعمْرُ الله .

قال ابن إسحاق : وقال حسَّان بن ثابت يحرّض بني أبي بَراء على عامر بن الطفيل :

بَني أمِّ البنينَ ألم يَرعْكمْ ... وأنتم من ذَوائب أهل نَجْد
تهَكُّم عامر بأبي بَراء ... ليُخْفرَهُ ، وما خَطَأٌ كَعَمْد
ألا أبْلغْ ربيعةَ ذَا المساعي ... فما أحدثْتَ في الحَدَثان بعدي
أبوك أبو الحُروب أبو بَراء ... وخالُك ماجدٌ حكَم بن سَعْد

قال ابن إسحاق : فحمل ربيعةُ بن عامر بن مالك على عامر بن

(١) جاء ذلك في رواية للإمام البخاري وفيه ان عامر بن الطفيل سأل عنه عمرو بن أمية الضمري- صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٠٩٣ (٧/ ٣٨٨) .

الطفيل فطعنه بالرمح ، فوقع في فخذه ، فأشْواه [١] ، ووقع عن فرسه ، فقال : هذا عمل أبي بَراء ، إن أمُتْ فَدمي لعمِّي . فلا يُتْبعَنَّ به ، وإن أعش فسأرى رأيي فيما أُتِيَ إليّ "[٢] .

وجاء في إحدى روايات الإمام البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « لما طُعن حرام بن ملحان - وكان خاله - يوم بئر معونة قال بالدم هكذا ، فنضحه على وجهه ورأسه ثم قال : فزت ورب الكعبة » [٣] .

وجاء في رواية مسلم من حديث أنس بن مالك « فقال رسول الله ﷺ لأصحابه « إن إخوانكم قد قتلوا ، وإنهم قالوا : اللهم بلِّغ عنا نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا » [٤] .

وفي رواية للبخاري من حديث أنس بن مالك قال : « دعا النبي ﷺ

---

(١) أي أخطأ مقتله .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٢١٢ - ٢١٧ .

وأخرجه الإمام البخاري في عدة روايات مختصرة من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه- صحيح البخاري ، المغازي رقم ٤٠٨٨ - ٤٠٩٢ (٧/ ٣٨٥) - .

وأخرجه الإمام مسلم من حديث أنس رضي الله عنه مختصرا - صحيح مسلم ، الإمارة ، رقم ٦٧٧ (ص ١٥١١) - .

وأخرجه الإمام ابن جرير الطبري من حديث ابن إسحاق بإسناد ابن هشام ، ثم أخرجه عن ابن إسحاق عن حميد الطويل عن أنس بن مالك ، ثم أخرجه من حديث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري عن أنس بن مالك . . وذكر نحوه - تاريخ الطبري ٢/ ٥٤٥-٥٥٠- .

(٣) صحيح البخاري ، المغازي رقم ٤٠٩٢ (٧/ ٣٨٦) .

(٤) صحيح مسلم ، الإمارة رقم ٦٧٧ (ص ١٥١١) .

على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحا حين يدعو على رعل ولحيان وعُصَيَّة ، عصت الله ورسوله ﷺ قال أنس : فأنزل الله تعالى لنبيه في الذين قتلوا أصحاب بئر معونة قرآنا قرأناه ، ثم نسخ بعد : بلّغوا قومنا فقد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه »[1] .

وقوله « يدعو على رعل ولحيان وعُصَيَّة » وفي رواية البخاري يدعو على رعل وذكوان ويقول : عصية عصت الله ورسوله » فأما بنو رعْل وذكوان وعصية فهم فروع من قبيلة سُلَيم وهم الذين قتلوا الصحابه في بئر معونة ، وأما بنو لحيان فقد قتلوا الصحابة في بئر الرجيع كما سبق وكانت الحادثتان في شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ جميعا .

مواقف وعبر من هذا الخبر :

أحداث هذه السرية والسرية التي قبلها ونتائجهما تختلف عن أحداث ونتائج الغزوات والسرايا السابقة فقد ألفنا في كل الغزوات والسرايا أن نرى انتصارات المسلمين الظاهرة مع ما يصيبهم من قتل أو جراح ، ولكننا في هاتين السريتين رأينا استئصالا كاملا للمسلمين .

والحقيقة أن معايير الانتصار والانهزام لا تخضع لحجم الخسائر المادية التي من ضمنها وقوع الضحايا وإنما تخضع لمدى الثبات على المبادئ التي قامت الحروب من أجلها أو التراجع في هذا الأمر ، ومن ذلك معرفة مدى الحماس في تمثيل هذه المبادئ أو الفتور في تمثيلها ، وشدة التلاحم بين القائد وجنوده أو ضعف ذلك ، ومدى التماسك بين

(١) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٠٩٥ (٧/ ٣٨٩) .

أفراد الجماعة قوة أو ضعفا ، إضافة إلى مقدار التضحية بالنفس والمال من أجل خدمة المبادئ .

وإذا نظرنا إلى واقع المسلمين في العهد النبوي نجد أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا في ثبات دائم على المبادئ السامية التي من أجلها قطعوا الوشائج مع الأقارب والأصدقاء والحلفاء الذين لم يدخلوا في الإسلام ، ونجد أن الانتصار المادي لايبطرهم ولايطغيهم ، وأن الإصابات المادية لاتضعفهم ولاتحطم معنويتهم ، وأن حماسهم في الدفاع عن الإسلام ثابت على قوته ، وأن طاعتهم لقائدهم ﷺ تعتبر مضرب الأمثال ، حتى اعترف بذلك الأعداء أنفسهم ، وأن سلوكهم الاجتماعي في قمة التفوق الأخلاقي حيث يُؤثر بعضهم بعضا بأمور الحياة الدنيا ، وأن أسمى أمانيهم أن ينالوا الشهادة في سبيل الله تعالى .

وهذا يعني أنهم في انتصار دائم وإن واجهوا الخسائر المادية في بعض لقاءاتهم مع أعدائهم .

نعم ، لو أن أفراد هاتين السريتين ألقَوا بأنفسهم لأعدائهم وتخلوا عن دينهم الذي من أجله خرجوا لكان ذلك هزيمة واضحة لدولة الإسلام، وانتكاسة كبرى للدعوة الإسلامية ، ولكن أنّى يكون ذلك وهم يتغنّون بالشهادة ويقول الواحد منهم إذا قُتل « فزت ورب الكعبة»! .

إن أعظم انتصار لدعوة الإسلام أن يجود أفرادها بدمائهم الزكية من أجلها .

إن الإسلام دين عظيم ، ولايُفْدَى العظيم إلا بالعظيم ، ولا أعظم من أن يجود الإنسان بدمه فداء لدينه .

فلذلك كان استشهاد هؤلاء العظماء نصراً عظيماً للإسلام .

إن بعض النفوس تظل في شك من مصداقية هذه الدعوة ومدى ثباتها أمام الأعاصير العاتية ، حتى ترى قَسَمات الفرح بادية على وجوه أفرادها وهم يواجهون الموت في سبيلها .

وإن المشهد العالي الذي مثَّله حرام بن ملحان رضي الله عنه وقد اخترق الرمح ظهره حتى خرج من صدره وأصبح يتلقى الدم بيديه ويمسح به وجهه ورأسه ويقول « فزت ورب الكعبة » . . إن هذا المشهد يجعل أقسى القلوب وأعظمها تحجراً يتأثر ، ويستصغر نفسه أمام هؤلاء العظماء الذين لاتصفَرُّ وجوههم فزعا من الموت وإنما يعلوها البشر والسرور، وتغشاها السكينة والطمأنينة . ولقد كان لبعض هذه المشاهد أثر في إسلام بعض مرتكبي هذه الجريمة فيما بعد كما جاء في أخبار هذه السرية .

ونجد من المواقف العالية في هذا الخبر أن رسول الله ﷺ وَدَى ذينك الرجلين العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري لكونهما يحملان عقداً منه ﷺ ولم يؤاخذهما بما فعل بعض أفراد قومهما ، وهذا يمثِّل منتهى القمة في الوفاء بالعهود .

لقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يعتبر عمل عمرو بن أمية جزءاً من الانتقام الذي ينبغي أن يواجه به المجرمون المعتدون ، ولكن ما ذنب الأبرياء حتى يؤخذوا بجريرة المعتدين من قومهم ؟ ! .

إن هذا يعتبر مثلا من الرقي الأخلاقي الذي بلغه المسلمون في ظل تطبيقهم لتوجيهات الإسلام العالية .

* * *

٨ – مواقف في إجلاء بني النَّضير –

أخرج الإمام عبد الرزاق الصنعاني عن معمر عن الزهري قال : وأخبرني عبد الله بن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب ا لنبي ﷺ أن كفار قريش كتبوا إلى عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول ، ومن كان يعبد الأوثان من الأوس والخزرج ، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة ، قبل وقعة بدر ، يقولون : إنكم آويتم صاحبنا ، وإنكم أكثر أهل المدينة عددًا ، وإنا نُقسم بالله لتقتلُنَّه أو لتُخرجُنَّه ، أو لنستعينَنَّ عليكم العرب ، ثم لنسيرنَّ إليكم بأجمعنا ، حتى نقتل مقاتلتكم ، ونستبيح نساءكم .

فلما بلغ ذلك ابن أُبَيّ ومن معه من عبدة الأوثان ، تراسلوا ، فاجتمعوا وأرسلوا ، وأجمعوا لقتال النبي ﷺ وأصحابه ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم في جماعة ، فقال : لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ، ما كانت لتكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم ، فأنتم هؤلاء تريدون أن تقتلوا أبناءكم وإخوانكم ، فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرّقوا .

فبلغ ذلك كفار قريش ، وكانت وقعة بدر ، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود : إنكم أهل الحلقة والحصون ، وإنكم لتقاتلُنَّ صاحبنا أو لنفعلنّ كذا وكذا ، ولايحول بيننا وبين خَدَم نسائكم شيء -وهي الخلاخيل - .

فلما بلغ كتابهم اليهود أجمعت بنو النضير على الغدر ، فأرسلت إلى النبي ﷺ : اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك ، ولنخرج في

ثلاثين حبراً ، حتى نلتقي في مكان كذا نصَف بيننا وبينكم ، فيسمعوا منك ، فإن صدّقوك وآمنوا بك آمنّا كلُّنا ، فخرج النبي ﷺ في ثلاثين من أصحابه ، وخرج إليه ثلاثون حبراً من يهود ، حتى إذا برزوا في بَرَاز من الأرض ، قال بعض اليهود لبعض : كيف تخلصون إليه ، ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه ، كلهم يُحبّ أن يموت قبله ، فأرسلوا إليه : كيف تفهم ونفهم ونحن ستون رجلاً؟ اخرج في ثلاثة من أصحابك ، ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا ، فليسمعوا منك ، فإن آمنوا بك آمَنَّا كُلُّنا وصدقناك ، فخرج النبي ﷺ في ثلاثة نفر من أصحابه ، واشتملوا[1] على الخناجر ، وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ .

فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى أخيها ، وهو رجل مسلم من الأنصار ، فأخبرته خبر ما أرادت بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ فأقبل أخوها سريعًا ، حتى أدرك النبي ﷺ ، فسارّه بخبرهم ، قبل أن يصل النبي ﷺ إليهم ، فرجع النبي ﷺ .

فلما كان من الغد ، غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب ، فحاصرهم ، وقال لهم : إنكم لاتأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه ، فأبوا أن يعطوه عهدًا ، فقاتلهم يومهم ذلك هو والمسلمون ، ثم غدا الغد على بني قريظة بالخيل والكتائب ، وتَرك بني النضير ، ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه ، فانصرف عنهم ، وغدا إلى بني النضير بالكتائب ، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء ، وعلى أن لهم ما أقلّت الإبل إلاّ الحلقة ، - والحلقة : السلاح - فجاءَت بنو النضير . واحتملوا ما أقلّت الإبل من

---

(١) أي اليهود الثلاثة .

أمتعتهم ، وأبواب بيوتهم وخشبها ، فكانوا يُخربون بيوتهم ، فيهدمونها فيحملون ما وافقهم من خشبها ، وكان جلاؤهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام .

وكان بنو النضير من سبط من أسباط بني إسرائيل ، لم يُصبهُم جلاءٌ منذ كتب الله على بني إسرائيل الجلاءَ . فلذلك أجلاهم رسول الله ﷺ ، فلولا ما كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا كما عُذِّبتْ بنو قريظة ، فأنزل الله ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ حتى بلغ ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) وكانت نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة ، فأعطاه الله إياها ، وخصه بها ، فقال : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ ﴾ (٢) يقول : بغير قتال ، قال : فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين ، وقسمها بينهم ، ولرجلين من الأنصار كانا ذوي حاجة ، لم يقسم لرجل من الأنصار غيرهما (٣) وبقي منها صدقة رسول الله ﷺ في يد بني فاطمة (٤) .

---

(١) سورة الحشر ، الآيات : ١ - ٦ .

(٢) سورة الحشر الآية : ٦ .

(٣) جاء في رواية ابن إسحاق أنهما سهل بن حنيف وأبو دجانة سماك بن خرشة رضي الله عنهما .

(٤) مصنف عبد الرزاق ٥/ ٣٥٨ - ٣٦١ .

وأخرجه الإمام البخاري بعدة روايات مختصرا - صحيح البخاري ، المغازي ، رقم٤٠٢٨-٤٠٣٢ (٧/ ٣٢٩) .

وأخرجه الإمام أبو داود من طريق عبد الرزاق بهذا الإسناد وذكر نحوه - سنن أبي داود ، الخراج باب ٢٣ حديث ٣٠٠٤ (٣/ ٤٠٤) . =

في هذا الخبر مواقف وعبر فمن ذلك :

أولاً : وصف ما تعرض له المسلمون في المدينة بعد هجرتهم من قيام زعماء الكفر بمكة بتأليب الوثنيين في المدينة من الأوس والخزرج الذين لم يدخلوا في الإسلام على حرب المسلمين من داخل المدينة، وكان عبد الله بن أُبيّ ابن سلول آنذاك لم يسلم هو ومجموعة من قومه، وكاد أن يقوم هو وأتباعه بمحاربة المسلمين لولا أن النبي ﷺ نجح في إقناعهم بمخاطر قيام حرب داخل المدينة فأحجموا عن ذلك .

ولما أظهر ابن أُبيّ الإسلام بعد غزوة بدر هو وأتباعه يئس الكفار منهم فكتبوا لليهود يهددونهم بمواجهتهم بحرب مفنية إن لم يقوموا بمحاربة رسول الله ﷺ وأصحابه، وصادف ذلك هوى في نفوسهم فعزموا على الحرب ونقضوا العهد، ولكن لما كانوا عاجزين - لجبنهم - عن مواجهة المسلمين قتاليا فإنهم لجئوا إلى سلاحهم الذي يتقنونه ولايكلفهم مشقة كبيرة ولاثمنا باهظا، حيث عزموا على الغدر برسول الله ﷺ والقيام باغتياله، وفي بالهم أنه لو تَمَّ ذلك لتفرق أصحابه وانتهت دولة الإسلام .

وأخرجه الحاكم مختصرا وصححه على شرط الشيخين وأقره الذهبي - المستدرك ٢/ ٤٨٣ - .

وذكر الحافظ ابن حجر أن الحافظ ابن مردويه أخرج هذا الخبر بإسناد صحيح إلى معمر عن الزهري بهذا الإسناد وذكر نحوه - فتح الباري ٧/ ٣٣١ - .

وأخرجه ابن إسحاق مع الاختلاف في بيان سبب خروج النبي ﷺ إلى بني النضير حيث ذكر أنه ﷺ خرج إليهم يستعينهم في دية الرجلين العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية ثم هموا بالغدر به وأن الله تعالى أخبره بما همُّوا به - سيرة ابن هشام ٣/ ٢١٩ - ٢٢٥ - .

وفي هذا بيان لحجم المعاناة التي واجهها مجتمع الإسلام في أول نشوئه وفي حال قلة أفراده ، وحينما يكون العدو من داخل البلد فإن عداوته تكون أنكى ومشكلته تكون أكثر تعقيدا ، لأن الأعداء من الخارج تكون المواجهة معهم ليوم واحد أو أيام معدودة ثم ينتهي الأمر ، أما الأعداء من الداخل فإن المصيبة بهم دائمة ، والحذر منهم يجب أن يكون دائما .

ومن هذه المعاناة الشديدة ندرك حجم المخاطر التي واجهها رسول الله ﷺ وهو يقود مجتمعه الصغير بين أعداء من الخارج يصرفون طاقاتهم وأموالهم في تأليب القبائل العربية على حرب المسلمين ، ويقومون بغزو المدينة بجيوش ضخمة ، وبين أعداء من الداخل أيديهم على أكبادهم من الغيظ الشديد والحنق الأثيم ، إلى جانب ما يملكه اليهود من أموال كثيرة يبخلون بها عن المكارم ولكنهم يسخون بها في مواجهة المسلمين في حرب يرونها مصيرية .

* * *

٩- مواقف في التوكل على الله والشجاعة والعفو والصبر على الأذى- (غزوة ذات الرقاع)

قال الإمام البخاري : وقال ابن إسحاق سمعت وهب بن كيسان ، سمعت جابرا : « خرج النبي ﷺ إلى ذات الرقاع من نخل فلقي جمعا من غطفان فلم يكن قتال ، وأخاف الناس بعضهم بعضا ، فصلى النبي ﷺ ركعتي الخوف (١) .

وأخرج الإمام البخاري رحمه الله من حديث جابر رضي الله عنه أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبَلَ نجد ، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه ، فأدركتهم القائلة في واد كثير العضَاه(٢) ، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس في العضاه يستظلون بالشجر ، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلّق بها سيفه ، قال جابر : فنمنا نومة فإذا رسول الله ﷺ يدعونا فجئناه فإذا عنده أعرابي جالس ، فقال رسول الله ﷺ : إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده متكئًا فقال لي : من يمنعك مني؟ قلت : الله، فها هو ذا جالس ، ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ .

وقد جاء في رواية أخرى للإمام البخاري أن اسم هذا الأعرابي «غوْرث بن الحارث » (٣) .

---

(١) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤١٢٧ (٧/ ٤١٧) .

وانظر سيرة ابن هشام ٣/ ٢٣٩ .

(٢) العضاه شجر السمر الكبار .

(٣) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤١٣٥ و ٤١٣٦ (٧/ ٤٢٦)، وقد تقدم في غزوة ذي أَمَرْ خبر مشابه - ٥/ ٣٨- إلا أن صاحب تلك القصة هو دعثور بن الحارث، وقد ذكر الحافظ ابن حجر أن الظاهر من كلام الواقدي أنهما قصتان في غزوتين - الفتح ٧/ ٤٢٨ - .

وأخرج محمد بن إسحاق بإسناده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع من نخل، فأصاب رجل امرأة رجل من المشركين - يعني أخذها سبيّة - فلما انصرف رسول الله ﷺ قافلا ، أتى زوجها وكان غائبا ، فلما أُخبر الخبر حلف لاينتهي حتى يهريق في أصحاب محمد ﷺ دما ، فخرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ، فنزل رسول الله ﷺ منزلا ، فقال : من رجل يكلؤنا ليليتنا هذه ؟ قال : فانتدب رجل من المهاجرين ورجل آخر من الأنصار فقالا : نحن يارسول الله ، قال : فكونا بفم الشعب، قال: وكان رسول الله ﷺ وأصحابه قد نزلوا إلى شعب من الوادي، وهما عمار بن ياسر وعباد بن بشر فيما قال ابن هشام .

قال ابن إسحاق : فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب قال الأنصاري للمهاجري : أيّ الليل تحب أن أكفيكه أوّله أو آخره ؟ قال : بل اكفني أوّله . قال : فاضطجع المهاجري فنام ، وقام الأنصاري يصلي ، قال: وأتى الرجل ، فلما رأى شخص الرجل عرف أنه ربيئة القوم - يعني طليعة القوم - قال : فرمى بسهم فوضعه فيه ، قال : فنزعه ووضعه ، فثبت قائمًا ، قال : ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه ، قال : فنزعه فوضعه وثبت قائمًا ، ثم عاد له بالثالث فوضعه فيه ، قال : فنزعه فوضعه ، ثم ركع وسجد ثم أهبَّ صاحبه - يعني أيقظه من نومه - فقال : اجلس فقد أُثبتُّ - يعني أثبتتني الجراحة - قال : فوثب فلما رآهما الرجل عرف أنهما قد نذرا به فهرب ، قال : ولما رأى المهاجري ما بالأنصاري من

الدماء قال : سبحان الله ، أفلا أهبَبْتني أوّل ما رماك ؟ قال : كنت في سورة اقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها ، فلما تابع عليّ الرمي ركعت فآذنتك ، وايم الله لولا أن أضيع ثغرًا أمرني رسول الله ﷺ لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذَها (١) .

في هذه الأخبار مواقف :

الموقف الأول في مبادرة النبي ﷺ إلى غزو قبيلة غطفان في مكان تجمعهم وعدم تأخير ذلك إلى أن يصلوا إلى المدينة ، وقد سبق في سرية أبي سلمة بيان محاولة قبيلة غطفان الوصول إلى المدينة لغزو أهلها ونهب ما يستطيعون من خيراتها .

وقد كان في خروج النبي ﷺ إليهم في مكان تجمعهم أقوى رادع لهم عن التفكير مرة أخرى في غزو المدينة .

الموقف الثاني : في اتصاف النبي ﷺ بالتوكل على الله تعالى والاعتماد عليه في النصر على الأعداء ، فحينما قال له غورث بن الحارث : من يمنعك مني ؟ قال : الله ، وهذا يعتبر درسًا للأمة في اللجوء إلى الله سبحانه واستمداد النصر منه وحده .

الموقف الثالث : في اتصاف النبي ﷺ بالشجاعة الفذة ورباطة الجأش ، حيث كان ثابت القلب هادىء النفس والسيف في يد عدوه مصلتا وهو مجرد من السلاح .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٤٥ .

وقال الحافظ ابن حجر : وأخرجه أحمد وأبو داود والدارقطني وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم – فتح الباري ١/ ٢٨١ .

الموقف الرابع : في اتصاف النبي ﷺ بالعفو عند المقدرة ، فقد عفا عن ذلك الأعرابي وهو مستحق العقوبة ، والعفو عند المقدرة خصلة عظيمة لايقدر عليها إلا الكاملون من الرجال .

ولاشك أن لهذا الخلق الكريم أثرًا بالغًا في الدعوة إلى الإسلام ، فقد جاء في بعض روايات هذا الخبر أن ذلك الأعرابي أسلم وأنه رجع إلى قومه فاهتدى به خلق كثير(١) .

الموقف الخامس : في الخبر الأخير مثل واضح على قوة الصبر واحتمال الأذى في سبيل الله تعالى لدى الصحابة رضي الله عنهم ، كما أنه يدل على عنايتهم بالصلاة وأنها أغلى عندهم من أنفسهم وأموالهم ، وهذه الصلاة التي عُمرت بالخشوع وكُلِّلت بحضور القلب مع الله تعالى هي الصلاة المؤثرة ، التي أنجبت أبطالا عظماء كهؤلاء الصحابة الكرام، فعلى قدر ما يعطونه ربهم جل جلاله في الليل من الخضوع والتذلل وتجريد القلب لعبادته يعطيهم بالنهار من القوة على مكابدة الأعداء ومواجهة الشدائد ، ولذلك لانجد في الأمر غرابة إذا وجدناهم ينامون قليلا من الليل ويواجهون عدوهم مع انبلاج الفجر بعزائم قوية وهمم عالية تفوق طاقة الكفار بأضعاف ، مع أن أعداءهم قد أخذوا قسطا أكبر بكثير من النوم والراحة ، فهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم كما جاء في وصفهم « عُبَّاد في الليل فرسان في النهار » .

ونلاحظ في هذا الخبر أن عَبَّاد بن بشر قد أغفل من حساب فكره النظر إلى مستقبل أولاده وأهله وأمواله فيما إذا أصيب واستشهد ، وإنما

---

(١) فتح الباري ٧/ ٤٢٨ .

كان يوازن النظر حينما رماه ذلك الرجل بين أمرين : أن يكمل السورة التي بدأها أو أن يقطعها ليوقظ أخاه عمارا حتى لايضيّع المهمة الكبيرة التي أناطها به رسول الله ﷺ ، وكلا الأمرين من أمور الآخرة، وبهذا نعلم أن الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا يحسبون للدنيا حسابا في تفكيرهم وإنما كان تفكيرهم منحصرا في أعمال الآخرة .

ومما ينبغي الإشارة إليه أن عباد بن بشر الأشهلي الأنصاري لم يستشهد في ذلك اليوم فقد برئ من جراحه ، وإنما استشهد في معركة اليمامة رضي الله عنه .

* * *

١٠ – مواقف في غزوة بدر المَوْعد –

قال الواقدي وكانت لهلال ذي القعدة على رأس خمسة وأربعين شهرًا ، وغاب رسول الله ﷺ فيها ستَّ عشرة ليلة ، ورجع إلى المدينة لأربع عشرة بقيت من ذي القعدة ، واستخلف على المدينة ابنَ رَواحة .

ثم أخرج عن عدد من الشيوخ أنهم قالوا : لمّا أراد أبو سفيان أن ينصرف يوم أُحُد نادى : موعدٌ بيننا وبينكم بَدر الصَّفْراء رأس الحَول ، نلتقى فيه فنقتتل . فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : قل نعم إن شاء الله .

فافترق الناس على ذلك ، ورجعت قُريش فخبّروا من قبَلَهم با لموعد وتهيّئوا للخروج وأجلبوا [١] .

وكان هذا عندهم أعظم الأيام لأنهم رجعوا من أُحُد والدولة لهم ، طمعوا في بَدر الموعد أيضًا بمثل ذلك من الظفَر .

وكان بَدر الصَّفْراء مَجمعًا يجتمع فيه العرب ، وسوقًا تقوم لهلال ذي القعدة إلى ثمان ليال خلون منه ، فإذا مضت ثماني ليال منه تفرّق الناس إلى بلادهم . فلما دنا الموعد كَره أبو سفيان الخروج إلى رسول الله ﷺ ، وجعل يُحبّ أن يُقيم رسول الله وأصحابه بالمدينة ولا يُوافقون الموعد. فكان كل من ورد عليه مكَّةَ يُريد المدينة أظهر له : إنا نُريد أن نغزوا محمّدًا في جَمع كَثيف . فيَقْدم القادم على أصحاب رسول الله ﷺ فيراهم على تجهُّز فيقول : تركتُ أبا سُفيان قد جمع الجموع ، وسار في العرب ليسير إليكم لموعدكم . فيكره ذلك المسلمون ويُهيّبهم ذلك .

---

(١) أجلبوا : تجمعوا وتألبوا . (النهاية ، ج١ ، ص١٦٩) .

ويقدم نُعَيم بن مَسعود الأشْجَعي مكة ، فجاءَه أبو سُفيان بن حرب في رجال من قُريش فقال : يا نُعَيم ، إني وعدت محمداً وأصحابه يوم أُحُد أن نلتقي نحن وهو ببدر الصَّفراء على رأس الحول ، وقد جاء ذلك . فقال نعيم : ما أقدمني إلاّ ما رأيتُ محمّداً وأصحابه يصنعون من إعداد السلاح والكُراع ، وقد تجلَّب إليه حلفاءُ الأوس من بَلي وجُهَيْنَة وغيرهم ، فتركت المدينة أمس وهي كَالرُّمانَة .

فقال أبو سفيان : أحقًا ما تقول ؟ قال : إي والله . فجَزَوا نُعَيمًا خيراً ووصلوه وأعانوه ، فقال أبو سُفيان : أسمعُك تذكر ما قد أعدّوا وهذا عام جَدْب .

قال نُعيم : الأرض مثل ظهر التُّرس ، ليس فيها لبعير شيءٌ . قال أبو سفيان : وإنما يُصلحنا عام خصْب غَيداق(1) ترعى فيه الظَّهر والخيل ونشرب اللبن ، وأنا أكره أن يخرج محمّدٌ وأصحابه ولا أخرج فيجترئون علينا ، ويكون الخُلف من قبلهم أحبَّ إلي . ونجعل لك عشرين فَريضة ، عشراً جذاعًا(2) وعشراً حقاقًا (3) ، وتُوضَع لك على يَدَي سُهيل بن عمرو ويضمنها لك . قال نُعيم : رضيتُ . وكان سُهيل صديقًا لنُعيم فجاءَ سُهيلاً فقال : يا أبا يزيد ، تضمن لي عشرين فَريضة على أن أقدم المدينة فأُخذِّل أصحاب محمّد ؟ قال : نعم . قال : فإني خارج .

---

(1) غيداق : واسع مخصب . (لسان العرب ، ج١٢ ، ص ١٥٦) .

(2) الجذاع : جمع الجذع ، وهو من الإبل مادخل في السنة الخامسة . ومن البقر والمعز ما دخل في السنة الثانية . (النهاية ، ج١ ، ص ١٥٠) .

(3) الحقاق : جمع الحقة ، وهو من الإبل ما دخل في السنة الرابعة إلى آخرها وسمى بذلك لأنه استحق الركوب (النهاية ، ج ١ ، ص ٢٤٤) عن هامش المغازي .

فخرج على بعير حملوه عليه . وأسرع السير فقدم وقد حلق رأسه معتمراً فوجد أصحاب رسول الله ﷺ يتجهَّزون ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : من أين يانُعيم ؟ قال : خرجت معتمراً إلى مكة . فقالوا : لك علمٌ بأبي سفيان ؟ قال : نعم ، تركت أبا سُفيان قد جمع الجموع وأجلب معه العرب ، فهو جاء فيما لاقبَلَ لكم به ، فأقيموا ولاتخرجوا فإنهم قد أتوكم في داركم وقَرَاركم ، فلن يُفلت منكم إلا الشريد ، وقُتلت سراتكم وأصاب محمّداً في نفسه ما أصابه من الجراح . فتُريدون أن تخرجوا إليهم فتلقوهم في موضع من الأرض ؟ بئس الرأي رأيتم لأنفسكم - وهو موسم يجتمع فيه الناس - والله ما أرى أن يُفلت منكم أحد ! وجعل يطوف بهذا القول في أصحاب رسول الله ﷺ حتى رعَّبهم وكرّه إليهم الخروج ، حتى نطقوا بتصديق قول نُعيم ، أو من نطق منهم .

واستبشر بذلك المنافقون واليهود وقالوا : محمّدٌ لايُفلت من هذا الجمع ! واحتمل الشيطان أولياءَه من الناس لخوف المسلمين ، حتى بلغ رسول الله ﷺ ذلك ، وتظاهرت به الأخبار عنده ، حتى خاف رسول الله ﷺ ألاَّ يخرج معه أحد . فجاءَه أبو بكر بن أبي قُحافة رضي الله عنه ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقد سمعا ما سمعا فقالا : يارسول الله إن الله مُظهرٌ دينه ومُعزٌّ نبيّه ، وقد وعدْنا القوم موعداً ونحن لا نُحبُّ أن نتخلف عن القوم . فيرون أن هذا جبن منَّا عنهم ، فَسِرْ لموعدهم ، فو الله إنَّ في ذلك لخيرة ! فُسرّ رسول الله ﷺ بذلك ثم قالَ : والذي نفسي بيده لأخرجن وإن لم يخرج معي أحد ! قال : فلما تكلَّم رسول الله ﷺ تكلَّم بما بصّر الله عز وجل المسلمين ، وأذهب ما كان رعَّبهم الشيطان ، وخرج المسلمون بتجارات لهم إلى بَدر .

ثم إن أبا سُفيان قال . يامعشر قُرَيش ، قد بعثنا نُعَيم بن مَسعود لأن يُخذِّل أصحابَ محمد عن الخروج وهو جاهد ، ولكن نخرج نحن فنسير ليلة أو ليلتَيْن ثم نرجع ، فإن كان محمدٌ لم يخرج بلغه أنَّا خرجنا فرجعنا لأنه لم يخرج ، فيكون هذا لنا عليه ، وإن كان خرج أظهرنا أنَّ هذا عام جَدْب ولا يُصلحنا إلا عامُ عشب . قالوا : نعْمَ ما رأيت . فخرج في قريش . وهم ألفان ومعهم خمسون فرسًا . حتى انتهوا إلى مَجَنَّة[1] ثم قال : ارجعوا ، لا يُصلحنا إلا عام خصْب غيداق ، نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن ، وإنَّ عامكم هذا عام جَدْب ، وإني راجع فارجعوا . فسمّى أهل مكَّة ذلك الجيش جيش السَّويق ، يقولون : خرجوا يشربون السَّويق .

وكان يحمل لواءَ رسول الله ﷺ الأعظم يومئذ علَي بن أبي طالب رضي الله عنه . وأقبل رجلٌ من بني ضَمْرَة يقال له مَخشيّ بن عمرو ، وهو الذي حالف رسول الله ﷺ على قومه في غزوة رسول الله ﷺ الأولى إلى وَدّان فقال – والناس مجتمعون في سوقهم و أصحاب رسول الله ﷺ أكثر أهل ذلك الموسم – فقال : يامحمد لقد أخبرْنا أنه لم يبق منكم أحد ، فما أعلمُكم إلا أهل الموسم ، فقال رسول الله ﷺ – ليرفع ذلك إلى عدوّه من قُريش – : ما أخرجنا إلاّ موعدُ أبي سُفيان وقتالُ عدوّنا ، وإن شئت مع ذلك نبذنا إليك وإلى قومك العهدَ . ثم جالدناكم قبل أن نبرح من منزلنا هذا . فقال الضَّمْري : بل نكفّ أيدينا عنكم ونتمسك بحلْفك .

(١) مجنة : موضع على أميال يسيرة من مكة بناحية مر الظهران (معجم البلدان، ج٧، ص٣٨٩).

وسمع بذلك مَعْبَد ابن أبي مَعبد الخُزاعي فانطلق سريعًا . وكان مُقيمًا ثمانية أيام ، وقد رأى أهل الموسم ورأى أصحاب رسول الله ﷺ ، وسمع كلام مخشي ، فانطلق حتى قدم مكة . فكان أوّل من قدم بخبر موسم بَدر . فسألوه فأخبرهم بكثرة أصحاب محمد ، وأنهم أهل ذلك الموسم ، وما سمع من قول رسول الله ﷺ للضَّمْري ، وقال : وافَى محمدٌ في ألفَين من أصحابه ، وأقاموا ثمانية أيام حتى تصدّع أهل الموسم . فقال صفوان بن أمية لأبي سُفيان : قد والله نهيتُك يومئذ أن تَعدَ القوم ، وقد اجترؤوا علينا ورأوا أن قد أخلفناهم ، وإنما خلّفنا الضعف عنهم .

فأخذوا في الكَيْد والنفقة في قتال رسول الله ﷺ واستجلبوا من حولهم من العرب ، وجمعوا الأموال العظام ، وضربوا البعث على أهل مكة ، فلم يُترك أحدٌ منهم إلا أن يأتي بما قل أو كَثُر ، فلم يُقْبَل من أحد منهم أقل من أوقية لغزوة الخَنْدَق (١) .

مواقف وعبر في هذا الخبر :

في هذا الخبر ظهرت أخلاق المسلمين وأخلاق الكفار ، وظهر مَن المنتصر حقا في معركة أحد ومن المنهزم ، فقد ظهرت شجاعة المسلمين العالية وإقدامهم على المكاره ، ووفاؤهم بالوعد ، كما ظهر جبن الكفار وفشلهم .

وظهر أن المنتصر حقا في معركة أحُد هم المسلمون لأنهم خرجوا

(١) مغازي الواقدي ١/ ٣٨٤ - ٣٨٩ .

وأخرجه ابن إسحاق مختصرا - سيرة ابن هشام ٣/ ٢٤٧ - .

للقتال بعد سنة بنفوس وثابة ومعنويات عالية ، بينما تقاعس الكفار وجبنوا ، وصاروا يبذلون من أموالهم لمن يخذِّل رسول الله ﷺ وأصحابه عن الخروج ليكون النكول من المسلمين حتى لايفتضح المشركون أمام العرب ، وليحتفظوا بنتائج معركة أحد التي وهموها نصراً وليست كذلك .

إن الحملة الإعلامية التي قام بها المشركون لإثبات انتصارهم في أحد وتفوقهم الحربي قد انتكست على رؤوسهم وأصبحوا مثار السخرية عند العرب ، وثبت للناس أن ارتباك المسلمين للمفاجأة في أُحد وسقوط القتلى منهم لايعني انهزامهم ولا ضعفهم العسكري .

ولقد ظهر في هذا الخبر مثل من حزم النبي ﷺ وقوة عزيمته وصدقه ووفائه وإدراكه الدقيق لعوامل القوة والانتصار ، وعوامل الضعف والانهزام ، حيث قال لمستشارَيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما : «والذي نفسي بيده لأخرجنَّ وإن لم يخرج معي أحد » وذلك حينما أُشيع في أوساط المسلمين كراهية بعضهم للخروج .

وفي هذا الخبر ظهر إرجاف اليهود والمنافقين بسبب ما قام به نعيم بن مسعود الغطفاني من السفارة لصالح قريش حيث بثَّ دعاية إعلامية واسعة عن ضخامة جيش المشركين الذي أعدوه لتلك الغزوة ، فنطق اليهود والمنافقون بكلمات التخذيل والإرجاف ، حيث قالوا : محمد لايفلت من هذا الجمع ، ولكن مع الإرجاف الكبير من خارج المدينة وداخلها فإن حماس المسلمين لم يفتر وعزيمتهم لم تضعف ومعنويتهم الحربية ظلت عالية بمجرد سماعهم عن عزم النبي ﷺ على الخروج وهذا

يعتبر مثلا عاليا في الطاعة والتسليم لأوامر الله جل وعلا ورسوله ﷺ .

وموقف يذكر لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما حينما أشارا على رسول الله ﷺ بالخروج في الوقت الذي بلغت فيه الدعاوى الإعلامية ذروتها وتأثر بها بعض أفراد المسلمين .

ويصل المسلمون إلى بدر ويشاركون الناس في الموسم التجاري ، ويصبحون أعظم الوفود كثرة ، ثم يعودون بعد ثمانية أيام وقد سلموا من الأذى ، وكسبوا انتصارا معنويا عظيما على أعدائهم بدون قتال ، كما أنهم ربحوا في تجاراتهم ربحا طيبًا كما ذكر عثمان بن عفان رضي الله عنه .

* * *

١١ – مواقف في غزوة دُومَة الجَنْدَل –

قال الواقدي : في ربيع الأول على رأس تسعة وأربعين شهراً . خرج رسول الله ﷺ لخمس ليال بقين من ربيع الأول ، وقدم لعشر بقين من ربيع الآخر .

فحدّثني ابن أبي سَبْرَةَ عن عبد الله بن أبي لَبيد ، عن أبي سَلَمَة بن عبد الرحمن . وحدّثني عبد الرحمن بن عبد العزيز ، عن عبد الله بن أبي بكر ، فكلاهما قد حدّثنا بهذا الحديث ، وأحدهما يزيد على صاحبه ، وغيرهما قد حدّثنا أيضاً .

قالوا : أراد رسول الله ﷺ أن يدنو إلى أدنى الشام ، وقيل له إنها طَرَف من أفواه الشام ، فلو دنوت لها كان ذلك مما يُفزع قَيْصَر . وقد ذُكر له أنَّ بدُومة الجَندل جمعًا كثيراً ، وأنهم يظلمون من مرّ بهم من الضَّافطَة[١] ، وكان بها سوقٌ عظيمٌ وتجّار ، وضوَى إليهم قومٌ من العرب كثير ، وهم يُريدون أن يدنوا من المدينة .

فَنَدب رسول الله ﷺ الناس ، فخرج في ألف من المسلمين ، فكان يسير الليل ويكْمُن النهار ، ومعه دليلٌ له من بني عُذْرَة يقال له مَذكورٌ ، هاد خرِّيت ، فخرج رسول الله ﷺ مُغذّاً للسير ، ونكب عن طريقهم ، ولمّا دنا رسول الله ﷺ من دُومة الجَنْدَل – وكان بينه وبينهما يوم أو ليلة سَيْرَ الراكب المُعْنق[٢] – قال له الدليل : يارسول الله ، إنَّ سوائمهم ترعى

(١) الضافطة : جمع ضافط ، وهو الذي يجلب الميرة والمتاع إلى المدن ، والمكارى الذي يكرى الأحمال وكانوا يومئذ قوما من الأقباط يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت . (النهاية ، ج٣ ، ص٢٢) .

(٢) أعنق الراكب فرسه إذا أعجلها . (القاموس المحيط ، ج٣ ، ص ٢٦٢) .

فأقم لي حتى أطّلع لك . قال رسول الله ﷺ : نعم .

فخرج العُذريّ طليعةً حتى وجد آثار النَّعَم والشاء وهم مُغرّبون ، ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره وقد عرف مواضعهم ، فسار النبي ﷺ حتى هجم على ماشيَتهم ورعائهم ، فأصاب رسول الله ﷺ من أصاب ، وهرب من هرب في كلّ وجه .

وجاءَ الخبر أهلَ دُومة الجَنْدَل فتفرّقوا ، ونزل رسول الله بساحتهم ، فلم يجد بها أحدًا ، فأقام بها أيّامًا وبثّ السرايا وفرّقها حتى غابوا عنه يومًا ثم رجعوا إليه ، ولم يُصادفوا منهم أحدًا ، وترجع السريّة بالقطعة من الإبل ، إلا أنّ محمد بن مَسْلَمَة أخذ رجلاً منهم ، فأتى به النبي ﷺ فسأله عن أصحابه فقال : هربوا أمس حيث سمعوا بأنك قد أخذت نَعَمهم . فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام أيّامًا فأسلم ، فرجع النبي ﷺ إلى المدينة ، وكان رسول الله ﷺ استعمل على المدينة سباعَ بن عُرْفُطَة (١) .

مواقف في هذا الخبر :

هذا الخبر يدلنا على دقة الرصد الحربي عند المسلمين في العهد النبوي حيث علم الرسول ﷺ بماهمّ به أهل دومة الجندل من الزحف على المدينة ومهاجمة المسلمين ، فقام بهذه الغزوة الموفقة التي أدت إلى تلك النتائج الطيبة لصالح المسلمين .

ويظهر في هذا الخبر براعة النبي ﷺ في الإدارة الحربية حيث وصل

---

(١) مغازي الواقدي ١/ ٤٠٢ - ٤٠٤ ، والتعليقات من هامش هذا الكتاب .

وأخرجه ابن إسحاق مختصرا - سيرة ابن هشام ٣/ ٢٥٢ - .

إلى دومة الجندل في أقصى شمال الجزيرة وهو يقود جيشا كبيرا نسبيا فلم يعلم به أهل تلك البلاد حتى فاجأهم قبل أن يجتمعوا له ويُعدوا العدة للقائه . وبهذه الإدارة الحكيمة جنَّب النبي ﷺ أصحابه خوض معركة قد تكون شاقة عليهم مع حصول المسلمين على المكاسب الحربية التي أرادوها ، من إضعاف عدوهم معنويا وماديا ، وإرهابهم حتى لايفكروا مرة أخرى بغزو المسلمين .

* * *

١٢ - مواقف في غزوة المريسيع -

أخرج الواقدي بإسناده عن عدد من الشيوخ قالوا : إنَّ بَني الْمُصْطَلق من خُزاعة كانوا ينزلون ناحية الفُرْع (١) ، وهم حلفاء في بني مُدْلج ، وكان رأسهم وسيّدهم الحارث بن أبي ضرار ، وكان قد سار في قومه ومن قَدَر عليه من العرب ، فدعاهم إلى حرب رسول الله ﷺ ، فابتاعوا خيلاً وسلاحًا وتهيؤوا للمسير إلى رسول الله ﷺ . وجعلت الركبان تَقْدم من ناحيتهم فيُخبرون بمسيرهم ، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فبعث بُرَيدة بن الحُصَيب الأسلميّ يعلم علْم ذلك ، واستأذن النبي أن يقول(٢) فأذن له ، فخرج حتى ورد عليهم ماءَهم ، فوجد قومًا مغرورين قد تألّبوا وجمعوا الجموع ، فقالوا : مَن الرجل ؟ قال : رجلٌ منكم ، قدمت لما بلغني عن جمعكم لهذا الرجل ، فأسير في قومي ومن أطاعني فتكون يَدُنا واحدةً حتى نستأصله . قال الحارث بن أبي ضرار : فنحن على ذلك، فعَجِّلْ علينا . قال بُرَيدة : أركب الآن فآتيكم بجمع كثيف من قومي ومن أطاعني . فسرّوا بذلك منه ، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبر القوم ، فندب رسول الله ﷺ الناس ، وأخبرهم خبر عدوّهم فأسرع الناس للخروج .

قالوا : وخرج مع رسول الله ﷺ بَشَرٌ كثيرٌ من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قَطُّ مثلها ، ليس بهم رغبةٌ في الجهاد إلا أن يُصيبوا من عَرَض الدنيا ، وقرُب عليهم السفر .

فخرج رسول الله ﷺ حتى سلك على الحَلائق فنزل بها ، فأُتيَ

(١) يعني بين مكة والمدينة .

(٢) يعني أن يقول خلاف الحقيقة إيهامًا لهم .

يومئذ برجل من عبد القيس ، فسلَّم على رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ أين أهلُك ؟ قال : بالرَّوْحاء . قال : أين تُريد ؟ قال : إيّاك جئت لأُومن بك وأشهد أن ماجئتَ به الحقّ ، وأُقاتل معك عدوّك . قال له رسول الله ﷺ : الحمد لله الذي هداك للإسلام . قال : يارسول الله ، أيّ الأعمال أحبّ إلى الله ؟ قال : الصلاة في أوّل وقتها . قال : فكان الرجل بعد ذلك يُصلِّي حين تزيغ الشمس ، وحين يدخل وقت العصر ، وحين تغرُب الشمس ، لايُؤَخر الصلاة إلى الوقت الآخر .

قال : لما نزل ببَقْعاء أصاب عينا للمشركين فقالوا له : ماوراءك؟ أين الناس ؟ قال : لا علم لي بهم .

قال : فحدثني هشام بن سعد ، عن يعقوب ، عن زيد بن طلحة ، قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لتصدُقنَّ أو لأضربن عنقك . قال : فأنا رجلٌ من بَني المُصْطَلق ، تركت الحارث بن أبي ضرار قد جمع لكم الجموع ، وتجلَّب إليه ناسٌ كثير ، وبعثني إليكم لآتيه بخبركم وهل تحرّكتم من المدينة . فأتى عمر بذلك رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام وعرضه عليه ، فأبى وقال : لست بمُتَّبع دينكم حتى أنظر ما يصنع قومي ، إن دخلوا في دينكم كنت كأحدهم ، وإن ثبتوا على دينهم فأنا رجلٌ منهم . فقال عمر : يارسول الله ، أضرب عنقه ؟ فقدّمه رسول الله فضرب عنقه ، فذهب الخبر إلى بَني المُصْطَلق .

فكانت جُوَيرية بنت الحارث تقول بعد أن أسلمت : جاءَنا خبره ومقتله ومسير رسول الله ﷺ قبل أن يقدَم علينا النبي ﷺ فَسيءَ أبي ومن

معه وخافوا خوفًا شديدًا ، وتفرّق عنهم من كان قد اجتمع إليهم من أفْناء العرب ، فما بقي منهم أحدٌ سواهم .

ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى المُرَيْسيع وهو الماءُ فنزله ، وضُرب لرسول الله ﷺ قُبّةٌ من أدَم ، ومعه من نسائه عائشة وأُمّ سَلَمَة . وقد اجتمعوا على الماء وأعدّوا وتهيّؤوا للقتال ، فصفّ رسول الله ﷺ أصحابه ، ودفع راية المهاجرين إلى أبي بكر رضي الله عنه ، وراية الأنصار إلى سعد بن عُبادة رضي الله عنه ، ويقال كان مع عَمّار بن ياسر رضي الله عنه رايةُ المهاجرين .

ثم أمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فنادى في الناس : قولوا لا إله إلا الله ، تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم . ففعل عمر رضي الله عنه فأبَوا . فكان أوّل من رمى رجلٌ منهم بسهم ، فرمى المسلمون ساعةً بالنبل ، ثم إنَّ رسول الله ﷺ أمر أصحابه أن يحملوا ، فحملوا حملةَ رجل واحد فما أفلت منهم إنسان ، وقُتل عشرةٌ منهم وأُسر سائرهم . وسبى رسول الله ﷺ الرجال والنساء والذُّرّيّة ، وغُنمت النَّعمُ والشاء ، وما قُتل أحدٌ من المسلمين إلاّ رجلٌ واحد .

وكان أبو قَتادة يُحدّث قال : حمل لواءَ المشركين يومئذ صَفوان ذو الشُّقْر ، فلم تكن لي بأُهْبَة حتى شددتُ عليه وكان الفتح . وكان شعارهم : يامَنصور ، أمتْ أمتْ ! [1] .

وأخرج ابن إسحاق خبر هذه الغزوة باختصار ، ثم قال : وكان رسول الله ﷺ قد أصاب منهم سَبْيا كثيراً ، فشا قَسْمُه في المسلمين ،

(١) مغازي الواقدي ١/ ٤٠٤ - ٤٠٧ .

وكان فيمن أُصيب يومئذ من السَّبايا جُويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، زوجُ رسول الله ﷺ .

قال ابن إسحاق : حدثني محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عُروة بن الزبير ، عن عائشة ، قالت : لما قَّسم رسولُ الله ﷺ سبايا بني المُصْطلق ، وقعتْ جويُرية بنت الحارث في السَّهم لثابت بن قيس بن الشَّماس، أو لابن عمّ له فكاتَبَتْه على نفسها ، وكانت امرأة حُلْوَةً مُلاحة ، لايراها أحد إلا أخذت بنَفسه ، فأتت رسولَ الله ﷺ تَسْتعينه في كتابتها .

قالت عائشة : فو الله ماهو إلا أن رأيتُها على باب حُجرتي فكَرهتها، وعَرَفت أنه سيرى منها ﷺ ما رأيتُ ، فدخلتْ عليه فقالت : يارسول الله ، أنا جُويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ، سيد قومه ، وقد أصابني من البَلاء مالم يَخْفَ عليك ، فوقَعْتُ في السّهم لثابت بن قَيس بن الشَّماس - أو لابن عمّ له - فكاتبتُه على نفسي ، فجئتك أسْتعينك على كتابتي ، قال فهل لك في خير من ذلك ؟ قالت وماهو يارسول الله؟ قال : أقضي عنك كتابتك وأتزوّجك، قالت : نعم يارسول الله، قال : قد فعلت .

قالت : وخرج الخبر إلى الناس أن رسولَ الله ﷺ قد تزوج جُويرية ابنة الحارث بن أبي ضرار ، فقال الناس : أصهار رسول الله ﷺ ، وأرسلوا ما بأيديهم ، قالت : فلقد أُعتق بتزويجه إياها مئة أهل بيت من بني المُصطلق ، فما أعلم امرأة كانت أعظمَ على قومها بركةً منها (١) .

وأخرج الشيخان - واللفظ لمسلم - من حديث عبد الله بن عون

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٧٧ - ٣٧٨ .

قال : كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال ، قال : فكتب إليّ : إنما كان ذلك في أول الإسلام ، قد أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارُّون (١) ، وأنعامهم تسقي على الماء فقتل مقاتلتهم وسبَى سبيهم ، ثم قال : حدثني هذا الحديث عبد الله بن عمر وكان في ذلك الجيش (٢) .

وقوله « وهم غارُّون » يعني أنه لم ينذرهم وإنما غزاهم على سبيل المباغته ، وذلك لأنهم أولاً قد بلغتهم الدعوة ، وثانيًا لأنهم قد أعلنوا حرب المسلمين وصاروا يجمعون جيوشهم لغزو المدينة .

وقوله « فقتل مقاتلتهم » بيان لنتيجة المعركة حيث إن هذه الرواية مجملة تبينها الروايات السابقة .

مواقف وعبر في هذا الخبر :

في الفترة التي تلت غزوة أحد كثرت محاولات القبائل العربية غزو المسلمين في المدينة ، وقد بدأت هذه المحاولات من بني أسد وأرسل لهم الرسول ﷺ أبا سلمة في سرية ، ثم كانت محاولة خالد بن نُبيح الهذلي فعاجله النبي ﷺ بالقتل وهو في بلاده على يد عبد الله بن أُنيس ، ثم كانت محاولة قبيلة غطفان فخرج إليهم النبي ﷺ وعاجلهم في غزوة ذات الرقاع قبل أن يجتمعوا ، ثم كانت محاولة أصحاب دومة الجندل فغزاهم النبي ﷺ وعاجلهم قبل أن يجتمعوا ، وقد سبقت أخبار هذه

---

(١) أي غافلون .

(٢) صحيح مسلم ، الجهاد ، رقم ١٧٣٠ (ص ١٣٥٦) .

صحيح البخاري ، العتق ، رقم ٢٥٤١ (٥/ ١٧٠) .

الغزوات والسرايا ، وكانت نتائجها جميعا لصالح المسلمين، وأخيراً جرت محاولة بني المصطلق التي جاءت في هذا الخبر .

ولقد كان الدافع لهذه المحاولات ما بثه مشركو مكة من دعايات واسعة ومبالغات عن حجم إصابة المسلمين في أحد ، فكان هناك طمع من عدد من القبائل في غزو المدينة مادام أهلها في حال ضعف .

ولقد كان النبي ﷺ مدركا لمخاطر تلك الدعايات السيئة ، ومن أجل تفادي تلك المخاطر قام بمغامرة ملاحقة المشركين إلى حمراء الأسد ثاني يوم من معركة أحد على ما به وبأصحابه من الجراح ، ولقد كان لتلك الغزوة أثرها الواضح في صد مشركي مكة عن العودة إلى المدينة كما سبق، إضافة إلى ما كان لها من أثر في إرهاب الأعداء داخل المدينة والقبائل المحيطة بها ، ولكن دعايات الكفار القوية قد لبَّست الأمر على القبائل البعيدة فظنوا أن أهل المدينة قد أصبحوا صيداً سميناً سائغًا للمصطادين ، وأن المفلح هو من يسبق لهذا الصيد فقاموا بتلك المحاولات التي تمت خلال تلك الفترة .

ولقد كان النبي ﷺ ناجحًا كل النجاح في معاجلة بني المصطلق قبل أن يزحفوا على المدينة وقبل أن يتكوَّن له جمع كبير ، كما أن طليعة المسلمين كانوا في غاية الحذر والنباهة حينما قبضوا على عين الأعداء قبل أن يقوم بمهمته ، وكان قتله هو الحكمة لئلا يفلت من المسلمين فيخبر أعداءهم بهم .

ولقد قام النبي ﷺ بالاحتياطات اللازمة لمعرفة خبر الأعداء حتى

لايهاجمهم المسلمون وهم برآء مما نسب إليهم ، فأرسل بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه ليعلم خبرهم ، وقد صارحه زعيمهم بمرادهم في غزو المسلمين في المدينة بعد أن خدعه بريدة وأخفى عليه مهمته الحقيقية .

* * *

١٣ – حدثان مهمان في هذه الغزوة –

أ – دعوة إلى العصبية ومواجهة حكيمة

قال ابن إسحاق : فبينا رسول الله ﷺ على ذلك الماء ، وردت واردةُ الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجيرٌ له من بني غفار ، يقال له : جَهْجاه بن مسعود يقود فرَسه ، فازدحم جَهجاه وسنان بن وَبَر الُجهني ، حليف بني عوف بن الخزرج على الماء ، فاقتتلا ، فصرخ الجُهني : يامعشر الأنصار ، وصرخ جهجاه : يامعشر المهاجرين ، فغضب عبدُ الله بن أُبَيّ ابن سَلول ، وعنده رهط من قومه فيهم : زيد بن أرقم ، غلام حَدَثٌ ، فقال : أوَقَدْ فعلوها قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أُعُدُّنا وَجلابيب قريش إلا كما قال الأوّل : سَمِّنْ كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزّ منها الأذلّ . ثم أقبل على من حضره من قومه ، فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم : أحلَلْتموهم بلادكم ، وقاسمتوهم أموالكم ، أما والله لو أمْسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم فسمع ذلك زيد بن أرقم ، فمشى به إلى رسول الله ﷺ ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوّه ، فأخبره الخبر ، وعنده عُمر بن الخطاب ، فقال : مُرْ به عَبَّاد بن بشر فَليقتله ، فقال له رسولُ الله ﷺ : كيف ياعمر إذا تحدّث الناس أن محمداً يقتلُ أصحابه ! لا وَلكن أذِّن بالرَّحيل ، وذلك في ساعة لم يكن رسولُ الله ﷺ يرتحل فيها ، فارتحل الناسُ .

وقد مشى عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول إلى رسول الله ﷺ ، حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلّغه ماسمع منه ، فحلف بالله : ماقلت ما قال ،

ولاتكلمت به – وكان في قومه شريفًا عظيمًا – فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه : يارسول الله ، عسى أن يكون الغلام قد أوْهم في حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل ، حَدَبا على ابن أُبَيّ ابن سَلول ، ودَفْعًا عنه .

قال ابن إسحاق : فلما استقل[1] رسولُ الله ﷺ وسار ، لقيه أُسَيد بن حُضَيْر ، فحيَّاه بتحية النبوّة وسلَّم عليه ، ثم قال : يانبيّ الله ، والله لقد رُحتَ في ساعة مُنكرة ، ما كنت تروح في مثلها ، فقال له رسولُ الله ﷺ : أو ما بَلغَك ما قال صاحبُكم ؟ قال : وأيّ صاحب يارسول الله؟ قال : عبد الله بن أُبيّ ، قال : وَماقال ؟ قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل ، قال : فأنت يارسول الله والله تُخرجه منها إن شئت ، هو الذليلُ وأنت العزيز ، ثم قال : يارسول الله ، ارْفُقْ به ، فو الله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لَينظمون له الخَرز ليتوّجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته مُلكا .

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذَتهُم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وَجَدوا مسَّ الأرض فوقعوا نياما ، وإنما فعل رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن ا لحديث الذي كان بالأمس ، من حديث عبد الله بن أبي .

ثم راح رسول الله ﷺ بالنَّاس ، وسَلك الحجاز حتى نزل على ماء بالحجاز فُوَيق النقيع ، يقال له : بَقعاء ، فلما راح رسولُ الله ﷺ هبّت

---

(١) أي ارتحل .

على الناس ريحٌ شديدة آذتهم وتخوّفوها ، فقال رسول الله ﷺ : لاتخافوها ، فإنما هبَّت لموت عظيم من عُظماء الكُفَّار ، فلمّا قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت ، أحَدَ بني قينقاع ، وكان عظيما من عُظماء يهود ، وكهْفًا للمُنافقين ، مات في ذلك اليوم [1] .

ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين في ابن أُبيّ ومن كان على مثل أمره ، فلما نزلت أخذَ رسولُ الله ﷺ بأذن زَيْد بن أرقم ، ثم قال : هذا الذي أوْفى الله بأذنهِ . وبلغ عبدَ الله بنَ عبد الله بنِ أُبيّ الذي كان من أمر أبيه .

قال ابن إسحاق : فحدّثني عاصمُ بن عُمر بن قتادة : أن عبد الله أتى رسول الله ﷺ ، فقال : يارسول الله ، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله ابن أُبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت لابد فاعلا فُمرني به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فو الله لقد علمت الخزرجُ ما كان لها من رجل أبرَّ بوالده مني ، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعُني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبيّ يمشي في الناس ، فأقتله فأقتل رجلا مؤمنا بكافر ، فأدخل النار ، فقال رسول الله ﷺ : بل نَترفَّق به ، ونُحْسن صحبته ما بقي معنا .

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدثَ كان قومه هم الذين يُعاتبونه ويأخذونه ويُعنِّفُونه ، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب ، حين بلغه ذلك من شأنهم : كيف ترى ياعمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي

---

(١) وهو ممن دخلوا في الإسلام نفاقا من يهود بني قينقاع - سيرة ابن هشام ٢/ ١٦٦ - .

وقد جاء خبر هذه الريح في صحيح مسلم من حديث جابر وأن النبي ﷺ قال : «بعثت هذه لموت منافق » ولكن لم يذكر اسمه ولا اسم الغزوة - صحيح مسلم رقم ٢٧٨٢ ، كتاب صفة المنافقين - .

اقتله، لأرْعدت له آنُفٌ[1] ، لو أمرتها اليوم بقَتله لقتلَته ، قال : قال عمر : قد والله علمتُ لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري[2].

في هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولاً : مثل من عداوة المنافقين المتأصلة في نفوسهم للمؤمنين ، حيث انتهز عبد الله بن أبي ابن سلول فرصة الخلاف الذي نشأ بين رجلين من المسلمين ليثير الدعوة إلى العصبية القبلية ، فنطق بكلمات خبيثة في سب المهاجرين من قريش والتنقيص منهم ، مع أن ذلك الرجل المهاجر الذي اختصم مع حليف الأنصار ليس من قريش وإنما هو من غفار ، ولكن زعيم المنافقين صب جام غضبه على المهاجرين من قريش لأنهم عصبة النبي ﷺ الأولى وأصل الدعوة الإسلامية .

وهكذا يغلي الحقد في قلوب المنافقين ، فتظهر نفثاته على فلتات ألسنتهم ظانين أن كلامهم سيظهر مفعوله في التفريق بين المؤمنين .

ثانيًا : موقف إيمان وشجاعة لزيد بن أرقم رضي الله عنه حيث مشى إلى رسول الله ﷺ وأخبره بذلك الكلام السيء الذي سمعه من ابن أُبي ، مع أن زيدا كان غلاما ، ومن كان في مثل هذه السن لاينتظر منه

---

(١) جمع أنف ، وهو علامة على الغضب الشديد ، والمعنى : لغضب له رجال من قومه .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٧٠ - ٣٧٥ .

وأخرجه الإمام البخاري بروايتين مختصرا - صحيح البخاري ، التفسير ، رقم ٤٩٠٤، ٤٩٠٥ (٨/ ٤٦٨) .

وأخرجه الإمام الحميدي بروايتين مختصرا - مسند الحميدي ٢/ ٥١٩ - ٥٢٠ ، رقم ١٢٣٩ ، ١٢٤٠ - .

غالبا الدخول مع الكبار في صراع ، خاصة في مثل وضع ابن أُبي الذي ما زال له أنصار يقولون برأيه ويدافعون عنه .

ولقد شكره النبي ﷺ على هذا الموقف الشجاع وعلى مقدرته على استيعاب ماسمع ، كما جاء في رواية الإمام البخاري أن النبي ﷺ أرسل إليه بعد نزول سورة (المنافقون) فقرأها عليه وقال : إن الله قد صدقك .

ثالثًا : في المحاورة التي جرت بين رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب رضي الله عنه مثل من غيرة عمر الإسلامية وحرصه على إخماد الشر وأهله ، ولكنَّ رأي رسول الله ﷺ كان أعلى وحكمته كانت أعظم فقد رأى بما ألهمه الله تعالى أن قتل عبد الله بن أبي وأمثاله يؤثر على سير الدعوة الإسلامية ، فابن أبي معدود عند العرب من أصحاب النبي ﷺ ، فلو قتله لَنَفَرَ الناس وصدوا عن الدخول في الإسلام ، حينما يتحدثون أن رسول الله ﷺ يقتل أصحابه .

وإن في هذا التصرف النبوي الحكيم توجيها لدعاة المسلمين وقادتهم إلى لزوم الاهتمام بقضايا الدعوة الإسلامية ، وأن يكون من الأهداف العالية التي يجعلها المسلم نصب عينيه أن يحاول اجتذاب الناس إلى الإسلام ، وأن يبتعد كل البعد عن الأمور التي تنفِّر الناس من الدخول في الإسلام أو الاستقامة عليه ، مالم يرتكب إثما .

ولقد تَجَلَّتْ حكمة النبي ﷺ في هذا الأمر حينما جاء عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ يعرض على رسول الله ﷺ استعداده للإقدام على قتل أبيه ، ويبين أنه لو أقدم على قتله غيره فإنه لايأمن من حدوث فتنة بسبب ذلك ، بينما حصل المقصود من قوم ابن أبي وذلك حينما تولوا عتابه

وتعنيفه وردْعه عن التجاوزات التي يمارسها من غير أن يتعرض مجتمع المؤمنين لفتنة بسببه .

ولقد ذكَّر النبي ﷺ عمر بهذه النتائج الحميدة بقوله « كيف ترى ياعمر؟ أما والله لو قتلْتُه يوم قلت لي اقتله لأُرعدت له آنُفٌ لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته » ، وأدرك عمر هذه الحكمة العظيمة فقال : قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري .

ومن هذا نعلم أن تصرف النبي ﷺ الحكيم قد صدَّ فتنة كانت وشيكة الوقوع في المدينة لو أن الرسول ﷺ عامل زعيم المنافقين بما يستحق من عقوبة ، إلى جانب محافظته على سمعة الدعوة الإسلامية خارج المدينة أن تُشوَّه من قبل أعداء الإسلام أو ممن يجهل واقع المسلمين .

رابعًا : في تصرف النبي ﷺ في مواجهة تلك الفتنة في حينها حكمة بالغة ، فقد عالج الفتنة التي أثارها عبد الله بن أبيّ بأمر شغل به المسلمين عن الحديث عنها ، وذلك حيث أمر المسلمين بالرحيل في وقت لم يكن يرتحل فيه ، ثم واصل المسير يومه وليلته وصدر اليوم التالي ، حتى إذا نزلوا وقد أعياهم السير والسهر وقعوا نياما ، فلم يكن لديهم فراغ للحديث عن الموضوع ، وهذا يعتبر درسا نبويا عاليا للقادة في كيفية القضاء على المشكلات التي تعرض لهم ، والفتن التي يثيرها أعداء الإسلام في صفوف المسلمين ، فالنفوس إن لم تُشغَل بما ينفعها شُغِلَتْ بما يضرها .

* * *

ب – حديث الإفك ومافيه من المواقف والعبر –

أخرج الإمام البخاري من حديث الإمام الزهري قال : أخبرني عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص وعُبيدُ الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن حديث عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ حين قال لها أهلُ الإفك ماقالوا : فبرأها الله مما قالوا – وكلٌّ حدَّثني طائفةً من الحديث ، وبعض حديثهم يصدِّقُ بعضا ، وإن كان بعضُهم أوعى له من بعض – الذي حدثني عروةُ عن عائشة رضي الله عنها أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت « كان رسولُ الله ﷺ إذا أراد أن يخرُج أقرعَ بينَ أزواجه ، فأيَّتُهن خرج سهمها خرج بها رسولُ الله ﷺ معهُ . قالت عائشة : فأقرعَ بيننا في غزوة غَزاها[1] فخرج سهمي ، فخرجتُ مع رسول الله ﷺ بعد ما نزل الحجابُ ، فأنا أُحملُ في هَودَجي وأُنْزَل فيه .

فسرنا حتى إذا فرغَ رسولُ الله ﷺ من غزوته تلك وقف ودَنونا من المدينة قافلين آذن ليلةً بالرَّحيل ، فقمتُ حينَ آذنوا بالرَّحيل فمشيتُ حتى جاوزتُ الجيش ، فلما قَضيَتُ شأني أقبَلتُ إلى رحلى ، فإذا عقدٌ لي من جزع ظفار قد انقطع ، فالتمستُ عقدي وحَبَسني ابتغاؤه .

وأقبل الرهطُ الذين كانوا يُرَحِّلون لي فاحتملوا هودَجي ، فرحلوهُ على بَعيري الذين كنت ركبتُ وهم يحسبون أني فيه ، وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يثقلهُنَّ اللحم ، إنما يأكلن العُلقة من الطعام ، فما استنكر القوم خفة الهودج حين رَفعوه ، وكنتُ جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ، فوجدت عقدي بعدَ ما استمر الجيشُ ، فجئتُ منازلهم

(١) هي غزوة بني المصطلق كما في رواية ابن إسحاق .

وليس بهـا داع ولا مجيب . فأممتُ منزلي الذي كنتُ به ، وظَنَنتُ أنهم سيفقدوني فيرجعون إليَّ .

فبينما أنا جالسةٌ في منزلي غلبَتني عيني فنمت ، وكان صفوانُ بن المعطل السُّلَمي ثُم الذَّكواني من وراء الجيش (١) ، فأدلج (٢) فأصبح عندَ منزلي ، فرأى سَوادَ إنسان نائم ، فأتاني فعرَفني حين رآني ، وكان يراني قبل الحجاب ، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفَني (٣) ، فخمَّرتُ وَجهي بجلبابي (٤) ، والله ما كلَّمني كلمةً ولا سمعتُ منه كلمةً غير استرجاعه ، حتى أناخ راحلتَهُ فوطئ على يديها فركبتُها ، فانطلق يقودُ بي الراحلة حتى أتينا الجيشَ بعد مانزلوا مُوغرين في نحر الظهيرة .

فـهلك من هلك ، وكـان الذي تولى الإفك عـبـدَ الله بن أُبي ابن سلول .

فقدمنا المدينة ، فاشتكيتُ حين قدمتُ شهرًا ، والناسُ يفيضون في قول أصحاب الإفك ، ولا أشعُر بشيء من ذلك ، وهو يريبُني في وَجَعي أني لا أعـرفُ من رسـول الله ﷺ اللـطفَ الذي كـنتُ أرى منه حين أشتكي ، إنما يدخُلُ عليَّ رسولُ الله ﷺ فيُسلِّم ثم يقول : كيف تيكم ، ثم

---

(١) قال الحافظ ابن حجر : ووقع في حديث ابن عمر بيان سبب تأخر صفوان ولفظه « سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعله على الساقة ، فكان إذا رحل الناس قام يصلي ، ثم اتبعهم فمن سقط له شيء أتاه به » - الفتح ٨/ ٤٦١ - .

(٢) سار في الليل .

(٣) أي بقوله : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وذلك ليوقظها وهذا من حسن أدبه .

(٤) وما أروع قول الشاعر أحمد محرم في حكاية هذا السلوك :

جَفَلَتْ منه فغطَّت وجهها ... وهي في سِتْرين من عقل ودين

ينصرف ، فذاك الذي يريبني ولا أشعرُ بالشرّ ، حتى خرجت بعدما نقهتُ ، فخرجت معي أمُّ مسطح قبَلَ المناصع ، وهو مُتبرَّزنا وكنا لانخرُج إلا ليلاً إلى ليل ، وذلك قبل أن تُتَّخذ الكنُف قريبًا من بُيوتنا ، وأمرُنا أمرُ العرب الأوَل في التبرُّز قبَلَ الغائط ، فكنا نتأذى بالكنُف أن نتَّخذها عند بيوتنا .

فانطلقتُ أنا وأمُّ مسطح – وهي ابنة أبي رُهم بن عبد مناف ، وأمُّها بنتُ صخر بن عامر خالةُ أبي بكر الصديق ، وابنها مسطحُ بن أثاثة– فأقبلتُ أنا وأمُ مسطح قبَلَ بيتي وقد فرغنا من شأننا ، فعثَرتْ أمُّ مسطح في مرطها ، فقالت : تعس مسطح . فقلت لها : بئس ماقلت ، أتَسُبِّين رجلاً شهدَ بدرًا ؟ قالت : أي هَنْتاه [١] ، أوَلم تسمعي ما قال ؟ قالت قلت : وما قال ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك ، فازددت مرضا عَلَى مرضي . فلما رجعت إلى بيتي ودخل عليَّ رسول الله ﷺ – تعني – سلَّم[٢] ثم قال : كيف تيكم ؟ فقلت : أتأذن لي أن آتي أبويَّ – قالت : وأنا حينئذ أريدُ أن أستيقن الخبرَ من قبَلهما – قالت : فأذنَ لي رسولُ الله ﷺ ، فجئتُ أبوي ، فقلت لأمي : يا أمَّتاهُ مايتحدَّث الناس؟ قالت : يابُنية هوِّني عليك ، فو الله لقلَّما كانت امرأة قط وضيئةٌ عند رجل يُحبُّها ولها ضَرائر إلا أكثرن عليها . قالت فقلتُ : سبحان الله ، أو لقد تحدَّث الناس بهذا ؟ قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحتُ لا يرقأ لي دمع[٣] ، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي .

---

(١) أي حرف نداء ، وهنتاه بمعنى هذه ، أي ياهذه .

(٢) في رواية أخرى للبخاري « دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلَّم » .

(٣) أي لاينقطع .

فدعا رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهما حين استلبثَ الوَحيُ يستأمرهما في فراق أهله . قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله ، وبالذي يعلمُ لهم في نفسه من الوُدّ فقال : يارسول الله ، أهلكَ ، ومانعلمُ إلا خَيرا ، وأما عليٌّ بن أبي طالب فقال : يارسول الله ، لم يضيِّق اللهُ عليك والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدُقك . قالت فدعا رسول الله ﷺ بريرة ، فقال أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك؟ قالت بريرة : لا والذي بعثك بالحق ، إن رأيت عليها أمرا أغمصهُ عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تَنامُ عن عَجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله[1] .

فقام رسولُ الله ﷺ فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبي بن سلول ، فقال رسولُ الله ﷺ وهو عَلَى المنبر : يامعشر المسلمين ، من يَعذُرُني من رجل قد بلغني أذاهُ في أهل بيتي ؟ فو الله ما علمتُ على أهلي إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجُلاً ما علمتُ عليه إلا خيرا . وما كان يدخلُ على أهلي إلا معي . فقام سعدُ بن مُعاذ الأنصاريُّ فقال : يارسول الله ، أنا أعذرُك منه ، إن كان من الأوس ضربتُ عُنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك . قالت : فقام سُعد بن عبادةَ - وهو سيد الخزرج ، وكان قبل ذلك رجلاً صالحا[2] ولكن احتملته الحمية - فقال لسعد :

(١) الداجن هي الشاة كما جاء في بعض الروايات ، وهذا التعبير فيه بلاغة حيث أرادت أنها وهي تغفل عن عجين أهلها أكثر غفلة عما رُميت به فهي من النساء الغافلات المؤمنات .

(٢) أي كامل الصلاح ، وفي رواية الواقدي « وكان صالحا لكن الغضب بلغ منه ومع ذلك لم يُغمص عليه في دينه » . وقد أرادت عائشة أنه لم يتقدم منه قبل ذلك ما يتعلق بالوقوف مع أنفة الحمية .

كذبت لَعمرُ الله ، لاتقتلهُ ولاتقدرُ على قتله . فقام أُسيدُ بن حُضَير – وهو ابن عمِّ سعد بن مُعاذ – فقال لسعد بن عبادة : كذبتَ لعمرُ الله لنقتلنَّه ، فإنك منافقٌ تجادلُ عن المنافقين فتثاور الحيَّان الأوسُ والخزرج حتى هموا أن يَقتتلوا ورسولُ الله ﷺ قائمٌ على المنبر ، فلم يزل رسولُ الله ﷺ يُخفضهم حتى سكتوا وسكت .

قالت : فمكثتُ يومي ذاك لايَرقأ لي دَمعٌ ولا أكتحل بنوم . قالت فأصبح أبواي عندي وقد بكيتُ ليلَتَين ويوما لا أكتحل بنوم ولايرقأ لي دمع يظنان أنَّ البكاء فالقٌ كبدي .

قالت : فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنَتْ عليَّ امرأةٌ من الأنصار فأذنتُ لها ، فجلست تبكي معي ، قالت : فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلمَ ثم جلس ، قالت ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها ، وقد لَبثَ شهراً لايوحَى إليه في شأني قالت : فتشهَّدَ رسولُ الله ﷺ حين جلس ثم قال : أما بعدُ ، ياعائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئةً فسيُبرِّؤك الله ، وإن كنت ألمت بذَنب فاستغفري الله وتوُبي إليه ، فإن العبدَ إذا اعترفَ بذنبه ثم تاب إلى الله تابَ اللهُ عليه .

قالت : فلما قضى رسولُ الله مقالته قَلصَ دَمعي حتى ما أُحسُّ منه قَطرة ، فقلت لأبي : أجبْ رسولَ الله ﷺ فيما قال . قال : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ . فقلتُ لأمي : أجيبي رسول الله ﷺ قالت : ماأدري ما أقولُ لرسول الله ﷺ . قالت فقلتُ – وأنا جارية حديثة السنِّ

لا أقرأ كثيراً من القرآن - : [1] إني والله لقد علمتُ لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقرَّ في أنفسكم وصدَّقتم به ، فَلَئن قلتُ لكم إني بريئة -واللهُ يعلم أني بريئة -لاتُصدِّقونني بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر -واللهُ يعلم أني منه بريئة - لتصدِّقنِّي . والله ما أجدُ لكم مثلا إلاّ قول أبي يوسف ، قال ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾[2] .

قالت ثم تحولت فاضطجعت على فراشي . قالت : وأنا حينئذ أعلم أني بريئة وأنَّ الله مُبرِّئي ببراءتي ، ولكن والله ما كنت أظنُّ أن الله منزلٌ في شأني وَحيًا يُتلى ولشأني في نفسي كان أحقرَ من أن يتكلم الله فيَّ بأمرٌ يتلى ولكن كنتُ أرجو أن يرى رسولُ الله ﷺ في النوم رؤيا يبرؤني اللهُ بها .

قالت : فو الله ما رامَ رسول الله ﷺ[3] ولاخرج أحدٌ من أهل البيت حتى أُنزل عليه ، فأخذه ماكان يأخذُه من البُرحاء[4] ، حتى إنه ليتحدَّرُ منه مثل الجُمان من العَرق وهو في يوم شات من ثقَل القول الذي ينزلُ عليه[5] .

قالت : فلما سُرِّيَ عن رسول الله ﷺ سُرِّي عنه وهو يضحَك ، فكانت أولُ كلمة تكلمَ بها : ياعائشة ، أما الله عزَّ وجل فقد برَّأك .

---

(١) قالت ذلك من باب الاعتذار لكونها لم تستحضر اسم يعقوب عليه السلام .

(٢) يوسف / ١٨ .

(٣) رام أي فارق .

(٤) أي شدة الكرب .

(٥) جاء في رواية ابن إسحاق « فأما أنا فو الله مافزعت قد عرفت أني بريئة وأن الله غير ظالمي ، وأما أبواي فما سرِّي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننت لتخرجنَّ أنفسهما فرقًا من أن يأتي من الله تحقيق ما يقول الناس » .

فقالت أمي : قومي إليه قالت فقلت : والله لا أقومُ إليه ، ولاأحمدُ إلا الله عزَّ وجل . وأنزل الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ ... ﴾ العشر الآيات كلها - [النور: ١١، ٢٠] - .

فلما أنزل الله في براءتي قال أبو بكر الصديقُ رضي الله عنه وكان يُنفق على مسطح بن أُثاثة لقرابته منه وفقره : والله لا أنفقُ على مسطح - شيئًا أبدا بعدَ الذي قال لعائشة ما قال فأنزل الله ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢] قال أبو بكر : بلى والله ، إني أحبُّ أن يغفر الله لي . فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه وقال : والله لا أنزعُها منه أبدا .

قالت عائشة وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب ابنة جحش عن أمري فقال : يازينبُ ، ماذا علمت أو رأيت ؟ فقالت : يارسول الله ، أحمي سمعي وبصَري ، ماعلمتُ إلا خيرا . قالت - وهي التي كانت تساميني[1] من أزواج رسول الله ﷺ فعَصَمَها الله بالورَع ، وطفقَت أختُها حمنةُ تحاربُ لها ، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك»[2].

(١) أي تعاليني من السمو وهو العلو ، أي تطلب من العلو والرفعة والحظوة عند النبي صلى الله عليه وسلم ما أطلب .

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير ، رقم ٤٧٥٠ (٨/ ٤٥٢) والتعليقات في الهامش مقتبسة من كلام الحافظ ابن حجر (الفتح ٨/ ٤٥٧ - ٤٧٨) .

وأخرجه الإمام مسلم من حديث عائشة وذكر نحوه - صحيح مسلم ، كتاب التوبة ، رقم ٢٧٧٠ (ص٢١٢٩) .

وأخرجه ابن إسحاق عن عدد من الشيوخ من حديث عائشة رضي الله عنها وذكر نحوه مع اختلاف في بعض السياق - سيرة ابن هشام ٣/ ٣٨١ - ٣٩١ - .

مواقف وعبر في هذا الخبر :

في هذا الخبر مواقف جليلة لرسول الله ﷺ ، ولأبي بكر الصديق ، وأم المؤمنين عائشة ، وصفوان بن المعطل السلمي ، وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم .

فالرسول ﷺ قد ابتُلي بهذه الفرية بلاء عظيما ، فهو في أعلى مسئولية من الدعوة والقيادة ، وأي شيء يدنِّس سمعته فإنه يؤثر على سير دعوته ومكانته القيادية ، فلهذا عاش تلك المدة قبل أن ينزل عليه الوحي ببراءة عائشة في معاناة شديدة .

ولقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يطَلِّق عائشة فور سماع هذه الفرية ويخلص نفسه من ذلك البلاء ولكن لم يكن من خُلُقه ﷺ أن يحافظ على سمعته الدعوية والقيادية بظلم الآخرين ، فما ذنب عائشة الطاهرة وبيتها الطاهر حينما يكون حل المشكلة بالقضاء عليها وإنزال مزيد من البلاء على أبويها ؟ ! .

لذلك كان البقاء في المعاناة والحرج مع شدته هو السلوك الأمثل عند رسول الله ﷺ حتى يأتي الفرج من الله تعالى ، وفي هذا مثل واضح على اتصاف النبي ﷺ بأعلى ما يمكن أن يتصف به بشر من الرحمة والشفقة .

ولقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يحكم ببراءتها من أعلى منبر لما يعلمه من صدقها وعفافها وتقواها ، وسيصدقه في ذلك ا لمؤمنون ، ولكن كيف وقد قيل ما قيل وانتشرت الإشاعة الأثيمة في كل أوساط المدينة ، وربما أنها انتقلت خارج المدينة ؟ ! .

وهل يكفي إعلان النبي ﷺ بالبراءة لقطع دابر ألسنة الحاقدين من اليهود والمنافقين ؟ وهل ستظل سمعة النبي ﷺ الدعوية والقيادية نقية طاهرة بمجرد هذا الإعلان؟ .

لقد كان ﷺ واثقا من طهارة الصديقة ونزاهتها مما نسب لها ولذلك قام على المنبر وقال : « من يَعذرني من رجل بلغني أذاه في أهل بيتي ؟ فو الله ما علمت على أهلي إلا خيرا » ولكن لم يكن ذلك إعلانا للبراءة الكاملة التي تُسكت الحاقدين وتقطع جميع موارد الفتنة ، وإنما كان ذلك محاولة منه ﷺ لكفِّ أذى كبير المنافقين عبد الله بن أُبي ابن سلول عن نفسه وأسرته حتى ينزل في الأمر بيان قاطع شاف من الله تعالى ، ولم يسبق أن حدث مثل تلك الفرية ونزل فيها تشريع من الله تعالى ، ولو كان ذلك لطبقه رسول الله ﷺ حالا .

أما أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقد ابتلي أيضا ببلاء عظيم ؛ فقد كانت التهمة موجهة لبنته الصديقة الطاهرة ، وبالتالي فإن أبا بكر الذي يعتبر أول رجل في الإسلام بعد رسول الله ﷺ قد وُجهت له طعنة نجلاء وضربة موجعة ، والمنافقون وسائر أعداء الإسلام أحرص شيء على تشويه سمعة قادة المسلمين البارزين ، وقد عاش رضي الله عنه تلك الفترة في همٍّ كبير ومعاناة شديدة لما يرى من نيل المنافقين الشديد من رسول الله ﷺ ولما يرى من واقع ابنته المحزن ، والبلاء الهابط على أسرته ، ولكنه كان جميل الصبر ، راسخ اليقين عظيم الثقة بالله جل جلاله .

ومما تجمل به الصديق من عفة اللسان أنه لم يصدر منه أي سب

ولاشتم لأولئك الذين خاضوا في عرض ابنته ، ولم يُنقل عنه - كما قال الحافظ ابن حجر - أنه قال شيئًا إلا قوله « والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية فكيف بعد أن أعزنا الله بالإسلام ؟ ! »[1] .

أما الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما فقد نزل عليها خبر الإفك نزول الصاعقة وظلت تبكي الليل والنهار ، وكان من فضل الله تعالى عليها أنها لم تعلم بهذا الخبر إلا في وقت متأخر ، ومع صغر سنها وشناعة الإفك وسعة انتشاره فإنها لم يظهر منها أي سلوك يخدش دينها أو يشين عقلها ، وصبرت صبرا جميلا مشوبا بالحياء المتين والأدب الرزين ، حتى فرج الله تعالى كربتها وأنزل براءتها .

ولقد عبرت في هذا الخبر عن معاناتها وآلامها حينما علمت بالإفك بأسلوب أدبي في غاية الرفعة والسمو .

إن حديث الإفك هذا يعتبر نموذجًا للأدب العالي ، في قوة البيان وجزالة الألفاظ ووضوح المعنى ولقد كانت عائشة رضي الله عنها مشهورة بالفصاحة وقوة الكلمة والتأثير القوي على السامعين ، ولقد أثنى عليها بالفصاحة والبيان بلغاء الصحابة والتابعين .

ومن نماذج بلاغتها في هذا الحديث قولها « فانطلق - يعني صفوان- يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة ، فهلك من هلك » فالفاء في قولها « فهلك » هي الفاء الفصيحة ، فقد أفصحت عن جمل مقدرة تحكي حال الناس الذين خاضوا في تلك الفرية الشنيعة ، فاكتفت ببيان عاقبة أمرهم عن وصف حالهم وجريمتهم .

---

(١) فتح الباري ٨/ ٤٨٠ .

ومن ذلك قولها « فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة » فهذا تعبير بليغ عن التأثر الشديد جداً الذي تجاوز حدود التأثر المعتاد الذي تستهل منه العيون دمعا ، فبلغ إلى الحد الذي قلص معه الدمع وجف تماما .

ومن المواقف التي ينبغي الإشادة بها في هذا الخبر ما كان يقوم به صفوان بن المعطّل السلمي رضي الله عنه من التأخر وراء الجيش والقيام بالتقاط ما قد يسقط من المسلمين من متاع ثم إيصاله إلى أصحابه ، وهذه مهمة فدائية ، لأن انفراد رجل واحد عن الجيش قد يعرِّضه للمداهمة من الأعداء .

ولقد قدر الله تعالى أن يكون ما يستدركه هذه المرة أغلى من كل ما يملكه المسلمون ومن جميع كنوز الأرض ، أوليس الله تعالى قد أنقذ به عالمة الإسلام الأولى التي حفظت لهذه الأمة نصف العلم الديني ، فكم هو الخير الذي قدمه هذا الفدائي النبيل لأمة الإسلام ! .

كذلك كان لأم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها موقف جليل في الورع وخشية الله تعالى ، وذلك أنها لما استشارها رسول الله ﷺ في أمر عائشة قالت : « يارسول الله أحمي سمعي وبصري ماعلمت إلا خيراً » قالت عائشة رضي الله عنها : « وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله ﷺ فعصمها الله بالورع » ، يعني فكان المظنون من ضرَّة تنافس ضرتها على الحظوة لدى الزوج أن تسعى جهدها في كسب زوجها ، وقد يهبط مستواها الديني إلى افتراء أمور تُنفِّر زوجها

من ضرتها ، لكن زينب لم تنتهز هذه الفرصة لتشويه سمعة عائشة رضي الله عنهما .

وهكذا اصطفى الله تعالى لرسوله ﷺ نساء طاهرات تقيات ، فلم يُذكر عن واحدة منهن أنها أسهمت في ذلك الإفك .

كذلك كان لبعض الصحابة مواقف عالية في الدفاع عن أم المؤمنين عائشة وتنزيهها مما نسب إليها ، فمن ذلك ماذكره الحافظ ابن حجر من رواية عطاء الخراساني عن الزهري في إحدى روايات هذا الخبر « وكانت أم أيوب الأنصارية قالت لأبي أيوب : أما سمعت مايتحدث الناس؟ فحدثته بقول أهل الإفك ، فقال : مايكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم » ، قال : وروى الطبري من طريق ابن إسحاق قال : حدثني أبي عن بعض رجال بني النجار « أن أبا أيوب قالت له أم أيوب : أما تسمع ما يقول الناس في عائشة ؟ قال : بلى ، وذلك الكذب ، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا والله ، قال : فعائشة والله خير منك»(١) .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام الطبراني من حديث سعيد بن جبير في قوله تعالى ﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٦] يعني ألا قلتم كما قال سعد بن معاذ الأنصاري ، وذلك أن سعداً لما سمع قول من قال في أمر عائشة قال (سبحانك هذا بهتان عظيم) ، ذكره الحافظ الهيثمي وقال: وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف (٢) .

---

(١) فتح الباري ٨/ ٤٧٠ .

(٢) مجمع الزوائد ٧/ ٧٨ .

فهذه نماذج من مواقف الصحابة رضي الله عنهم تدل على ورعهم وعفة ألسنتهم مما ينتج عن قوة إيمانهم وخشيتهم من الله تعالى .

* * *

مواقف وعبر في غزوة الخندق (الأحزاب)

١- تحزب الأحزاب ضد المسلمين-

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام : حدثنا زياد بن عبد الله البكائي ، عن محمد بن إسحاق المطّلبي ، قال : ثم كانت غزوة الخندق في شوّال سنة خمس . فحدثني يزيد بن رُومان مولى آل الزُّبير عن عُروة بن الزبير ، ومن لا أتّهم عن عبد الله بن كعب بن مالك ، ومحمد بن كعب القرظيّ ، والزُّهْري ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، وعبد الله بن أبي بكر ، وغيرهم من علمائنا ، كلهم قد اجتمع حديثه في الحديث عن الخندق ، وبعضهم يحدّث ما لايحدّث به بعض ، قالوا : إنه كان من حديث الخندق أن نفراً من اليهود - منهم : سلام بن أبي الحُقَيْق النضري ، وحُيَيّ بن أخْطب النضري ، وكنانة بن أبي الحُقيق النضري ، وهَوْذة بن قيس الوائلي ، وأبو عَمّار الوائلي - في نفر من بني النضير ، ونَفر من بني وائل ، وهم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ ، خرجوا حتى قدموا على قريش مكةَ ، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ ، وقالوا : إنا سنكون معكم عليه ، حتى نستأصله .

فقالت لهم قريش : يامعشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خيرٌ من دينه ، وأنتم أولى بالحقِّ منه . فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ**[1] **وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا** (٥١)

---

(١) الجبت هو السحر ، والطاغوت هو الشيطان كما رُوي عن عمر بن الخطاب وابن عباس رضي الله عنهم - تفسير ابن كثير ١/ ٥٤٤ - .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾ . . إلى قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ : أي النبوة ، ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥) ﴾ [النساء: ٥١ – ٥٥] .

قال : فلما قالوا ذلك لقريش ، سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ ، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له . ثم خرج أولئك النفر من يهود ، حتى جاءوا غطفان ، من قيس عيلان ، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه ، وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك ، واجتمعوا معهم فيه .

قال ابن إسحاق : فخرجت قريش ، وقائدها أبو سفيان بن حرب ، وخرجت غطفان ، وقائدها عُيينة بن حصن بن حُذيفة بن بدر ، في بني فَزارة ، والحارث بن عوف بن أبي حارثة المُرّى ، في بني مُرَّة ، ومسعر بن رُخَيلة بن نُويرة بن طَريف بن سُحْمة بن عبد الله بن هلال بن خَلاوة بن أشْجع بن رَيْث بن غطفان ، فيمن تابعه من قومه من أشجع [(١)] .

وذكر ابن إسحاق أن عدد جيش المشركين من الأحزاب عشرة آلاف وأن عدد جيش المسلمين ثلاثة آلاف [(٢)] .

وأضاف موسى بن عقبة في روايته عند البيهقي مشاركة بني سليم وبني أسد [(٣)] .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٥٣ – ٢٥٥ .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٦٢ .

(٣) دلائل النبوة ٣/ ٣٩٨ .

وكذلك ذكر الواقدي أن عدد جيش قريش ومن تبعها أربعة آلاف ، وأن بني سليم شاركوا مع الأحزاب بسبعمائه بقيادة سفيان بن عبد شمس والد أبي الأعور السلمي الذي كان مع معاوية في حرب صفين ، وأن بني أسد شاركوا بقيادة زعيمهم طليحة بن خويلد ، وأن بني فزارة من غطفان شاركوا بألف مقاتل بقيادة عيينة بن حصن ، وأن بني مرة من غطفان شاركوا بأربعمائة بقيادة الحارث بن عوف ، وأن بني أشجع من غطفان شاركوا بأربعمائة بقيادة مسعود بن رخيلة ، ولم يذكر عدد بني أسد وبقية غطفان [1] .

في هذا الخبر تصوير لجهود اليهود الأثيمة في تأليب أعداء المسلمين عليهم وجمعهم لحربهم ، وهذا الخُلق الذميم قد اشتهروا به قديمًا وحديثًا .

ونجدهم في هذا الخبر مع علمهم اليقيني بصدق نبوة رسول الله ﷺ يخونون الأمانة ويُلبِّسون الحقائق فيحكمون بأن دين قريش الوثني أفضل من دين المسلمين الإلهي ، فهم عبيد المصلحة فإذا كانت مصلحتهم الدنيوية تتحقق بالكذب والخيانة والغدر فإن هذه الأخلاق السيئة وأمثالها هي دينهم الذي يقدسونه ظاهرا وإن كانوا يعرفون الحق باطنا كمعرفتهم أبناءهم .

وقد لاقت سعاياتهم الخبيثة آذانا صاغية من أعداء المسلمين في مكة ، حيث الحقد المتراكم على المسلمين ، والرغبة الأكيدة في القضاء

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٤٤٣ .

على الدين الإسلامي الذي تجرعوا بسببه الذل والإهانة لما كفروا به وقاوموا أصحابه .

كما لقيت سعاياتهم قبولا لدى القبائل الانتهازية التي تطمع في خيرات المدينة وتحلم بشرف الاستيلاء عليها .

* * *

٢- حفر الخندق وما جرى فيه من مواقف وعبر -

١ - قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى : فلما سمع بهم رسول الله ﷺ ، وما أجمعوا له من الأمر ، ضرب الخندق على المدينة ، فعمل فيه رسول الله ﷺ ترغيبا للمسلمين في الأجر ، وعمل معه المسلمون فيه ، فدأب فيه ودأبوا .

وذكر ابن هشام أن سلمان الفارسي رضي الله عنه أشار على النبي ﷺ بحفر الخندق حول المدينة [١] .

٢- وروى الواقدي عن شيوخه في ذلك أن سلمان قال : يارسول الله إنا إذ كنا بأرض فارس وتخوفنا الخيل خندقنا علينا ، فهل لك يارسول الله أن نخندق ؟ فأعجب رأي سلمان المسلمين .

ثم قال الواقدي : فحدثني أبو بكر بن أبي سبرة قال : حدثني أبو بكر بن عبد الله بن جهم أنَّ رسول الله ﷺ ركب فرسًا له ومعه نفرٌ من أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فارتاد موضعًا ينزله ، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سَلْعًا [٢] خلف ظهره ، ويخندق من المذاد [٣] إلى ذباب إلى راتج [٤] . فعمل يومئذ في الخندق ، وندب الناس ، فخبرهم بدُنو عدوّهم ، وعسكرهم إلى سفح سلع ، وجعل المسلمون يعملون

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ١٦٨ .

(٢) سلع : الجبل المعروف الذي بسوق المدينة (وفاء الوفا ، ج٢ ، ص٣٢٤) .

(٣) المذاد : اسم أطم لبني حرام من بني سلمة غربي مسجد الفتح(وفاء الوفا ، ج٢ ، ص٣٧٠) .

(٤) راتج : الجبل الذي إلى جنب جبل بني عبيد غربي بطحان (وفاء الوفا ، ج٢ ، ص٣١٠) .

مستعجلين يُبادرون قدوم العدو عليهم ، وأخذ رسول الله ﷺ يعمل معهم في الخندق لينشِّط المسلمين [1] .

٣- وأخرج الإمام البخاري في بيان معاناة المسلمين في حفر الخندق من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « خرج رسولُ الله ﷺ إلى الخندق ، فإذا المهاجرون والأنصارُ يحفرون في غداة باردة ، فلم يكن لهم عبيدٌ يعملون ذلك لهم ، فلما رأى مابهم من النصب والجوع قال : اللهم إن العيش عيشُ الآخرة ، فاغفر للأنصار والمهاجرة . فقالوا مُجيبين له :

نحـــنُ الذين بايعوا محمدا   على الجهاد مابقينا أبدا [2] .

٤- كما أخرج في ذلك من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال : « لما كان يومُ الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ ، رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الترابُ جلدةَ بطنه - وكان كثير الشعر - فسمعتهُ يرتجزُ بكلمات ابن رواحة وهو ينقل من التراب يقول :

اللهـم لولا أنتَ ما اهتدينا   ولاتصـــدقنا ولا صـــلينا

فـــأنـــزلَنْ سكينةً علـينا   وثبـت الأقــدام إن لاقينا

إن الألَى هـــم قد بَغوا علينا   وإن أرادوا فــتــنــةً أبـيـنا

قال : ثم يمدُّ صوتهُ بآخرها » [3] .

٥ - ومما يبين جهد النبي ﷺ الذي بذله في حفر الخندق ما أخرجه

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٤٤٥ .

(٢) صحيح البخاري ، المغازي رقم ٤٠٩٩ (٧/ ٣٩٢) .

(٣) صحيح البخاري ، المغازي رقم ٤١٠٦ (٧/ ٣٩٩) .

الواقدي بإسناده إلى أبي واقد الليثي ، قال : رأيت رسول الله ﷺ يعرض الغلمان وهو يحفر الخندق ، فأجاز من أجاز وردّ من ردّ ، وكان الغلمان يعملون معه ، الذين لم يبلغوا ولم يُجزهم ، ولكنه لما لحم الأمر أمر من لم يبلغ أن يرجع إلى أهله إلى الآطام مع الذراري . وكان المسلمون يومئذ ثلاثة آلاف ، فلقد كنت أرى رسول الله ﷺ وإنه ليضرب مرة بالمعول ، ومرةً يغرف بالمسحاة التراب ، ومرةً يحمل التراب في المكتل . ولقد رأيته يومًا بُلغ منه ، فجلس رسول الله ﷺ ثم اتكأ على حجر على شقه الأيسر ، فذهب به النوم . فرأيت أبا بكر وعمر واقفين على رأسه يُنحِّيان الناس أن يمرّوا به فيُنبِّهوه ، وأنا قربت منه ، ففزع ووثب ، فقال : ألا أفزعتموني ! فأخذ الكَرْزَن [1] يضرب به [2] .

٦ – وقال ابن هشام : حدثني بعض أهل العلم أن المهاجرين يوم الخندق قالوا : سلمان منا ، وقالت الأنصار : سلمان منا ، فقال رسول الله ﷺ : سلمان منا أهل البيت [3] .

وأخرج ذلك الواقدي عن شيوخه وذكر أن سبب تنافسهم عليه أنه كان قويا عارفا بحفر الخنادق [4] .

(١) الكرزن هو الفأس .

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٤٥٣ .

(٣) سيرة ابن هشام ٣/ ١٦٩ .

(٤) مغازي الواقدي ٢/ ٤٤٦ ويؤيد ماروي بن ثناء النبي ﷺ على سلمان ما أخرجه ابن عبد البر بإسناده عن أبي البختري عن علي رضي الله عنه أنه قال في سلمان « عَلم العلم الأول والآخر بحر لاينزف وهو منا آل البيت » – الاستيعاب ٢/ ٥٩ ، وذكره الذهبي من هذا الطريق – سير أعلام النبلاء ١/ ٥٤١ – وقال محققه : رجاله ثقات .

وذكر الواقدي في إحدى رواياته أن المسلمين قضوا في حفر الخندق ستة أيام [1] .

وكان مسوغ دعوى الأنصار أن سلمان من أهل المدينة لإقامته فيها، وكان مسوغ المهاجرين أنه هاجر إليها من خارجها كما هاجروا إليها .

في هذه الأخبار مواقف وعبر منها :

أولاً : مشاركة رسول الله ﷺ أصحابه في حفر الخندق فلقد كان قائداً لأصحابه حتى في هذا العمل الشاق ، ولقد بذل جهدا كبيرا في ذلك حتى كسى التراب جسده الشريف .

ويداهمه النوم ﷺ من شدة الإعياء والسهر ، فينام مستندا على حجر ، ويُشفق عليه صاحباه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فيصرفان عنه الناس ليستغرق في نومه ، ولكنه ينتبه من دبيب أقدام حوله فيلوم أصحابه على تركه نائما خشية أن يتأخر العمل في حفر الخندق ، ولقد كان ﷺ كما سبق في غزوة أحد إذا جدَّ الجد لا يشبهه أحد .

ونجده ﷺ يحرِّض أصحابه على الجد في العمل فيذكِّرهم بنعيم الآخرة ليجتهدوا في العمل الصالح الموصل إلى ذلك النعيم فيقول لهم وهم يحفرون الخندق : اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة ، فيجيبونه بلسان المؤمن الواثق :

نحن الذين بايعوا محمدا ... على الجهاد ما بقينا أبدا

وكان ﷺ وهو ينقل التراب يرتجز بشعر ابن رواحة المذكور في الخبر، وذلك ليشد من عزائم المسلمين .

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٤٥٤ .

لقد كان بإمكانه ﷺ أن يبقى في حصن منيع وأن يتخذ لنفسه حرسا ، وما أكثر الذين يفدونه بأرواحهم من أصحابه ، ولو فعل ذلك لم يعترض عليه أحد ، ولرأى الصحابة أن ذلك من حقه وأن من واجبهم أن يقوموا بحمايته ، وأن يتولوا حماية المدينة بحفر الخندق، ولكنه ﷺ قدوة عليا لأمته فهو دائما يسابق أصحابه إلى البذل والتضحية ولا يوفر نفسه من الأعمال الشاقة .

إن مشاركة النبي ﷺ بنفسه في حفر الخندق مع أنه زعيم المسلمين وإمامهم وبين قوم يفدونه بأرواحهم لمن أقوى الأدلة على صفاته التربوية العالية وخلود عظمته عبر الأجيال ، فلم يجعل من نفسه زعيما دنيويا يُصدر الأوامر والنواهي وهو في معزل من عامة الناس بل شاركهم في السراء والضراء ، يشبع إذا شبعوا ويجوع إذا جاعوا ، ويعمل في المصالح العامة كما يعملون ، وما هذا إلا مثل من أمثلة كثيرة لتواضعه وسلوكه التربوي العالي ﷺ .

ثانيًا : طاعة الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ وتفانيهم في تنفيذ أوامره ، فقد بذلوا جهدا مكثَّفا في حفر الخندق ، حتى استطاعوا - على طوله - أن ينجزوه في أيام معدودة ، وأن ينجحوا في سبق الكفار وتحصين المدينة قبل مجيئهم .

ولقد كان لهذه الخطة الحربية الحكيمة أثر فعال في نجاح المسلمين في المعركة حيث أبطلوا بذلك مفعول سلاح الفرسان الذي يتفوق به الأعداء على المسلمين ، واقتصر القتال على سلاح الرماية الذي لم يستفد منه الكفار كثيرا لضعف استعدادهم في هذا المجال ، ولبعد معسكر المسلمين

نسبيا عن الخندق ، ولقوة الحراسة من المسلمين وشدة انتباههم كما سيأتي .

ثالثًا : في قول رسول الله ﷺ « سلمان منا أهل البيت » ما يشعر بأن سلمان من المهاجرين لأن أهل البيت من المهاجرين ، ولكنه عبَّر بطريقة بارعة رفع فيها من شأن سلمان ، وأشعر الفريقين بأن هناك فريقا ثالثا أعلى شأنا من الفريقين ، وإنْ كان ينتمي إلى أحدهما ، فلا خصومة في سلمان لأن شأنه أكبر من ذلك فإنه قد فاز باللحاق بالفريق الأعلى ، وإنا لنجد في هذا التعبير العالي لمسات سامية أقنعت الفريقين ، وأعلت من شأن رجل كان في قمة الشرف والرفعة في بلده الأول ، ثم تقلب به الزمن حتى صار موئل المهانة والذل في عبودية رجل يهودي إلى أن تحرر منه ، فكان في كلمة النبي ﷺ رد اعتبار له ومكافأة سخية على ما تخلى عنه من حياة ا الشرف والرفعة إلى حياة المهانة والذل من أجل أن يظفر بالإيمان بالنبي ﷺ وصحبته ، فما أعظمك يارسول الله مربيا وهاديا !! .

٧ - قال ابن إسحاق : وأبطأ عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين وجعلوا يُوَرُّون بالضعيف من العمل ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن ، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لابد له منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه في اللحوق بحاجته فيأذن له ، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة في الخير واحتسابا له .

قال : فأنزل الله تعالى في أولئك المؤمنين ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ**

يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) ﴾ [النور: ٦٢] فنزلت هذه الآية فيمن كان من المسلمين من أهل الحسبة والرغبة في الخير والطاعة لله ولرسوله ﷺ .

ثم قال تعالى يعني المنافقين الذين يتسللون من العمل ويذهبون بغير إذن من النبي ﷺ ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣] (١) .

وإننا حينما نقارن بين موقف المؤمنين وموقف المنافقين في هذا الخبر نعرف كيف أن الإسلام ينتقي أزكى العناصر البشرية فيصبُّها في قالب جماعة المسلمين حيث ينتُج عنها بعد ذلك العجائب مما يذهل أصحاب الفكر المتأمل والعقل المتبصر ، سواء في مجال السلم حيث تقوم بعمران الأرض على قدم وساق و هي تُتَوِّج أعمالها بنشر العدل بين الناس والرحمة بالضعفاء ، أو في مجال الحرب حيث تبذل الغالي والنفيس في سبيل خدمة مبادئها السامية التي تخضع لها عقول أعدائها قبل أن تخضع لها رقابهم ، وهذه الجماعة مع ذلك لاتقاوم أعداءها الذين صرحوا بعدائها فقط وإنما تقاوم أيضا المنافقين الذين يظهرون الولاء لها وهم يكيدون لها من داخلها بمختلف أنواع الكيد .

فهؤلاء المنافقون الذين في عهد رسول الله ﷺ يتسللون من الخدمة مع جماعة المؤمنين في أمر مهم وخطير يتوقف عليه أمْن هذه الجماعة التي أظهر هؤلاء ا لمنافقون انضمامهم لها والإيمان بمبادئها ، فنهى الله تعالى

المؤمنين عن أن يكونوا كهؤلاء المنافقين الذين يستهينون بأمر النبي ﷺ فيجعلون نداء الرسول ﷺ إياهم وتكليفهم بالعمل كنداء بعضهم بعضا، بَيْدَ أن أمر النبي ﷺ أمر إلهي لاخيار للمسلم فيه ولايجوز التردد في تنفيذه .

٨ - قال الإمام البخاري : حدثنا خلادُ بن يحيى حدثنا عبد الواحد بن أيمن عن أبيه قال « أتيتُ جابرًا رضي الله عنه فقال : إنا يوم الخندق نحفُر فعرضت كُدْية [١] شديدة ، فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا : هذه كديةٌ عرضت في الخندق فقال : أنا نازل . ثم قام وبطنهُ معصوب بحجَر ، ولبثنا ثلاثة أيام لانذوقُ ذواقًا ، فأخذ النبي ﷺ المعْوَل فضرب في الكدية، فعاد كثيبًا أهْيَلَ أو أهيم [٢] .

فقلت : يارسول الله ائذن لي إلى البيت . فقلتُ لامرأتي : رأيتُ بالنبي ﷺ شيئًا ما كان في ذلك صبر ، فعندك شيء ؟ فقالت : عندي شعير وعناق . فذبحتُ العناق ، وطحَنَت الشعير ، حتى جعلنا اللحم بالبُرمة . ثم جئتُ النبي ﷺ والعجينُ قد انكسر ، والبرمة بين الأثافيِّ قد كادت أن تنضج ، فقلتُ : طُعيِّم لي ، فقم أنت يارسول الله ورجلٌ أو رجلان . قال : كم هو ؟ فذكرت له ، فقال : كثيرٌ طيب . قال : قل لها لاتنزع البرمة ولا الخُبز من التنور حتى آتي .

فقال : قوموا . فقام المهاجرون والأنصار . فلما دخل على امرأته قال : وَيْحك ، جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم . قالت :

---

(١) هي الصخرة الصلبة .

(٢) أي رملا سائلا ، كقوله تعالى ﴿ وكانت الجبال كثيبا مهيلا ﴾ .

هل سـألك ؟ قلتُ : نعم [١] . فقال : ادخلوا ولاتضاغطوا . فجعل يكسرُ الخبز ويجعلُ عليه اللحم، ويُخمِّرُ البرمة والتُّنورَ إذا أخذ منه ، ويُقرب إلى أصحابه ثم ينزع ، فلم يزل يكسرُ الخبز ويغرف حتى شبعوا ، وبقي بقيةٌ ، قال : كلي هذا وأهدي ، فإنَّ الناس أصابتهم مجاعة» [٢] .

٩ - قال الحافظ نور الدين الهيثمي : عن البراء بن عازب قال : أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق وعرض لنا صخرة في مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول، فشكوها إلى رسول الله ﷺ فجاء رسول الله وأحسبه وضع ثوبه ثم هبط إلى الصخرة فأخذ المعول فقال: بسم الله فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر ، وقال : الله أكبر أُعطيتُ مفاتيح الشام والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا ، ثم قال : بسم الله وضرب أخرى فكسر ثلث الحجر فقال : الله أكبر أُعطيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر المدائن وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا، ثم قال: بسم الله وضرب ضربة أخرى فقطع بقية الحجر فقال : الله أكبر أُعطيت مفاتيح اليمن والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا . رواه أحمد وفيه ميمون أبو عبد الله وثقه ابن حبان وضعفه جماعة ، وبقية رجاله ثقات .

---

(١) قال الحافظ ابن حجر : في هذا السياق اختصار وبيانه في رواية يونس « قال : فلقيت من الحياء ما لايعلمه إلا الله عز وجل وقلت : جاء الخَلْق على صاع من شعير وعنا ق، فدخلت على امرأتي أقول : افتضحت ، جاءك رسول الله ﷺ بالخندق أجمعين ، فقالت : هل كان سألك كم طعامك ؟ فقلت : نعم ، فقالت : الله ورسوله أعلم ، ونحن قد أخبرناه بما عندنا، فكشفَتْ عني غمًا شديدًا - فتح الباري ٧/ ٣٩٨ - .

(٢) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤١٠١ (٧/ ٣٩٥) .

وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه ، كتاب الأشربة ، رقم ٢٠٣٩ (ص ١٦١٠).

وأخرجه ابن إسحاق - سيرة ابن هشام ٣/ ٢٥٨ - ٢٦٠ - .

ثم ذكر رواية أخرى من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما وقال : رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما حُيي بن عبد الله وثَّقه ابن معين وضعفه جماعة ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

ثم ذكر رواية ثالثة من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد بن حنبل ونُعيم العنبري وهما ثقتان [1] .

وذكره الحافظ ابن حجر من رواية الإمام أحمد والنسائي وحسَّن إسناده [2] .

وأخرجه ابن إسحاق من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه[3] .

١٠ - قال ابن إسحاق : وحدثني سعيد بن مينا أنه حُدِّث أن ابنةً لبشير بن سعد، أخت النعمان بن بشير ، قالت : دعتني أمِّي عَمرة بنتُ رواحة ، فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي ، ثم قالت : أي بُنيَّه ، اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله ابن رواحة بغدائهما ، قالت : فأخذتها ، فانطلقت بها فمررتُ برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبي وخالي ، فقال : تعالي يابُنيَّة، ماهذا معك ؟ قالت : فقلت : يارسول الله ، هذا تمر ، بعثتني به أمي إلى أبي بشير بن سعد ، وخالي عبد الله بن رواحة يتغديانه ، قال : هاتيه ، قالت : فصَبَبته في كفَّي رسول الله ﷺ ، فما ملأتهما ، ثم أمر بثوب فبُسط له ، ثم دَحَا بالتمر عليه ، فتبدَّد فوق الثوب ، ثم قال لإنسان عنده ، اصرخ في أهل الخندق : أن هَلُمَّ إلى الغداء . فاجتمع أهل الخندق

---

(١) مجمع الزوائد ٦/ ١٣٠ - ١٣٢ .

(٢) فتح الباري ٧/ ٣٩٧ .

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٦١ .

عليه، فجعلوا يأكلون منه ، وجعلَ يزيد، حتى صَدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب (١) .

في هذه الأخبار عبر عظيمة فيما جرى لرسول الله ﷺ من المعجزات .

فالمعجزة الأولى في تكثير الطعام بن يديه ﷺ وقد جاء ذلك في حديث جابر رضي الله عنه عند البخاري حيث دعا رسول الله ﷺ ورجلا أو رجلين على طعامه فأكل منه أهل الخندق وهم عدة مئات، وكذلك في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند الطبراني ، وأبلغ من ذلك ما جاء في حديث ابنة بشير بن سعد عند ابن إسحاق حيث شبع أهل الخندق من تمرات لم يملأن كَفَّي رسول الله ﷺ، وذلك مما أنزل الله تعالى في الطعام من البركة على يد رسوله ﷺ .

أما المعجزة الثانية ففي تليين الحجر لرسول الله ﷺ وانكساره بين يديه ، ثم في إخباره ﷺ عما سيكون في المستقبل من فتح الشام وبلاد فارس واليمن .

وإن في ظهور هذه المعجزات على يدي رسول الله ﷺ والمسلمون في تلك الحال الحرجة التي ابتُلي فيها المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدًا حكمًا عظيمة ، حيث قوَّى الله تعالى بها قلوب المؤمنين ورسَّخ إيمانهم حتى أيقنوا بأن الله تعالى ناصرهم على أعدائهم، ليس في تلك المعركة

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٥٩ .

وأخرجه الواقدي بإسناده إلى القاسم بن عبد الرحمن بن رافع النَّجَّاري وذكر نحوه - مغازي الواقدي ٢/ ٤٧٦ .

وحدها وإنما في المعارك القادمة أيضا حتى ينتشر دين الله تعالى وتكون كلمته هي العليا .

كما أن في هذه المعجزات تبكيتا للمنافقين واليهود الذين أرجفوا بالمؤمنين وخذَّلوهم ، فإن أيَّ عاقل يرى هذه المعجزات يُسَلِّم بنبوة رسول الله ﷺ وأن الله تعالى معه بنصره و تأييده .

وفي خبر جابر عند البخاري بيان لشيء من أخلاق النبي ﷺ العالية ، حيث كان يتولى تقديم الطعام لأصحابه رضي الله عنهم حتى شبعوا ، وفي هذا دلالة على تواضعه العظيم ، والتواضع يعتبر من أعظم صفات الكمال في الإنسان .

* * *

٣ - غدر يهود بني قريظة ومواقف للصحابة -

قال ابن إسحاق : وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد القُرَظي ، صاحب عقد بني قريظة وعهدهم ، وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه ، وعاقده على ذلك وعاهده ، فلما سمع كعب بحُيىّ بن أخطب أغلق دونه باب حصنه ، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له ، فناداه حُيَيّ : ويحك ياكعب ! افتح لي ، قال : ويحك ياحيىّ، إنك امرؤ مشئوم ، وإني قد عاهدت محمداً ، فلستُ بناقض ما بيني وبينه ، ولم أرَ منه إلا وفاء وصدقا ، قال : ويحك افتح لي أكلّمك، قال : ما أنا بفاعل .

قال : والله إن أغلقت دوني إلا عن جشيشتك [١] أن آكل معك منها، فأحفظ الرجل ، ففتح له ، فقال : ويحك ياكعب جئتك بعزّ الدهر وببحْر طام ، جئتك بقُريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رُومة ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذَنَب نَقَمَى إلى جانب أُحد ، قد عاهدوني وعاقدوني على أن لايبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه .

قال : فقال له كعب : جئتني والله بذُلّ الدهر ، وبجهام قد هَرَاق ماءَه ، فهو يرعد ويبرق ، ليس فيه شيء ، ويحك ياحُيىّ ! فدَعني وما أنا عليه ، فإني لم أرَ من محمد إلا صدقا ووفاءً .

فلم يزل حُيىّ بكعب يفتله في الذّروة والغارب [٢] حتى سمح له،

(١) الجشيشة هي السويق .

(٢) الذروة والغارب أعلى ظهر البعير وكان البعير إذا شرد من صاحبه وصعب عليه مسح على ظهره بيده حتى يسكن ويهدأ والمراد أنه لم يزل يخادعه كما يخادع البعير إذا نفر .

على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقا : لئن رجعت قريش وغطفان ، ولم يصيبوا محمداً ، أن أدخل معك في حصنك حتى يُصيبني ما أصابك . فنقض كعبُ بن أسد عَهده ، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ (١) .

وهكذا وافق يهود بني قريظة أسلافهم من يهود بني النضير على الغدر برسول الله ﷺ والمسلمين ، مع أنهم لم يروا منهم إلا الوفاء والصدق كما جاء في اعتراف زعيمهم كعب بن أسد ، لكن النفوس التي ألفَت الشر ونشأت على الغلِّ و الحقد والحسد لايستريح أصحابها وهم يرون غيرهم في عز وسعادة ، لأنهم يريدون أن يختصوا بذلك دون غيرهم وأن يكون الآخرون تحت سلطان خداعهم وتضليلهم كما كان الأنصار كذلك في جاهليتهم مع يهود المدينة .

ولما وصل الخبر إلى النبي ﷺ بما أقدم عليه يهود بني قريظة من نقض العهد بعث إليهم الزبير بن العوام رضي الله عنه ليأتي بخبرهم ، وفي ذلك أخرج الإمام البخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ يومَ الأحزاب : من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزبير : أنا . ثم قال : من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزبير : أنا . ثم قال : من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزبير أنا . ثم قال : إنَّ لكل نبي حواريّاً وإن حواريَّ الزبير » (٢) .

وجاء في رواية الواقدي أن الزبير ذهب إلى بني قريظة ثم رجع

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٦٢ - ٢٦٤ .

(٢) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤١١٣ (٧/ ٤٠٦) .

فقال : يارسول الله رأيتهم يصلحون حصونهم ويدربون طرقهم وقد جمعوا ما شيتهم [1] .

وهذا يعني أن النبي ﷺ لم يكلفه بمخاطبتهم وإنما كلفه بمعرفة واقعهم هل هو حربي أم سلمي .

فلما تبين للنبي ﷺ ما يدل على صحة ماذُكر عنهم من نقض العهد بعث إليهم وفداً من الأنصار لمخاطبتهم لمعرفة حقيقة أمرهم .

وقد أخرج الخبر في ذلك محمد بن إسحاق حيث يقول : فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ الخبر وإلى المسلمين ، بعث رسولُ الله ﷺ سعد بن معاذ بن النعمان ، وهو يومئذ سيد الأوس ، وسعدَ بن عبادة بن دُلَيم ، أحد بني ساعدة بن كعب بن الخزرج ، وهو يومئذ سيد الخزرج ، ومعهما عبد الله بن رواحة ، أخو بني الحارث بن الخزرج ، وخوّات بن جبير ، أخو بني عمرو بن عوف ، فقال : انطلقوا حتى تنظروا ، أحقّ مابلغنا . عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقا فالْحنوا لي لحنًا أعرفه ، ولاتفُتُّوا في أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس .

قال : فخرجوا حتى أتوهم ، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم ، فيما نالوا من رسول الله ﷺ ، وقالوا : مَنْ رسول الله ؟ لاعهد بيننا وبين محمد ولا عقد : فشاتمهم سعدُ بن معاذ وشاتموه ، وكان رجلاً فيه حدَّة ، فقال له سعد بن عبادة : دع عنك مشاتمتهم ، فما بيننا وبينهم أربَى من المشاتمة . ثم أقبل سعدٌ وسعدٌ ومن معهما ، إلى رسول الله ﷺ

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٤٥٧ .

فسلموا عليه ، ثم قالوا : عَضَلٌ والقارة ، أي كغدر عَضَل والقارة بأصحاب الرجيع ، خبيب وأصحابه ، فقال رسولُ الله ﷺ : الله أكبر . أبشروا يامعشر المسلمين [1] .

وهذا موقف يذكر لسعد بن معاذ رضي الله عنه حينما وقف من يهود بني قريظة هذا الموقف الشديد مع أنهم حلفاء قومه في الجاهليه ، وهذا دليل على قوة إيمانه ورسوخ يقينه حيث جرَّد قلبه من عصبية الجاهلية .

ومما جاء في غدر بني قريظة ما رواه الواقدي من خبر الحارث بن الفُضيل قال : همّت بنو قُريظة أن يُغيروا على بيضة المدينة ليلاً ، فأرسلوا حُيى بن أخطب إلى قُريش أن يأتيهم منهم ألفُ رجل ، ومن غطفان ألف ، فيُغيروا بهم فجاء رسولَ الله ﷺ الخبرُ بذلك فعظم البلاء ، فكان رسول الله ﷺ يبعث سَلَمَة بن أسْلَم بن حُرَيش الأشهلي في مائتي رجل ، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة يحرسون المدينة ويُظهرون التكبير ، ومعهم خيل المسلمين ، فإذا أصبحوا أمنوا .

فكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول : لقد خفنا على الذراري بالمدينة من بني قريظة أشد من خوفنا من قُريش وغطفان ، ولقد كنت أُوفي على سلع فأنظر إلى بيوت المدينة ، فإذا رأيتهم هادئين حمدت الله عز وجل ، فكان مما ردّ الله به قُريظة عمّا أرادوا أنَّ المدينة كانت تُحرس .

ثم ذكر الواقدي خبر خَوّات بن جبير قال : دعاني رسول الله ﷺ ونحن مُحاصرو الخندق ، فقال : انطلق إلى بني قريظة فانظر هل ترى لهم غِرَّةً أو خَلَلاً من موضع فتُخبرني . قال : فخرجتُ من عنده عند غروب الشمس ، فتدلَّيت من سَلْع وغربت لي الشمس فصليت المغرب ،

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٦٤ .

ثم خرجت حتى أخذتُ في راتج ، ثم على عبد الأشهل ، ثم في زهرة ، ثم على بُعاث . فلما دنوتُ من القوم قلت : أكمُن لهم . فكمَنْت ورمقت الحصون ساعة ، ثم ذهب بي النوم فلم أشعر إلاَّ برجل قد احتملني وأنا نائم ، فوضعني على عُنُقه ثم انطلق يمشي .

قال : ففزعت ورجلٌ يمشي بي على عاتقه ، فعرفت أنه طَليعة من قُريظة واستحييت تلك الساعة من رسول الله ﷺ حياءً شديدًا ، حيث ضيّعت ثغرًا أمرني به ، ثم ذكرت غلبة النوم . قال : والرجل يُرقل بي إلى حصونهم ، فتكلم باليهودية فعرفتهُ ، قال : أبشر بجَزْرَة سمينة ! .

قال : وذكرت وجعلت أضرب بيدي - وعهدي بهم لايخرج منهم أحدٌ أبدًا إلا بمغْوَل في وسطه [(١)] . قال : فأضع يدي على المغول فأنتزعه ، وشغل بكلام رجل من فوق الحصن ، فانتزعته فوجأت به كبده فاسترخى وصاح : السَّبُع ! فأوقدت اليهودُ النار على آطامها بشُعَل السَّعَف . ووقع ميتًا وانكشف ، فكنتُ لا أُدْرَك [(٢)] .

وأقبلُ من طريقي التي جئتُ منها . وجاء جبريل إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : ظفرتَ ياخَوّات ! ثم خرج فأخبر أصحابه فقال : كان من أمر خوات كذا وكذا . وآتي رسول الله ﷺ وهو جالسٌ في أصحابه وهم يتحدثون ، فلما رآني قال : أفلح وجهك ! قلت : ووجهُك يارسول الله ! قال : أخبرني خبرك . فأخبرته ، فقال النبي ﷺ : هكذا أخبرني جبريل . وقال القوم : هكذا حدثنا رسول الله ﷺ . قال خوات : فكان ليلنا بالخندق نهارًا [(٣)] .

(١) المغول بكسر الميم وسكون الغين سيف دقيق كهيئة السكين .

(٢) يعني أنه عدّاء لايدركه لاحقه .

(٣) مغازي الواقدي ٢/ ٤٦١ .

هذا الخبر يعتبر مثلا من الأمثلة العالية في رباطة الجأش والمقدرة على التفكير السليم مع رهبة مواجهة الموت ، بل مواجهة ماهو أفظع من ذلك بالنسبة للمسلمين وهو ذل الأسر وما يتبع ذلك بالنسبة للصحابة رضي الله عنهم من مساومة النبي ﷺ في الأسرى ، وقد كان اليهود حريصين على أخذ المسلمين أسرى ليساوموا فيهم فيما لو حاصرهم المسلمون ، ولكنهم لم يتمكنوا من شيء من ذلك .

ولقد كان ذلك اليهودي في غاية الفرح حينما رأى صحابيًا نائمًا فاحتمله أسيراً بعدما جرده من سلاحه ولقد كان أخذ المسلمين أسرى وهم محاربون من الأمور البعيدة المنال في عهد الصحابة ، ولو أن ذلك اليهودي نبَّه خوات بن جبير لوجده أسداً مرعبًا .

ولقد كان ذلك ا لسلاح الخفي الذي يحمله اليهود أوساطهم سببا في نجاة خوات بين جبير ووقوع ذلك اليهودي صريعا .

وهكذا تحوَّل سلاح النجاة هلاكا ، وتحول سلاح الهلاك نجاة بقدرة الله تعالى الذي ثبَّت قلب خوات بن جبير وألهمه تذكُّر ذلك السلاح الخفي .

وقول اليهودي حينما طعنه خوات بن جبير : « السَّبُع » يفيد بأن ذلك اليهودي قد اعتقد بأن سبعا قد هجم عليه فبقر بطنه ولم يكن يتوقع بأن أسيره قد اختلس مغْولَه بتلك الخفَّة والخفية وأنه هو الذي قضى عليه .

ومن ذلك ما أخرجه الواقدي من خبر عبد الله بن أبي بكر بن حزم، قال : خرج نَبّاش بن قيس ليلةً من حصنهم يُريد المدينة ، ومعه عشرةٌ من اليهود من أشدّائهم وهم يقولون : عسى أن نُصيب منهم غرّة .

فانتهوا إلى بَقيع الغرْقَد ، فيجدون نفراً من المسلمين من أصحاب سَلَمَة بن أسْلَم بن حُرَيش ، فناهضوهم فراموهم ساعةً بالنَّبل ، ثم انكشف القُرظيون مُولّين . وبلغ سَلَمَة بن أسْلَم وهم بناحية بني حارثة ، فأقبل في أصحابه حتى انتهوا إلى حصونهم ، فجعلوا يُطيفون بحصونهم حتى خافت اليهود ، وأوقدوا النيران على آطامهم وقالوا : البَيات ! وهدموا قَرْنَى [1] بئر لهم وهوّروها [2] عليهم ، فلم يقدروا يطلعوا من حصنهم وخافوا خوفًا شديدًا [3] .

وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم في تمام اليقظة والحذر ، فكانت فصائلهم تجوب أنحاء المدينة في الليل حتى لم تترك لليهود أيّة فرصة للإغارة على النساء والذراري ونحوهم .

وفي هذا الخبر مثل للجهود الكبيرة التي كان يبذلها سلمة بن أسلم ابن حريش وأصحابه في حراسة المدينة من داخلها .

ونجد أن هؤلاء الأبطال لم يكتفوا بردِّ غارة اليهود بل تبعوهم إلى أحد حصونهم وأرهبوهم وهدموا بئرًا لهم خارج الحصن حتى أصبحوا محصورين في حصونهم لايستطيعون الخروج .

* * *

(١) هما ما يرفع من البناء إلى جانبي البئر لتوضع فوقهما الخشبة التي تُعلّق عليها البكرة .

(٢) أي هدموها .

(٣) مغازي الواقدي ٢/ ٤٦٢ .

٤ – مواقف في خبر المفاوضة مع غطفان –

قال ابن إسحاق : فلما اشتدَّ على الناس البلاء ، بعث رسول الله ﷺ – كما حدثني عاصم بن عمر بن قتادة ومن لا أتهم ، عن محمد بن مُسلم بن عبيد الله بن شهاب الزُّهري – إلى عُيَيْنة بن حصن بن حُذيفة بن بدر ، وإلى الحارث بن عوف ابن أبي حارثة المُرّي وهما قائدا غطفان ، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، فجرى بينه وبينهما الصلح ، حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولاعزيمة الصُّلح إلا المُراوضة في ذلك .

فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل ، بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عُبادة ، فذكر ذلك لهما ، واستشارهما فيه ، فقالا له : يارسول الله ، أمرًا تحبه فنصنعه ، أم شيئًا أمرك الله به ، لابد لنا من العمل به ، أم شيئًا تصنعه لنا ؟ قال بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قَوْس واحدة ، وكَالَبُوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر مَّا .

فقال له سعد بن معاذ : يارسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لانعبد الله ولانعرفه ، وهم لايطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرًى أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزّنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ؟ ! والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لانعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، قال رسول الله ﷺ : فأنت وذاك . فتناول سعد بن معاذ الصَّحيفة ، فمحا ما

فيها من الكتاب ، ثم قال ليَجْهدوا علينا [1] .

وأخرجه الواقدي من حديث الزهري عن سعيد بن المسيب ، وذكر نحوه مع بعض الزيادات ، وقد جاء في آخره : فرجع عُيَيْنة والحارث وهما يقولان : والله ، ما نرى أن ندرك منهم شيئًا ، ولقد أُنهجَتْ للقوم بصائرهم ! والله ما حضرتُ إلا كُرْهًا لقوم غلبوني ، وما مُقامنا بشيء ، مع أن قُرَيشًا إن علمت بما عرضنا على محمد عرفَتْ أنا قد خذلناها ولم ننصرها . قال عُيينة : هو والله ذلك ! قال الحارث : أمَا إنَّا لم نُصبْ بتعرضنا لنصر قريش على محمد ، والله لئن ظهرت قُريشٌ على محمد ليكونن الأمرُ فيها دون سائر العرب ، مع أني أرى أمر محمد أمرًا ظاهرًا والله ، لقد كان أحبار يهود خيبر وإنهم يحدثون أنهم يجدون في كُتبهم أنه يُبعث نبيٌّ من الحرم على صفته .

قال عُيينة : إنا والله ما جئنا ننصر قُريشًا ، ولو استنصرنا قُريشا ما نصرتْنا ولا خرجَتْ معنا من حرمها . ولكني كنتُ أطمع أن نأخذ تمر المدينة فيكون لنا به ذكرٌ مع ما لنا فيه من منفعة الغنيمة ، مع أنَّا ننصر حُلفاءَنا من اليهود فهم جَلَبونا إلى ما هاهنا .

قال الحارث : قد والله أبت الأوس والخزرج إلا السيف ، والله لتقاتلَنَّ عن هذا السعف ، مابقي منها رجلٌ مقيم ، وقد أجدب الجَنابُ وهلك الخُف والكُراع [2] . قال عُيينة : لاشيء .

فلما أتيا منزلهما جاءَتهما غطفان فقالوا : ماوراءكم ؟ قالوا : لم يتم

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٢) أي أجدبت الأرض القريبة من المدينة وانتهت المراعي وهلكت الإبل والخيل .

الأمرُ ، رأينا قومًا على بصيرة وَبَذْل أنفسهم دون صاحبهم ، وقد هلكنا وهلكت قريش ، وقُريش تنصرف ولاتُكلِّم محمداً ! وإنما يقع حَرُّ محمد ببني قريظة ، إذا ولينا جثم عليهم فحصرهم جمعةً حتى يُعطوا بأيديهم . قال الحارث : بُعْدًا وسُحقًا ! محمدٌ أحبُّ إلينا من اليهود (١) .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : قول سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضي الله عنهما « يارسول الله أمرًا تحبه فنصنعه ، أم شيئًا أمرك الله به لابد لنا من العمل به ، أم شيئًا تصنعه لنا ؟ » يعتبر غاية في الاستسلام لله تعالى والأدب مع النبي ﷺ وطاعته ، فقد جعلوا أمر المفاوضة مع غطفان ثلاثة أقسام : الأول أن يكون هذا الأمر من عند الله تعالى فلا مجال لإبداء الرأي بل لابد من التسليم والرضى ، والثاني : أن يكون شيئا يحبه رسول الله ﷺ باعتباره رأيه الخاص ، فرأيه مقدم وله الطاعة في ذلك ، الثالث : أن يكون شيئًا عمله الرسول ﷺ لمصلحة المسلمين من باب الإرفاق بهم ، فهذا هو الذي يكون مجالا للرأي .

ولما تبين للسَّعدين من جواب الرسول ﷺ أنه أراد القسم الثالث أجاب سعد بن معاذ بجواب قوي كبت به زعيمي غطفان حيث بين أن

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٤٧٧ - ٤٨٠ ، وأخرجه عبد الرزاق الصنعاني من حديث ابن المسيب مختصرا - مصنف عبد الرزاق ٥/ ٣٦٧ ، رقم ٩٧٣٧ ، وأخرجه البزار من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مختصراً - كشف الأستار ٢/ ٣٣١ ، رقم ١٨٠٣ ، وذكره الهيثمي من رواية البزار والطبراني وقال : فيهما محمد بن عمرو وحديثه حسن وبقية رجاله ثقات - مجمع الزوائد ٦/ ١٣٢ - .

الأنصار لم يذلُّوا لأولئك المعتدين في الجاهلية فكيف وقد أعزَّهم الله تعالى بالإسلام .

وقد أُعجبَ النبي ﷺ بجواب سعد وتبين له منه ارتفاع معنوية الأنصار واحتفاظهم بالروح الجهادية القوية ، فألغى بذلك ما بدأ به من الصلح مع غطفان .

وفي المحاورة التي ذكرها الواقدي في روايته بين زعيمي غطفان يتبين لنا انخفاض مستوى الروح القتالية لديهم وأنهم في تردد من أمرهم وندم على ما أقدموا عليه من موافقة قريش واليهود على غزو المدينة ، وكان هذا التردد وضآلة أملهم في الحصول على تمر المدينة مما جعل مجهودهم في القتال ضعيفاً .

* * *

٥ – صور من المعركة ومواقف لرسول الله ﷺ وأصحابه –

قال ابن إسحاق : فأقام رسول الله ﷺ والمسلمون ، وعدوُّهم محاصروهم ولم يكن بينهم قتال ، إلا أن فوارس من قريش ، منهم عمرو بن عَبدوُدِّ بن أبي قيس[١] ، أخو بني عامر بن لُؤَيّ ، وعكرمة بن أبي جهل ، وهُبيرة بن أبي وهب المخزوميان ، وضرار بن الخطاب الشاعر ابن مرداس أخو بني محارب بن فهر ، تلبسوا للقتال [٢] ، ثم خرجوا على خَيلهم حتى مروا بمنازل بني كنانة ، فقالوا : تهيَّئوا يابني كنانة للحرب ، فستعلمون من الفرسان اليوم . ثم أقبلوا تُعنق بهم خيلهم[٣] ، حتى وقفوا على الخندق ، فلما رأوه قالوا : والله إن هذه لمكيدة ماكانت العرب تكيدها .

قال ابن إسحاق : ثم تيمَّموا مكانا ضيِّقا من الخندق ، فضربوا خيلهم فاقتحمت منه ، فجالت بهم في السبَّخة ، بين الخندق وسَلْع ، وخرج علي بن أبي طالب عليه السلام في نفر مع من المسلمين ، حتى أخذوا عليهم الثَّغرة التي أقحموا منها خيلهم ، وأقبلت الفُرسان تُعنق نحوهم .

وكان عمرو بن عبد وُد قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة ، فلم يشهد يوم أُحد ، فلما كان يوم الخندق خرج مُعلما ، ليُرى مكانهُ . فلما وقف هو وخيله ، قال من يبارز ؟ فبرز له عليّ بن أبي طالب ، فقال له

---

(١) قال ابن هشام : ويقال : عمرو عبد بن أبي قيس .

(٢) يعني تهيأوا واستعدوا له .

(٣) أي تسرع بهم والعنق بفتحتين ضرب من السير السريع .

ياعمرو ، إنك كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه ، قال له : أجل ، قال له عليّ فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله ، وإلى الإسلام ، قال : لاحاجة لي بذلك ، قال : فإني أدعوك إلى النِّزال ، فقال له : لمَ يابن أخي ؟ فو الله ما أحب أن أقتلك ، قال له عليٌّ : لكني والله أحبّ أن أقتلك ، فَحمي عمرو عند ذلك ، فاقتحم عن فرسه ، فعقره وضرب وجهه ، ثم أقبل على عليّ ، فتنازلا وتجاولا ، فقتله علي رضي الله عنه ، وخرجت خيلهم مُنهزمة ، حتى اقتحمت من الخندق هاربةً .

قال ابن إسحاق : وقال عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه في ذلك :

نَصَر الحجارةَ من سفاهَة رأيه ... ونصرتُ ربَّ محمد بصوابي

فصَددت حين تَركته متجدّلا ... كالجذع بين دكادك ورَوابي [1]

وعَففت عن أثوابه ، ولَو انَّني ... كنتُ المُقَطَّر بزَّني أثوابي [2]

لاتَحْسَبُنَّ اللهَ خاذلَ دينه ... ونَبيِّه يامَعْشر الأحزاب [3]

هذا الخبر يبين شجاعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وإقدامه الجريء على المهالك ، فلقد كان عمرو بن عبد ودّ من المشهورين بالشجاعة والخبرة الحربية فالإقدام على مبارزته مغامرة لايُقدم عليها من له في الحياة رغبة .

---

(١) الدكادك جمع دكدك وهو ماغلظ من الأرض والروابي جمع رابية وهي المكان المرتفع .

(٢) المقطر أي المقتول وبزني يعني سلبني .

(٣) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٦٩ - ٢٧٠ ، وأخرج الحاكم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما خبر قتل علي عمرو بن عبدودّ ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي - المستدرك٣/ ٣٢ - .

وإذا نظرنا إلى المتبارزين من ناحية الكفاءة الحربية نجد أن بينهما فرقا كبيرا ، فعمرو بن عبدوُدّ يمتاز بعدة عوامل ترجح كفته ، منها شهرته المستفيضه بالشجاعة والقوة ، وهذه الشهرة تمنحه قوة معنوية بينما تضعف من قوة خصمه وتصيبه بالرعب والهلع ، ومنها خبرته الحربية فهو متقدم في السن ، وكلما كان الإنسان أكثر ممارسة للحرب كان أكثر خبرة وأقدر على اتقاء ضربات الخصم واغتنام فرص الهجوم .

ولكن مع صغر سنِّ علي رضي الله عنه وقلة خبرته الحربية فإنه أقدم على مبارزة ذلك الرجل العنيف الشجاع ، فنصره الله تعالى عليه فأرْدَاه قتيلا ، وكان ذلك كافيا لإرهاب أصحابه الذين فروا وتركوا الميدان .

وهكذا حدث ما يشبه الخوارق حيث أقدم شاب حديث السن والخبرة على مبارزة فارس عظيم من أشهر فرسان العرب ، كما يفيد ذلك ما جاء في رواية أخرى لابن إسحاق ذكرها السهيلي وفيها أن عمرو بن عبد وُدّ حينما دعا إلى المبارزة برز له علي بن أبي طالب فقال له رسول الله ﷺ : اجلس إنه عمرو ، قالها مرتين وفي الثالثة قال علي : وإن كان عمرًا فأذن له رسول الله ﷺ [(١)] .

وإنه لمشهد عظيم وامتحان رهيب يظهر فيه الإيمان الراسخ والشجاعة الفذة حيث تتم المبارزة على ملأ من الطرفين ويكون لنتائجها الأثر البالغ في رفع المعنويات أو تحطيمها ، ولقد ضرب المسلمون أروع الأمثال في ذلك حيث كان الأبطال وأقوياء الإيمان يتسابقون إلى ساحة الميدان وتكون لهم الغلبة في أكثر الأحوال ، بل إنه من النادر جدًا أن يتفوق

---

(١) الروض الأنف ٦/ ٣١٧ .

عليهم الأعداء في هذا المجال ، لأنه يستحيل أن يوجد من يبذل طاقته كاملة ويتمنى الموت غيرُ المسلمين حيث إن ما يقصده المسلمون هو رضوان الله تعالى والسعادةُ الأخروية ، وإن مما يوقن به المؤمن أن مما يعجل بحصوله على ذلك أن يزجَّ بنفسه في المخاطر من أجل إعزاز دين الله تعالى ، أما غير المسلم فإن الذين يقصدهم بتضحيته لا يستفيد منهم إلا في هذه الحياة الدنيا ، ومن الطبيعي أن يحرص على استبقاء نفسه ليفوز بثمرات نصره ، وهذا يعوقه عن بذل القدر الكافي من الطاقة فيتفوق عليه المسلم المخلص بإذن الله تعالى .

وقال الواقدي بعد أن ذكر هذا الخبر : فلما رجعوا إلى أبي سُفيان قال : هذا يومٌ لم يكن لنا فيه شيء ، ارجعوا ! فنفرت قُريش فرجعت إلى العقيق ، ورجعت غطفان إلى منازلها ، واتَّعدوا يغدون جميعًا ولايتخلف منهم أحد . فباتت قُريش يُعبئون أصحابهم ، وباتت غطفان يُعبئون أصحابهم ، ووافوا رسول الله ﷺ بالخندق قبل طلوع الشمس . وعبأ رسولُ الله ﷺ أصحابه وحضَّهم على القتال ، ووعدهم النصر إن صَبَروا ، والمشركون قد جعلوا المسلمين في مثل الحصن من كتائبهم فأخذوا بكل وجه من الخندق .

قال : فحدثني الضحاك بن عُثمان ، عن عُبيد الله بن مقْسَم ، عن جابر بن عبد الله قال : قاتلونا يومهم وفرَّقوا كتائبهم ، ونحَّوا إلى رسول الله ﷺ كتيبةً غليظةً فيها خالد بن الوليد ، فقاتلهم يومه ذلك إلى هَويٍّ من الليل ، ما يقدر رسول الله ﷺ ولا أحدٌ من المسلمين أن يزولوا من مواضعهم ، وما قدر رسول الله ﷺ على صلاة الظُّهر ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء ، فجعل أصحابُه يقولون : يارسول الله ، ما صلَّينا!

فيقول : ولا أنا والله ما صلَّيت! حتى كشفهم الله تعالى فرجعوا متفرقين . فرجعت قُريش إلى منزلها ، ورجعت غطفان إلى منزلها ، وانصرف المسلمون إلى قُبَّة رسول الله ﷺ .

وأقام أُسيد بن حُضَير على الخندق في مائتين من المسلمين ، فهم على شفير الخندق إذ كرت خيلٌ من المشركين يطلبون غرَّةً ، عليهم خالد بن الوليد ، فناوشوهم ساعةً ومع المشركين وَحشيٌّ ، فزرق الطُّفيلَ بن النُّعمان من بني سَلمة بمزراقه فقتله ، فكان يقول : أكرم الله تعالى حمزة والطُّفيل بحربتي ولم يُهنِّي بأيديهما .

فلما صار رسول الله ﷺ إلى موضع قُبَّته أمر بلالاً فأذَّن . وكان عبد الله بن مسعود يقول : أمره رسول الله ﷺ فأذَّن وأقام للظهر ، وأقام بعدُ لكل صلاة إقامةً إقامةً .

وقد حدثني ابنُ أبي ذئب - وهو أثبت الحديثين عندنا - قال : أخبرني المقبُري ، عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري ، عن أبيه قال : جلسنا يوم الخندق حتى كان بعد المغرب بهَوِيٍّ من الليل حتى كُفينا ، وذلك قول الله عز وجل : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب : ٢٥] . فدعا رسول الله ﷺ بلالاً فأمره ، فأقام صلاة الظهر فصلاها كأحسن ما كان يصليها في وقتها . ثم أقام صلاة العصر فصلاها كأحسن ما كان يصليها في وقتها . ثم أقام المغرب فصلاها كأحسن ما كان يصليها في وقتها ، ثم أقام العشاء فصلاها كأحسن ما كان يصليها في وقتها . قال وذلك قبل أن يُنزل الله صلاة الخوف : ﴿ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا ﴾ [البقرة : ٢٣٩] (١) .

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٤٧٢ - ٤٧٣ .

وهذا يوم من أشد أيام الخندق حيث طمع المشركون في إشغال المسلمين من جميع الجهات بالكتائب ليتمكنوا من ردم جزء من الخندق وتجاوزه بخيولهم ، ولكن المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ كانوا واقفين جميعا في مواقعهم من الخندق من صباح ذلك اليوم إلى ما بعد العشاء ، ولم يستطع رسول الله ﷺ ولا أصحابه أن يُصَلُّوا ذلك اليوم ، ولم تكن شُرعت بعدُ صلاة الخوف كما جاء في هذه الرواية ، فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه الصلوات قضاء .

ولقد جرت محاولات أخرى لبعض فرسان المشركين كما جرت مناوشات بالرمي بين المسلمين والمشركين ومن ذلك ما أخرجه الواقدي من حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت : كنتُ مع رسول الله ﷺ في الخندق فلم أفارقه مُقامه كله ، وكان يحرس بنفسه في الخندق ، وكنا في قُرٍّ شديد(١) ، فإني لأنظر إليه قام فصلَّى ما شاء الله أن يُصلي في قبته ، ثم خرج فنظر ساعةً فأسمعُه يقول : هذه خيل المشركين تُطيف بالخندق ، من لهم ؟ ثم نادى : ياعَبَّاد بن بشر . فقال عباد : لبيك ! قال : أمعك أحد؟ قال : نعم ، أنا في نفر من أصحابي كنَّا حول قُبتك .

قال : فانطلق في أصحابك فأطف بالخندق ، فهذه خيل من خيلهم تُطيف بكم يطمعون أن يُصيبوا منكم غرَّة . اللهم ادفع عنا شرهم وانصرنا عليهم واغلبهم ، لايغلبُهم غيرُك! فخرج عباد بن بشر في أصحابه ، فإذا بأبي سفيان في خيل من المشركين يُطيفون بمضيق الخندق . وقد نذر بهم المسلمون ، فرموهم بالحجارة والنبل . فوقفنا معهم فرميناهم حتى أذلقناهم بالرمي فانكشفوا راجعين إلى منزلهم . ورجعتُ

(١) القر – بضم القاف وتشديد الراء المكسورة – هو البرد .

إلى رسول الله ﷺ فأجدُه يُصلِّي فأخبرته . قالت أم سلمة : فنام حتى سمعتُ غَطيطه فما تحرك حتى سمعت بلالاً يؤذن بالصبح وبياض الفجر ، فخرج فصلى بالمسلمين . فكانت تقول : يرحم الله عَباد بن بشر ، فإنه كان ألزم أصحاب رسول الله ﷺ لقُبَّة رسول الله يحرسها أبداً [1] .

كما أخرج الواقدي في بيان ذلك من حديث أيوب بن النُّعمان ، عن أبيه ، قال : كان أُسيد بن حُضير يحرس الخندق في أصحابه ، فانتهوا إلى مكان من الخندق تطفُره [2] الخيل ، فإذا طليعةٌ من المشركين ، مائة فارس أو نحوها ، عليهم عمرو بن العاص يُريدون أن يُغيروا إلى المسلمين ، فقام أُسيد بن حُضير عليها بأصحابه ، فرموهم بالحجارة والنبل حتى أجهضوا عنا وولَّوا . وكان في المسلمين تلك الليلة سلمان الفارسي ، فقال لأُسيد : إنَّ هذا مكان من الخندق متقارب ، ونحن نخاف تطفُره خيلهُم ، وكان الناس عجلوا في حفره ، وبادروا فباتوا يُوسعونه حتى صار كهيئة الخندق وأمنوا أن تطفُره خيلهم ، وكان المسلمون يتناوبون الحراسة ، وكانوا في قُرٍّ شديد وجوع [3] .

ومما يبين جهود المسلمين في جهاد العدو ما أخرجه الواقدي من حديث أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت : والله ، إني لفي جوف الليل في قُبَّة النبي ﷺ وهو نائم ، إلى أن سمعتُ الهَيْعة[4] ، وقائل يقول : ياخيل

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٤٦٤ .

(٢) الطَّفر هو الوثوب في ارتفاع .

(٣) مغازي الواقدي ٢/ ٤٦٤ - ٤٦٥ .

(٤) الهيعة : الصوت الذي تفزع منه وتخافه من عدو (النهاية ، ج٤ ، ص ٢٦١) .

الله! وكان رسول الله ﷺ جعل شعار المهاجرين « ياخيل الله » ففزع رسول الله ﷺ بصوته فخرج من القُبَّة ، فإذا نفرٌ من الصحابة عند قُبته يحرسونها ، منهم عباد بن بشر ، فقال : مابالُ الناس ؟ قال عباد : يارسول الله ، هذا صوت عمر بن الخطاب ، الليلة نوبته يُنادي : «ياخيل الله » والناس يثوبون إليه ، وهو من ناحية حُسيكة مابين ذُباب ومسجد الفتح . فقال رسول الله ﷺ لعباد بن بشر : اذهب فانظر ، ثم ارجع إليّ إن شاء الله فأخبرني !

قالت أم سلمة : فقمتُ على باب القُبَّة أسمعُ كلَّ ما يتكلمان به . قالت : فلم يزل رسول الله ﷺ قائمًا حتى جاءَه عباد بن بشر فقال : يارسول الله ، هذا عمرو بن عبد في خيل المشركين ، معه مسعود بن رُخية في خيل غطفان ، والمسلمون يُرامونهم بالنبل والحجارة .

قالت : فدخل رسول الله ﷺ ، فلَبِس درعه ومغفَره ، وركب فرسه، وخرج مع أصحابه ، حتى أتى تلك الثُّغْرَة ، فلم يلبث أن رجع وهو مسرورٌ فقال : صرَفهم الله ، وقد كثُرت فيهم الجراحة .

قالت : فنام حتى سمعتُ غطيطه ، وسمعت هائعةً أخرى ، ففزع فوثب فصاح : ياعباد بن بشر ! قال : لبيك ! قال : انظر ماهذا . فذهب ثم رجع فقال : هذا ضرار بن الخطاب في خيل من المشركين ، معه عُيينة بن حصن في خيل غطفان عند جبل بني عُبيد ، والمسلمون يرامونهم بالحجارة والنبل ، فعاد رسول الله ﷺ فلبس درعه وركب فرسه ، ثم خرج معه أصحابه إلى تلك الثغرة ، فلم يأتنا حتى كان السحر ، فرجع وهو يقول : رجعوا مفلولين ، قد كثرت فيهم الجراحة . ثم صلَّى بأصحابه الصبح وجلس .

فكانت أم سلمة تقول : قد شهدتُ معه مشاهد فيها قتالٌ وخوف- المُرَيسيع ، وخَيْبر ، وكنا بالحُديبية ، وفي الفتح ، وحُنين - لم يكن من ذلك شيءٌ أتعبَ لرسول الله ﷺ ولا أخوف عندنا من الخندق . وذلك أنَّ المسلمين كانوا في مثل الحَرَجة [(١)] ، وأن قُريظة لانأمنها على الذراري ، والمدينة تُحرَس حتى الصباح ، يُسمع تكبير المسلمين فيها حتى يُصبحوا خوفًا ، حتى ردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً ﴾ [**الأحزاب** : ٢٥] [(٢)] .

وأخرج الواقدي أيضا من حديث محمد بن مسلمة ، قال : كنا حول قُبَّة رسول الله نحرسه ، ورسول الله ﷺ نائمٌ نسمع غطيطه ، إذ وافت أفراسٌ على سَلْع ، فبصُر بهم عباد بن بشر فأخبرنا بهم . قال : فأمضي إلى الخيل ، وقام عبَّاد على باب قُبة النبي ﷺ آخذًا بقائم السيف ينظرني ، فرجعتُ فقلت : خيل المسلمين أشرفت ، عليها سلمة بن أسلم بن حُريش ، فرجعتُ إلى موضعنا . ثم يقول محمد بن مسلمة : كان ليلنا بالخندق نهاراً حتى فرجه الله .

كما أخرج من طريقين عن جابر بن عبد الله ، قال : كان خوفنا على الذَّراريّ بالمدينة من بني قريظة أشدَّ من خوفنا من قُريش ! حتى فرج الله ذلك .

قالوا : فكان المشركون يتناوبون بينهم ، فيغدو أبو سُفيان بن حرب

---

(١) الحرجة الشجر الملتف ، وهو تعبير عن التفاف الأعداء عليهم .

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٤٦٦ - ٤٦٧ .

في أصحابه يومًا ، ويغدو هُبَيرة بن أبي وهب يومًا ، ويغدو عكرمة بن أبي جهل يومًا ، وضرار بن الخطاب يومًا ، فلا يزالون يُجيلون خيلهم ما بين المُذاد إلى راتج ، وهم في نَشَــر [1]من أصحابهم ، يتفرقون مرة ويجتمعون أخرى ، حتى عظُم البلاءُ وخاف الناسُ خوفًا شديدًا ، ويُقدِّمون رُماتهم - وكان معهم رُماة ، حبّان بن العَرِقة ، وأبو أسامة الجُشَمي ، وغيرهم من أفناء العرب [2] [3] .

ومما يبين شدة المعاناة التي كان يعاني منها أصحاب رسول الله ﷺ ما أخرجه الواقدي قال : فحدثني قُدامة بن موسى ، عن عائشة بنت قُدامة ، عن أبيها ، قال : بعثَنَا ابن أختنا ابن عمر يأتينا بطعام ولُحُف وقد بلغْنا من الجوع والبرد ، فخرج ابنُ عمر حتى إذا هبط من سَلْع - وذلك ليلاً - غلبته عيناه فنام حتى أصبح . فاهتممنا به فخرجتُ أطلبه فأجدُه نائمًا ، والشمس قد ضَحته ، فقلتُ : الصلاةَ ، أصلَّيتَ اليوم؟ قال : لا . قلتُ : فصلِّ . فقام سريعًا إلى الماء ، وذهبتُ إلى منزلنا بالمدينة فجئتُ بتمر ولحاف واحد ، فكنَّا نلبس ذلك اللحاف جميعًا - من قام منا في المحْرس ذهب مقروراً ثم رجع حتى يدخل في اللِّحاف ، حتى فرج الله ذلك . وقال رسول الله ﷺ : نُصرْتُ بالصَّبا وأُهلكَتْ عادٌ بالدَّبُور [4] .

في هذه الأخبار تبينت لنا جهود كبيرة في ليالي ذلك الحصار من رسول الله ﷺ وأصحابه ، وذلك في حراسة الخندق والمرابطة حوله حتى

---

(١) أي كانوا منتشرين متفرقين (النهاية ، ج٤ ، ص ١٤٤) .

(٢) أي من أخلاطهم الذين لايعرف نسبهم .

(٣) مغازي الواقدي ٢/ ٤٦٨ .

(٤) مغازي الواقدي ٢/ ٤٧٥ - ٤٧٦ .

لايتجاوزه المشركون ، وكان ﷺ لاينام في الليل إلا قليلا وبشكل متقطع للهمِّ الكبير الذي يحمله لأصحابه ودولته الصغيرة المحاربة من كل جانب .

وكان الأعداء يوجِّهون كتائبهم الكثيرة على طول الخندق ليشغلوا المسلمين جميعا ويحولوا بينهم وبين الراحة مؤمِّلين أن يحصلوا من بعضهم على غفلة أو استسلام لنوم ليستطيعوا القيام بردم الخندق والإغارة بخيلهم على جيش المسلمين المفرَّق للحراسة والحماية في مقابل الخندق وداخل المدينة ، ولكنهم فشلوا في كل محاولاتهم بالرغم من قلة عدد المسلمين وقلة إمكاناتهم المادية وسعة المنطقة التي كان عليهم أن يحموها من الأعداء ، وهذا دليل على قوة شعور الصحابة بالمسئولية وتجردهم من الأنانية ، واليقظة التامة من قائدهم الأعلى ﷺ وقادتهم الذين ينوبون عنه في إدارة العمل الجهادي .

وخبر أم سلمة رضي الله عنها يبين شدة ضغط المشركين في هجومهم الليلي ، فقد فزع النبي ﷺ من نومه مرتين في ليلة واحدة - على قلة نومه - ولبس سلاحه وذهب هو ومن معه من الصحابة إلى موضع الخطر حتى اطمأن على وضع المسلمين ، ورأى اندحار المشركين .

وإن في رسول الله ﷺ قدوة حسنة للقادة حيث لم يلزم مكان قيادته ويكتفي بإصدار الأوامر ، بل كان يذهب بنفسه إلى مواضع الخطر - بالرغم من كفاءة قادته - ليطمئن طمأنينة كاملة ، وليَسُنَّ للقادة من بعده المنهج الحكيم في إدارة المعارك الحربية .

هذا ولم تقتصر جهود المسلمين على الجهاد الدفاعي ، بل كان لهم

هجوم بالرماية ، ومن الأخبار في ذلك ما أخرجه الحافظ البزار من حديث محمد بن محمد بن الأسود عن عامر بن سعد قال : قال سعد : - وذكر النبي ﷺ - فقال : لقد رأيته يوم الخندق ضحك حتى بدت نواجذه، قال : قلت : كيف ؟ [1] قال : كان رجل معه تُرسان - وكان سعد راميًا - فكان يقول كذا وكذا بالتُّرسَين يغطي جبهته فنزع له سعد بسهم ، فلما رفع رأسه رماه فلم يُخْطِ هذه منه - يعني جبهته - وانقلب وأشال برجله ، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه ، قال : قلت : من أي شيء ضحك ؟ قال : من فعل الرجل [2] .

وذكره الحافظ الهيثمي وقال : رواه أحمد والبزار ورجالهما رجال الصحيح غير محمد بن محمد بن الأسود وهو ثقة [3] .

وهذا مثل من أمثلة مهارة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في الرماية حيث أصاب أحد رماة المشركين من بُعْد لوجود الخندق والمسافة بينه وبين المسلمين وبينه وبين المشركين بالرغم من كون ذلك الرامي مترسًا بترسين .

* * *

---

(١) القائل هو محمد بن محمد بن الأسود والمسئول هو عامر بن سعد .

(٢) كشف الأستار ٢/ ٣٣٤ رقم ١٨٠٨ .

(٣) مجمع الزوائد ٦/ ١٣٥ - ١٣٦ .

٦ - إصابة سعد بن معاذ -

قال ابن إسحاق : وحدثني أبو ليلى عبد الله بن سهل بن عبد الرحمن بن سهل الأنصاري ، أخو بني حارثة : أن عائشة أمّ المؤمنين كانت في حصن بني حارثة يوم الخندق ، وكان من أحرز حصون المدينة .

قال : وكانت أم سعد بن مُعاذ معها في الحصن ، فقالت عائشة : وذلك قبل أن يُضرب علينا الحجاب ، فمرَّ سعد وعليه درع له مُقلَّصة[1] ، قد خرجت منها ذراعه كلُّها ، وفي يده حربته يرقَدُّ بها[2] ويقول .

لَبِّثْ قليلا يَشهَدِ الهَيجا حَمَلْ[3] لا بأس بالموت إذا حانَ الأجَل

قال فقالت له أمه : الْحقْ أي ابني ، فقد والله أخَّرت ، قالت عائشة : فقلت لها : يا أمّ سعد ، والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي ، قالت : وخفتُ عليه حيث أصاب السهم منه ، فرُمي سعدُ بن معاذ بسهم ، فقُطع منه الأكحل[4] ، رماه - كما حدثني عاصم بن عمر بن قتادة - حبَّانُ بن قَيس ابن العَرِقة ، أحد بني عامر بن لُؤَيّ ، فلما أصابه قال خُذْها مني وأنا ابن العرقة ، فقال له سعد : عرَّق الله وجهك في النار ، اللهمَّ إن كنت أبقيتَ من حرب قريش شيئًا فأبقني لها ، فإنه لاقوم أحبَّ إليّ أن أجاهدهم من قوم آذَوْا رسولك وكذّبوه وأخرجوه ، اللهمّ وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلهُ لي شهادة ،

---

(١) أي قصيرة غير سابغة .

(٢) يعني يسرع في مشيته كالنافر .

(٣) هو حمل بن سعدانة الكلبي ، وهذا البيت له وقد تمثل به سعد بن معاذ رضي الله عنه .

(٤) هو عرق في الذراع .

ولاتُمتْني حتى تقرّ عيني من بني قُريظة [1] .

في هذا الخبر يظهر لنا مثل من رغبة الصحابة رضي الله عنهم الشديدة في الجهاد في سبيل الله تعالى ، وشوقهم البالغ للشهادة ، ويتبين لنا من دعاء سعد بن معاذ أنه كان يعيش تلك الساعات التي تَلَتْ إصابته بين أملين كبيرين ، أحدهما جهاد القوم الذين آذوا رسول الله ﷺ وأخرجوه وحاربوه ، والآخر أن تحصل له الشهادة من جرحه ذلك ، فربما لايصاب بعد ذلك فلا تحصل له الشهادة .

إن هذه الأماني السامية والأهداف العالية تُظهر لنا تفوق الصحابة رضي الله عنهم في الإيمان الراسخ والعلم بالآخرة علم اليقين الذي يكاد أن يشبه علم المشاهدة .

وقد استجاب الله تعالى دعاء سعد الثاني فنال الشهادة من جرحه ذلك بعدما أقرّ عينه من بني قريظة كما سيأتي ، ولم يُبْقه تعالى لحرب قريش لأنه في علمه سبحانه أن الحرب بين المسلمين وقريش قد انتهت .

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٧١-٢٧٣ .

وأخرجه الإمام أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها ضمن حديث طويل عن الخندق وبني قريظة - الفتح الرباني ١٢/ ٨١ - ٨٣ - ، وذكره الهيثمي وقال : رواه أحمد وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث وبقية رجاله ثقات - مجمع الزوائد٦/ ١٣٦ -١٣٨- ، وذكره الحافظ ابن كثير وقال : إسناده جيد وله شواهد من وجوه كثيرة - سيرة ابن كثير٣/ ٢٣٦ - ٢٣٨ - .

٧ – موقف نعيم بن مسعود في تفريق الأحزاب –

قال ابن إسحاق : ثم إن نُعيم بن مسعود بن عامر بن أنيف بن ثعلبة بن قُنفد بن هلال بن خَلاوة بن أشْجع بن رَيْث بن غَطفان ، أتى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، إني قد أسلمتُ ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني بما شئت ، فقال رسول الله ﷺ : إنما أنت فينا رجلٌ واحدٌ، فخذِّل عنَّا ، إن استطعت ، فإن الحرب خُدَعة .

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة ، وكان لهم نديما في الجاهلية، فقال يابني قريظة ، قد عرفتم وُدِّي إيَّاكم ، وخاصة مابيني وبينكم، قالوا : صدقت ، لست عندنا بمتَّهم ، فقال لهم : إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لاتقدرون على أن تَحَوّلوا منه إلى غيره ، وإن قريشا وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره فليسوا كأنتم ، فإن رأو نُهزة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلَّوْا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولاطاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهْنًا من أشرافهم، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه، فقالوا له : لقد أشرت بالرأي .

ثم خرج حتى أتى قريشا ، فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش : قد عرفتم وُدّي لكم وفراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمرٌ قد رأيت عَلَيّ حقًا أن أبلغكموه ، نُصْحا لكم ، فاكتموا عني، فقالوا : نفعل، قال : تعلَّموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم

وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين ، من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنُعطيكهم ، فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم أنْ نعم . فإن بعثت إليكم يهودُ يلتمسون منكم رُهُنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحداً .

ثم خرج حتى أتى غطفان ، فقال : يامعشر غطفان ، إنكم أصْلي وعشيرتي ، وأحبّ الناس إليّ ، ولا أُراكم تتهموني ، فقالوا : صدقت . ما أنت عندنا بمتهم ، قال : فاكتموا عني ، قالوا : نفعل ، فما أمرك؟ ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم .

فلما كانت ليلة السبت من شوّال سنة خمس ، وكان من صنع الله لرسوله ﷺ أن أرسل أبو سفيان بن حرب ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان ، فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخفّ والحافر فاغدوا للقتال حتى نُناجز محمدا ، ونفرغ مما بيننا وبينه .

فأرسلوا إليهم : إن اليوم يوم السبت ، وهو يوم لانعمل فيه شيئًا ، وقد كان أحدث فيه بعضُنا حدَثا ، فأصابه ما لم يَخْفَ عليكم ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدا ، حتى تعطونا رُهُنا من رجالكم ، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا ، فإنا نخشى إن ضَرَّستكم الحرب ، واشتدَّ عليكم القتال أن تَنْشمروا إلى بلادكم وتتركونا ، والرجل في بلدنا ، ولاطاقة لنا بذلك منه .

فلما رجعت إليهم الرسُل بما قالت بنو قريظة ، قالت قريش

وغطفان : والله إن الذي حدثكم عنه نُعيم بن مسعود لَحَقّ ، فأرسلوا إلى بني قريظة : إنا والله لاندفع إليكم رجلا واحدًا من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا .

فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا : إن الذي ذكر لكم نُعيم بن مسعود لَحقّ، ما يريد القوم إلا أن يُقاتلوا ، فإن رأوا فرصةً انتهزوها ، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم ، فأرسلوا إلى قريش وغطفان : إنا والله لانقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا ، فأبوا عليهم ، وخذل الله بينهم ، وبعث الله عليهم الرِّيح في ليال شاتية باردة شديدة البرد ، فجعلت تكفأ قُدُورهم ، وتطرح أبنيتهم [1] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : ذلك التوجيه العظيم من رسول الله ﷺ لنعيم بن مسعود حيث قال له : « إنما أنت فينا رجل واحد فخذِّل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة » [2] فقد هداه النبي ﷺ إلى الطريق الذي يسلكه في حرب الكفار ونصر المسلمين ، وأعطاه المفاتيح اللازمة لذلك حيث وجهه إلى بذل جهده في تخذيل الأحزاب ، وأبان له أن الكذب في هذه الحال عمل

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٧٦ - ٢٧٩ .

وأخرجه الواقدي من حديث عاصم الأشجعي وذكر نحوه - مغازي الواقدي ٢/ ٤٨٠-٤٨٤- .

(٢) قوله « فإن الحرب خدعة » أخرجه الإمام البخاري من حديث جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « الحرب خدعة » - صحيح البخاري ، الجهاد ، رقم ٣٠٣٠(٦/١٥٨) - .

صالح لأنه في الحرب ، وقد يكون كسب الحرب في خدعة يدبرها فرد واحد لأعدائه .

وهذا مثال على حسن تصرف النبي ﷺ واغتنامه الفرص المناسبة لكسب المواقف لصالح المسلمين وتوجيه الرجال بما يتناسب مع كفاءاتهم، فقد كان نعيم معروفًا قبل ذلك بالمقدرة الفائقة على المخادعة والرأي الحصيف الذي يؤثر به على الناس .

إنها كلمات معدودات صدرت من النبي ﷺ في إجابة هذا الرجل ولكنها كلمات خالدات ، كلمات لها أثر بالغ في توجيه هذا الجندي المحنك الذي تبوأ منزلة عالية من الثقة بين العرب ، والنبي ﷺ يعلم بثاقب بصره وعظيم خبرته بالرجال أن هذا الجندي الذي كسبه الصف الإسلامي ولم يعلم الكفار بإسلامه بإمكانه أن يقوم بجهد كبير من التخذيل عن المسلمين والإيقاع بين الكفار ففتح له الطريق الذي يمكن بولوجه منه أن يقدِّم للمسلمين خدمة عالية تغير من موازين المعركة .

ثانيًا : موقف كبير لنُعيم بن مسعود رضي الله عنه حيث وعى هذا التوجيه النبوي وطبقه على أوسع نطاق ، فقام من تَوِّه يُفكِّر بالخطة الحكيمة التي يستطيع بها أن يوغر صدور يهود بني قريظة على الأحزاب من قريش وغطفان وأن يوغر صدور الأحزاب على بني قريظة ، وذلك لانتزاع الثقة فيما بينهم وجعل كل فريق يتهم الآخر ويشك في نواياه ، فقام بخطة التخذيل بين الأعداء التي جاءت في هذا الخبر .

إن هذا الخبر يعتبر مثلا عاليا في السياسة الحربية ، حيث توصَّل نعيم

ابن مسعود إلى تدبير مُحكَم فرق به بين الأحزاب ، وكان عاملا مساعدا في التأثير عليهم ودفعهم إلى الرحيل بعد العامل الأول المهم الذي كان بتسليط الله تعالى عليهم جنوده من الملائكة عليهم السلام والريح الشديدة .

* * *

٨ - موقف لحذيفة ووصف لوضع المسلمين -

أخرج الإمام البيهقي من طريق أبي عبد الله الحاكم من حديث عبد العزيز ابن أخي حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال : ذكر حذيفة مشاهدهُم مع رسول الله ﷺ ، فقال جُلساؤُهُ : أما والله لو كنا شهدنا ذلك لفعلنا وفعلنا ، فقال حذيفة : لاتمنوا ذلك ، فلقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافُّون قُعود : أبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا ، وقُريظة اليهود أسفل منا ، نخافهم على ذرارينا ، وما أتَتْ علينا ليلة قط أشدُّ ظلمةً ولا أشد ريحًا في أصوات ريحها أمثال الصواعق وهي ظلمةٌ ، ما يرى أحدٌ منا أصبعهُ .

فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ ويقولون : إن بيوتنا عَوْرة وما هي بعورة ، فما يستأذنه أحدٌ منهم إلا أذن له ، فيأذن لهم ، فيتسللون .

ونحن ثلثمائة ونحو ذلك [١] ، إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجُلاً رجلاحتى مر عليَّ ، وما عليَّ جُنَّةٌ من العَدُوِّ ، ولا من البرد ، إلا مرْطٌ لامْرأتي ما يجاوز ركبتي ، قال : فأتاني وأنا جاث على ركبتي ، فقال من هذا ؟ فقلت : حُذيفة ، فقال : حذيفةُ ! قال : فتقاصرتُ بالأرض ، فقلتُ ، بلى يارسول الله كراهية أن أقوم ، قال : قُمْ، فقمت ، فقال : إنه كائن في القوم خبرٌ ، فأتني بخبر القوم ، قال وأنا من أشد الناس فزعًا وأشدّهم قُرّا .

فخرجت ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم احفظه من بين يديه ، ومن

---

(١) يعني الذين كانوا حول النبي صلى الله عليه وسلم في مركز القيادة ، أما بقية الصحابة فقد كانت لهم مهمات جهادية في ساحة المعركة وداخل المدينة .

خلفه، وعن يمينه ، وعن شماله ، ومن فوقه ، ومن تحته ، قال : فو الله ما خلق الله فَزَعًا ، ولا قُرًّا ، في جوفي إلا خرج من جوفي فما أجد منه شيئًا ، قال فلما ولَّيت ، قال ياحذيفة لاتُحْدثنَّ في القوم شيئًا حتى تأتيني .

فخرجت حتى إذا دنوت من عَسْكر القوم ، نظرت في ضوء نار لهم تُوقَد وإذا رجل أدْهمُ ضخم ، يقول بيده على النار ، ويمسح خاصرتهُ ويقول : الرَّحيل ، الرحيل ، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك ، فانتزعتُ سهمًا من كنانتي أبيض الريش فأضعه على كبد قوسي ، لأرميه في ضوء النار ، فذكرت ، قول رسول الله ﷺ لاتُحدثن شيئًا حتى تأتيني ، فأمسكت ورَدَدْتُ سهمي في كنانتي .

ثم إني شجَّعتُ نفسي حتى دخلتُ المعكسر ، فإذا أدنى الناس مني بنو عامر ، يقولون : يا آل عامر الرحيل ، الرحيل ، لامقام لكم ، إذا الريح في عسكرهم ، ما تجاوز عسكرهم شبرًا ، فو الله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم ، وفرَسَتْهم الريح تضربهم بها .

ثم خرجتُ نحو النبي ﷺ فلما انتصف بي الطريق ، أو نحو ذلك ، إذا أنا بنحو عشرين فارسًا ، أو نحو ذلك مُعْتمِّين ، فقالوا : أخبر صاحبك ، أن الله كَفَاهُ القوم ، فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ وهو مشتملٌ في شملة يصلي ، فو الله ما عدا أن رجعتُ راجعني القُرُّ (١) وجعلت أقَرقفُ ، فأومأ إليَّ رسول الله ﷺ بيده ، وهو يصلي فدنوتُ منه ، فأسبل علي شملتهُ ، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبهُ أمرٌ صلى ، فأخبرته

(١) القرّ بضم القاف وتشديد الراء البرد .

خبر القوم ، وأخبرته أني تركتهم يترحّلون ، فأنزل الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٩] (١) .

في هذا الخبر وصف بليغ للحال الشديدة التي واجهها رسول الله ﷺ وأصحابه ، حيث الخوف والجوع والبرد القارس وعدم توفر الأكسية الواقية من البرد إضافة إلى الريح الشديدة آخر ليلة ، ومن كان يعاني هذه المعاناة القاسية لايُنتظر منه عادة أن ينجح في العمل الذي توجّه إليه ، ولكن مع ذلك نجح المسلمون في حماية المدينة من جميع الأحزاب الذين هم خارج المدينة من قريش وغطفان ، والذين هم داخلها وهم يهود بني قريظة ، وهذا دليل على ارتفاع مستوى الإيمان واليقين عند الصحابة رضي الله عنهم مما دفعهم إلى بذل كل ما لديهم من طاقة وجهد حتى أصبحوا وكأنهم قد ضوعفوا في العدد عدة مرات .

وقد وصف الله تعالى ذلك الوضع الشديد بقوله ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب : ١٠، ١١] .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٥١ - ٤٥٣ .

وأخرجه الإمام مسلم بأخصر من هذا من حديث حذيفة رضي الله عنه - صحيح مسلم، كتاب الجهاد ، رقم ١٧٨٨ (٣/ ١٤١٤) - .

وأخرجه الحاكم من طريق آخر عن حذيفة رضي الله عنه مختصرا وصححه وأقره الذهبي - المستدرك ٣/ ٣١ - .

وأخرجه ابن إسحاق من حديث حذيفة رضي الله عنه وذكر نحوه - سيرة ابن هشام ٣/ ٢٧٩-٢٨٢ - .

وقوله تعالى ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ يعني الأحزاب وقوله ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ يعني بني قريظة كما في خبر حذيفة ، وقوله ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ تعبير بليغ عن شدة الخوف والفزع ، وقوله ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ قال الحسن البصري : ظنون مختلفة ، ظن المنافقون أن محمدا ﷺ وأصحابه يُستأصلون ، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون [١] .

وفي مواجهة هذه الشدائد كان المؤمنون يسألون رسول الله ﷺ عما ينبغي لهم من الدعاء ، وفي ذلك يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : قلنا يوم الخندق : يارسول الله هل من شيء نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال : نعم قولوا : اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا ، قال : فضرب وجوه أعدائه بالريح فهزمهم بالريح [٢] .

ولقد أثنى الله تعالى على المؤمنين الصادقين بقوله ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [الأحزاب : ٢٢ - ٢٤] .

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ١٣١-١٣٢ ، تفسير ابن كثير ٣/ ٤٩٢ .

(٢) ذكره الحافظ ابن كثير من رواية الإمامين ابن أبي حاتم وأحمد بن حنبل - تفسير ابن كثير ٣/ ٤٩٢- .

وقوله تعالى ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ يعني ما سبق من وعد الله تعالى بقوله ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] أي هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار الذي يعقبه النصر القريب [١].

وقوله تعالى ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ قال مجاهد بن جبر : ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ : عهده ، فقُتل أو عاش ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ يوما فيه جهاد فيقضي نحبه : عهده ، فيُقْتَل أو يصدق في لقائه[٢].

وإن فيما جرى للأحزاب في تلك الليلة لعبرة للمعتبرين ، فقد أرسل الله تعالى عليهم جنوده من الملائكة عليهم السلام الذين زلزلوا أهل الأحزاب ، كما أرسل عليهم ريحا عاصفا اقتلعت خيامهم وأكفأت قدورهم ورمتهم بالحجارة ، حتى نادوا بالرحيل ، وقد ذكَّر الله تعالى المؤمنين بهذه النعمة العظيمة بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٩] وبقوله ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب : ٢٥].

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ١٤٤ ، تفسير ابن كثير ٣/ ٤٩٤ .

(٢) تفسير الطبري ٢١ / ١٤٥ .

فا لله تعالى هو الذي نصر رسوله ﷺ وعباده المؤمنين من غير قتال منهم فأجْلاَ الكفار عن المدينة بجنوده من الملائكة عليهم السلام والريح العاصف وردَّهم إلى بلادهم وهم في أوج غيظهم وحنقهم على المسلمين .

وأخيراً فإن في قول حذيفة عن رسول الله ﷺ « وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلَّى » بيان لسنة من سُنن رسول الله ﷺ في مواجهة الشدائد حيث يلجأ إلى الصلاة ودعاء الله سبحانه أن يفرج ذلك الكرب الذي نزل .

وهذه هي سنة الأنبياء عليهم السلام كما جاء في حديث أخرجه الإمام أحمد وفيه « وكانوا إذا فزعوا يفزعون إلى الصلاة » [1] .

* * *

(١) مسند أحمد ٤/ ٣٣٣ .

٩ – نماذج من مواقف شعراء الصحابة –

رُويت لشعراء الصحابة رضي الله عنهم أشعار رائعة في غزوة الخندق، نقتطف أبياتا منها كنماذج لهذه الأشعار، فمن ذلك قول كعب ابن مالك، أخو بني سَلَمَة:

وسائلة تسائلُ ما لَقينا ... ولو شهدتْ رأتنا صابرينا
صَبرْنا لانرى للّه عدْلا ... عَلَى ما نابنا مُتَوكّلينا
وكان لنا النبيّ وزيرَ صدْق ... به نَعْلوا البريَّة أجمعينا
نُقاتل مَعْشراً ظلَموا وعَقُّوا ... وكانوا بالعداوة مُرْصدينا
نُعاجلهم إذا نهضوا إلينا ... بضَرْب يُعجل المُتَسرِّعينا

إلى أن قال:

لنَنْصُر أحمداً واللهَ، حتى ... نكونَ عبادَ صدْق مُخلصينا
ويعْلم أهلُ مكَّة حين ساروا ... وأحْزَابٌ أتوْا امتَحزّبينا
بأنّ الله ليسَ لهُ شريكٌ ... وأنَّ الله مَوْلى المُؤمنينا
فإمَّا تَقْتلوا سَعداً سفاها ... فإنَّ الله خيرُ القادرينا
سيدخله جنَاناً طَيِّبات ... تكون مقامةً للصَّالحينا
كما قد رَدَّكم فَلاّ شَريداً ... بَغَيظكم خَزَايا خائبينا
خَزَايا لَمْ تَنالوا ثمَّ خيراً ... وكدْتم أن تكونوا دامرينا

وقال كعب بن مالك أيضا في قصيدة له:

ومواعظٌ من ربِّنا نُهدْى بها ... بلسان أزْهر طَيِّب الأثواب

عُـرِضتْ علينا فاشتهَيْنا ذكْـرَهـا   من بعد ما عُرِضَتْ على الأحزاب

حكَمًا يراها المُجْرمون بزَعْمهــم   حَـرجـًا ويَفهمها ذَوو الألْـبـاب

جاءت سَخينَةُ[1]كي تُغالبَ ربَّها   فـليُغْلَـبنَّ مُغـالـبُ الغَــلاَّب

قال ابن هشام : حدثني من أثق به ، قال : حدثني عبد الملك بن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، قال : لما قال كعب بن مالك :

جـاءت سَخينة كي تُغالب ربـها   فليـغلَـبَنَّ مُغـالـبُ الغَـــلاَّب

قال لـه رسـول الله ﷺ : لـقد شكـرك الله ياكعْب على قولك هذا [2].

* * *

(١) أي قبيلة قريش ، لُقّبوا بذلك لكثرة أكلهم السخينة وهي طعام يصنع من الدقيق واللحم، وذلك لغناهم .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/٣١٨ - ٣٢٦ .

مواقف وعبر

فى غزوة بنى قريظة

١- حصار بني قريظة -

أخرج الإمام البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : « لما رجع النبي ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل ، أتاه جبريلُ عليه السلام فقال : قد وضعت السلاح ، والله ما وضعناه ، فاخرُج إليهم . قال : فالى أين ؟ قال : ها هنا . وأشار إلى قُريظة ، فخرج النبي ﷺ إليهم » .

وأخرج من حديث أُنس رضي الله عنه قال « كأني أنظرُ إلى الغُبار ساطعًا في زُقاق بني غَنْم ، مَوكب جبريلَ حين سار رسولُ الله ﷺ إلى بني قريظة » .

وأخرج من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : « قال النبي ﷺ يوم الأحزاب : لايصلِّين أحدٌ العصر إلا في بني قريظة ، فأدرك بعضُهُم العصر في الطريق فقال بعضهم : لانصلِّى حتى نأتَيهم ، وقال بعضهم : بلى نصلي ، لم يُردْ منا ذلك . فذُكر ذلك للنبيِّ ﷺ فلم يُعَنِّفْ واحداً منهم » [(١)] .

وأخرجه ابن إسحاق ، وفيه أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ « إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة فإني عامد إليهم فمزلزل بهم [(٢)] .

وقال الحافظ ابن حجر : وكذلك أخرجه الطبراني والبيهقي في «الدلائل» بإسناد صحيح إلى الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن

---

(١) صحيح البخاري المغازي ، رقم ٤١١٧ و ٤١١٨ و ٤١١٩ (٧/ ٤٠٧-٤٠٨) .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٨٢ .

كعب بن مالك عن عمه عبيد الله بن كعب « أن رسول الله ﷺ لما رجع من طلب الأحزاب وجمع عليه اللأمة [1] واغتسل واستجمر تَبَدَّى له جبريل فقال : عَذيرك من مُحارَب [2] ، فوثب فزعا . فعزم على الناس أن لايُصلُّوا العصر حتى يأتوا بني قريظة ، قال فلبس الناس السلاح فلم يأتوا قريظة حتى غربت الشمس ، قال فاختصموا عند غروب الشمس فصلَّتْ طائفة العصر وتركتها طائفة وقالت : أنا في عزمة رسول الله ﷺ فليس علينا إثم ، فلم يُعنِّف واحدا من الفريقين ، وأخرجه الطبراني من هذا الوجه موصولا ولم يذكر كعب بن مالك فيه [3] .

وقال الواقدي : سار إليهم النبي ﷺ يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة ، فحاصرهم خمسة عشر يوما ، ثم انصرف يوم الخميس لسبع خلون من ذي الحجة سنة خمس ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم [4] .

وقال الواقدي : فحدثني ابن أبي سَبْرَة ، عن أُسَيد بن أبي أُسَيد ، عن أبي قتادة ، قال : انتهينا إليهم فلمّا رأونا أيقنوا بالشرّ ، وغرز عَليٌّ عليه السلام الراية عند أصل الحصْن ، فاستقبلونا في صَياصيهم يشتمون رسول الله ﷺ وأزواجه . قال أبو قتادة : وسكتنا وقلنا : السيفُ بيننا وبينكم ! وطلع رسولُ الله ﷺ فلما رآه عَليٌّ عليه السلام رجع إلى رسول الله ﷺ ، وأمرني أن ألزم اللواءَ فلزمته ، وكره أن يسمع رسول الله ﷺ

(١) أي خلع لباس الحرب كالدرع والمغفر .

(٢) عذيرك أي هات من يعذرك في هذا الأمر .

(٣) فتح الباري ٧/ ٤٠٨ - ٤٠٩ .

(٤) مغازي الواقدي ٢/ ٤٩٦ .

أذَاهم وشَتْمَهم ، فسار رسولُ الله ﷺ إليهم . وتقدّمه أُسيدُ بن حُضَير فقال : يا أعداءَ الله ، لانبرح حصنْكم حتى تموتوا جوعًا . إنما أنتم بمنزلة ثعلب في جُحْر . قالوا : ياابنَ الحُضَير ، نحن مواليكم دون الخزرج ! وخاروا [1] ، وقال : لاعَهْدَ بيني وبينكم ولا إلَّ [2] . ودَنا رسولُ الله ﷺ منهم ، وترّسنا عنه ، فقال : يا إخوةَ القردَة والخنازير وعَبَدَة الطّاغيت ، أتشتمونني ؟ قال : فجعلوا يحلفون بالتَّوراة التي أنزلت على موسى : ما فعلنا ! ويقولون : يا أبا القاسم ، ما كنتَ جَهُولاً ! ثم قدَّم رسول الله ﷺ الرُّماةَ من أصحابه .

قال : فحدثني فَروة بن زُبَيد ، عن عائشة بنت سعد ، عن أبيها ، قال : قال لي رسول الله ﷺ : ياسعد ، تقدَّمْ فارْمهم ! فتقدّمتُ حيث تَبلُغهم نَبْلي ، ومعي نَيِّفٌ على الخمسين ، فرميناهم ساعةً وكأنّ نبلنا رِجْلَ جراد ، فانجحروا فلم يطلع منهم أحد . وأشفقنا على نبلنا أن يذهب ، فجعلنا نرمي بعضها ونُمسك البعض . فكان كعب بن عمرو المازنيّ - وكان راميًا - يقول : رميتُ يومئذ بما في كنانتي ، حتى أمسكنا عنهم بعد أن ذهبت ساعةٌ من الليل . قال : وقد رمونا ورسولُ الله ﷺ واقفٌ على فرسه عليه السلاح ، وأصحاب الخيل حوله ، ثم أمرنا رسول الله ﷺ فانصرفنا إلى منزلنا وعسكرنا فبتْنا ، وكان طعامنا تمرًا بعث به سعد بن عُبادة ، أحمال تمر ، فبتنا نأكل منها ، ولقد رُئي رسولُ الله ﷺ وأبو بكر وعمر يأكلون من ذلك التمر ، ورسول الله ﷺ يقول : نعْمَ الطعامُ التمرُ ! واجتمع المسلمون عند رسول الله ﷺ عشاءً ، فمنهم من

---

(١) أي ضعفوا .

(٢) الإلّ بكسر الهمزة الحلف .

لم يُصَلِّ حتى جاءَ بني قُريظة ، ومنهم من قد صلَّى ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فما عاب على أحد صلَّى ، ولا على أحد لم يُصَلِّ حتى بلغ بني قُرَيْظَة . ثم غدونا عليهم بسُحْرَة ، فقدّم رسول الله ﷺ الرُّماة ، وعبّأ أصحابه فأحاطوا بحُصونهم من كل ناحية ، فجعل المسلمون يُرامونهم بالنبل والحجارة ، وجعل المسلمون يعتقبون فيعقب بعضُهم بعضًا ، فما برح رسول الله ﷺ يُراميهم حتى أيقنوا بالهلكة .

قال : فحدثني الضَّحّاك بن عثمان ، عن نافع ، عن ابن عمر ، قال : كانوا يراموننا من حُصونهم بالنبل والحجارة أشدَّ الرَّمْي ، وكنا نقوم حيث تبلغهم نبلُنا .

قال : فحدثني الضَّحّاك بن عثمان ، عن جعفر بن محمود ، قال : قال محمد بن مسْلَمَة : حَصرناهم أشدَّ الحصار ، فلقد رأيتنا يوم غدونا عليهم قبل الفجر ، فجعلنا ندنو من الحصْن ونرميهم من كَثَب . ولزمنا حصونهم فلم نُفارقها حتى أمسينا ، وحَضَّنا رسولُ الله ﷺ على الجهاد والصبر . ثم بتنا على حصونهم ، ما رجعنا إلى معسكرنا حتى تركوا قتالنا وأمسكوا عنه وقالوا : نُكلّمك . فقال رسول الله ﷺ : نعم . فأنزلوا نَبّاش بن قيس ، فكلّم رسولَ الله ﷺ ساعةً وقال : يامحمد ، ننزل على ما نزلتْ عليه بنو النَّضير ، لك الأموال والحَلْقَةُ وتَحقن دماءَنا ، ونخرج من بلادكم بالنساء والذّراريّ ، ولنا ماحملت الإبلُ إلا الحَلْقَة . فأبى رسول الله ﷺ ، فقالوا : : فتحقن دماءَنا وتُسلم لنا النساءَ والذُّرية ، ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل . فقال رسول الله ﷺ : لا ، إلا أن تنزلوا على حكمي .

فرجع نَبّاش إلى أصحابه بمقالة رسول الله ﷺ ، فقال كعب بن أسَد : يامعشر بني قُريظة ، والله إنكم لتعلمون أنَّ محمداً نبيٌّ الله ، وما منعنا من الدخول معه إلا الحَسَدُ للعرب ، حيث لم يكن نبيًا من بني إسرائيل فهو حيث جعله الله . ولقد كنت كارهًا لنقض العَهْد والعَقْد . ولكن البلاء وشؤم هذا الجالس (1) علينا وعلى قومه ، وقومُه كانوا أسوأ منَّا ، لايستبقى محمدٌ رجلاً واحدًا إلا من تبعه ، أتذكرون ما قال لكم ابن خراش حين قدم عليكم فقال : تركتُ الخَمْرَ والخمير والتأمير ، وجئتُ إلى السِّقاء والتمر والشعير ؟ قالوا : وماذلك ؟ قال : يخرج من هذه القرية نبي فإن خرج وأنا حي اتبعته ونصرته ، وإن خرج بَعْدُ فإياكم أن تُخدعوا عنه ، فاتَّبعوه وكونوا أنصاره وأولياءَه ، وقد آمنتم بالكتابين كليهما الأول والآخر .

قال كعب : فتعالوا فلنُتابعْه ولنُصدقه ولنُؤمن به ، فنأمن على دمائنا وأبنائنا ونسائنا وأموالنا ، فنكون بمنزلة من معه ، قالوا : لانكون تَبَعًا لغيرنا ، نحن أهل الكتاب والنُّبوة ، ونكون تبعًا لغيرنا؟ فجعل كعب يرد عليهم الكلام بالنصيحة لهم . قالوا : لانُفارق التوراة ولانَدَعُ ما كنَّا عليه من أمر موسى ، قال : فهلمّ فلنقتلْ أبناءَنا ونساءَنا ، ثم نخرج في أيدينا السيوفُ إلى محمد وأصحابه ، فإن قُتلنا قُتلنا وما وراءَنا أمرٌ نهتمّ به . وإن ظفرنا فلَعَمري لنتخذن النساء والأبناء ، فتضاحك حُيَى بن أخطب ثم قال : ماذَنْبُ هؤلاء المساكين ؟ وقالت رؤساء اليهود ، الزَّبير بن باطا وذووه : ما في العيش خيرٌ بعد هؤلاء . قال : فواحدةٌ قد بقيَتْ من

(1) يعني حيي بن أخطب .

الرأي لم يَبْقَ غيرُها ، فإن لم تقبلوها فأنتم بنو أُسْتها . قالوا : ماهي؟ قال الليلة السبت ، وبالحَري أن يكون محمدٌ وأصحابه آمنين لنا فيها أن نُقاتله، فنخرج فلعلنا أن نُصيب منه غِرَّة . قالوا : نُفسد سبتنا ، وقد عرفت ما أصابنا فيه ؟ .

قال حُيَيّ : قد دعوتُك إلى هذا وقُرَيشٌ وغَطَفان حُضورٌ فأبيتَ أن تكسر السبت ، فإن أطاعتني اليهود فعلوا . فصاحت اليهود : لانكسر السبت . قال نَبّاش بن قَيس : وكيف نُصيب منهم غِرَّة وأنت ترى أنَّ أمرهم كلَّ يوم يشتدّ . كانوا أوّلَ ما يُحاصروننا إنما يُقاتلون بالنهار ويرجعون الليل ، فكان هذا لك قولاً « لو بيّتناهم » . فهم الآن يُبَيِّتون الليل ويَظلُّون النهار ، فأيّ غِرَّة نُصيب منهم ؟ هي مَلْحَمة وبلاء كُتب علينا ، فاختلفوا وسُقط في أيديهم ، وندموا على ما صنعوا ، ورَقُّوا على النساء والصبيان ، وذلك أنَّ النساء والصبيان لمَّا رأوا ضَعْف أنفسهم هلكوا، فبكى النساء والصبيان ، فرَقُّوا عليهم [1] .

في هذه الأخبار مواقف وعبر منها :

أولاً : فيه مثال لحرص الصحابة رضي الله عنهم على طاعة أمر رسول الله ﷺ ، فحينما قال : لايصلينَّ أحد العصر إلا في بني قريظة امتثلوا أمره إلى حد أن بعضهم حينما تأخر مضطراً أخر صلاة العصر حتى وصل إلى بني قريظة تنفيذا لظاهر أمر النبي ﷺ .

ثانيًا : موقف في البراءة من الكفار لأُسيْد بن حضير رضي الله عنه،

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٤٩٩ - ٥٠٣ .

وأخرجه ابن إسحاق وذكر نحوه - سيرة ابن هشام ٣/ ٢٨٣ - ٢٨٦ .

وذلك حينما هدد بني قريظة ، وقوله حينما ذكَّروه بولائهم لقومه الأوس : لاعهد بيني وبينكم ولا إلَّ ، وهذا دليل على قوة إيمانه ورسوخ يقينه لأن التخلص من أحلاف الجاهلية ليس بالأمر اليسير إلا على من يسَّره الله عليه .

ثالثًا : موقف يذكر لسعد بن عبادة رضي الله عنه حيث مَّون الجيش الإسلامي بالطعام وذلك من التمر فكانت تُحمل أحمال التمر إلى معسكر المسلمين ، وقد كان سعد مشهورا بالكرم الفياض .

رابعًا : في محاورة كعب بن أسد زعيم بني قريظة لقومه عبرة بالغة ، حيث اعترف أمامهم بصدق رسالة رسول الله ﷺ وأنه النبي المنتظر الذي أمرهم أنبياؤهم عليهم السلام بالإيمان به ، والاعتراف بأن الذي منعهم من الإيمان به الحسد للعرب ، فحينما وقع قومه بذلك المصير المشئوم وأيقنوا بالهلاك أشار على قومه بالإيمان به وذكَّرهم بوصايا علمائهم السابقين حول الإيمان به إذا ظهر ، لكن رؤساءهم امتنعوا من الدخول في الإسلام تكبُّرا عن أن يكونوا تابعين لغيرهم .

وقد ذكر الواقدي في رواية له أن رسول الله ﷺ حينما قُدِّم كعب بن أسد للقتل قال له : كعبُ بن أسد ؟ [1] قال كعب : نعم يا أبا القاسم، قال : وما انتفعتم بنصح ابن خراش ، وكان مصدقا بي : أمَا أمركم باتباعي وإن رأيتموني تقرئوني منه السلام ؟ قال : بلى والتوراة يا أبا القاسم ، ولولا أن تعيِّرني اليهود بالجزع من السيف لاتبعتك ولكني على دين اليهود [2] .

---

(١) يعني هل أنت كعب بن أسد ؟

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٥١٦ .

وكذلك ما جرى من ابني سَعْيَةَ وعمهم حينما حاوروا قومهم من يهود بني قريظة فلم يطيعوهم وأسلم هؤلاء الثلاثة كما جاء في رواية للواقدي قال : فحدثني صالح بن جعفر ، عن محمد بن عُقبة ، عن ثَعلبة بن أبي مالك ، قال : قال ثعلبة وأُسيد ابنا سَعية ، وأسد بن عُبيد عمهم : يامعشر بني قُريظة ، والله إنكم لَتعلمون أنه رسول الله وأنَّ صفته عندنا ، وحدّثنا بها علماؤنا وعلماء بني النَّضير . هذا أوّلهم - يعني حُيَى بن أَخْطَب - مع جُبير بن الهَيِّبان أصدق الناس عندنا ، هو خبَّرنا بصفته عند موته .

قالوا : لانُفارق التوراة ! فلما رأى هؤلاء النفر إباءَهم ، نزلوا في الليلة التي في صُبْحها نزلت قُريظة ، فأسلموا فأمنوا على أنفسهم وأهلهم وأموالهم [1] .

فهذه الأخبار وأمثالها تثبت أن اليهود كانوا يعلمون أن محمداً ﷺ رسول من عند الله تعالى وأنهم مأمورون بالإيمان به واتباعه ، ولكنهم اتبعوا أهواءهم المنحرفة حسداً للعرب أن كان منهم .

* * *

(١) مغازي الواقدي ٢/٥٠٣ .

٢ – مثل من الاعتراف بالذنب والتوبة النصوح

(أبو لبابة وإفشاء السر الحربي)

قال ابن إسحاق : ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ : أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر ، أخا بني عمرو بن عوف ، وكانوا حُلفاء الأوس لنَسْتشيره في أمرنا ، فأرسله رسول الله ﷺ إليهم ، فلما رأوه قام إليه الرجال، وجَهَشَ إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه ، فرقّ لهم ، وقالوا يا أبا لبابة ! أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ قال نعم ، وأشار بيده إلى حلقه ، إنه الذبح قال أبو لبابة : فو الله مازالت قدماي من مكانهما حتى عرفتُ أني قد خُنْتُ الله ورسوله ﷺ ، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عُمُده ، وقال : لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله علي ممّا صنعت ، وعاهد الله : أن لا أطأ بني قريظة أبدًا ، ولا أُرى في بلد خُنْت الله ورسوله فيه أبدًا .

قال ابن هشام : وأنزل الله تعالى في أبي لبابة – فيما قال سُفيان بن عُيينة ، عن لفظ إسماعيل بن أبي خالد عن عبد الله بن أبي قتادة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [**الأنفال** : ٢٧] .

قال ابن إسحاق : فلما بلغ رسولَ الله ﷺ خبرُهُ ، وكان قد استبطأه، قال : أما إنه لو كان جاءني لأستغفرت له ، فأما إذ قد فعل مافعل فما أنا بالذي مطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه .

قال ابن إسحاق : فحدثني يزيد بن عبد الله بن قُسَيط أن توبة أبي

لُبابة نزلت على رسول الله ﷺ من السحر وهو في بيت أمّ سلمة . فقالت أم سلمة : فسمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك . قالت فقلت : ممَّ تضحك يارسول الله أضحك الله سنَّك ، قال : تيْبَ على أبي لُبابة ، قالت : قلت : أفلا أبَشِّره يارسول الله ؟ قال : بلى ، إن شئت . قال : فقامت على باب حُجْرتها ، وذلك قبل أن يُضرب عليهنَّ الحجاب فقالت : يا أبا لبابة ، أبشر فقد تاب الله عليك قالت : فثار الناس إليه ليطلقوه فقال : لا والله حتى يكون رسولُ الله ﷺ هو الذي يُطلقني بيده ، فلما مرّ عليه رسولُ الله ﷺ خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه .

قال ابن هشام : أقام أبو لُبابة مرتبطا بالْجذع ستَّ ليال ، تأتيه امرأته في كلّ وقت صلاة ، فتحله للصلاة ، ثم يعود فيرْتبط بالجذع ، فيما حدثني بعض أهل العلم ، والآية التي نزلت في توبته قولُ الله عز وجل : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٠٢] (١) .

قال الواقدي : وحدثني مَعْمر ، عن الزُّهريّ ، عن ابن كعب بن مالك ، قال : جاء أبو لُبابة إلى رسول الله ﷺ فقال : أنا أهجرُ دار قومي التي أصبتُ فيها هذا الذنب ، وأخْرُج من مالي صدقةً إلى الله ورسوله . فقال النبي ﷺ : يجزئ عنك الثُّلُث . فأخرج الثُّلُث ، وهجر أبو لُبابة دار قومه . ثم تاب الله عليه ، فلم يَبِنْ في الإسلام منه إلا خيرٌ حتى فارق الدنيا (٢) .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٨٧ - ٢٨٩ .

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٥٠٩ .

في هذا الخبر موقف جليل لأبي لبابة بن عبد المنذر رضي الله عنه وذلك في الاعتراف بالذنب والتوبة النصوح ، وإن موطن العبرة في هذا الموقف يكمن في تصرف أبي لبابة بعدما وقعت منه هذه الزلة التي أفشى بها سرا حربيا خطيرا ، فأبو لبابة لم يحاول التكتم على ما بدر منه والظهور أمام رسول الله ﷺ والمسلمين بمظهر الرجل الذي أدى مهمته بنجاح وأنه لم يحصل منه شيء من المخالفات ، وكان بإمكانه أن يخفي هذا الأمر حيث لم يطَّلع عليه أحد من المسلمين ، وأن يستكتم اليهود أمره، وسيفعلون ذلك لما بينهم وبينه من صلات سابقة ، ولأنه قدَّم لهم خدمة كبيرة بإفشاء هذا السر ، ومنْ صالحهم أن يكتم هذا الخبر، ولكنه رضي الله عنه تذكَّر حالاً رقابة الله عز وجل عليه وعلمه بما يُسرُّ ويعلن ، وتذكر حق رسول الله ﷺ العظيم عليه وهو الذي ائتمنه على ذلك السر ، ففزع لهذه الزلة فزعا عظيما جعله يحكم على نفسه بخيانة الله تعالى ورسوله ﷺ ، وينطلق إلى مسجد رسول الله ﷺ ليحبس نفسه فيه حتى يتوب الله عليه .

إننا حينما نتصور هذا الخلق الرفيع ونقارنه بما عليه سلوك كثير من أبناء المسلمين اليوم نجد الفرق شاسعا بين مجتمع الصحابة ومجتمع المسلمين في العصر الحاضر ، حيث بلغ الرقي الأخلاقي في العهد النبوي أعلى مستوى يمكن أن يصل إليه البشر .

وكون أبي لبابة زلَّ وأخطأ لايجرح من مكانته العالية ما دام يملك ضميرا يقظا وعقلا حاكما يحكم على تصرفاته فيقوِّمَها نحو الأفضل ، وقد حكم على نفسه بالخيانة وعاقبها بالحبس من غير أن يحكم عليه أحد بذلك ، لأن المطلب الكبير الذي يشغل باله أن تكون صحيفته بيضاء أمام

الله تعالى ، ولن تكون كذلك إلا بالاعتراف بالخطأ والتوبة النصوح .

وهكذا رأينا في هذا الخبر مثلا من الأمثلة العالية التي يتفوق فيها الإيمان الذي يكون من الرسوخ في القلب بحيث يكون حاكما على سلوك الإنسان في هذه الحياة ، ولئن كان هذا الشعور الإيماني المسيطر على السلوك قد تخلله لحظات من الضعف البشري لدى أبي لبابة فلم يُحْكِمْ تصرفاته بسبب دهشته مما رأى فإنه سرعان ما عاد إليه إدراكه وقوي إيمانه بحيث أقدم على الحكم على نفسه بالخيانة وعاقب نفسه بالعقوبة المذكورة .

وإن السعادة الروحية التي ظفر بها حينما تاب الله تعالى عليه لايعادلها أي سعادة دنيوية ، لأنها محت من نفسه آثار الشعور بالذنب ، وكان من نتائج فرحته بهذه التوبة أن استأذن النبي ﷺ في أن يتصدق بما له كله ، فقال له : يجزئ عنك الثلث ، كما أنه هجر ذلك المكان الذي عصى الله تعالى فيه ..

وأخيرا موقف عظيم لرسول الله ﷺ في العفو والرحمة وغضِّ النظر عن زلات الكرام ، فمع هذه الزلة الكبيرة التي وقع فيها أبو لبابة ، والتي من شأنها أن تغيِّر مجرى المعركة ، وأن ترهق الجيش الإسلامي فإن النبي ﷺ لم يأمر بحضوره إلى المحاكمة ، ولم يحكم عليه بشيء لعلمه بسلامة مقصده وحبه لله تعالى ولرسوله ﷺ ، وأن الذي جرى منه إنما كان زلة من لسانه .

* * *

٣ – مثل من الجرأة في قول الحق –
(سعد بن معاذ يحكم في بني قريظة)

قال ابن إسحاق : فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فتواثبت الأوس ، فقالوا : يارسول الله ، إنهم موالينا دون الخزرج ، قد فعلتَ في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت – وقد كان رسول الله ﷺ قبل بني قريظة قد حاصر بني قينقاع ، وكانوا حُلفاء الخزرج ، فنزلوا على حكمه ، فسأله إياهم عبد الله بن أبي ابن سلول ، فوهبهم له – فلما كلَّمَتْه الأوس قال رسول الله ﷺ : ألا ترضون يامعشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى ، قال رسولُ الله ﷺ : فذاك إلى سعد بن معاذ .

وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم ، يقال لها رُفيدة ، في مسجده ، كانت تداوي الجرحى ، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيْعَة من المسلمين ، وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق : اجعلوه في خيمة رُفيدة حتى أعُوده من قريب .

فلما حكَّمه رسول الله ﷺ في بني قُريظة ، أتاه قومُه فحَملوه على حمار قد وطَّئوا له بوسادة من أدَم [١] ، وكان رجلا جسيما جميلا ، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ ، وهم يقولون : يا أبا عمرو ، أحسنْ في مواليك ، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتُحسن فيهم ، فلما أكثروا عليه قال : لقد أنَى [٢] لسعد أن لاتأخذه في الله لومةُ لائم .

(١) يعني من جلد .

(٢) أنَى أي قرب وهي بمعنى آن ، وفي رواية الواقدي « آن » .

فرجع بعضُ من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل ، فنعى لهم رجال بني قُريظة ، قبل أن يصل إليهم سعد ، عن كلمته التي سمع منه .

فلما انتهى سعدٌ إلى رسول الله ﷺ والمسلمين ، قال رسولُ الله ﷺ قوموا إلى سيدكم - فأما المهاجرون من قريش فيقولون : إنما أراد رسولُ الله ﷺ الأنصار ، وأما الأنصار فيقولون : قد عمّ بها رسولُ الله ﷺ - فقاموا إليه ، فقالوا : ياأبا عمرو إن رسول الله ﷺ قد ولّاك أمرَ مواليك لتحكم فيهم ، فقال سعد بن معاذ : عليكم بذلك عهدُ الله وميثاقه ، أنّ الحكم لما حكمتُ ؟ قالوا : نعم ، قال : وعلى مَنْ هاهنا ؟ في الناحية التي فيها رسولُ الله ﷺ ، وهو مُعرض عن رسول الله ﷺ إجلالا له ، فقال رسولُ الله ﷺ : نعم ، قال سعد : فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجالُ ، وتقسم الأموال ، وتُسْبى الذراري والنساء .

قال ابن إسحاق : فحدثني عاصمُ بن عمر بن قتادة ، عن عبد الرحمن بن عمر بن سعد بن معاذ ، عن علقمة بن وقاص الليثي ، قال : قال رسولُ الله ﷺ لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعةأرْقعَة (١)(٢) .

---

(١) أي سبع سماوات .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٩١ - ٢٩٣ .

وأخرجه الإمام أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها ضمن حديث عن غزوة الخندق وبني قريظة - الفتح الرباني ٢١/ ٨١ - ٨٣ - وقد سبق تخريجه في ص ١٣٨ .

وأخرجه الإمام البخاري مختصرا - صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤١٢١ و٤١٢٢(٧/ ٤١١) .

قال ابن إسحاق : ثم استنزلوا ، فحبسهم رسول الله ﷺ بالمدينة في دار بنت الحارث ، امرأة من بني النجار ، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة ، التي هي سوقها اليوم ، فخندق بها خنادق ، ثم بعث إليهم ، فضرب أعناقهم في تلك الخنادق ، يُخرَج بهم إليه أرْسالا [1] ، وفيهم عدوّ الله حُيى بن أخطب ، وكعب بن أسد ، رأس القوم ، وهم ست مئة أو سبع مئة [2] .

في هذا الخبر تصوير لقوة الأحلاف الجاهلية وأثرها على النفوس ، حيث لم يتخلص منها إلا أقوياء الإيمان ، وما جرى في هذا الخبر من قول الأوس « يارسول الله إنهم موالينا دون الخزرج » محمول على أنه صدر من بعضهم إذ أنه يَبْعُد أن يصدر من كبارهم المشهورين بقوة الإيمان .

وكان مما يغذّي وجود هذه العصبية والتمسك بالأحلاف الجاهلية وجود عدد من المنافقين في مجتمع الأنصار ، حيث إن المنافقين هم من الأوس والخزرج .

وكان النبي ﷺ يعاني كثيرا من هذه النظرة المتأصلة لدى بعضهم ، ولكنه كان يداريها بسياسته الحكيمة حتى استطاع أن يتلافى أخطارها المدمرة .

ومن هذا الموقف الحرج استطاع النبي ﷺ أن يخرج من هذا المأزق بتحكيم رجل من الأوس لأنه إذا حكم بما يُرضي الله تعالى ورسوله ﷺ

---

(١) أي متتابعين .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٩١ - ٢٩٣ .

وأخرجه الواقدي وذكر نحوه - مغازي الواقدي ٢/ ٥١٠-٥١٤ - .

لن يستطيع المنافقون أن يُرجفوا ولا أن يحدثوا فتنة في مجتمع الأوس ، بينما موقف النبي ﷺ محرج فيما لو حكم على يهود بني قريظة بالقتل لكونه قبل ذلك قد منَّ على حلفاء الخزرج من يهود بني قينقاع ، فستكون القضية مرتعا خصبا للمنافقين ليقوموا بإرجافهم .

ولقد اختار النبي ﷺ رجلا منهم يعلم أن لديه من قوة الإيمان ورسوخ اليقين ما يكفي لإنقاذ الموقف ، وذلك بتنفيذ ما كان عزم عليه في الحكم بقتل اليهود مع تلافي الحساسية التي لدى بعض الأوس فيما لو حكم فيهم النبي ﷺ .

ولقد واجه سعد بن معاذ رضي الله عنه حرجًا كبيرًا من بعض قومه ، وتعرض لضغوط شديدة من بعضهم حيث أتوا إليه ورافقوه في الطريق من المسجد النبوي إلى بني قريظة وحاولوا إقناعه في تخفيف الحكم لاعفائهم من القتل ، فلما أكثروا عليه قال كلمته العظيمة « لقد آن لسعد أن لاتأخذه في الله لومة لائم » فطبق بذلك المبدأ الإسلامي العالي الذي لاينظر فيه المسلم إلى أي هدف سوى إعلاء كلمة الله تعالى وابتغاء مرضاته .

ولما وصل إلى الميدان وحكّمه الرسول ﷺ في بني قريظة حكم بقتل رجالهم وسبي ذراريهم ونسائهم وتقسيم أموالهم ، فأثنى عليه النبي ﷺ ببيان أن حكمه وافق حكم الله تعالى .

وهكذا كان هذا الموقف العظيم من أبي عمرو سعد بن معاذ رضي الله عنه حيث حكم بالحق وإن كان ذلك يغضب بعض قومه وجميع حلفائه من اليهود ، وهذا دليل على تجرد قلبه لله تعالى ، حيث لم يَتَسَرَّب إليه اعتبار القوى البشرية ، وأصبح المتحكِّم في سلوكه هو اعتبار

رضَى الله عز وجل وحده وإن أغضب حلفاءه والمخالفين له من قومه ، وهذا علامة على كمال التوحيد .

إن كثيرا من المسلمين يستطيعون أن يؤدوا تكاليف الإسلام التي لاتحرجهم مع الناس ولكنهم يخضعون أحيانا لبعض الناس في أمور لايرضاها الله عز وجل ، أما المصطَفَوْن الأخيار فإنهم لايفرقون بين تكاليف الدين ، ولايُلقون بالاً لمواجهة المخالفين والتعرض لسخطهم ماداموا قد استقاموا على الطريق الموصل إلى رضوان الله تعالى والجنة ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ [الفتح : ٢٩] .

ومن أجل هذا الموقف العظيم وأمثاله لسعد بن معاذ أثنى النبي ﷺ على هذا العبد الصالح بعد موته كثيرا أمام الصحابة ليتعرف الناس على أعماله الصالحة فيتأسوا به ، فمن ذلك ما أخرجه الإمام مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «اهتزَّ عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ» (١) .

وجاء في رواية ابن إسحاق « أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ حين قُبض سعد بن معاذ من جوف الليل معتجراً بعمامة من استبرق فقال : يامحمد من هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش؟ قال : فقام رسول الله ﷺ سريعا يجر ثوبه إلى سعد فوجده قد مات » (٢) .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام مسلم من حديث البراء بن عازب رضي

---

(١) صحيح مسلم ، فضائل الصحابة رقم ٢٤٦٦ (ص ١٩١٥) .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٣١٠ .

الله عنه قال : « أهديَتْ لرسول الله ﷺ حلة حرير فجعل أصحابه يلمسونها ويعجبون من لينها ، فقال : أتعجبون من لين هذه ؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها وألين» [١] .

وقد كان هذا بعد موت سعد بأربع سنوات كما جاء في رواية ابن إسحاق أن هذا كان في غزوة تبوك التي كانت في العام التاسع [٢] .

وهكذا كانت نهاية غدر اليهود بالمسلمين أن لقوا نفس المصير الذي كانوا يريدونه لرسول الله ﷺ والمؤمنين ، فقد تحالفوا مع الأحزاب وكان من تخطيطهم أن يهجموا على المسلمين من خلفهم من الداخل وأن يهجم الأحزاب على المسلمين من أمامهم ، ولو فعلوا ذلك لشغلوا المسلمين عن حراسة الخندق ولربما استطاع فرسان الأحزاب أن يقتحموا الخندق ولكن الله تعالى ملأ قلوب اليهود رعبا وفزعا فلم يستطيعوا أن يجاوزوا حصونهم حتى هزم الله تعالى الأحزاب فعادت الدائرة على اليهود الخائنين .

ولقد وفى من يهود بني قريظة عمرو بن سُعْدَى الذي أبى أن يدخل معهم في نقض العهد وذكَّرهم بما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من حلف ثم نجَّاه الله بصدقه ووفائه ، وفي خبره يقول الواقدي : فحدثني الضحاك بن عثمان ، عن محمد بن يحيى بن حيّان ، قال عمرو بن سُعْدَى ، وهو رجلٌ منهم : يامعشر اليهود ، إنكم قد حالفتم محمّداً على ما حالفتموه عليه ، ألاّ تنصروا عليه أحداً من عدوّه ، وأن تنصروه ممّن دهمه ، فنقضتم ذلك العهد الذي كان بينكم وبينه ، فلم أدخل فيه

---

(١) صحيح مسلم فضائل الصحابة ، رقم ٢٤٦٨ (ص ١٩١٦) .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٢١٦ .

ولم أشركْكم في غدركم ، فإن أبيتم أن تدخلوا معه فاثبتوا على اليهودية وأعطوا الجزية ، فو الله ما أدري يقبلها أم لا ؟ قالوا : نحن لا نُقرّ للعرب بخَرْج في رقابنا يأخذوننا به ، القتلُ خير من ذلك ! قال : فإني بريءٌ منكم .

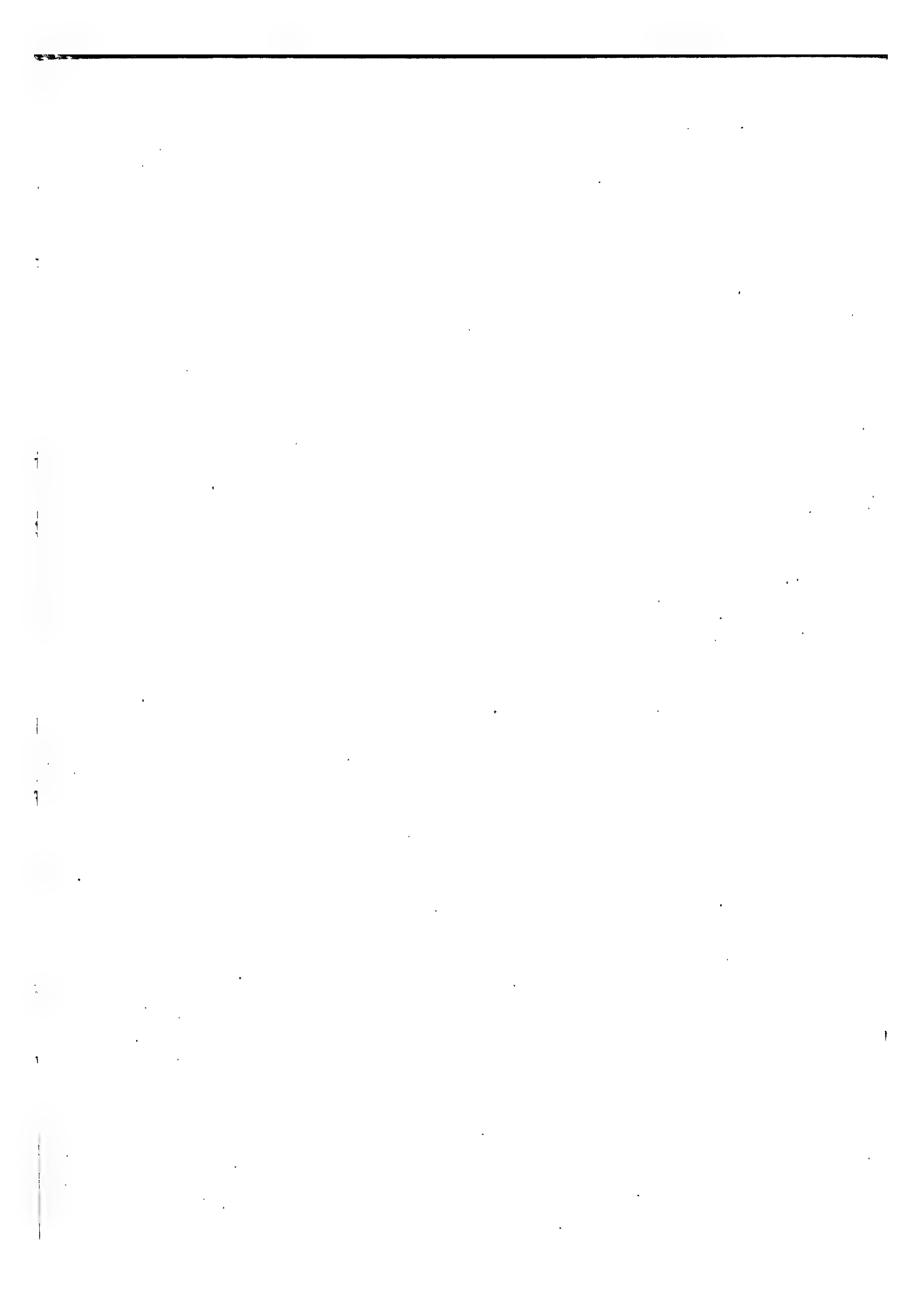
وخرج في تلك الليلة مع بني سَعْيَة فمرَّ بحرس النبي ﷺ وعليهم محمد بن مَسْلَمة ، فقال محمدّ بن مَسْلَمة : من هذا ؟ فقال : عمرو بن سُعْدى . فقال محمد : مُرّ ! اللهم ، لا تحرمني إقالة عَثَرات الكرام . فخلّى سبيلَه وخرج حتى أتى مسجد رسول الله ﷺ فبات به حتى أصبح . فلمّا أصبح غدا فلم يُدْرَ أين هو حتى الساعة ، فسُئل رسول الله ﷺ عنه فقال : ذلك رجلٌ نجّاه اللهُ بوفائه (١) .

هذا الخبر يثبت العهد الذي قطعه اليهود على أنفسهم من وجوب نصرة المسلمين إذا دهمهم عدو من خارج المدينة ، و أن لا يناصروا أعداء المسلمين ، وتأتي قيمة هذا الخبر من كون هذا الاعتراف صادراً من أحد اليهود وإقرار اليهود لذلك ، وإلا فإن هذا العهد قد ثبت في نصوص أخرى كما تقدم لنا في خبر المعاهدة التي تمت بين رسول الله ﷺ ويهود المدينة .

* * *

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٥٠٣ .

وأخرجه ابن إسحاق وذكره نحوه ٣/ ٢٩٠ .



مواقف وعبر
ما بين بنى قريظة
إلى نهاية الحديبية



١- مغامرة فدائية -

(قتل ابن أبي الحُقَيق اليهودي)

قدَّم الإمام ابن إسحاق لهذا الخبر بمقدمة تشتمل على الثناء على الأنصار رضي الله عنهم فقد روى بإسناده عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال : وكان مما صنع الله تعالى به لرسوله ﷺ أن هذين الحيين من الأنصار، الأوس والخزرج كانا يتصاولان مع رسول الله ﷺ تصاول الفحلين - يعني يتسابقان في خدمته - لايصنع الأوس شيئا فيه عن رسول الله ﷺ غناء إلا قالت الخزرج : والله لاتذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ﷺ وفي الإسلام ، قال : فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها ، وإذا فعلت الخزرج شيئًا قالت الأوس مثل ذلك .

ولما أصابت الأوس كعب بن الأشرف في عداوته لرسول الله ﷺ قالت الخزرج : والله لاتذهبون بها فضلا علينا أبدا .

قال : فتذاكروا مَنْ رجل لرسول الله ﷺ في العداوة كابن الأشرف؟ فذكروا ابن أبي الحقيق وهو بخيبر ، فاستأذنوا رسول الله ﷺ في قتله فأذن لهم (١) .

ومن هذا النص ندرك نموذجا من الأهداف السامية والمقاصد العالية التي كانت تحكم حياة الصحابة رضي الله عنهم وتوجِّه سلوكهم ، فهم لايتنافسون على اغتنام مظاهر الحياة الدنيا من المال والمناصب ، وإنما يتسابقون إلى الفوز بمرضاة النبي ﷺ التي مآلها رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٤٨

وإنما اختاروا ابن أبي الحقيق لأنه كان يؤذي رسول الله ﷺ ويعين على المسلمين كما جاء في رواية للإمام البخاري من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ﷺ ويعين عليه » (١) .

وقال الحافظ ابن حجر : ذكر ابن عائذ من طريق أبي الأسود عن عروة أنه كان ممن أعان غطفان وغيرهم من مشركي العرب بالمال الكثير على رسول الله ﷺ (٢) .

وفي بيان أحداث هذه السرية أخرج الإمام البخاري في صحيحه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال : بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع عبد الله بن عتيك وعبد الله بن عتبة في ناس معهم ، فانطلقوا حتى دنوا من الحصن ، فقال لهم عبد الله بن عتيك : امكثوا أنتم حتى انطلق أنا فأنظر ، قال : فتلطفت أن أدخل الحصن ، ففقدوا حمارا لهم ، قال : فخرجوا بقَبس يطلبونه ، قال : فخشيت أن أُعرف ، قال : فغطيت رأسي كأني أقضي حاجة .

ثم نادى صاحب الباب : من أراد أن يدخل فليدخل قبل أن أغلقه ، فدخلت ثم اختبأت في مربط حمار عند باب الحصن ، فتعشّوا عند أبي رافع وتحدثوا حتى ذهبت ساعة من الليل ، ثم رجعوا إلى بيوتهم ، فلما هدأت الأصوات ولا أسمع حركة خرجت ، قال : ورأيت صاحب الباب حيث وضع مفتاح الحصن في كُوَّة ، فأخذته ففتحت به باب الحصن ، قال قلت : إن نَذر بي القوم انطلقت على مهل .

---

(١) صحيح البخاري، المغازي رقم ٤٠٣٩ (٧/ ٣٤٠)

(٢) فتح الباري ٧/ ٣٤٣

ثم عمدت إلى أبواب بيوتهم فغلقتها عليهم من ظاهر ، ثم صعدت إلى أبي رافع في سُلَّم ، فإذا البيت مظلم قد طفئ سراجه فلم أدْر أين الرجل، فقلت : يا أبا رافع ، قال : من هذا ؟ قال : فقصدت نحو الصوت فأضربه وصاح فلم تغن شيئًا . قال : ثم جئت كأني أغيثه فقلت مالك يا أبا رافع ؟ وغيَّرت صوتي ، فقال : ألا أعجَبَك لأمك الويل! دخل عليَّ رجل فضربني بالسيف قال : فعمَدْت له أيضا فأضربه أخرى فلم تغن شيئا ، فصاح وقام أهله قال : ثم جئت وغيرت صوتي كهيئة المغيث ، فإذا هو مستلق على ظهره فأضع السيف في بطنه ثم أنكفئ حتى سمعت صوت العظم .

ثم خرجت دهشا حتى أتيت السلَّم أريد أن أنزل فأسقُط منه ، فانخلعت رجلي فعصبتها ، ثم أتيت أصحابي أحجُل ، فقلت : انطلقوا فبشروا رسول الله ﷺ ، فإني لا أبرح حتى أسمع الناعية ، فلما كان في وجه الصبح صعد الناعية ، فقال : أنعي أبا رافع ، فقمت أمشي ما بي قَلَبة - أي علة أنقلب بها - فأدركت أصحابي قبل أن يأتوا النبي ﷺ فبشرته [1] .

وهكذا رأينا هذا الفاتك البطل عبد الله بن عتيك رضي الله عنه قام بهذه المهمة الشاقة وحده ، وتعرض لمخاطر كثيرة استطاع أن يجتازها حتى بعد أن أصيب في ساقه .

ولقد كان بارعا في استخفائه ، دقيقا في تنكره حتى خفي أمره على البواب المسئول عن حماية الحصن ودخل كأي واحد من المقيمين داخله .

---

(١) صحيح البخاري، المغازي رقم ٤٠٤٠(٧/٣٤١)

كما كان بارعا في تخطيطه للهجوم حيث أقفل الأبواب من ظاهرها ليتمكن من أداء مهمته قبل أن يصلوا إليه ، وأحسن التصرف حينما خفي عليه شخص من يريد الإيقاع به لشدة الظلام فناداه ليعرف مكانه من صوته ، ثم أحسن التصرف مرة أخرى حينما لم يستطع الإجهاز عليه في الضربة الأولى حيث غير صوته وناداه على هيئة من يريد إغاثته حتى تمكن منه .

كما كان بارعا في تخطيطه للفرار فيما إذا علم به عدوه حيث فتح باب الحصن ليسهل عليه التخلص منهم .

فأي قلب يحمله هذا الرجل الشجاع ؟ وما أبلغ حذره وتدبيره للأمور وهو مُقْدم على أداء مهمته ! .

ثم بعد أن أنهى هذه المهمة لم يرض بما وصل إليه حتى يتأكد من نجاحها ، وذلك بسماع نعي الرجل من قومه حسب المعتاد في حياتهم ، وهذا منتهى الإخلاص والطاعة .

وبعد : فمن هو عبد الله بن عتيك ؟ إنه فرد واحد من أفراد الجماعة التي رباها رسول الله ﷺ على مكارم الأخلاق فأحسن تربيتها ، فانطلق أفرادها يبذلون كل طاقتهم في الإصلاح في الأرض وتطهيرها من المفسدين .

وفي هذه القصة نلاحظ عناية الله جل وعلا بأوليائه المؤمنين ، فهذا الصحابي الجليل استمر بعون من الله تعالى يمشي ويبذل طاقته حتى بعد أن أصيبت رجله ، وكأنه لايشكو من علة حتى إذا انتهت مهمته تماما وأصبح غير محتاج لبذل الجهد عاد إليه الألم ، وحمله أصحابه كما جاء

في رواية ابن إسحاق . فلما حدَّث النبي ﷺ خبره قال له كما جاء في إحدى روايات الإمام البخاري : « ابسط رجلك ، قال فبسطت رجلي فمسحها فكأنها لم اشتكها قط »[1] .

ويحسن بنا أن نختم الكلام على هذا الخبر ببيان الفوائد التي استخرجها الحافظ ابن حجر من هذا الحديث حيث يقول : وفي هذا الحديث من الفوائد جواز اغتيال المشرك الذي بلغته الدعوة وأصر ، وقتلُ من أعان على رسول الله ﷺ بيده أو ماله أو لسانه ، وجواز التجسس على أهل الحرب وتطلُّب غرَّتهم ، والأخذ بالشدة في محاربة المشركين ، وجواز إبهام القول للمصلحة ، وتعرض القليل من المسلمين للكثير من المشركين ، والحكم بالدليل والعلامة لاستدلال ابن عتيك على أبي رافع بصوته واعتماده على صوت الناعي بموته والله أعلم[2] .

* * *

(١) صحيح البخاري، المغازي رقم ٤٠٣٩(٧/ ٣٤٠) .

(٢) فتح الباري ٧/ ٣٤٥ .

٢ - مواقف في سرية دومة الجندل -

قال الواقدي : حدثني سعيد بن مسلم بن قَمّادين ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عمر ، قال : دعا رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عَوف فقال : تجهّزْ فإني باعثك في سرية من يومك هذا ، أو من غد إن شاء الله . قال ابن عمر : فسمعتُ ذلك فقلت : لأدخلنّ فلأُصلِّين مع النبي الغداة ، فلأَسمعنَّ وصيته لعبد الرحمن بن عوف .

قال : فغدوتُ فصلّيت فإذا أبو بكر وعمر ، وناس من المهاجرين ، فيهم عبد الرحمن بن عوف ، وإذا رسول الله ﷺ قد كان أمره أن يسير من الليل إلى دُومة الجَنْدل فيدعوهم إلى الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ لعبد الرحمن : ماخلّفك عن أصحابك ؟ قال ابن عمر : وقد مضى أصحابُه في السحَر ، فهم مُعسكرون بالجُرْف وكانوا سبعمائة رجل ، فقال : أحببتُ يارسول الله أن يكون آخر عهدي بك ، وعلي ثيابُ سفري .

قال : وعلى عبد الرحمن ابن عَوف عمامةٌ قد لفّها على رأسه . قال ابن عمر : فدعاه النبي ﷺ فأقعده بين يديه فنقض عمامته بيده ، ثم عممه بعمامة سوداءَ ، فأرخى بين كتفيْه منها ، ثم قال : هكذا فاعتمّ ياابن عوف ! قال : وعلى ابن عوف السيف مُتوشّحه . ثم قال رسول الله ﷺ : أغزُ باسم الله وفي سبيل الله فقاتلْ مَن كفر بالله ، لاتَغُلَّ ولاتغدر ولاتقتل وليداً . قال ابن عمر : ثم بسط يده ، فقال : ياأيها الناس ، اتقوا خمسًا قبل أن يُحلّ بكم : ما نُقص مكيال قوم إلا أخذهم الله بالسِّنين ونَقْص من الثَّمَرات لعلّهم يرجعون ، وما نكث قومٌ عهدهم

إلا سلَّط الله عليهم عدوَّهم ، وما منع قومٌ الزَّكاة إلا أمسك الله عليهم قطرَ السماء ، ولولا البهائمُ لم يُسقوا ، وما ظهرت الفاحشة في قوم إلا سلَّط الله عليهم الطاعون ، وما حكم قومٌ بغير آي القرآن إلا ألبسهم الله شيَعًا ، وأذاق بعضهم بأس بعض [(١)] .

قال : فخرج عبد الرحمن حتى لحق أصحابه فسار حتى قدم دُومة الجندَل ، فلما حلّ بها دعاهم إلى الإسلام ، فمكث بها ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام ، وقد كانوا أبوا أول ما قدم يُعطونه إلا السيف ، فلما كان اليوم الثالث أسلم الأصْبَغ بن عمرو الكَلبي ، وكان نصرانيًا وكان رأسهم . فكتب عبد الرحمن إلى النبي ﷺ يُخبره بذلك ، وبعث رجلاً من جُهَينة يقال له رافع بن مَكيث ، وكتب يُخبر النبي ﷺ أنه قد أراد أن يتزوَّج فيهم ، فكتب إليه النبي ﷺ أن يتزوّج بنت الأصْبَغ تُماضر . فتزوجها عبد الرحمن وبَنى بها ، ثم أقبل بها ، وهي أمّ أبي سَلَمَة بن عبد الرحمن بن عوف .

وذكر الواقدي أن هذه السرية في شعبان سنة ست [(٢)] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : تواضع النبي ﷺ لأصحابه وشفقته عليهم ، حيث ألبس

---

(١) هذا الجزء من الحديث أخرجه ابن ماجه في سننه ، كتاب الفتن رقم ٤٠١٩ (٢/ ١٣٣٢) من طريق عطاء بن رباح عن ابن عمر رضي الله عنهما وذكر نحوه .

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٥٦٠ - ٥٦١

وأخرجه ابن إسحاق من طريق عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر رضي الله عنهما وذكر نحوه - سيرة ابن هشام ٤/ ٤٠٢ -

عبد الرحمن بن عوف عمامته بيده ، وهذا التواضع منه ﷺ يرفع من معنوية الصحابة رضي الله عنهم ، ويدفعهم إلى بذل المزيد من الطاقة في سبيل خدمة هذا الدين ، لأن التلاحم والمودة بين القائد وجنوده من أهم عوامل نجاح العمل وتحقيق الأهداف .

ثانيًا : في وصية رسول الله ﷺ لعبد الرحمن بن عوف بيان لبعض مقاصد الجهاد وأحكامه ، فالجهاد يكون باسم الله تعالى لا بأسماء رموز الجاهلية ، ويكون في سبيل الله جل وعلا إعلاء لدينه ، لا في سبيل القوم والوطن والمصالح الدنيوية .

فأهل الجاهلية كانوا يقاتلون باسم أصنامهم وفي سبيل إعلاء شأن قبائلهم وأوطانهم ، فلما جاء الإسلام رفع من مستوى المسلمين الفكري فهجروا رموز الجاهلية ونطقوا باسم الله تعالى وحده ، وأصبح القوم الذين يعتزّون بهم وينتصرون لهم هم المسلمين في كل مكان .

ثم نهى رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف عن الغلول وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها ، ونهاه عن الغدر في العهود وعن قتل الولدان ، وتلك نماذج من الأدب الإسلامي في الجهاد ، فالقتال نوع من العنف والقسوة ، ولكنه بالنسبة للمسلمين الذين طهر الله تعالى قلوبهم من الغلّ والحسد أمر عارض لإحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وحماية المحقين من المبطلين ، وليس متأصِّلاً في نفوسهم ، ولذلك كان محفوفا بالآداب السامية التي تجعل الإنسان الواحد جامعا بين منتهى القوة والبطش ومنتهى الرحمة والعطف .

ثم وجّه النبي ﷺ الكلام لعموم الحاضرين عنده وحذرهم من الفتن

الكبيرة التي تترتب على المعاصي الظاهرة ، فبيَّن لهم أن التطفيف في المكاييل والموازين يؤدي إلى القحط والجدب ونقص الثمرات ، وأن نقض العهود وعدم الوفاء بها يؤدي إلى تسلط الأعداء على المسلمين ، وأن منع الزكاة يؤدي إلى حبس المطر ، وأن ظهور الفاحشة يؤدي إلى انتشار الأمراض المهلكة كالطاعون ، وأن الحكم بغير ما أنزل الله تعالى يؤدي إلى تفرق الأمة وظهور العداء والقتال بين فئاتها .

ثالثًا : كان عبد الرحمن بن عوف مطبقا للسنة في دعوة الكفار إلى الإسلام فلم يتعجل بقتالهم وكان من نتائج ذلك أن دخل في الإسلام سيدهم الأصبغ بن عمرو الكلبي ، ودخول الزعماء في الإسلام يعني انتشار الإسلام في أقوامهم .

لقد كانت هذه السرية دليلا على أن المسلمين في العهد النبوي لم يكونوا يتعطشون لسفك الدماء ولم تكن تُغْريهم قوتهم وعددهم - كما في هذه السرية - إلى الطمع في أموال الأعداء ، بل كان المطلب الأول الذي استمروا يلحُّون عليه في كل مواجهة بينهم وبين أعدائهم أن يقوموا بدعوة الأعداء إلى الإسلام فإذا أسلموا عصموا دماءهم وأموالهم وأصبحوا في الحقوق كأفراد المسلمين .

وجاء في آخر هذا الخبر أن عبد الرحمن بن عوف كتب لرسول الله ﷺ يستأذنه في الزواج من إحدى نساء بني كلب وأن رسول الله ﷺ وجهه إلى أن يتزوج بنت سيدهم ، وجاء في رواية أخرى ذكرها الواقدي أن رسول الله ﷺ وجه عبد الرحمن بن عوف إلى الزواج ببنت سيد

الأعداء إذا استجابوا لدعوته ، وهذا هو الظاهر الذي اعتمده بعض المحققين كالإمام الذهبي .

وقد كان النبي ﷺ يحرص على أن يتزوج هو وقادته ببنات سادة القبائل لأن في ذلك كسبا كبيراً لدعوة الإسلام ، حيث تكون المصاهرة سببا في القرب وامتصاص أسباب العداء ثم الدخول في الإسلام .

* * *

٣ – سرية بني سعد بفَدَك [١]

ذكر الواقدي أنها كانت في شعبان سنة ست وقال : حدثني عبد الله بن جعفر ، عن يعقوب عن عُتبة ، قال : بعث رسول الله ﷺ عليًا عليه السلام في مائة رجل إلى حَيّ سعد بفَدك ، وبلغ رسول الله ﷺ أنَّ لهم جمعًا يُريدون أن يُمدّوا يهودَ خَيْبَر ، فسار الليلَ وكمن النهارَ حتى انتهى إلى الهَمَج[٢] ، فأصاب عينًا فقال : ما أنت ؟ هل لك علم بما وراءك من جمع بني سعد ؟ قال : لاعلم لي به . فشدّوا عليه فأقر أنه عينٌ لهم بعثوه إلى خَيْبَر ، يعرض على يهود خَيْبَر نصرهم على أن يجعلوا لهم من تمرهم كما جعلوا لغيرهم ويَقْدَمون عليهم ، فقالوا له : فأين القوم ؟ قال : تركتُهم وقد تجمّع منهم مائتا رجل ، ورأسهم وبَر بن عُلَيم . قالوا : فسرْ بنا حتى تدلَّنا . قال : على أن تُؤمِّنوني ! قالوا : إن دللتَنا عليهم و على سَرْحهم أمَّنَّاك ، وإلا فلا أمان لك . قال: فذاك ! فخرج بهم دليلاً لهم حتى ساء ظنُّهم به ، وأوفى بهم على فَدافد وآكام ، ثم أفضى بهم إلى سهولة فإذا نَعَمٌ كثيرٌ وشاءٌ ، فقال : هذا نَعَمهم وشاءُهم . فأغاروا عليه فضمّوا النَّعَمَ والشاءَ . قال : أرسلوني ! قالوا : لا حتى نأمن الطلب ! ونذر بهم الراعي رعاءَ الغنم والشاء ، فهربوا إلى جمعهم فحذَّروهم ، فتفرقوا وهربوا ، فقال الدليل : عَلامَ تحبسني ؟ قد تفرقت الأعراب وأنذرهم الرعاء . قال عليٌّ عليه السلام : لم نبلغ معسكرهم ، فانتهى بهم إليه فلم يَر أحدًا ، فأرسلوه وساقوا النَّعَم والشاء ، النَّعم خمسمائة بعير ، وألفا شاة .

(١) فدك : قرية قريبة من خيبر بينها وبين المدينة ست ليال . (وفاء الوفا ، ج ٢ ، ص ٢٥٥)

(٢) الهمج : ماء بين خيبر وفدك . (طبقات ابن سعد ، ج ٢ ، ص ٦٥) .

ثم قال الواقدي : حدثني أُبَير بن العَلاء ، عن عيسى بن عَليلة ، عن أبيه ، عن جده ، قال : إني لَبوادي الهَمَج إلى بَديع [(١)]، ما شعرتُ إلا ببني سعد يحملون الظُّعُن وهم هاربون ، فقلت : ما دَهاهم اليوم؟ فدنوت إليهم فلقيت رأسهم وَبر بن عُلَيم ، فقلت : ما هذا المسير ؟ قال : الشرّ ، سارت إلينا جموع محمد وما لا طاقة لنا به ، قبل أن نأخذ للحرب أُهْبَتَها ، وقد أخذوا رسولاً لنا بعثناه إلى خَيْبر ، فأخبرهم خبرنا وهو صنع بنا ما صنع . قلت : ومَن هو ؟ قال : ابن أخي ، وما كنا نعدّ في العرب فتىً واحدًا أجمع قلب منه . فقلت : إني أرى أمرَ محمّد أمرًا قد أمن وغلظ ، أوقع بقُرَيش فصنع بهم ما صنع ، ثم أوقع بأهل الحصون بيَثْرب ، قَيْنُقاع وبني النضير وقُرَيْظة ، وهو سائر إلى هؤلاء بَخْيبر . فقال لي وَبر : لاتخش ذلك ! إن بها رجالاً ، وحصونا منيعة ، وماءً واتنًا[(٢)]، لادنا منهم محمد أبدًا ، وما أحراهم أن يغزوه في عُقر داره . فقلت : وترى ذلك ؟ قال : هو الرأي لهم . فمكث علي عليه السلام ثلاثًا ثم قسم الغنائم وعزل الخُمُس وصفىَّ النبي ﷺ لَقوحًا تُدْعى الحَفدَة قدم بها[(٣)] .

وأشار ابن إسحاق إلى هذه الغزوة وذكر قائدها [(٤)] .

في هذا الخبر مثلٌ من خبرة النبي ﷺ الحربية ودقة رصده لأعدائه ،

(١) بديع : أرض من فدك، وهي مال للمغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن المغيرة المخزومي. (معجم ما استعجم، ص ١٤٤).

(٢) وتن الماء، أي دام ولم ينقطع. (الصحاح، ص ٢٢١٢).

(٣) مغازي الواقدي ٢/٥٦٢ والتعليقات من هامش المغازي.

(٤) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٧١

فقد علم عن تحركات بني سعد بفدك التي أرادو بها إمداد يهود خيبر الذين قد عزموا على غزو المدينة ، فأرسل هذه السرية بقيادة علي بن أبي طالب رضي الله عنه لتفريق جمعهم والقضاء على قوتهم قبل أن ينالوا مقصدهم .

وقد نجح علي ومن معه رضي الله عنهم في تفريق جمعهم وإرهابهم وشلِّ قوتهم بما غنموه من أموالهم التي يستعينون بها في الحرب .

وهكذا يكون التخطيط الحربي السليم ، وذلك بقطع الطريق على تجمع الأعداء الكبير حتى لايتقوى بالإمدادات الحربية الصغيرة .

* * *

٤ - مواقف في سرية بني فزارة -

أخرج الإمام مسلم من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : غزونا فزارة وعلينا أبو بكر . أمَّرهُ رسولُ الله ﷺ علينا . فلما كان بيننا وبين الماء ساعة ، أمرنا أبو بكر فَعَرَّسْنا [١] . ثم شنَّ الغَارة . فوردَ الماء . فقتل من قتل عليه ، وسبى .

وأنظرُ إلى عُنُق من الناس [٢] . فيهم الذراري . فخشيتُ أن يسبقوني إلى الجبل . فرميتُ بسهم بينهم وبين الجبل . فلما رأوا السهم وقفوا . فجئتُ بهم أسُوقهم . وفيهم امرأةٌ من بني فزارة . عليها قَشعٌ من أدَم [٣] . (قال : القَشعُ النِّطعُ) معها ابنةٌ لها من أحسن العرب . فسُقْتهم حتى أتيتُ بهم أبا بكر . فنفلني أبو بكر ابنتها .

فقدمنا المدينة وما كشفت لها ثوبا . فلقيني رسول الله ﷺ في السوق . فقال : « ياسلمةُ ! هَبْ لي المرأةَ » فقُلتُ : يارسول الله ! والله ! لقد أعجبتني . وما كشفتُ لها ثوبا . ثم لقيني رسولُ الله ﷺ من الغد في السوق . فقال لي : « ياسلمة ! هب لي المرأةَ . للَّه أبُوك [٤] ! » فقلتُ : هي لك . يارسول الله ! فو الله ! ما كشفت لها ثوبا . فبعث بها رسولُ الله ﷺ إلى أهل مكة ففدى بها ناسًا من المسلمين ، كانوا أسرُوا بمكة [٥] .

---

(١) أي نزلنا آخر الليل .

(٢) يعني جماعة .

(٣) أي جلد .

(٤) كلمة مدح مثل لله درك .

(٥) صحيح مسلم ، الجهاد ، رقم ١٧٥٥ (٣/ ١٣٧٥)

وأخرج خبر هذه السرية الإمام أحمد من حديث سلمة رضي الله عنه وذكر مثل رواية مسلم [1] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : اهتمام النبي ﷺ بأسرى المسلمين وسعيه في فكاكهم ، فقد طلب من سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن يهب له تلك المرأة التي وقعت في نصيبه وألحَّ عليه في ذلك ليفدي به ناسا من المسلمين أُسروا بمكة .

وهذا مثل من أمثلة كثيرة تقدم بعضها تدل على عظمة اهتمام النبي ﷺ بأمور المسلمين وأنه كان يعيش قضاياهم بأحاسيسه وينتظر الفرص المناسبة لإنقاذهم وحل قضاياهم .

ثانيًا : بطولة سلمة بن الأكوع وجهوده الكبيرة في احتواء المعركة ، من سرعة الحركة ، والمغامرة بالنفس ، واقتناص الفرص المناسبة للسيطرة على الموقف ، فلقد كان لمجهوده الحربي الكبير أثر واضح في كسب تلك المعركة لصالح المسلمين .

ثالثًا : موقف لأبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي كان أميرا على تلك السرية في تقدير أهل الفضل ، حيث منح سلمة بن الأكوع تلك الفتاة الجميلة التي كانت في السبى مكافأة له على ما بذل من جهد مشكور في النكاية بالأعداء وإنزال الهزيمة بهم .

* * *

---

(١) الفتح الرباني ١٢٨/٢١

٥ – مواقف في الصبر والسخاء وكرامة من الله تعالى لأوليائه –

(سرية العنبر)

أخرج الإمامان البخاري ومسلم – واللفظ له – من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما . قال : بعثنا رسولُ الله ﷺ وأمَّر علينا أبا عُبيدة . نتلقَّى عيراً [١] لقُريش . وزوَّدنا جراباً [٢] من تمر لم يجدْ لنا غيرهُ. فكان أبُو عبيدة يُعطينا تمرة تمرةً . قال فقلت : كيف كُنتم تصنعون بها ؟ قال : نمصُّها كما يَمصُّ الصَّبيُّ . ثُمَّ نشربُ عليها من الماء . فتكفينا يومنا إلى الليل . وكُنا نضربُ بعصينا الخَبَطَ [٣] . ثم نبُلُّهُ بالماء فنأكله .

قال وانطلقنا على ساحل البحر . فَرُفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب [٤] الضخم . فأتيناهُ فإذا هي دابةٌ تُدعَى العنْبر . قال : قال أبُو عبيدة : ميتةٌ . ثم قال : لا . بل نحنُ رُسُلُ رسول الله ﷺ . وفي سبيل الله . وقد اضطررتم فكلوا . قال : فأقمنا عليه شهراً . ونحن ثلاث مائة حتى سَمنَّا . قال : ولقد رأيتُنا نغترف من وقب[٥] عينه بالقلال[٦] الدهن ونقتطع منه الفدَر [٧] كَقَدْر الثور ، فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً . فأقعدهم في وقب عينه . وأخذ ضلعًا من أضلاعه . فأقامها .

(١) عيرا : العير هي الإبل التي تحمل الطعام وغيره .

(٢) جرابا : بكسر الجيم وهو وعاء من جلد .

(٣) الخَبَط : ورق السَّلَم .

(٤) الكثيب : هو الرمل المستطيل المحدودب .

(٥) وقب : هو داخل عينه ونقرتها .

(٦) بالقلال : جمع قُلَّة . وهي الجرة الكبيرة التي يقلها الرجل بين يديه ، أي يحملها .

(٧) الفدر : هي القِطع .

ثـم رَحَـل [1] أعظم بعـير مـعنا . فـمـر من تحتـهـا . وتزودنا من لحـمـه وشائق[2] .

فلما قـدمنا المدينة أتينا رسولَ الله ﷺ فذكـرنا ذلك له . فقـال « هو رزق أخرجهُ الله لكم . فهل معكم من لحمه شيءٌ فتطعمُونا ؟» قال : فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منهُ فأكلهُ[3] .

وجاء في رواية الإمام البخاري « قال جابر : وكان رجل من القوم نحر ثلاث جزائر ، ثم نحر ثلاث جزائر ثم نحر ثلاث جزائر ، ثم إن أبا عبيدة نهاه » .

قال البخاري : وكان عمرو [4] يقول « أخبرنا أبو صالح [5] أن قيس ابن سعد قال لأبيه : كنت في الجيش فجاعوا ، قال : انحر ، قال : نحرت قال : ثم جاعـوا ، قـال : انحـر ، قـال : نحـرت ، قـال : ثم جاعـوا، قـال : انحر ، قـال : نحرت ثم جاعـوا ، قـال : انحـر ، قال نُهيت» .

وفي رواية أخرى للبخاري « فخرجنا وكنا ببعض الطريق فني الزاد ، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش فجُمع ، فكان مزودَيْ تمر ، فكان يقوتنا كل

---

(١) أي جعل عليه رحلا .

(٢)هو اللحم الذي يطبخ قليلا ويجفف ويحمل في الأسفار .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الصيد ، حديث رقم ١٩٣٥ (ص ١٥٣٥)

صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٣٦١ (٨/ ٧٧) والتعليقات من هامش صحيح مسلم .

(٤) يعني ابن دينار .

(٥) هو ذكوان السمان ، كما ذكر الحافظ ابن حجر (الفتح ٨/ ٨١)

يوم قليلا قليلا حتى فني ، فلم يكن يصيبنا إلا تمرة ، فقلت[1] ، ماتغني عنكم تمرة ؟ فقال : لقد وجدنا فقدها حين فَنِيَتْ » [2] .

في هذا الخبر مواقف وعبر فمنها :

أولاً : صبر الصحابة رضي الله عنهم البليغ على الجوع حيث بلغ بهم الجوع إلى حد الاكتفاء بتمرة واحدة في اليوم ، ثم فقدوا الأكل كله فصاروا يعيشون على أوراق الشجر ، وكان الشجر الموجود من النوع الخشن وهو الخَبَط حتى قرح أفواههم ، ولغرابة ذلك وكون الإنسان من النادر جدًا أن يأكل من ذلك الشجر سميت هذه السرية سرية الخبط .

إن أولئك الصحب الكرام مع ما تعرضوا له من هذا البلاء الشديد لم يكن لهم أي تفكير في العودة إلى المدينة قبل أداء مهمتهم ، كما أنه لم يُذكر عنهم أيُّ تضجُّر أو تسخُّط على قائدهم ، وهذا دليل على عظمتهم وأنهم رجال تمَّ إعدادهم إعدادا تربويًا عاليا لتحمُّل جميع الشدائد التي يمكن أن يطيقها البشر ولو بمشقة كبيرة .

ثانيًا : موقف جليل لأمير السرية أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه ، فحينما كان يسير مع جيشه فني زادهم فأمر بجمع الطعام الذي مع أفراد الجيش ، فكان يعطيهم منه قليلا قليلا بقدر القوت الضروري حتى وصل به الحال إلى إعطاء كل واحد منهم تمرة في اليوم ، وهذا دليل على حزمه وحسن إدارته وسياسته ، إذ أنه لو تركهم وشأنهم لانتهى زادهم في وقت قليل وأصبحوا معرَّضين لخطر الهلاك .

---

(١) القائل هو وهب بن كيسان الراوي عن جابر رضي الله عنه .

(٢) صحيح البخاري، المغازي، رقم ٤٣٦٠(٨/ ٧٧)

ثالثًا : موقف في السخاء والشهامة يقدِّمه الكريم بن الكريم قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما ، فحينما فني زاد القوم وصاروا يأكلون ورق الشجر أبت شهامة قيس وأَرْيَحيَّته أن يترك إخوانه في تلك الحال من المسغبة وهو قادر على إنقاذ الموقف فصار يبحث عن رجل من العرب يبيعه إبلا بثمنها تمرا في المدينة ، وعثر على رجل من جهينة يعرف أباه[1] فباعه تسع إبل بتمر يتقاضاه الجهني في المدينة ، وقد نحر قيس كل يوم ثلاثا من الإبل ، وأراد أن يستمر في الشراء والنحر فأبى عليه أبو عبيدة ، وقد استسلم لأمر الأمير مع رغبته الشديدة في الاستمرار في نحر الإبل لأنه سليل الكرام ونشأ في بيت كرم فهو لايهدأ ولا يستريح حتى يُسعد الناس بما له .

وفي المحاورة التي جرت بن قيس وأبيه سعد يتبين كرم سعد الفياض .

وجاء في رواية للواقدي عن عمر بن عثمان بن شجاع قال : لما قدم الأعرابي على سعد بن عبادة قال : يا أبا ثابت ! والله ، ما مثل ابنك صنعت ولاتركت بغير مال ، فابنك سيد من سادة قومه ، نهاني الأمير أن أن أبيعه . قلت : لمَ ؟ قال : لا مال له ! فلما انتسب إليك عرفته فتقدّمت لما عرفتُ أنك تسمو على معالي الأخلاق وجسيمها ، وأنك غير مُذمّ بمن لا معرفة له لديك . قال : فأعطى ابنه يومئذ أموالاً عظامًا [2] .

رابعًا : في هذا الخبر مثل من نزاهة الصحابة وعفتهم عن الحرام ،

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٥٧٥

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٧٧٧

فقد كان بإمكانهم أن يأخذوا الإبل من ذلك الراعي أو من غيره بالقوة ، ولكنهم يعلمون أن ذلك لايحل لهم ، وهم إنما أسلموا وخرجوا للجهاد طاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ ، ولهذا كان الناس الذين لم يدخلوا معهم في الحرب في غاية الأمن والسلام معهم ، وهذا من الفروق الواضحة بين المجاهدين من المسلمين والمحاربين من غيرهم .

خامسًا : في هذا الخبر عبرة عظيمة وذلك فيما أجراه الله تعالى من كرامة لأوليائه حيث أخرج لهم من البحر ذلك الحوت العظيم الذي يشبه الكثيب من الرمل ، وقد جاء في هذا الخبر من تعظيم خلقته ما يدل على أن خروج مثل ذلك الحوت العظيم غير مألوف عند العرب ، وقد أنقذ الله جل وعلا به تلك الفئة المؤمنة من مجاعة مهلكة ، والكرامات يجريها الله تعالى لأوليائه لعدة مقاصد ، منها إنقاذهم من مشقة وقعوا فيها .

* * *

٦ – مواقف وعبر في صلح الحديبية –

أخرج الإمام أبو عبد الله البخاري من حديث عُروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان – يُصَدِّقُ كلٌّ واحد منهما حديث صاحبه – قالا « خرج رسولُ الله ﷺ زمن الحديبية حتى إذا كان ببعض الطريق قال النبي ﷺ : إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة ، فُخذوا ذات اليمين . فو الله ما شَعرَ بهم خالدٌ حتى إذا هم بقترة الجيش ، فانطلق يركُضُ نذيرًا لقُريش .

وسار النبي ﷺ ، حتى إذا كان بالثنية التي يُهبط عليهم منها بركت به راحلتُه ، فقال الناس : حَل حَل . فألحَّتْ . فقالوا خَلأت القَصواء[1] . فقال النبي ﷺ : ما خَلأت القَصواء وماذاك لها بخُلُق ، ولكن حبسها حابسُ الفيل . ثم قال : والذي نفسي بيده ، لا يسألونني خُطة يعظمون فيها حرمات الله [2] إلا أعطيتهم إياها . ثم زجرها فوثبت .

قال فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد[3] قليل الماء يتبرضهُ الناس تبرُّضًا[4] ، فلم يُلبِّثه الناسُ حتى نزحوهُ ، وشُكيَ إلى رسول الله ﷺ العطشُ ، فانتزعَ سَهمًا من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوهُ فيه ، فو الله ما زال يَجيشُ لهم بالرِّيِّ حتى صَدروا عنه .

فبينما هم كذلك ، إذ جاءَ بُدَيلُ بن ورقاء الخزاعيُّ في نفر من قومه

---

(١) خلأت أي حرنت وأبت أن تسير ، والقصواء اسم ناقة النبي ﷺ .

(٢) يعني ترك القتال في الحرم .

(٣) الثمد هو نبع الماء من أثر المطر .

(٤) أي يأخذونه قليلا قليلا لقلته .

من خزاعة – وكانوا عَيْبَةَ نُصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة[1]– فقال : إني تركتُ كعب بن لُؤي وعامر بن لؤي[2] نزلوا أعداد مياه الحديبية ، ومعهم العُوذ المطافيلُ[3] وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت . فقال رسولُ الله ﷺ : إنَّا لم نجئ لقتال أحد ، ولكنا جئنا مُعتمرين ، وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب وأضرَّتْ بهم ، فإن شاءوا مادَدْتُهم مدةً ويخلُّوا بيني وبين الناس ، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناسُ فعلوا ، وإلا فقد جَمُّوا . وإن هم أبوا فو الذي نفسي بيده لأقاتلنهم علىٰ أمري هذا حتى تنفرد سالفتي[4] ، ولينُفذنَّ اللهُ أمره . فقال بُدَيلٌ : سأبلغهم ما تقولُ .

قال فانطلق حتى أتى قريشًا قال : إنا جئناكم من هذا الرجل ، وسمعناهُ يقول قولا ، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا . فقال سُفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تخبرونا عنه بشيء . وقال ذوو الرأي منهم : هات ما سمعتهُ يقول . قال سمعته يقول كذا وكذا . فحدثهم بما قال النبي ﷺ . فقام عُروة بن مسعود فقال : أي قوم ، ألستم بالوالد؟ قالوا : بلى . قال : أولستُ بالوَلد ؟ قالوا : بلى . قال : فهل تتهموني ؟ قالوا : لا . قال ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ ، فلما بلَّحوا عليَّ[5] جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني ؟ قالوا : بلى . قال : فإن هذا قد

---

(١) أي موضع نصحه ، والعيبة ماتوضع فيها الثياب لحفظها .

(٢)هم قريش الذين في مكة .

(٣) يعني النوق التي معها أطفالها ، أي أنهم سيتزودون بالحليب ولن يعودوا إلى مكة .

(٤) السالفة هي صفحة العنق والمراد القتل .

(٥) أي امتنعوا .

عرض عليكم خُطة رُشد اقبلوها ودعوني آته . قالوا ائْته .

فأتاهُ ، فجعل يُكلمُ النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل . فقال عروة عند ذلك : أي محمد ، أرأيت إن استأصلت أمرَ قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهلهُ قبلك ؟ وإن تكن الاخرى ، فإني والله لا أرى وُجوهًا ، وإني لأرى أشوابًا[1] من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك .

فقال له أبو بكر : امصص بَظْرَ اللات [2] ، أنحنُ نفرُّ عنه وندعُهُ؟ فقال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر . قال : أما والذي نفسي بيده ، لولا يدٌ كانت لك عندي لم أجْزك بها لأجبتك . قال وجعل يُكلم النبي ﷺ فكلما تكلم كلمة أخذ بلحيته ، والمغيرةُ بن شُعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر ، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف [3] وقال له : أخِّرْ يدك عن لحية رسول الله ﷺ . فرفع عروة رأسه فقال : من هذا ؟ قال : المغيرة بن شعبة ، . فقال : أي غُدَر ، ألستُ أسعى في غدرتك ؟ وكان المغيرة صحب قوما في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم . فقال النبي ﷺ : أما الإسلام فأقبلُ وأما المال فلست منه في شيء .

ثم إن عُروة جعل يرمقُ أصحاب النبي ﷺ بعينيه . قال : فو الله

---

(١) أي أخلاطا من أجناس شتى .

(٢) كلمة سب عند العرب وكانوا ينسبون ذلك إلى الأم لكن أبا بكر نسب ذلك إلى اللات صنم ثقيف التي يعظمونها إمعانا منه في تحقيره والسخرية منه ، وفي هذا دلالة على جواز الإقذاع مع الكفار في الكلام إذا كان منهم تطاول لأن النبي ﷺ لم ينكر على أبي بكر ذلك .

(٣) هو ما يكون أسفل قراب السيف من فضة وغيرها .

ماتنخَّم رسولُ الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادُوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحدُّون إليه النظر تعظيما له .

فرجع عُروة إلى أصحابه فقال : أي قوم ، والله لقد وفدتُ على الملوك ، ووفدتُ على قيصر وكسرى والنجاشي ، والله إن رأيتُ مَليكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحابُ محمد ﷺ محمداً ، والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، ومايُحدُّون إليه النظر تعظيمًا له . وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها . فقال رجل من بني كنانة[1] : دعوني آته ، فقالوا : ائته . فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال رسولُ الله ﷺ : هذا فلانٌ ، وهو من قوم يعظمون البُدْن ، فابعثوها له فبُعثَتْ له ، واستقبله الناس يُلبُّون ، فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ، ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت . فلما رجع إلى أصحابه قال : رأيت البُدن قد قُلِّدتْ وأُشْعِرَتْ ، فما أرى أن يُصدُّوا عن البيت .

فقام رجلٌ منهم يقالُ له مكْرَزُ بنُ حفص فقال : دعوني آته . فقالوا : ائْته . فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ : هذا مكرزٌ ، وهو رجل فاجر . فجعل يكلم النبي ﷺ . فبينما هو يكلمهُ إذ جاء سُهيلُ بن عمرو .

---

(١) جاء في رواية الإمام أحمد أن اسمه الحُلَيس بن علقمة الكناني وهو يومئذ سيد الأحابيش -مسند أحمد ٤/ ٣٣٤-

قال معمرٌ : فأخبرني أيوبُ عن عكرمة أنه لما جاء سُهيل بن عمرو قال النبي ﷺ : قد سهل لكم من أمركم .

قال معمرٌ قال الزهري في حديثه : فجاء سهيل بن عمرو فقال : هات اكتب بيننا وبينكم كتابًا . فدَعا النبي ﷺ الكاتب[1] ، فقال النبي ﷺ « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيلٌ : أما « الرحمنُ » فو الله ما أدري ماهي ، ولكن أكتب « باسمك اللهم » كما كنت تكتب ، فقال المسلمون : والله لانكتبها إلا « بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقال النبي ﷺ : اكتب « باسمك اللهم » . ثم قال « هذا ما قاضى عليه محمدٌ رسول الله » فقال سهيلٌ : والله لو كنا نعلم أنك رسولُ الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب « محمد بن عبد الله » ، فقال النبي ﷺ : والله إني لرسولُ الله وإن كذبتموني ، اكتب « محمد بن عبد الله»[2] قال الزهري : وذلك لقوله « لايسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها » فقال له النبي ﷺ : على أن تُخَلُّوا بيننا وبين البيت فنطوف به . فقال سهيل : والله لاتتحدث العربُ أنا أخذْنا ضغطة ، ولكن ذلك من العام المقبل ، فكتب ، فقال سهيلٌ : وعلى أنه لايأتيك منا رجلٌ - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا . قال المسلمون : سبحان الله ، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلمًا ؟ [3] فبينما هم

(١) هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما جاء في رواية ابن إسحاق .

(٢) جاء في رواية للإمام مسلم من حديث البراء رضي الله عنه « فأمر عليا أن يمحاها فقال علي : لا والله لا أمحاها ، فقال رسول الله ﷺ : أرني مكانها ، فأراه مكانها فمحاها وكتب : ابن عبد الله » - صحيح مسلم ، الجهاد ، رقم ١٧٨٣ (ص ١٤١٠) -

(٣) جاء في رواية للإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه « فاشترطوا على =

كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسُفُ في قيوده ، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فقال سهيل : هذا يامحمد أولُ من أقاضيك عليه أن تردَّهُ إلي . فقال النبي ﷺ : إنا لم نقض الكتاب بعدُ . قال : فو الله إذًا لم أصالحك على شيء أبدًا . قال النبي ﷺ : فأجزه لي ، قال : ما أنا بمجيزه لك ، قال : بلى فافعل ، قال : ما أنا بفاعل . قال مكرزٌ : بل قد أجزناه لك . قال أبو جندل : أي معشر المسلمين ، أردُّ إلى المشركين وقد جئت مسلمًا ؟ ألا ترون ما قد لقيت ؟ وكان قد عُذِّبَ عذابًا شديدًا في الله .

قال فقال عمر بن الخطاب : فأتيتُ نبي الله ﷺ فقلت : ألستَ نبي الله حقًا ؟ قال : بلى . قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال : بلى . قلت : فلمَ نعطي الدَّنية في ديننا إذًا ؟ قال : إني رسولُ الله ولستُ أعصيه ، وهو ناصري . قلت : أوَليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : بلى فاخبرتك أنا نأتيه العام ؟ قال قلت : لا . قال فإنك آتيه ومُطَوِّفٌ به .

قال : فأتيت أبا بكر فقلتُ : يا أبا بكر ، أليس هذا نبي الله حقًا؟ قال : بلى . قلتُ : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى . قلتُ : فلمَ نعطي الدنية في ديننا إذًا ؟ قال : أيها الرجل ، إنه لرسول الله ﷺ ، وليس يعصي ربه ، وهو ناصره فاستمسك بغرزه فو الله إنه

= النبي صلى الله عليه وسلم أنَّ من جاء منكم لم نردَّه عليكم ومن جاءكم منا رددتموه إلينا فقالوا : يارسول الله أنكتب هذا ؟ قال : نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ومن جاء منهم إلينا فسيجعل الله له فرجا ومخرجا » . صحيح مسلم / الجهاد والسير ، رقم ١٧٨٤ (ص ١٤١١) .

على الحق . قلت : أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ، أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قلت : لا . قال : فإنك آتيه ومطوِّف به . قال الزهري قال عمر : فعملتُ لذلك أعمالاً[1] .

قال : فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسولُ الله ﷺ لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا . قال فو الله ما قام منهم رجلٌ ، حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحدٌ دخل علي أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت أم سلمة : يانبي الله أتحبُّ ذلك ؟ اخرج ، ثم لاتكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بُدْنك ، وتدعو حالقك فيحلقك . فخرج فلم يُكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك : نحرَ بُدْنهُ ، ودعا حالقه فحلقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضًا ، حتى كاد بعضهم يقتلُ بعضا غمًّا [2] [3] .

(١) أي عمل لذلك أعمالاً صالحة لتكفِّر ما رآه ذنبا من مراجعته رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاء في رواية ابن إسحاق : أن عمر رضي الله عنه قال : مازلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق ، من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به حين رجوت أن يكون خيرا .

(٢) قال الحافظ ابن حجر : ويحتمل أنها فهمت عن الصحابة أنه احتمل عندهم أن يكون النبي ﷺ أمرهم بالتحلل أخذًا بالرخصة في حقهم وأنه هو يستمر على الإحرام أخذًا بالعزيمة في حق نفسه ، فأشارت عليه أن يتحلل لينتفي عنهم هذا الاحتمال ، وعرف النبي صلى الله عليه وسلم صواب ما أشارت به ففعله ، فلما رأى الصحابة ذلك بادروا إلى فعل ما أمرهم به إذ لم يبق بعد ذلك غاية تنتظر - الفتح ٨/ ٣٤٧- .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الشروط ، رقم ٢٧٣١ - ٢٧٣٢ ، (٥/ ٣٢٩ - ٣٣٣) .

وأخرجه الإمام أحمد بهذا الإسناد وذكر نحوه - مسند أحمد -٤/ ٣٢٢ - ٣٢٦ - .

وأخرجه الإمام مسلم في عدة روايات مختصرة - صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير ، حديث رقم ١٧٨٣ - ١٧٨٦ (من ١٤٠٩ - ١٤١٣) .

وأخرجه ابن إسحاق من حديث الزهري وذكر نحوه - سيرة ابن هشام ٣/ ٤١٥ - ٤٢٠ .

في هذا الخبر مواقف وعبر فمن ذلك :

أولاً : في حبس ناقة رسول الله ﷺ عن المسير عبرة عظيمة في تعظيم حرمات الحرم ، فقد شاء الله تعالى أن ينبِّه رسوله ﷺ إلى تفادي القتال في الحرم ولو صُدَّ عن البيت وعاد هو وأصحابه بغير عمرة تعظيمًا للحرم ، ولذلك قال ﷺ « والذي نفسي بيده لايسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها » .

ومن ذلك عفوه ﷺ عن فرقة من المشركين حاولوا الهجوم على المسلمين فأخذوهم أسرى ، وقد أخرج خبر ذلك الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه : أن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين . يريدون غرَّة النبي ﷺ وأصحابه . فأخذهم سَلَما فاستحياهم . فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾ [الفتح : ٢٤] (١) .

ثانيًا : فيه معجزة للنبي ﷺ وذلك في جريان الماء من النبع الذي جف ماؤه حينما أمر ﷺ بوضع سهم من كنانته بذلك النبع فكفى الجيش حتى صدروا عن ذلك المكان وعددهم ألف وخمسمائة تقريبا .

ثالثًا : موقف في الشجاعة والحزم من رسول الله ﷺ وذلك حينما عرض على قريش خطة الصلح ، وجعل البديل منها إن أَبَوْا ذلك الجهاد القوي المتواصل الذي عبر عنه بقوله « وإن هم أبوا فو الذي نفسي بيده لأقاتلنَّهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي وليُنفذن الله أمره » .

---

(١) صحيح مسلم ، الجهاد ، رقم ١٨٠٨ ، (ص ١٤٤٢) .

وهذا الكلام القوي والوعيد الشديد لا شك أنه كان له أثر في قريش حتى قبلوا بالصلح الذي لم يكن من صالحهم كما سيأتي .

رابعًا : في هذا الخبر بيان لشدة حب الصحابة لرسول الله ﷺ واحترامهم له وتأدبهم معه وتبركهم به ، ولقد أذهلت هذه المظاهر عروة بن مسعود الثقفي فعاد يحكيها لقريش مع أن حكايتها مما يغيظهم ولكن قوة التأثر بما شاهد غلبت على مداراتهم فنطق بذلك الكلام الذي يعتبر عاملا من عوامل الانهزام النفسي لدى الكفار ، فإن الزعيم الذي يعامله أصحابه هذه المعاملة لايتوقع منهم أن يفروا ويتركوه ، وإنما المتوقع أن يثبتوا معه وأن يحموه ولو قتلوا بين يديه .

خامسًا : إن من عوامل كسب القضية المتنازع عليها الظهور بالمظهر الذي يجعل الخصم يتعاطف مع خصمه ويتحول إلى مدافع عنه أمام قومه ، وهكذا أمر النبي ﷺ أصحابه أن يستقبلوا الحُلَيس بن علقمة الكناني بالمظهر الذي يفرض عليه اعتقاد كون المسلمين إنما جاؤوا للعمرة حيث أرسلوا أمامه الإبل المعدَّة للهدْي وهو ممن يعظمون مشاعر الحج والعمرة ، وقد أثَّر عليه هذا المنظر فرجع مُنكرًا على قريش وقوفها في وجه المسلمين وصدَّهم عن البيت الذي جاؤوا مُعَظِّمين له .

وقد جاء ذلك واضحا في رواية ابن إسحاق وفيها : فلما رآه رسول الله ﷺ قال : إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدْي في وجهه حتى يراه ، فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ

إعظاما لما رأى ، فقال لهم ذلك ، فقالوا له : اجلس فإنما أنت أعرابي لاعلم لك .

قال ابن إسحاق : فحدثني عبد الله بن أبي بكر : أنَّ الحليس غضب عند ذلك وقال : يامعشر قريش ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم أيُصَدُّ عن بيت الله من جاء معظما له : والذي نفس الحليس بيده لتخلُّنَّ بين محمد وما جاء له أو لأنْفرنَّ بالأحابيش نفرة رجل واحد، قال : فقالوا : مَهْ ، كُفَّ عنا ياحليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به[1] .

وهكذا كان هذا التصرف من رسول الله ﷺ مُقنعا للحليس كي يتحول عن رأيه ويقف في صف المسلمين ويهدد قريشا بأن يواجههم بالحرب إن هم صدوا المسلمين وقد جاؤوا معظمين للبيت .

ولقد تحول رأي زعماء قريش بعد هذا الموقف من الرأي المتصلب نحو صدِّ المسلمين بالقوة إلى نوع من المساومات السياسية كما في هذه الرواية حيث قالوا : كفَّ عنا ياحليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به ، يعني أننا لن نصد المسلمين بالقوة عن الوصول إلى البيت ولكننا نريد أن نغتنم هذه الفرصة لنكسب هذه القضية أمام العرب .

سادسًا : جاء في رواية ابن إسحاق خبر بيعة الرضوان وبيان سببها ، يقول ابن إسحاق : فدعا رسولُ الله ﷺ عثمان بن عفان ، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش ، يُخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء زائرا لهذا البيت ، ومعظما لحرمته .

قال : فخرج عثمانُ إلى مكة ، فلقيه أبانُ بن سعيد بن العاص حين

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٤٠٧ – ٤٠٨ .

دخل مكة ، أو قبل أن يدخلها ، فحمله بين يديه ، ثم أجاره حتى بلَّغ رسالة رسول الله ﷺ ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش ، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به ، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم : إن شئت أن تطُوف بالبيت فطفْ ، فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ ، واحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قُتل .

قال ابن إسحاق : فحدثني عبد الله بن أبي بكر : أن رسول الله ﷺ ، قال حين بلغه أن عثمان قد قُتل : لانبرحُ حتى نُناجز القوم ، فدعا رسولُ الله ﷺ الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فكان الناس يقولون : بايعهم رسولُ الله ﷺ على الموت ، وكان جابر بن عبد الله يقول : إن رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت ، ولكن بايعنا على أن لانفرّ[1] .

وهكذا تمت بيعة الرضوان على مناجزة الكفار وقد اختلفت ألفاظ الصحابة رضي الله عنهم في بيان صيغة البيعة ، فروَى الإمام البخاري عن يزيد بن أبي عُبيد قال قلت لسلمة بن الأكوع : على أي شيء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية ؟ قال : على الموت[2] .

وجاء في رواية لمسلم من حديث معقل بن يسار أنه قال : « لم نبايعه على الموت ولكن بايعناه على أن لانفرّ »[3] وكذلك جاء في رواية ابن إسحاق هذه من حديث جابر بن عبد الله .

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٤١٢ - ٤١٣ .

(٢) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤١٦٩ (٧/ ٤٤٩) .

(٣) صحيح مسلم ، الإمارة ، رقم ١٨٥٨ (٣/ ١٤٨٥) .

والذي يظهر أنه لايترتب على هذا الخلاف تغاير في المدلول لأن الذين عبَّروا بعدم الفرار رووا ما تم من ألفاظ البيعة ، والذين عبرَّوا بالبيعة على الموت قد اهتموا ببيان مضمون البيعة لأن من بايع على عدم الفرار فقد وطَّن نفسه على الموت في سبيل الله تعالى .

وإنه لموقف عظيم لهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم حيث أجمعوا جميعا على هذه البيعة وباعوا أنفسهم رخيصة لله عز وجل ، ولم يتردد منهم أحد غير رجل واحد من المنافقين لم يُرد الله له أن يفوز برضوانه كما جاء في صحيح الإمام مسلم من حديث أبي الزبير أنه سمع جابرا يُسأل : كم كانوا يوم الحديبية ؟ قال : كنا أربع عشرة ومائة فبايعناه ، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة ، وهي سمرة ، فبايعناه غير جَدِّ بن قيس الأنصاري ، اختبأ تحت بطن بعيره [1] .

وقد سجل الله سبحانه وتعالى رضوانه عن هؤلاء المؤمنين الذين أقدموا على هذه البيعة مما يدل على صدقهم وإخلاصهم جميعا وذلك بقوله تعالى : ﴿ **لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾ [الفتح : ٢٧] .

ولعله يندر أن يوجد في التاريخ جيش بأكمله يبايعون على الموت جميعا ما عدا رجل واحد ، مما يشهد شهادة صدق أن الصحابة هم أفضل هذه الأمة وقُدوتُها في الخير والرشاد .

سابعًا : ما جرى في هذا الخبر من استسلام المؤمنين لأمر الله تعالى

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة رقم ١٨٥٦ (٣/ ١٤٨٣) .

ورسوله ﷺ في قضية الصلح الذي هو في الظاهر إجحاف بيِّن بالمسلمين حيث رفض سهيل بن عمرو مندوب قريش أن يُكتب الصلح بسم الله الرحمن الرحيم ، ورفض أن يُكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، كما رفض الموافقة على دخول المسلمين مكة وطوافهم بالبيت في عامهم ذلك ، وكان من البنود الجائرة في هذا الصلح ما جاء في قول سهيل : وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك - إلاَّ رددته إلينا . ولذلك قال المسلمون : سبحان الله كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلما؟ وزاد من حرج رسول الله ﷺ مجيء أبي جندل رضي الله عنه يرسف بقيوده وإصرار أبيه سهيل بن عمرو على ردِّه إلى مكة حيث تم الصلح .

ولهذا وقع المسلمون في حيرة عظيمة وأبت نفوس كثير منهم قبول هذا الصلح واشتاقوا إلى مناجزة أعدائهم والوصول إلى البيت ولو بالقوة ، حتى قال عمر رضي الله عنه في محاورة له مع رسول الله ﷺ : «ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى ، قال عمر : فلمَ نُعْط الدنية في ديننا إذًا ؟ قال : إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري» .

وكان أبو بكر رضي الله عنه في غاية اليقين وقمة الإيمان والاستسلام حيث كان جوابه لعمر رضي الله عنه كجواب رسول الله ﷺ .

وبعدما تبين للصحابة رضي الله عنهم أن هذا هو أمر الله تعالى سلَّموا جميعا واطمأنوا لأمر لم تدرك عقولهم كل تفاصيله والغاية منه ، ولكنه أمر الله تعالى ورسوله ﷺ وهم يؤمنون جميعا بقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ

﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾ [الأحزاب : ٣٦] فسارعوا جميعا إلى تنفيذ أمر رسول الله ﷺ بالإحلال من عمرتهم بعدما أحل من عمرته ، ولم ينازعوا فيما بتَّ به من أمر الصلح مع ما فيه في الظاهر من الإجحاف بالمسلمين .

وقد أثنى الله سبحانه على المؤمنين في هذا الموقف وبيَّن امتنانه عليهم بقوله ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ يعني حينما رفضوا كتابة بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح : ٢٦] يعني شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .

وهكذا امتنَّ الله سبحانه على أوليائه بإنزال السكينة عليهم مرتين : حينما اطمأنت نفوسهم إلى القتال حتى الموت وبايعوا على ذلك لَمَّا كان الأمر يستدعي ذلك وحينما اطمأنت نفوسهم إلى الرضى بالصلح مع ما فيه من شروط جائرة لَمَّا استدعى الأمر ذلك .

ثامنًا : كان صلح الحديبية كسبا عظيما لدعوة الإسلام ، ولقد كان في ظاهره إجحافا بالمسلمين في بعض بنوده ، ولكن نتائجه كانت انتصارا عظيما للإسلام والمسلمين ، وهذا يدل على تفوق النبي ﷺ في التخطيط الإداري والنظر المستقبلي لدولة الإسلام .

وقد سماه الله تعالى فتحا مبينا ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح : ١] مما يدل على أهمية نتائجه لصالح الدعوة الإسلامية ودولة الإسلام .

وقد أخرج البخاري بسنده عن البراء بن عازب رضي الله عنهما

قال : « تَعُدُّون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحا ونحن نعدُّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية » [١] .

ومما يدل على أن المراد بهذا الفتح صلح الحديبية ما أخرجه الشيخان من حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه أنه قال بعدما ذكر شيئا من خبر الحديبية : « فنزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه فقال : يارسول الله أوَ فتح هو ؟ قال : نعم ، فطابت نفسه ورجع » [٢] .

وإنما كان صلح الحديبية فتحا لأن مكة كانت قبله مغلقة أبوابها أمام المؤمنين فلما تم الصلح فُتح باب المعاملة مع المشركين واستطاع المؤمنون أن يدخلوا مكة معتمرين مع رسول الله ﷺ بعد عام من الصلح .

وكانت المدينة مغلقة أمام المشركين من سائر العرب لقلة المؤمنين وكثرة أعدائهم فما كان العرب يُقدمون على الدخول في الإسلام والحالة هذه فلما تم الصلح دخل في الإسلام أضعاف من كانوا دخلوا فيه قبله ، وذلك أن العرب لما تسامعوا بأن محمدا ﷺ قد تصالح مع قريش وَوُضعَت الحرب بينه وبين أكبر اعدائه علموا بذلك عزته وأنهم لاقبَلَ لهم بحربه فأسرعوا إلى الدخول في دينه ، وخصوصا بعدما قضى رسول الله ﷺ على أكبر أعدائه بعد قريش وهم اليهود في خيبر وكان القضاء عليهم من آثار تفرغه ﷺ بعد الصلح ، فلم يبق بعد القضاء عليهم من

(١) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية (فتح الباري ٧/ ٤٤١) . .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد باب رقم ٣٤ (ص ١٤١٢) .

صحيح البخاري ، كتاب الجزية باب رقم ١٨ (فتح الباري ٦/ ٢٨١) .

يحارب الإسلام بقوة وضراوة ، وقد أدرك العرب عزة الإسلام في تلك الفترة فسارعوا إلى الدخول فيه ، وممن أسلم في هذه الفترة رجلان من صناديد قريش هما عمرو بن العاص وخالد بن الوليد رضي الله عنهما[١] ، وقد أصبحا بعد ذلك من أعلام المسلمين وقادتهم .

يقول الزهري : فما فُتحَ في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه إنما كان القتال حيث التقى الناس فلما كانت الهدنة ووَضعَت الحرب وأمنَ الناس بعضهم بعضا والتقوا تفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يُكَلَّم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه ، ولقد دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر [٢] .

قال ابن هشام : والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف واربعمائة في قول جابر بن عبد الله ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف [٣] [٤] .

* * *

تم بحمد الله

هذا الجزء ويليه الجزء السابع وأوله

(مواقف وعبر بين صلح الحديبية وفتح خيبر)

---

(١) السيرة النبوية ٣/ ٣٥٣ .

(٢) السيرة النبوية ٣/ ٤٢٥ .

(٣) المرجع السابق ٣/ ٤٢٦ .

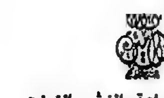
(٤) عن كتاب « المنافقون في القرآن الكريم » للمؤلف ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

الفهرس

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة



دار الأمين للطباعة والنشر والتوزيع

٨ ش أبو المعالي (المجروزة) الجيزة – ت/ فاكس: ٣٤٧٣٦٩١

١ ش سوهاج من ش الزقازيق (خلف قاعة سيد درويش) الهرم – جيزة
تليفون وفاكس ٥٦٣٤٦٩٩

